القتـــل باســـم الـهـويــة

دراسة في الصراعات الدموية



فاميك فولكان



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab



mohamed khatab

القتل باسم الهوية

دراسة في الصراعات الدموية

تأليف

فاميك فولكان

ترجمة

عبد المعين السباعي ميرا جندي حبيب زريق

حازم موسى زينب أحمد رزان حميدة حسام شبلي

مراجعة

أحمد رضا

قائمة المحتويات

تمهيد للنسخة الورقية

لقد أصبح مفهوم الهوية –الهوية الجماعية الكبيرة، تحديدًا– في المشهد الاجتماعي السياسي الراهن أهم مما كان في السنين التي تلت انهيار الاتحاد السوفييتي أو أحداث 11 سبتمبر 2001، عندما كتبت *القتل باسم الهوية*. نشهد في زمننا الحاضر انقسامات اجتماعية سياسية على أساس الهوية في أرجاء الكوكب، حتى في الديمقراطيات التي طال استقرارها وفي الدول المترسخة في المذاهب الليبرالية. تشهد بلدان أوروبا الشرقية والغربية صعودًا حادًّا في دعم الأحزاب اليمينية الوطنية المعادية للاجئين. في تركيا، لم يزل الحزب الحاكم مستمرًّا في جهوده المعلنة لتطهير البلد بجعله أشد تدينًا. في الولايات المتحدة، أظهر صعود ما يدعى باليمين البديل وانتخاب دونالد ترامب رئيسًا للبلاد بروز هوية الجماعة الكبيرة وقوتها. شهدت مدينتي التي اتخذتها موطنًا، تشارلوتسفيل، فرجينيا، حالةً مأساوية من «القتل باسم الهوية» في أغسطس 2017 نُشرت في عناوين الصحف العالمية.

في الوقت نفسه، لم تزل الحروب الأهلية والأزمات السياسية الشديدة تظهر في أرجاء العالم الأخرى، كما في سوريا وجمهورية إفريقيا الوسطى واليمن وميانمار وسريلانكا. قد تختلف السياقات الاجتماعية والثقافية والدينية والتاريخية والاقتصادية والسياسية بين النزاعات عبر الزمان والمكان، لكن الجوهر المخفيّ الذي يشعل كل النزاعات بين الجماعات الكبيرة –محليًّا أو عالميًّا– يبقى واحدًا: الهوية. لكي نفهم جذور الانقسامات المجتمعية والأزمات السياسية لا بد من أن ندرس الهوية دراسة جادة تشمل تكوّنها وآثارها في الجماعات وبين الجماعات.

في كتابي *القتل باسم الهوية*، الذي نُشر أول مرة في 2006، أصف بالتفصيل بحثي في النزاعات بين الجماعات الكبيرة وأقدم دراسات لحالات تظهر مفاهيم أساسية في علم نفس الجماعات الكبيرة. لا يحتوي كتاب *القتل باسم الهوية* إشارة لبعض أعمالي الحديثة، المفصلة في كتابي الآخر *أعداء على الأريكة: رحلة نفسية في الحرب والسلام*، المنشور عام

2013. في ذلك الكتاب، ناقشت عملي في مشروع في تركيا كان يحاول إيجاد حل للمسألة التركية الكردية. كتبت فيه أيضًا عن مبادرة الحوار العالمية، التي لم تزل منذ أكثر من عقد تجمع محللين نفسيين وعلماء سياسيين ودبلوماسيين وخبراء من مجالات أخرى من ثمانية بلدان مختلفة –الولايات المتحدة،و بريطانيا الكبرى، وألمانيا، وروسيا، وتركيا، وإسرائيل، وفلسطين، وإيران– لاستخدام وجهات نظر نفسية علمية لدراسة النزعات المجتمعية الحالية ومحاولة تخفيفها. تدير مبادرة الحوار العالمية أيضًا ورشات تدريب يدرس فيها المشاركون تشابك النزاعات المجتمعية والسياسية والدينية والتنظيمية مع علم النفس الفردي وعلم نفس الجماعات الكبيرة. (للمزيد، انظر https://www.internationaldialogueinitiative.com/.)

في الوقت نفسه، استمرت دراستي لمسائل هوية الجماعات الكبيرة خارج عملي في مبادرة الحوار العالمية. فعلى سبيل المثال، سافرت عام 2015 إلى ماليزيا لأشارك في اجتماع مع الدكتور مهاتير محمد، قبل فترة حكمه الثاني رئيسًا للوزراء، أراد الدكتور محمد التماس أفكار تساعد على منع النزاع بين الجماعات العرقية المتنوعة في بلده، وعلى حماية ماليزيا من الحركات الإسلامية الأصولية المتطرفة. أعجبتني رغبة الدكتور محمد ودائرته السياسية القريبة في فهم وجهة النظر النفسية السياسية والنظر فيها.

زرت كذلك بوغوتا، كولومبيا، مرتين في السنوات الأخيرة–مرة قبيل وصول الحكومة الكولومبية والقوات الثورية الكولومبية المسلحة إلى اتفاق سلام في صيف 2016، ومرة بعيد ذلك. كان هدفي هنالك أن أرى كيف يمكن لمجتمع تطورت فيه هويات جماعية كبيرة مختلفة أن يتعلم التعايش والتعاون عمليًّا ونفسيًّا.

في عملي المستمر في دراسة النزاعات بين الجماعات الكبيرة، أومن أن الملاحظات والمفاهيم والدروس التي شاركتها في هذا الكتاب عام 2006 لم تزل اليوم مهمة كما كانت من قبل– بل ربما هي اليوم أهم، كما تشهد الأحداث الحالية.

مقدمة

في التاسع عشر من نوفمبر 1977، وفي حركة جريئة، سافر رئيس مصر حينئذ أنور السادات ليلقي خطابًا في الكنيست، تكلم فيه عن «حاجز نفسي» بين مصر وإسرائيل. في هذا الخطاب، صرّح السادات أن هذا الحاجز يشكل 70 بالمئة من المشكلة بين البلدين. لم أشعر بالأمر في ذلك الوقت، لكن هذا الخطاب غير حياتي. كنت حينها عضوًا في لجنة الطب النفسي والشؤون الأجنبية التابعة لجمعية الطب النفسي الأمريكية. بعد خطاب السادات، كُلّفت هذه اللجنة بتمويل من الولايات المتحدة بالتحقيق في الحاجز النفسي الذي ذكره السادات وبالنظر في إمكانية خفضه. عملنا مع مؤثرين إسرائيليين ومصريين وفلسطينيين وغيرهم من 1979 إلى 1986، وهكذا أصبحت محتكًّا بالجوانب النفسية السياسية والنفسية الاجتماعية في نزاعات الجماعات الكبيرة. منذ ذلك الوقت قضيت معظم حياتي العملية أنظر إلى كثير من المناطق المضطربة بعدسة نفسية وأنا أعمل في المجال.

في أثناء عملي الذي دام ست سنوات في النزاع العربي الإسرائيلي، التقيت جوزيف مونتفيل، دبلوماسي كان لبعض السنوات رئيس الدبلوماسية الوقائية في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن. لم نزل صديقين منذ ذلك الوقت. في عام 1983، وبفضل جهود مونتفيل، ضمّتني مجموعة من أبرز المحللين النفسيين وعلماء السياسة والأنثروبولوجيين والفلاسفة والدبلوماسيين السابقين لأشارك في نشاط محفز وممتع وغير معتاد. بدأنا، نحن وشركاؤنا نقضي أسبوعًا واحدًا كل عام مع محلل نفسي مسن، هو إريك إريكسون، وزوجته جوان، في معهد إيسالن في بيغ سور، كاليفورنيا. استمر هذا المشروع أربع سنوات، لم تسمح بعدها صحة إريكسون باستمراره. توفي إريكسون في 12 مايو 1994، عن واحد وتسعين عاما.

اشتهر معهد إيسالن بدعمه مشاريع في الستينيات تشجع وجهات نظر جديدة لفهم الطبيعة البشرية. لكن كثيرا من الذين يعرفون المعهد لا يعلمون أنه ابتدأ دبلوماسية مواطنية

مع الاتحاد السوفييتي في الثمانينيات. بيغ سور مكان جميل فيه ينابيع حارة وحدائق تقدم الطعام لزوارها. مُنحنا بيتًا جرت فيه بيننا نقاشات كثيرة غير منظمة مع إريكسون وبين أنفسنا.

أنا محلل نفسي، وقد التقيت إريكسون قبل ذلك في بعض الاجتماعات العملية، لكنني لم أخالطه مخالطة قريبة حتى بدأ مشروع بيغ سور. كان إريكسون طبعًا رجلًا شهيرًا. من إنجازاته أنه استكشف الآثار الاجتماعية والثقافية على تطور الأطفال وقسم نفسية الإنسان إلى ثماني مراحل من الطفولة إلى الشيخوخة. جعل إريكسون كذلك مفهوم «الهوية» –وهو شعور ذاتي مستمر بالتشابه– مجالًا للبحث النفسي التحليلي. أعتقد أن سيغموند فرويد لم يستعمل كلمة «الهوية» إلا خمس مرات في كتاباته. لم يكن المصطلح مصطلحًا تحليليًّا نفسيًّا إلى أن جعله إريكسون كذلك.

في بداية خمسينيات القرن العشرين، عندما أذاع السيناتور جوزف مكارثي وأتباعه جوًّا شكوكيًّا في الولايات المتحدة، كان الأمريكيون مشغولين «بالشيوعيين» وكانوا يخافونهم. عندما طُلب من الأساتذة في بيركلي أن يوقعوا «عهد ولاء»، غادر إريكسون، الذي كان في بيركلي حينئذ، الساحل الغربي وعاد إلى الساحل الشرقي. من مايو 1951 إلى سبتمبر 1960 (بإجازة من أكتوبر 1965 إلى فبراير 1958)، كان إريكسون في مركز أوستن ريغز، وهو مشفى نفسي صغير غير ربحي في ستوكبريدج، ماستشوستس. في البهو الرئيس لمبنى مركز أوستن ريغز اليوم، لوحة رُسم فيها إريك إريكسون، للفنان نورمن روكويل، الذي كان مقيمًا في ستوكبريدج كذلك، إلى جانب لوحات أخرى لأطباء نفسيين بارزين عملوا في المركز من قبل.

في عام 1944 أسس مركز أوستن ريغز معهدًا متعدد المجالات للبحث والتعليم باسم إريك إتش إريكسون. كان من جهود معهد إريك إتش إريكسون التابع لمركز أوستن ريغز نقل تجربة أوستن ريغز –تجربة الأطباء وهم يعملون مع مرضاهم النفسيين في سياق

مجتمع مفتوح– إلى التحديات الأكبر في المجتمع المعاصر. أدرك إريكسون أن الفرد لا يمكن أن يُفهَم بمعزل عن سياقه النفسي الاجتماعي والتاريخي.

في عام 2004، أتاح إدوارد شابيرو، المدير الطبي والتنفيذي لمركز أوستن ريغز، وجيرارد فروم، رئيس معهد إريك إتش إريكسون، منصبًا أكاديميًّا في معهد إريكسون لي. أتاح لي هذا، ولم يزل، أن أقضي عدة شهور كل عام في ستوكبريدج. في آخر عامين، قضيت في ريغز عشرة أشهر وأتاح لي هذا فرصة كتابة هذا الكتاب. هذا الكتاب قائم على مفهوم الهوية الذي، كما ذكرت سابقًا، أدخله إريكسون إلى عالم التحليل النفسي.

إلى جانب تركيزه على الهوية الفردية، أظهر إريكسون اهتمامًا بهوية الجماعة الكبيرة. عرّف إريكسون عملية سماها *الانتواع الزائف*، طورت فيها، في مطلع التاريخ البشري، كل مجموعة بشرية شعورًا خاصًّا بالهوية، فارتدت جلودها وريشها كالدرع، تحتمي بها من المجموعات الأخرى التي ترتدي جلودًا وريشًا مختلفة. افترض إريكسون أن كل مجموعة كانت مقتنعة بأنها الحامل الوحيد للهوية الإنسانية الصحيحة. لذا، أصبحت كل مجموعة نوعًا زائفًا، واتخذت موقفًا فوقيًّا من المجموعات الأخرى. في هذا الكتاب، سأتعامل مع الهويات العرقية والوطنية والدينية وبعض الهويات الأيديولوجية للجماعات الكبيرة، التي تنشأ كلها في الطفولة.

تعرّفت من خلال مشاركتي في سلسلة المفاوضات «غير الرسمية» بين العرب والإسرائيليين، على أهمية مفهوم مجرد، هو مفهوم «هوية الجماعة الكبيرة»، وأهميته في العلاقات الدولية. تدعّمت فكرتي القائلة بوجوب دراسة هوية الجماعة الكبيرة بحذر من أجل فهم الشؤون الدولية من زاوية مختلفة، بملاحظات أخرى لي، جمعتها من حوارات استمرت سنين طويلة بين ممثلين عالي المستوى لجماعات كبيرة متنازعة غير العرب والإسرائيليين، من هذه الجماعات: الروس والإستونيون، الصرب والكروات، الجورجيون والأوسيتيون الجنوبيون. قضيت كذلك وقتًا طويلاً مع قادة سياسيين متنوعين كانوا يحاولون حماية هوياتهم الجماعية الكبيرة وإصلاح الأذى الذي لحق بشعورهم المشترك بالـ«نحنيّة» في

الجماعة التي كانوا ينتمون لها. كذلك زرت مخيمات للاجئين ومجتمعات مصدومة نفسيًّا أصبح فيها مفهوم هوية الجماعة الكبيرة واضحًا.

متابعةً لوصف إريك إريكسون للهوية الفردية، أصف هوية الجماعة الكبيرة بأنها أن يتشارك عشرات آلاف، أو ملايين الناس –من الذين لن يلتقي أحدهم الآخر في حياته– شعورًا دائمًا بالتشابه. في كتابي *ثقة عمياء: الجماعات الكبيرة وقادتها في زمن الأزمة والرعب*، وضعت نظرية لتطور هويات الجماعات الكبيرة (نحن عرب، نحن كاثوليك)، وبيّنت المكونات المختلفة للهوية، ونظرت في قدرة القادة السياسيين على التلاعب بالمشاعر المشتركة لمجتمعاتهم. في هذا الكتاب، سأركز على العلاقة بين هوية الجماعة الكبيرة والصدمات الكبرى التي تأتي من الأعداء، كما جرى في الولايات المتحدة في 11 سبتمبر 2001.

لقد غيرت أحداث 11 سبتمبر 2001 العالم. بعد 11 سبتمبر وابتداء ما يُعرَف بـ«الحرب على الإرهاب»، وبعد التفجيرات اللاحقة في مدريد وكازابلانكا وإسطنبول وممباسا ومنتجع طابا على البحر الأحمر في مصر، ولندن، يمكننا مرة أخرى أن نلاحظ صدًى لنظرية الانتواع الزائف لإريكسون. اليوم، في كثير من أجزاء العالم انقسامات شديدة بين «نحن» و«هم» وأحاديث عن صراع بين الأديان أو الحضارات. نشطت من جديد التمثيلات الذهنية المشتركة الخيالية أو الواقعية للصراعات القديمة، كالصراع بين المسيحيين والمسلمين في الحملات الصليبية، وصار من العادي أن تشعر جماعة بفوقيتها على «الآخرين».

ليس هذا الكتاب عن 11 سبتمبر ولا عن «الحرب على الإرهاب». سأركز على العناصر العامة المشتركة المرتبطة بمشكلات الهوية الجماعية، التي عندما تجتمع، تخلق جوًّا من المأساة الإنسانية. في بعض الظروف، يقتل الإنسان «الآخرين» دون أن ترف له عين. باسم الهوية، يبتدئون إرهابًا مشتركًا وصدمة ضخمة تؤدي إلى عقود أو قرون من العواقب. قد يؤدي إذلال الآخرين أو قتلهم إلى تطور أيديولوجيات سياسية جديدة في المجتمعات المتأثرة، ويغير هوية الجماعة الكبيرة، وباختصار، يؤسس لمآسٍ ضخمةٍ جديدةٍ بعد عقود أو حتى

قرون من الزمان. أرجو أن تمكننا دراستنا لهذه العمليات، والروابط الطويلة الأمد بين الصدمات الضخمة والأيديولوجيات السياسية والمآسي الجديدة، من خلق فرصة للنظر إلى عالم ما بعد 11 سبتمبر من زاوية جديدة، ومن إيجاد استراتيجيات جديدة وحلول سلمية لبعض مشكلاتنا العالمية. آمل أن تنفع بعض المفاهيم المطروحة في هذ الكتاب في محاولات محاربة الجوانب الخبيثة من الانتواع الزائف.

في هذا الكتاب، يتحدث أناس من مختلف بقاع العالم، من جورجيا وأوسيتا الجنوبية وقبرص الشمالية وإسرائيل وألمانيا والكويت وإستونيا والولايات المتحدة، عن تجاربهم ويصفون ما يستطيع الناس فعله باسم هوية الجماعة الكبيرة، ويعرفوننا على الصراع الإنساني للحفاظ على الكرامة في ظروف لا تصدق. هذا الكتاب مقسم إلى ثلاثة أجزاء. يركز أول جزء، «جورجيا في بالي» على قصص مؤثرة لأفراد وأسر مصدومة من القوقاز. سأتيح لهؤلاء الأفراد والأسر، أن يعبروا بكلماتهم عن مفاهيم «الصدمة الضخمة»، و«الحداد»، و«التكيف». عندما تأتي صدمة ضخمة من «الآخرين»، يمكن توقع استجابة المجتمع المتأثر لها، فهي مطابقة لاستجابة الأفراد. يبحث الجزء الثاني في هذه الاستجابات المجتمعية، التي قد يؤدي بعضها، إذا لم يُكبَح إلى نتائج ضارة. بعض الاستجابات الأخرى، بالمقابل، مثل بناء النصب التذكاري لحرب فيتنام في واشنطن، يساعد على شفاء الجروح المجتمعية والفردية كذلك. مرة أخرى، بروايتي لقصص الناس والجماعات الكبيرة التي عملت معها، أبيّن مفهوم «النقل عبر الأجيال» للصدمات النفسية. إن الصورة الذهنية المشتركة لمأساة كبرى عاشتها جماعة كبيرة تؤدي إلى عار وذل وعجز وصعوبة وحزن على الخسائر قد يصبح بعد عقود أو قرون وقودًا لجحيم جديد يشعله بعض الناس عمدًا باسم الهوية.

كان سيغموند فرويد متشائمًا بشأن إسهام التحليل النفسي في فهم نزاعات الجماعات الكبيرة، ناهيك عن حلها. كان وجود العدوان في الطبيعة البشرية أهم أسباب هذا التشاؤم. على مر الأعوام الثلاثين السابقة، انتقلت ببطء من دراسة نزاعات الجماعات الكبيرة بتطبيق ما نعرفه عن العوالم الداخلية للأفراد، إلى دراستها من حيث العمليات في الجماعات

الكبيرة. لأن المجتمعات تتكون من أناس، نستطيع أن نرى مشتقات من علم النفس الفردي في أنشطة الجماعات الكبيرة، لكن هذه الأنشطة، كما تعلّمت، لها أنماطها الخاصة. لقد حاولت أن أفهم طبيعة هوية الجماعة الكبيرة وعلاقتها بالجماعات الأخرى في السلم أو الحرب. لقد أصبحت متشائمًا بشأن إيجاد أو تأسيس عالم مسالم، لأن العدوان موجود في الطبيعة البشرية، ولأن نفسية الجماعات الكبيرة بحد ذاتها توجب البحث عن أعداء وحلفاء، كما بيّنت في أحد كتبي السابقة، *الحاجة إلى الأعداء والحلفاء*. كثيرًا ما ترافق هذه الضرورة تصرفات مدمرة شديدة.

رغم محاولات إحلال الديمقراطية في الأماكن المصدومة صدمة ضخمة كالعراق، فإن وجود دولة ديمقراطية في المجتمعات التي تسمى متخلفة –أو حتى في المجتمعات التي تسمى متقدمة– لا يضمن أن النزاع لن «يُحَلّ» بالحرب أو غيرها من الأساليب العنيفة. أتت وذهبت أنظمة سياسية متنوعة، ولم تزل مشكلات الهوية تعقّد الأمور، خصوصًا عندما تعيش جماعة كبيرة قرب جماعة كبيرة أخرى. أعتقد أن الجماعات الكبيرة ستستمر في إذلال وتشويه وقتل الناس الذين ينتمون إلى هويات جماعية أخرى.

بالمقابل، منذ انخراطي في سلسلة الحوار العربي الإسرائيلي، أصبحت متفائلًا بشأن استعمال وجهات النظر والأساليب النفسية التحليلية العلمية للتعامل مع بعض المشكلات الدولية المحدودة وتعديلها، والتأسيس لتعايش سلمي بين جماعات ذات هويات مختلفة. لكي يحدث هذا، يجب أن يكون المحللون النفسيون مستعدين للعمل على فترات طويلة من الزمن مع مؤرخين وعلماء سياسة ودبلوماسيين، وذوي اختصاصات أخرى في فريق واحد، وأن يعملوا كذلك في شتى المناطق المضطربة من العالم. يصف الجزء الثالث من هذا الكتاب طريقة، سميتها «نموذج الشجرة»، وهي سعي دبلوماسي غير رسمي يدوم أعوامًا من الزمان، ويقوم على التحليل النفسي، قد يكون نموذجًا لخفض الحواجز النفسية التي نراها، كالحاجز الذي تكلم عنه السادات في خطابه في الكنيست.

أود أن أشكر إدوارد شابيرو وجيرارد فروم لما قدماه لي من جو داعم في مركز أوستن ريغز حين كنت أكتب هذا الكتاب. أشكر كلك ريتشل فيغنيرون، أمينة مكتبة ريغز الرائعة، وليز تومسون لمساعدتهما التقنية.

في عام 1987 أسست مركز دراسة العقل والتفاعل الإنساني في كلية الطب في جامعة فرجينيا، وأدرته إلى أن استقلت عام 2002. من سوء الحظ، أغلق المركز بعد ثلاثة أعوام، في سبتمبر 2005. كان المركز مؤلفًا من أطباء نفسيين ودبلوماسيين سابقين ومؤرخين وأصحاب اختصاصات أخرى. في تحضيري لهذا الكتاب اعتمدت اعتمادًا كبيرًا على ملاحظاتي من عملي مؤسسًا ومديرًا لهذا المركز في عدة مناطق حول العالم. أشكر مديرة البرامج السابقة في مركز دراسة العقل والتفاعل الإنساني، جوي بواسيفيان، لمساعدتها القيمة لي في تحضير هذ الملاحظات. لقد ساعدني زملائي في مركز دراسة العقل والتفاعل الإنساني على ملاحظة كثير من الأحداث الموصوفة في هذا الكتاب. ليس لي إلا أن أشكر دعمهم هذا.

لم يكن لي أن أنهي هذا المشروع لولا المساعدة المستمرة والذكية التي قدمتها لي محررتي في السنتين الماضيتين، ديانا داوننغ من مونتيري، ماستشوستس، والمحرر السابق لمجلة مركز دراسة العقل والتفاعل البشري، بروس إدواردز من إل كاخون، كاليفورنيا.

أود أن أعبر عن شكري لكل الناس من مختلف بقاع العالم، ومنها الولايات المتحدة، الذين كانت قصصهم العمود الفقري لفهماتي النظرية في هذا الكتاب. أخيرًا، أشكر زوجتي إليزابيث بالونن فولكان، يتيمة الحرب العالمية الثانية، لسماحها لي أن أروي قصتها في بحثها عن أبيها، الذي قُتل في إيطاليا وهو يحارب القوات النازية عندما كان عمرها شهورًا معدودة، وأن أستعمل قصتها لأظهر دلالة الصروح التذكارية، كصرح الحرب العالمية الثانية في واشنطن، بشأن علم نفس الجماعات الكبيرة.

الجزء الأول

جورجيا في بالي

1 صدمة نفسية كبيرة في جمهورية جورجيا

في نوفمبر 1991، قبل شهر ونصف من انهيار الاتحاد السوفييتي وزوال سلطة ميخائيل غورباتشوف، دُعيت إلى موسكو لأكون ضيفًا في الأكاديمية الدبلوماسية التابعة لوزارة الخارجية في الاتحاد السوفييتي. ركبت أنا وزوجتي طيارة إيروفلوت في مطار دولس في واشنطن، ووصلنا إلى مطار شريميتيفو في موسكو في اليوم التالي. التقينا هنالك يوري أوربانوفيتش، وهو رجل قوي ولكن لطيف، في أوائل أربعينياته، كنت قد التقيته في زيارة سابقة. كان هذا الرجل حينئذ عضوًا في هيئة التدريس في الأكاديمية الدبلوماسية، وكان اختصاصه نظريات التفاوض وأساليبه. عندما ذهبنا إلى صالة كبار الشخصيات، لاحظت أن رجلًا مهذبًا أصغر منه كان يرافقه. عرّف يوري الرجل باسم يالتشن ناصروف، وهو طالب متخرج في الأكاديمية الدبلوماسية. كان يالتشن من الترك الأذريين، وكان قد قيل له من قبل أنني تركي أمريكي من قبرص، لذا حيّاني بالتركية الأذرية، التي كنت أستطيع فهمها جيّدًا تقريبًا. ذهبنا بعد ذلك في سيارة سوداء مسرعة تابعة لوزارة الخارجية إلى شقة في مبنى ضخم تابع للتمثيل الدائم لجمهرية أذربيجان في موسكو.

في السيارة، همس يالتشن في أذني، بالتركية الأذرية، أن شقتنا آمنة وأنها مجاورة لشقة بطل العالم في الشطرنج، غاري كيموفتش كاسباروف. أضاف أن التمثيل الأذربيجاني الدائم في الاتحاد السوفييتي خصص 3 «حرّاس» –هو واثنان من أصدقائه– لي ولزوجتي، ليحمونا إذا خرجنا من الشقة من دون مضيفينا السوفييتيين. لقد زرت هذه المدينة من قبل، لكنني لم ألبث أن أدركت أن موسكو التي كنت أعرفها تغيرت. كان في الجو قلق واضطراب. ذهب شعوري بالأمن الشخصي الذي كنت أشعر به في زياراتي السابقة لموسكو في عهد غورباتشوف.

كان هدف رحلتي إلى موسكو، ان أتحدث –أربعة أيام متتالية في الصالات الكبيرة للأكاديمية الدبلوماسية– عن الإثنية لممثلي الجمهوريات السوفييتية والأقاليم السياسية المستقلة. كانت دعوتي إلى المشاركة والتحدث من السفير أوليغ بيريسبكين، الذي كان حينئذ رئيس الأكاديمية. كان يُعتقَد أن فهمًا أفضل لقوى الإثنية الضمنية، قد يكون ترياقًا للقلق السوفييتي المتزايد. كان كثيرون في الاتحاد السوفييتي يرون أن سلطة غورباتشوف على البلاد تضعف، وكانوا يخشون أن بعض الجماعات سيصبح تركيزها أكثر وأكثر على شعورها الخاص بالإثنية، لا على الوحدة الأكبر.

كيف انتهى بي الأمر في وسط هذه الظروف الغريبة في واحدة من أشد الفترات تقلبًا في التاريخ الحديث؟ بدأ الأمر ببطء وبراءة، وخطوات مترددة شدّت محللًا نفسيًّا فضوليًّا ومدير جامعة إلى كثير من الأماكن البعيدة بل والخطيرة، التي لم يزرها قبله إلا أطباء نفسيون معدودون. بدأ عملي فعليًّا في الاتحاد السوفييتي قبل عامين من رحلتي في نوفمبر 1991 إلى موسكو. عُقد عقد عمل بين مجلس الدوما السوفييتي ومركز جامعة فرجينيا لدراسة العقل والتفاعل الإنساني، وهو مركز متعدد التخصصات كنت قد أسسته عام 1987. كان هدف تعاوننا إنشاء فهم أفضل للعلاقات الأمريكية السوفييتية، وشمل هذا التعاون زيارات من الاتحاد السوفييتي وإليه. في هذه الاجتماعات تعرفت على عدة أعضاء في وزارة الخارجية السوفييتية والمعهد السوفييتي لعلم النفس.

في عام 1990، أُخِذ أربعة أعضاء من فريقي، منهم أنا ومساعد وزير الخارجية السابق هارولد سوندرز، إلى مقر الحزب الشيوعي في موسكو، الذي التقينا فيه بعض مساعدي ميخائيل غورباتشوف. كانوا يريدون أن يعرفوا إذا كنا نستطيع إلقاء بعض الضوء على الأحداث المؤخرة في جمهوريات البلطيق السوفييتية وسألونا كيف يجب أن يردوا على التطورات هناك. (كان واضحًا أن السلطات السوفييتية رغم شكوكها الأولى، لم تعتبرنا عملاء للحكومة الأمريكية ولا جواسيس لوكالة الاستخبارات المركزية.) اعتقد غورباتشوف، في رأيي، أن الانفتاح («غلاسنوت») وإعادة البناء («بيريسترويكا») سيساعدان على جمع

الجماعات المختلفة في الاتحاد السوفييتي. لكن عكس هذا كان يحصل في جمهوريات ليتوانيا ولاتفيا وإستونيا في البلطيق. كان رد هذه الجمهوريات على تأسيس اتجاه جديد من الشيوعية السوفييتية دعوة أعلى وأكبر إلى الاستقلال التام عن الاتحاد السوفييتي. ظهرت في مناطق وجمهوريات أخرى توترات مشابهة. عندما كنت في ذلك المقر الشيوعي، لاحظت أن الذين يعملون تحت أمر غورباتشوف كانوا مصدومين حقًّا بهذه التطورات.

في وقت زيارتي في نوفمبر1991، كان خطر حركات الاستقلال قد انتشر وتصاعد في غير جمهوريات البلطيق كذلك. كانت هذه الحركات الكبيرة في أرجاء الاتحاد السوفييتي تهز أركان وحدة سياسية كانت كبيرة راسخة، وحدة كان رونالد ريغان قد وصفها «بالإمبراطورية الشريرة». كانت الأكاديمية الدبلوماسية تأمل أن تجد إجابات لمسائلها المحيرة بشأن الوطنية الإثنية التي كانت تهدد بالتفكك. ولكن حتى أنا شعرت بأن هذه الآمال خائبة.

كانت أول لمحاتي عن قوة الهوية الجماعية عندما كنت مشاركًا، ثم ميسّرًا، في المناقشات غير الرسمية بين بعض المؤثرين من العرب والإسرائيليين.[1] في هذه الحوارات، التي دارت بين 1979 و1986، فهمت العوامل التاريخية والسياسية والنفسية التي تؤثر في سلوك الجماعات الكبيرة من الناس، التي تعرّف نفسها على أسس إثنية أو دينية أو وطنية أو أيديولوجية. يشمل علم نفس الجماعات الكبيرة هذا –المبني على هويات الجماعات الكبيرة– عشرات آلاف الناس أو ملايين الناس، الذين يتشاركون بعض المشاعر العاطفية والفكرية التي تعرّفهم وتجعلهم مختلفين عن الجماعات الكبيرة الأخرى.[2]

لقد بيّن عملي في الشرق الأوسط تمامًا كيف أن القوى التي تعرّف «نحن» و«هم» إذا وقعت تحت ظروف معينة، تقهقرت نحو إهانة «الآخرين» وقتلهم، وأن الجماعات الكبيرة تستجيب أحيانًا بالعنف لتزيل ما يهدد شعورها «بالنحنيّة»، سواء أكان هذا التهديد حقيقيًّا أم متخيّلًا. أو، قد تصبح الجماعة قاتلة لمجرد الحفاظ على وهم تفوقها على الذين تراهم سرًّا أو علنًا أدنى منها أو أقل من البشر. لقد كان القرن العشرون واحدًا من أكثر القرون دموية

في التاريخ. كان الاضطراب المتزايد في الاتحاد السوفييتي نذيرًا ببداية أشد فظاعة للعقد الأخير في حياة الاتحاد.

ولكن في الوقت نفسه، كان فهمي للعمليات النفسية في الأفراد والجماعات يدفعني إلى الإيمان بأن قوى العدوان الإنسانية، المدمرة والعامة، ليس قدرها دائمًا أن تنحدر في زوبعة تنتهي بالمأساة. هذا التفاؤل المتحفظ، المبني جزئيًّا على نجاحي في معالجة مرضاي وأنا محلل نفسي، قادني في 1987 إلى تأسيس مركز دراسة العقل والتفاعل الإنساني في كلية الطب في جامعة فرجينيا في تشارلوتسفيل. كان هذا المركز الوحيد من نوعه في كليات الطب في العالم. كانت الهيئة التدريسية في المركز مكونة من أطباء (معظمهم أطباء نفسيون) وعلماء نفس، ومن مؤرخين ودبلوماسيين أمريكيين متقاعدين. كانت مهمتنا دراسة العلاقات الدولية وفهمها، خصوصًا من وجهة نظر نفسية تحليلية. كنت أعتقد أن جمع فريق متعدد الاختصاصات وإشراكه في الشرون الدولية، سيوسّع من مفهوم «الطب الوقائي». كنت آمل أن هذا المفهوم سيشمل إيجاد طرق جديدة وفعالة للاستجابة للعدوان الإنساني الكبير وتطوير أساليب جديدة لتخفيف آثاره المدمرة على العمليات الاجتماعية والسياسية.

على رغم بعض التشاؤم بشأن الطبيعة البشرية، لا سيما عندما تتجلى في الجماعات الكبيرة، أعتقد أننا قد ننجح في بعض ساحات النزاع الدولية إذا قضينا فترات مطولة من الزمن –كما يقضي المحلل النفسي سنين وهو يعالج مريضه– ونحن نفتح حوارات بين الأعداء ونقدم أمثلة واقعية عن التعايش على الأرض. كنت أعرف أننا لن نستطيع تغيير الطبيعة الإنسانية بالعموم، ولكن ربما نستطيع أن نهذّب بعض العدوان الهائل في بعض النواحي. كنت أومن أنه على المدى الطويل، سيستطيع علم نفس الجماعات الكبيرة أن يغيّر ويؤثّر في كل جانب من جوانب العلاقات الدولية، من ذلك التعاملات القانونية والاقتصادية والعسكرية. كنت أرى أن مهمة مركز دراسة العقل والتفاعل الإنساني هي تقديم لقاح يقي من التطورات المجتمعية والسياسية الخبيثة.

لم يُنشَأ مركزنا لينافس الدبلوماسية الرسمية، بل أنشئ على أمل تقديم رؤى جديدة قد تستفيد منها الدبلوماسية الرسمية. مع السرعة التي كان يتطور بها العالم، لا سيما في التقانة وقوة وسائل التواصل، كانت الدبلوماسية التقليدية بلا شك في حاجة إلى مدخَلات جديدة. كانت الدبلوماسية التقليدية في ذلك الوقت تتأثر بوسائل الإعلام وعولمة المصالح الاقتصادية، لكنها كانت متأثرة أيضًا بانتشار المنظمات غير الحكومية. في ذلك الوقت كانت بعض المنظمات غير الحكومية قد جمعت بعض الأمريكيين والسوفييتيين معًا لتحسين العلاقات. لم يرد طاقم مركزي إلا أن يضيف أضواء جديدة بشأن الطبيعة البشرية، أضواءً قد تنفع العملية الدبلوماسية، لا سيما بشأن تعامل الناس عندما يتجمّعون تحت مظلة هوية مشتركة.

إذا لم تُستكشَف الأساليب الدبلوماسية الجديدة، سيسهل أن نتخيل أن القوى التي تعمل في الاتحاد السوفييتي ستتصاعد حتى تصبح احتجاجات عنيفة، ومحاولات مميتة لإسكات المعارضة، وحروبًا أهلية في جمهوريات عديدة وبين أعداد من الجماعات الإثنية. لكن زيارتي لموسكو عام 1991 دلت على على الصعوبة التي واجهتها الإدارة السوفييتية في فهم نشأة هذا الأمر أو أسبابه. ففي أيام عز الشيوعية، كان يعتقَد أن الأيديولوجية المشتركة قد جمعت أهل الجماعات الإثنية المختلفة وجعلتهم «إخوة وأخوات». كانت الهويات الإثنية لمواطني الاتحاد السوفييتي مذكورة بوضوح في جوازات سفرهم الداخلية. يمكن أن يكون الفرد أرمينيًّا أو لاتفيًّا أو أوزبكيًّا، وهكذا، لكن هذه الهويات كانت تعتبر ثانوية بالنسبة إلى الهوية الشيوعية الأولية.

لكن، عندما بدأت خيمة الاتحاد السوفييتي تهتز، أصبحت كل جماعة إثنية تحتها مهتمة بخيمتها الأصغر، وأصبحت الهوية الإثنية هي موضع الاهتمام. كان الأمل أن تساعد مؤتمراتي الماراثونية التي امتدت أربعة أيام، عن مفهوم الإثنية وعلم نفس الجماعات الكبيرة، ممثلي الجمهوريات السوفييتي وغيرها من الكيانات السياسية السوفييتية المستقلة، على التفاهم وتقدير الاجتماع واجتناب التحارب فيما بينها.

في اليوم الذي تلا وصولي إلى موسكو، أخذني يوري إلى مبنى الأكاديمية الدبلوماسية، الواقع قرب جسر كريمسكي المعلق فوق نهر موسكو في شارع أوستوزنكا. التقاني هنالك السفير بيريسبكين، والجنرال فلاديمير إلاريونوف، وغيرهما. مشيت المشية الإلزامية على البساط الأحمر الذي غطى الرواق الطويل في الطابق الأول. قبل عامين ملئت جدران جانبي الرواق بصور ترسم تاريخ الاتحاد السوفييتي رسمًا مُشرِقًا. لم تزل معلّقة في وسط أحد الجدران صورة منسوجة للينين، لكن كثيرًا من الصور الشيوعية التقليدية أزيلت. اختيرت الصور الموجودة على الجدران اليوم لتعبر عن التغيرات التي جرت في موسكو، التي ترمز للانفتاح وإعادة البناء ورغبة السوفييت في أن يكونوا ودودين مع «الآخرين»، حتى الأمريكيين. في بعض الصور كانت بعض الشخصيات المرموقة الأمريكية والسوفييتية تتصافح.

تحدثت أربعة أيام كاملة، تخللتها «استراحات كونياك»، وكان يوري يترجم كلماتي إلى الروسية للحضور. كان في الحضور مندوبون روس وليتوانيون وكازاخيون وأذريون وأرمن وداغستانيون، وممثلون من مناطق الاتحاد السوفييتي المختلفة. كان اهتمامهم بما في جعبتي واضحًا. لكن المواضيع التي ناقشتها اشتملت عادة على صراعات لفظية بين ممثلي الجمهوريات المتجاورة التي كان النزاع فيها موشكًا. جرت بين الأرمنيين والأذريين مثلًا، عدة نزاعات محتدمة. في اليوم الرابع رفع مسنّ روسي يده وخاطبني بإنكليزية ممتازة ذات لكنة روسية ثقيلة. قال: «أيها الدكتور، نحن نقدر جهودك. لقد كان حديثك غنيًّا بالمعلومات. لكن، أنت وأنا، والجميع في هذه الغرفة، على ما أعتقد، نعلم أن الكعكة ستتفتت». لم تكن هذه الكعكة إلا الاتحاد السوفييتي. لم أعبر صراحة عن اتفاقي معه، لكنني علمت أن المهمة التي أوكلتها إلي الأكاديمية الدبلوماسية قد انتهت هنا.

لم تلبث الكعكة أن تفتتت.[3] طالبت جمهوريات سوفييتية كثيرة، وأقاليم مستقلة أخرى، باستقلالها. انتشرت الفوضى والدماء. تبخر حلم الإخاء السوفييتي– تفسخ سريعًا «صمغه»

الذي هو الأيديولوجية المشتركة والأهداف المشتركة، وكشف عن صدوع كثيرة على الخطوط الإثنية والدينية والثقافية. ظهر العداء نحو «الترويس» في الفترة السوفييتية وصعدت إلى السطح توترات عمرها مئات السنين بين جماعات عرقية متجاورة. أصبحت الخطابات التحريضية السياسية التي تحرّض «نحن» على «هم» شائعة، وأدت أحيانًا إلى عنف مفتوح، أو «تطهير عرقي» أو مآسٍ أخرى.

ما الذي حدث؟ كل جمهورية سوفييتية سابقة لها قصة مختلفة، لكن كثيرًا من القصص اتفقت على مسألة واحدة: كيف يمكن أن تؤسس أمة جديدة من مجتمع متعدد الإثنيات، كان اجتماعه السابق معتمدًا إلى حدٍّ ما على السلطة السوفييتية المركزية. كان مصير كل أمة ناشئة مرتبطًا بعوامل سياسية وتجارية واقتصادية وعسكرية واجتماعية ودينية معقدة. كانت العمليات النفسية في الجماعات الكبيرة متشابكة مع هذه العوامل. لتوضيح بعض هذه العمليات، سأركز على جورجيا، الدولة الصغيرة في القوقاز بين تركيا وروسيا، التي سنحت لي فيها فرصة للمراقبة والمعاينة مباشرةً على مرّ أكثر من خمس سنوات. سيكون اهتمامي الأساسي توضيح تجليات وآثار العوامل النفسية، لكن لا بد أولًا من وصف موجز للعوامل التاريخية والسياسية في جورجيا.

كغيرها من الدول على الحدود بين أوروبا وآسيا، لم تزل جورجيا معبرًا للحضارات. حسب آخر إحصاء سوفييتي في 1989، وصف نحو 70 بالمئة من سكان جورجيا أنفسهم بأنهم جورجيون بالإثنية، وأنهم شعب قوقازي جنوبي يعود تاريخه وثقافته إلى الأزمنة الغابرة. أما الأقليات الإثنية، ذات الثقافات التي لا تقل غنًى ولا قدمًا عن الثقافة الجورجية، فشكلت 30 بالمئة من سكان جورجيا، الذين بلغ تعدادهم 5.4 مليون نسمة. من هذه الأقليات عدد كبير من الأرمنيين والروس والأذريين والأوسيتيين واليونانيين والأبخازيين، ومنهم الكرد واليهود والمسخيتيون وغيرهم.

عاشت كل هذه الجماعات الإثنية في حدود جورجيا السياسية الحديثة قرونًا من الزمان، وكانت العلاقات بينها بالعموم سلمية. فعلى سبيل المثال، في أحد الأحياء القديمة

في تبليسي، عاصمة جورجيا، تشترك الكنائس والجوامع ودور العبادة اليهودية الشوارع نفسها، ولم يكن الزواج المختلط بين الجماعات المختلفة نادرًا. كانت الهوية المحافظية الخاصة متعايشة مع الهوية الوطنية العامة، ولم تكن بالضرورة أساسًا لاعتبار صاحبها «أقل جورجيّة». مع هذا، ومع أن العنف بين الجماعات كان قليلًا مستغربًا، كانت التوترات موجودة. على هذه الخلفية، أدى مفهوما إعادة البناء والانفتاح إلى أن تصبح مفاهيم الوطنية مقابل الإثنية الوطنية، والاستقلال مقابل الديمقراطية، مفاهيم إشكالية في جورجيا.

من حيث الاستقلال، كانت جورجيا تنظر إلى أزمنة السيادة السابقة، التي كان أحدثها من 1918 إلى 1921، وإلى شعور عتيق بالهوية الجورجية الفريدة. كان تراث المعارضة السياسية والتظاهرات ضد السيادة الأجنبية قديمًا عمره قرون، واستمر في أيام الإمبراطورية الروسية والاتحاد السوفييتي. كانت جورجيا، كدول البلطيق، تُرى على أنها أُدخلت بالإكراه في الاتحاد السوفييتي، وهو ما يعني أن الاتحاد خنق تطلعاتها المناصرة للغرب والديمقراطية، وهدد هويتها الجورجية. مع أن الاستقلال السياسي السوفييتي كان مبدئيًّا أكثر منه واقعيًّا، فإن تاريخها الحديث يقول إن الديمقراطية والتعددية والشعور الجامع بالهوية الوطنية كان موجودًا في جورجيا، وهو الأساس الذي ستقوم عليه جورجيا «الجديدة».

بالمقابل، كان الخطاب السياسي الاسقلالي في جورجيا بعد إصلاحات غورباتشوف مصطبغًا بالشعار القائل بأن «جورجيا للجورجيين». قد يبدو هذا الشعار أول الأمر شاملًا لغير الجورجيين الإثنيين، لكن العنصر الإقصائي فيه أصبح أوضح وأوضح. أدى هذا الصعود في الإثنية الوطنية إلى قلق بين الأقليات الإثنية في جورجيا، التي كانت جاهزة لذكر أمثلة تاريخية عن الظلم وقلة التسامح الذي تعرضت له، مثل ترحيل ستالين لآلاف المسخيتيين من أراضيهم على طول الحدود الجورجية التركية، والمآسي الطويلة ضد سياسات «الجورجة»، لا سيما في الأقاليم شبه المستقلة، مثل أوسيتا الجنوبية وأبخازيا.

مع هذا، عبرت أغلبية متزايدة في جورجيا عن رغبتها في الانفصال عن الاتحاد السوفييتي والشيوعية في أواخر الثمانينيات. ترسخ هذا الإجماع أكثر في 9 أبريل 1989، عندما اجتمعت مجموعة من المضربين عن الطعام في تبليسي على عتبات مبنى كان يعرف باسم المجلس السوفييتي الأعلى، ليعبروا عن رغبتهم في الاستقلال عن الاتحاد السوفييتي. مع اجتماع حشود من المؤيدين إلى جانب المضربين، أرسلت موسكو وحدات من القوى المسلحة لحفظ النظام. لكن القائد السوفييتي، الجنرال راديونوف، تجاهل المفاوضات التي تهدف إلى حل الإضراب وأمر وحداته المسلحة بأن تفرق بين المحتجين وحشود المتضامنين المتزايدة، وأن تغلق الطرق الجانبية وتبعد المضربين عن المبنى السوفييتي.[4]

سريعًا ما تصاعد الوضع، وهاجم الجنود السوفييت المضربين بأسلحة كيميائية وأدوات حادة، وهو ما أدى إلى مقتل ستة عشر إلى عشرين فردًا. كان ذلك اليوم مثار حيرة بين كثير من الجورجيين، لأن حكومة غورباتشوف بدت ملتزمة بالإصلاح.[5] هل كانت الأمور تتغير فعلًا، أم إن الاتحاد السوفييتي لم يزل على قمعيته المعهودة؟ رأى الجورجيون هذه الحادثة خيانةً وخسارة مأساوية، تركت فيهم أثرًا عاطفيًّا عميقًا. بعد إلقاء هذا الوقود النفسي على النار، أصبح من الصعب إيقاف حركة الاستقلال.

لكن جورجيا لم تكن متوحدة كلها في هذا الصعود الوطني–في الحقيقة، كان العكس هو الصحيح. كان إقليم أوسيتا الجنوبية شبه المستقل، وجمهورية أبخازيا المستقلة، وهما قسمان من جورجيا أنشأهما الاتحاد السوفييتي، غارقين في موجة خاصة من الإثنية الوطنية والرغبة في الاستقلال–ليس الاستقلال عن الاتحاد السوفييتي، بل عن جورجيا نفسها. في حين كان الجورجيون يشعرون أنهم ضحايا «الترويس» والهيمنة الروسية أثناء انضوائهم تحت لواء الاتحاد السوفييتي، كان كثير من الأوسيتيين الجنوبيين والأبخازيين يرون في جورجيا الأخ الأكبر المستبد غير المرحَّب به. كانت هاتان الأقليتان، اللتان تتكلمان –تقليديًّا– لغة غير لغة الجورجيين الإثنيين، تريان جورجيا تهديدًا على ثقافتهما وأرضهما –على هوية جماعتيهما الكبيريتين–.

اشتدت الرغبة في الاستقلال في أوسيتا الجنوبية وأبخازيا مع صعود القائد الجورجي زفياد جامساخورديا، وهو رئيس بارز ذو خطاب وطني حماسي لا يعرف كثيرًا من الحدود. ككثير من السياسيين، جمع جامساخورديا دعمه الشعبي بالتأكيد على «نحنية» جماعته الإثنية، التي كانت تشعر شعورًا جماعيًّا بالحاجة إلى قائد قوي، في الوقت التي كانت فيه تخط طريقها في المستقبل المجهول. لكن هذا الطريق، بقيادة المهارات السياسية المشكوك فيها التي امتلكها جامساخورديا، لم يلبث أن اتجه نحو المصائب – التي ظهرت في سياسات منها تعيين اللغة الجورجية لغة رسمية في الدولة. تزايد القلق بشأن هويات الجماعات الكبيرة في إقليم القوقاز وبدأ يخرّب العلاقات على كل المستويات، إلى أن أدى في النهاية إلى تراجع مجتمعي.

في 9 مارس 1990، انفصلت جورجيا عن الاتحاد السوفييتي. نتيجة التوترات المتزايدة، أعلن الوطنيون في أوسيتا الجنوبية عام 1990 استقلالهم عن جورجيا، ورفضوا المشاركة في أول انتخابات وطنية حرة – الانتخابات التي جعلت جامساخورديا أول رئيس لجورجيا. في خريف عام 1990، كانت نزعات جامساخورديا الاستبدادية، وعداؤه الشديد للشيوعية، ورفضه لأي نوع من المعارضة، إلى نزع صفة الإقليم المستقل عن أوسيتا الجنوبية، وفرض القانون العسكري في عاصمتها تسخينفالي. أصبحت الهوية الجماعية وحمايتها مسألة مسيسة، ولم يلبث النزاع المسلح العنيف أن اشتعل وتصاعد في أوسيتا الجنوبية. احتدمت معارك الشوارع في تسخينفالي. هرب آلاف الأوسيتيين الجنوبيين عبر الحدود الروسية إلى أوسيتا الشمالية، وهرب كثير من الجورجيين الإثنيين في أوسيتا الجنوبية إلى الأراضي الجورجية.

أدت سياسات جامساخورديا الوطنية ورغبته الحماسية باستعادة وحدة الأراضي الجورجية، أو الحفاظ عليها، إلى صعود توترات مماثلة في أبخازيا. حوّل المثقفون الأبخازيون وقادة الحزب الشيوعي القلق المتزايد في أبخازيا، والنسبة المتناقصة من الأبخازيين في دولتهم، إلى حركة وطنية لهم. في عام 1989، طلب الأبخازيون من

غورباتشوف إعادة إنشاء جمهورية أبخازية سوفييتية كالتي كانت بين عامي 1921 و1931 عندما كانت أبخازيا مستقلة عن جورجيا. كان هذا الطلب إشكاليًّا في نظر جامساخورديا لأن عدد الجورجيين الإثنيين في أبخازيا كان أكثر من ضعفي عدد الأبخازيين. اشتعل العنف في عاصمة أبخازيا، سوخومي، على تأسيس قسم خاص للجورجيين في جامعة سوخومي. تزايدت التوترات السياسية أكثر، فدفعت المجلس السوفييتي الأعلى في أبخازيا إلى العودة إلى دستور 1925، الذي يمنح أبخازيا استقلالاً تامًّا عن جورجيا. دخلت القوات العسكرية الجورجية العاصمة وتلا ذلك نزاع مسلح عنيف وطويل. هرب عشرات آلاف الجورجيين، الذين كان كثير منهم قد استقر في أبخازيا منذ أجيال، بحفنة من أملاكهم عندما اشتعلت حرب أهلية كاملة.

في الوقت الذي كانت فيه النزاعات مع الأوسيتيين الجنوبيين والأبخازيين تختمر، تلقى مركزي في تشارلوتسفيل، مركز دراسة العقل والتفاعل الإنساني، زيارة من جورجي خوشتاريا، وزير خارجية جورجيا في حكومة جامساخورديا، وتيدو جاباريدز، وهو مسؤول كبير في وزارة الخارجية الجورجية. (أصبح تيدو جاباريدز بعد ذلك سفيرًا طويل الأمد لجورجيا في واشنطن، التي بقي فيها حتى مارس 2002، عندما أصبح مستشارًا أمنيًّا وطنيًّا للرئيس إدوارد شيفردنادزه). كان خوشتاريا وجاباريدز قد سمعا عن عمل مركزنا مع السوفييت في آخر أيام الاتحاد السوفييتي، وعن عملنا في جمهوريات البلطيق، لا سيما إستونيا، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، إذ ساعدنا هذه الجمهوريات على تطوير مؤسسات ديمقراطية وعلاقات سلمية مع روسيا.[6] أتى خوشتاريا ليطلب مساعدتنا بشأن النزاعات الإثنية في بلده، لكننا لم نملك التمويل الكافي لنبدأ العمل في جورجيا. شعرت حينها بالعجز لكنني وعدت بالحفاظ على قنوات الاتصال مفتوحة.

في الوقت نفسه، كنت سعيدًا بوجود خبير بالشؤون الجورجية في طاقم مركزي – هو يوري أوربانوفيتش، الذي كان الشخصية الرئيسة في تنظيم مؤتمري عن الإثنية في الأكاديمية الدبلوماسية. في عام 1992، عُيّن أوربانوفيتش باحثًا دوليًّا في المركز، واكتشفت

بعيد ذلك أنه مولود في جورجيا لأب ليتواني الإثنية وأم أرمنية. عندما أصبح أوربانوفيتش الباحث الدولي في المركز، كانت أمه لم تزل في تبليسي، واستطعنا بفضله أن نواكب الأحداث في جورجيا عن كثب.

لم يكن في أيدينا أن نفعل شيئًا سوى المشاهدة، في الوقت الذي كان فيه الحلم الجورجي بالاستقلال والديمقراطية يتقهقر حتى أصبح فوضى كاملة، تغذيها قرارات جامساخورديا السياسية الحارقة، وحكمه الأوتوقراطي المتزايد والمتهور. سقطت السلطة خارج العاصمة الجورجية تبليسي في أيدي أمراء حرب محليين وقادة ليسوا في الجيش النظامي، تشرّد مئات آلاف اللاجئين، ونشأت نزاعات ندّية في الحكومة المركزية، وانهار الاقتصاد. أخيرًا، في أوائل 1992، اشتعل القتال في شوارع تبليسي، عندما أجبر تحالف بين الجيش وقادة في الحكومة الرئيس على التخلي عن السلطة–ولو أنه حافظ على أتباع كثيرين يقدسونه تقريبًا من الجورجيين.

دعا مجلس عسكري مؤقت حاكم وزير الخارجية السوفييتي السابق إدوارد شيفردنادزه، وهو جورجي الإثنية، إلى قيادة البلد الذي ينازع. في العام نفسه اختير الرجل رسميًّا ليكون قائد البرلمان الجورجي في الانتخابات الديمقراطية، ولو أن جامساخورديا تمسك بأنه الرئيس الشرعي الوحيد وسيطر على مناطق من جورجيا الغربية بفضل داعميه المسلحين. (استمر حكم شيفردنادزه حتى 30 نوفمبر 2003، عندما استقال عقب احتجاجات كبيرة ضد الانتخابات البرلمانية التي جرت في نوفمبر؛ ليحل محله في رئاسة جورجيا رجل أصغر بكثير، هو ميخائيل ساكاشفيلي). عندما أصبح شيفردنادزه رئيسًا، أكّد على أن «الجورجية» مسألة مواطنة لا مسألة إثنية، لكن الفوضى والحرب استمرت في في جورجيا سنين كثيرة بعد ذلك. ومع أن تحرّش جامساخورديا الممتد انتهى بانتحاره الظاهري عام 1993، وبدأت بعده مفاوضات بشأن الهدنة، لم تحلّ إلا نزاعات قليلة وبقيت العلاقات متوترة بشأن عودة اللاجئين وغيرها من المشكلات. بقي وضع أوسيتا الجنوبية وأبخازيا

غير واضح في تلك السنين، وكان القتال يشتعل بين الحين والآخر، ولكن التوترات استقرت بما يكفي لأنظر أنا وزملائي نظرة أقرب.

في صيف عام 1995، سافرت جويس نيو، التي كانت مساعدة مدير برنامج حل النزاعات التابع لمركز كارتر في أطلنطا (وهي اليوم رئيسة معهد جون بي. كروك للسلام والعدل في جامعة سان دييغو) مع يوري إلى جورجيا وأبخازيا «ليشخّصا» الوضع. ابتدأ اتصالي بمركز كارتر في أوائل تسعينيات القرن العشرين، عندما أصبحت عضوًا في شبكة التفاوض الدولية، تحت إدارة الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر. في ذلك الوقت، كان الرئيس كارتر يبني علاقة بين «جورجيا وجورجيا» (الولاية الأمريكية والجمهورية) مع الرئيس شيفردنادزه. في خريف عام 1995، جمع مركزانا اثني عشر ممثلًا من المنظمات الأمريكية غير الحكومية في تشارلوتسفيل، فرجينيا، لمناقشة المبادرات القائمة لحل النزاع في جورجيا، بهدف تجنب تكرار الجهود في المركزين. وعندما لاحظنا أن معظم المنظمات غير الحكومية كانت حينئذ تعالج النزاعات الجورجية الأبخازية، قرر مركز دراسة العقل والتفاعل الإنساني تركيز اهتمامه على المشكلات بين جورجيا وأوسيتا الجنوبية. سافرت أولًا إلى جورجيا في مايو 1998 ولم أزل أسافر إلى هناك مرتين في العام لمدة خمسة أعوام.

صادف وصولي إلى جورجيا في مايو 1998 تجدد العداوات بين الجورجيين والأبخازيين. قبل عامين تقريبًا، كان الطرفان قد وصلا إلى اتفاق يسمح لأربعة آلاف جورجي نازح داخليًّا (وهو المصطلح الصوابي السياسي البديل لمصطلح «لاجئ») أن يعود إلى إقليم غالي. يعتقد الأبخازيون أن هذا الإقليم لهم، وهو تحت حكمهم. لكن كثيرًا من الجورجيين كانوا يقطنون هناك. بموجب الاتفاق أُتيح لهؤلاء الجورجيين أن يعودوا إلى بيوتهم – بشارة بالأمل بسلام ممتد. لكن عندما وصلت في 1998، كان النزاع المتجدد بين القوات الأبخازية والجورجية قد أزال عشرات آلاف اللاجئين من الإقليم، واضمحل أي أمل بالعودة والاستقرار.

ألقى بعض الجورجيين الذين حادثتهم اللوم على الأبخازيين والروس. كانوا يشعرون أن روسيا، التي لم ترد أن تخسر نفوذها في جورجيا، كانت تحافظ على النزاع بتجنيدها لقوة حفظ سلام في المنطقة. (لم تنظر روسيا في إمكانية سحب قواتها من جورجيا إلا بعد زيارة الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش لجورجيا عام 2005 – غالبًا بسبب ضغط من الولايات المتحدة). لم تكن وظيفة وحدة حفظ السلام الروسية حفظ السلام، في رأي بعض الجورجيين، بل كانت التدخل في الشؤون الجورجية وإبقاء جورجيا معتمدة على روسيا.

تجدد النزاع في إقليم غالي تحضيرًا لموكب عسكري في تبليسي –التي كنت أسكن فيها– للاحتفال بالذكرى السنوية الثامنة عشر لتأسيس أول جمهورية جورجية عام 1918. بسبب استئناف العداوات، ألغي الموكب والاستقبال الذي كان مخططًا له للرئيس شيفردنادزه. مع هذا، حضرت اجتماعًا «أكاديميًّا» بدعوة من رجب جوردانيا، حفيد نوح جوردانيا، الذي كان رئيس جورجيا في أول فترة حكم ديمقراطي لها في أوائل القرن التاسع عشر.

ولكن كان من الصعب أن أشارك في ذكرى لنوح جوردانيا دون أن أتأمل أولًا في التغيرات المأساوية التي جرت في العقود التي تلت حكمه. في عشرينيات القرن العشرين، كانت تبليسي، المدينة التي يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف وخمسمئة عام، والتي تمتد على ضفتي نهر متكفاري، تعرَف باسم «باريس القوقاز». كانت مليئة بالمثقفين والفنانين والشعراء. أما في عام 1998، فقد أُحرج منظمو اجتماع الذكى السنوية من عدم وجود مناديل في مراحيض البناء الذي نُظّم فيه الاجتماع. هذا البناء الذي يعود إلى القرن التاسع عشر، الذي احتضن بعض انتصارات القياصرة الروسيين في القوقاز، لم يكن بعيدًا عن المكان الذي قتل فيه جنود الجنرال راديونوف المحتجين الجورجيين في التاسع من أبريل 1989. أشار بعض الجورجيين في الاجتماع صراحة إلى إلى جرائم القتل هذه وعبروا عن فخرهم بأنهم جورجيون. رأيتُ بوضوح كيف أن الجروح التي حدثت قبل عشر سنوات

تقريبًا لم تزل جديدة، في الوقت الذي كان فيه غياب المناديل وغيرها من الحاجات البسيطة يعكس استمرار آثار الصدمة النفسية المجتمعية.

لقد رأيت هذه الآثار في أماكن أخرى، مهما كانت صغيرة ودقيقة. مثلًا، ذهبت في أحد الأيام مع زميل لي لنلتقي بروفسورًا في جامعة تبليسي. كان في حدائق الجامعة مئات الطلاب، وكانوا جميعًا تقريبًا يلبسون ثيابًا سودًا أو زرقاء داكنة. قيل لي إن الثياب السود هنا عادة وليست علامة على الحزن، وفي أثناء إحدى زياراتي اللاحقة إلى تبليسي، حيث حدث اختطاف الأجانب، نصحني بعض الأصدقاء الجورجيين بارتداء ثياب سود أو زرقاء داكنة لئلا أتميز من بين الجموع. تساءلت عن سبب خروج الطلاب وعدم وجودهم في قاعات الدراسة. وجدت الإجابة عندما دخلت المبنى الرئيس للجامعة. كانت خطوط الصرف الصحي قد انفجرت وأصبح الطابق الأول من المبنى الضخم مستنقعًا من الفضلات الإنسانية السائلة. توجّب علينا أن نعبر هذا المستنقع حتى نصل إلى الدرج الذي سيوصلنا إلى مكتب البروفسور.

في أيام النزاع المسلح بين أتباع جامساخورديا والمعارضة في 1991–1992، تضررت تبليسي، لا سيما المباني الحكومية في شارع روستافيلي، تضررًا كبيرًا. استطعت أن أرى رأيَ العين ما الذي فعله النزاع المسلح والانهيار الاقتصادي والتحوّل الصعب من الشيوعية إلى الديمقراطية بالمظهر المادي للمدينة. عمليًّا، كانت البنية التحتية للمدينة في فوضى تامة. كانت الشوارع مليئة بالحفر، وكانت الكهرباء تنقطع في الليل في بعض المناطق ساعات طويلة بسبب نقص الوقود. بدا لي أن كل مبنى في تبليسي يحتاج إلى إصلاح. قيل لي إنه في شتاء عام ما، لم يكن عند المواطنين وسائل تدفئة نظامية، وهو ما دفع الناس إلى تكسير الأبواب أو النوافذ الخشبية لجيرانهم، وأحيانا إلى تقطيع الأشجار، ليتدفؤوا. بعد ذلك، من أجل تثبيط الهجوم على أملاكهم، لم يصلح معظم الناس المظهر الخارجي لبيوتهم. كان منظرًا مفاجئًا لي عندما دخلت ما بدا لي بيتًا مخروبًا تمامًا، فوجدت أن داخله مليء بالأثاث العتيق الجميل، واللوحات القيمة.

عندما خيّم ظلام الليل على المدينة، بدت تبليسي جميلة ببساطة. لكن في الصباح التالي، عندما عادت الشمس، بدا لي من جديد مقدار الضرر الذي لحق بها. لم يكن في المدينة محال ذات شبابيك مضيئة، ولا إشارات مضيئة. كان في المدينة كلها إعلان واحد في مركزها: لافتة كوكا كولا كبيرة. كان هذا دليلاً على أن الرأسمالية كانت قد بدأت ببطء ملء الفراغ الذي تركته الشيوعية. (استغرق الأمر عدة سنوات بعد هذه الرحلة الأولى، حتى ألاحظ تغيراً معتبراً في مظهر تبليسي. فعلى سبيل المثال، ظهرت عشرات الإشارات المضيئة في الشوارع عندما نشأت بعض المشاريع الترفيهية للكبار). لكن الناس كانوا مشغولين بأعمالهم. من المذهل كيف يتأقلم الناس مع المأساة، على الأقل ظاهريًّا.

كانت علامات النزاع حاضرة في أماكن أخرى. فعلى سبيل المثال، جذب انتباهي مباشرة فندق إيفيريا، وهو مبنى عالٍ في مركز تبليسي يشرف على ساحة نُصب فيها تمثال القائد ابن القرن الثامن عشر الملك هرقل. (على الجهة الأخرى من الساحة بناء أراه من أبشع المباني المنصوبة في العصر السوفييتي. كان أهل تبليسي يسمونه «أذنا أندروبوف» لأن المبنى يظهر كما لو أن له أذنين يمنيين ضخمتين وأذنين يسريين ضخمتين من الإسمنت، ولأن القائد السوفييتي المتأخر يوري أندروبوف كان صاحب أذنين كبيرتين حسب ما يقال). كان على كل نافذة من نوافذ الفندق أعداد كبيرة من الكنزات والبناطيل والشراشف ذات الألوان المختلفة، معلقة لتتهوّى أو تنشف. هذا الفندق الذي كان فخمًا أصبح ممتلئًا إلى سقفه بالنازحين الداخليين من أبخازيا–لكنه مع هذا لم يحتضن إلا جزءًا صغيراً من ثلاثمئة ألف لاجئ في جورجيا. كان المبنى علامةً ضخمة على الفقر والعجز، ومذكّرًا بما فعل الناس بغيرهم باسم الهوية. تخيل أن تذهب إلى ساحة التايمز في نيويورك، وتنظر إلى أحد مبانيها الطويلة لترى إطارًا ضخمًا في علمٍ يجسد إهانة شعبك، علم فيه ألوان لا يمكن أن تتجاهلها لشدة بريقها.

كنا مهتمين بفهم مشكلة اللاجئين من وجهة نظر النازحين الداخليين الجورجيين أنفسهم. كنت قد رأيت عدة لافتات وإشارات تقول «فليعد اللاجئون أدراجهم» في عدة أماكن

في المدينة. أزيلت هذه اللافتات في النهاية، ولكن كثيراً من مواطني المدينة كانوا يخافون أن يسرق اللاجئون الجورجيون من أبخازيا فرص عملهم المحلية وأن يدمروا عاداتهم الموجودة. لم نستطع أن نقابل أي لاجئ في فندق إيفيريا، ولكننا سمعنا عن مخيم لاجئين آخر مليء باللاجئين الجورجيين من أبخازيا. كان هذا المخيم، حسب ما قيل لنا، في منطقة منتجع سابق يسمى «بحر تبليسي» على بعد نصف ساعة بالسيارة من مركز المدينة. تذكر يوري المكان. قال لي: «أعرف هناك بحيرة صناعية جميلة، كنت أسبح فيها عندما كنت طفلاً». كان بعض مضيفينا الجورجيين قد عملوا سابقًا مع أطفال لاجئين من بحر تبليسي. أخذونا إلى هنالك في أحد الأيام، والتقيت أسرة سأروي قصتها المشوّقة في الفصل التالي.

2 ثلاثة أجيال في الصوف الذهبي

في الظهيرة الصافية ليوم الأحد 21 مايو 1998، قادنا مضيفونا الجورجيون، أنا ويوري أوربانوفيتش والمدير المساعد لمركز دراسة العقل والتفاعل الإنساني جاي أندرسون طومسون، إلى بحر تبليسي، وهو خزان صناعي ضخم في شمال تبليسي. قيل لنا إن على ساحل هذا الخزان ثلاثة فنادق فارهة، تعود أيامها إلى أيام عز الاتحاد السوفييتي حين كانت منتجعًا شهيرًا. قيل لنا إن ثلاثة آلاف من الجورجيين النازحين داخليًّا، من أصل ثلاثمئة ألف، كانوا يقطنون هذه الفنادق، وهي معلومات حضّرتنا للظروف المزدحمة الشديدة التي واجهناها هناك. سنزور واحدًا فقط من هذه الفنادق، هو أوكروس ساتسميسي، الذي يعني بالعربية الصوف الذهبي. من جهة، كان الاسم مناسبًا لأن الباحثين يعتقدون أن البطل الإغريقي الميثولوجي جاسون وبحاروه وجدوا الصوف الذهبي الأسطوري في الأراضي التي تسمى اليوم جورجيا. من جهة أخرى، كانت الأساطير الإغريقية تصف جورجيا بأنها بلد ثري جدًّا تفوق في مهارته في العمل بالمعادن على أوروبا تفوّقًا هائلًا، لكن جورجيا الحديثة، ولا سيما في فنادق بحر تبليسي، كانت مكانًا مختلفًا تمامًا.

بعد أن قدنا إلى مركز تبليسي ثلاثين دقيقة تقريبًا، انعطفت السيارة عند زاوية وبدأت تنحدر من هضبة. عندها رأيت بحر تبليسي. بدت مياه الخزان زرقاء وهادئة، وتفهمت استمتاع يوري عندما كان طفلًا بالسباحة فيها. ثم رأيت بناءً بدا من بعيد فندقًا في المنتجع. عندما اقتربنا منه، تبين أنه مكان مهدوم، لا يظهر إلا الفقر والإهمال. رأينا هنالك إشارة معدنية دائرية على الحائط الشرقي للبناء، كُتب عليها «أوكروس ساتسميسي» بالأبجدية الجورجية. بدت الإشارة كأنها مأخوذة من مكان آخر في هذا البناء ذي الطوابق الثمانية، بدت كأنها رمز للثراء والرفاهية في بناء ذهب مجده. عبرنا الحائط الشرقي وركنّا السيارة في ساحة السيارات أمام المبنى. كان الباب الأمامي زائلًا، لم يترك خلفه إلا فرجة ضخمة في الحائط. كانت النوافذ مكسرة، وكان البناء كله خاليًا من الطلاء. أما البهو الكبير الذي كان

بعد المدخل فكان خاليًا إلا من بضعة أطفال يلعبون. على الجانب الأيسر من البهو كان درج يؤدي إلى الطوابق العليا. كانت الدرجات متضررة وكان الدرابزين غير ثابت.

بين 1989 و1994 في جمهورية جورجيا، انحدر الإنتاج المادي الصافي بين 70 و80 بالمئة، وهو واحد من أشد الانهيارات في الجمهوريات السوفييتية السابقة. في أوائل تسعينيات القرن العشرين، انحدرت العمالة قرابة 30 بالمئة، وفي ربيع عام 1993 بلغت نسبة البطالة المعلنة 8.4 بالمئة. أما الأسعار فاستمر صعودها. في عام 1992 ارتفعت الأسعار بالمتوسط 900 بالمئة. في عام 1994 بلغ التضخم الشهري 60 بالمئة. في الوقت نفسه، كان الأستاذ الجامعي في الجامعة الحكومية يجني ما يساوي 5 دولارات كل شهر، مع أن أمين سر في شركة خاصة كان يجني أكثر – نحو 30 دولارًا في الشهر. في الوقت الذي كانت فيه الأغلبية العظمى من الشعب تناضل من أجل البقاء، رأى الجورجيون اللاجئين عبئًا على الاقتصاد. أما اللاجئون فكانوا يتوهمون أنهم سيعودون إلى حياتهم الأفضل بكثير في أبخازيا.

بعد هدنة عام 1994 في أبخازيا، بدأ اقتصاد جورجيا يتحسن. قلل برنامج استقرار اقتصادي عجز الميزانية من 26 بالمئة من الناتج الإجمالي المحلي في 1993 إلى أربعة بالمئة فقط في عام 1997. هكذا، اختفت تقريبًا لافتات «عودوا أدراجكم أيها اللاجئون»، لكن الاقتصاد كان لم يزل هشًّا، وكانت بعض الاشتباكات تجري على الحدود بين جورجيا وأبخازيا. تخلى بعض الناس عن أملهم بالعودة إلى غالي. نظم اللاجئون الأبخازيون أنفسهم، بموافقة حكومة شيفردنادزه في قوة عسكرية رديفة. عندما كانت الاشتباكات تندلع كانوا يحاربون الأبخازيين عدة أيام أو أسابيع، وتنتج عن كل حرب إصابات. لم تذكر *نيويورك تايمز* أو *واشنطن بوست* هذه الاشتباكات، لكنها كانت حتمًا تمنع من تعافي جراح الجورجيين –لا سيما النازحين داخليًّا منهم– والأبخازيين. في عام 1998 كان القتال المتجدد قد أعاد الصدمة إلى النازحين داخليًّا مرة أخرى، وفي الأحد 21 مايو من ذلك العام،

كانت الأنشطة التي شهدناها في ساحة سيارات الصوف الذهبي تعكس هذه الجراح المفتوحة.

كان أمام المدخل المهدوم للفندق عربتان عسكريتان. وكان إلى جانب السيارتين نحو ثمانية رجال في أزيائهم العسكرية الرديفة. كان قائد مجموعة القتال هذه رجلًا جادًّا يبلغ طوله خمسة أقدام، وكان حسن البنية قويًّا. كان وجهه المتجعد يبدي شيئًا من الحكمة والتصميم. عُرّف إلينا الرجل باسم ماموكا كاشافارا. بمساعدة المترجمين قال لنا إنه كان مشغولًا كثيرًا، لكنه أخذ بعضًا من وقته ليتحدث إلينا، لذا ذهبنا إلى غرفة صغيرة على الجانب الأيمن من البهو الذي خلف المدخل. قال لنا ماموكا إنه ابن خمسة وأربعين عامًا، من مدينة غاغرا في أبخازيا قرب الحدود الروسية، شمالي إقليم غالي. كان ماموكا لاعب كرة قدم معروفًا، وكان إلى جانب ذلك رائدًا في «الشرطة» الأبخازية، وهي قوة أمن داخلية في أبخازيا كانت في العهد السوفييتي. كان الرجل مع بعض الشباب في ساحة السيارات، ومع كثير من النازحين الداخليين من الفنادق الأخرى في بحر تبليسي وغيره، يجهزون للذهاب إلى الحدود والقتال، كما فعلوا في السابق كلما اندلع قتال عند الحدود. لم يعرف ماموكا شخصيًّا أي جورجي مهاجَم في غالي –وهو إقليم يبعد 7 أو 8 ساعات بالسيارة–، لكن هذا لم يهم. كان ماموكا جاهزًا ليفتدي القضية بحياته.

قال لنا ماموكا أنه قبل أن يصبح نازحًا داخليًّا كان له ولعائلته بيت في غاغرا التي يعيش فيها جورجيون إثنيون وأرمنيون إثنيون. كان له كثير من الأصدقاء الأبخازيين في غاغرا وكان لا يمانع الأبخازيين الإثنيين. تذكر الرجل بحنين كيف فاز فريق تبليسي عام 1981 كأس الكؤوس الأوروبية. كان يشاهد المباراة في منزل صديق أبخازي وكانا يشربان الجعة معًا ويغنيان أغاني جورجية. لكن الأمور اختلفت الآن. لقد أخرجه الأبخازيون وأهله من منزلهم لكي يمنحوا أبخازيا هوية أبخازية صافية. كان يعلم أن الأبخازيين مستعدون لقتله باسم الهوية، وأنه هو مستعد لقتلهم باسم الهوية أيضًا، وإن كان لا يرجو ذلك.

شرح لنا ماموكا أنه في أيام الاتحاد السوفييتي، كان في أبخازيا ثلاث لغات: الروسية والأبخازية والجورجية. عندما كان ماموكا شابًّا ذهب إلى مدرسة جورجية روسية، ثم عندما بلغ الرشد لاحظ التمييز الذي يمارسه الأبخازيون في غاغرا بحق الجورجيين الذين يعملون في قسم الشرطة. قال لنا إنه كان من الصعب الترقي في العمل إذا لم يكن المرء أبخازيًّا. مع اقتراب نهاية الاتحاد السوفييتي وتصاعد التوترات الإثنية، سمع بعض الأبخازيين يقولون، «سيأتي اليوم الذي نخرجكم فيه من هذه الأرض». لقد «اشتمّ» الحرب قبل وقوعها.

في عام 1992، بعد اندلاع النزاع الإثني، أحرق الأبخازيون البيت الذي استغرق بناؤه من ماموكا عشرين عامًا. كان البيت مبنيًّا في غاغرا في الحي نفسه الذي كان فيه بيت أبيه. كان أبوه ضابط شرطة وكان قد توفي عندما كان ماموكا ابن تسع سنوات. أما أمه، التي لم يبق عندها كثير من المال، فكانت تعمل وتجتهد في طفولة ماموكا حتى توفر له المأكل والمشرب. بعد أن خرج من غاغرا، كان أشد ما يؤلم ماموكا أن أمه بقيت هناك. في النهاية، أصبحت أمه أيضًا نازحة وتوفيت في تبليسي. فهمت أن ماموكا يعتقد أن الأبخازيين هم المسؤولون عن وفاة أمه. لقد طلب إليهم أن يحموها وخانوه.

أخبرنا ماموكا أن أسرته –زوجته دالي وأبناءهم الثلاثة ووالدي زوجته– كغيرهم من الناس في فنادق بحر تبليسي الثلاثة، كانوا نازحين داخليين قبل أن تندلع الحرب في إقليم دالي. لذا، كان بعض الناس يراهم أقل صدمة من اللاجئين الذين غادروا أبخازيا وسط الحرب الحقيقية. مع هذا، شارك ماموكا في الحرب ورأى أشياء لا تتصور، منها تقطيع الأعداء للجثث. قال: «سبعون عامًا من الحكم السوفييتي قطعتني عن أي إيمان عميق بالدين»، ثم أضاف، «لا أستطيع أن أجد إجابات في الدين. لا أرى كوابيس، لكنني متفاجئ من أني لا أرى كوابيس. أنا لا أتكلم عن الفظائع التي رأيتها». في عام 1993 عانى ماموكا من جرح شديد في الصدر ومن إصابة في الرأس، ليتعافى بعد ذلك. ثم انضم إلى أسرته في فندق الصوف الذهبي. كان لماموكا وظيفة في شرطة تبليسي، جعلته يرى نفسه أكثر حظًّا

من بقية اللاجئين الذين كان معظمهم بلا عمل. فهمت أن المعونة التي تقدمها الحكومة للاجئين تبلغ بالإجمال 5 دولارات للفرد في الشهر.

كان ماموكا مترددًا في أن يبوح لنا بالمزيد، لكن حركات يديه كانت دالّة على أنه ممتلئ بالمشاعر. ما الذي كنت أتوقعه غير هذا من رجل يتحضر للذهاب للحرب؟ كان الحفاظ على سيطرته على نفسه وعلى الذين سيقودهم أمرًا أساسيًّا. لا يغادرني الذهول كل مرة أتذكر هذا اللقاء، لقد وافق ماموكا أن يتحدث إلى غرباء وهو في طريقه إلى «حماية الجورجيين في إقليم غالي». كان مستعجلاً يريد المغادرة، وباعتبار الظروف المحيطة، لم نكن نتوقع من هذا الرجل المهيب أن يتيح لنا نظرًا أعمق في عالمه الداخلي. شكرنا الرجل، ليعود وينضم إلى الرجال الذين اجتمعوا أمام فندق الصوف الذهبي على طريقهم إلى إقليم غالي. كان الرجال –وكلهم أصغر من ماموكا– ينظرون إليه وينتظرون منه الإرشاد والتوجيه. كان ماموكا هو القائد.

شاهدت بعض النسوة في ساحة السيارات مغادرة ماموكا ورجاله. لاحظت من بين النساء امرأة نحيلة ذات بشرة جميلة وشعر أصهب قصير. (عرفت بعد ذلك أنها مرغلانية، من قبيلة المرغلانيين، وهي قبلية جورجية من منطقة غاغرا يتمتع أعضاؤها عادة بشعر أحمر). كانت المرأة جميلة، لكنها بدت كأنها تحمل عبئًا خفيًّا. قيل لي إنها دالي، زوجة ماموكا. عندما عُرّفت المرأة إلينا استطاعت أن تبتسم وتحافظ على لطف المعاملة. لكنني شعرت بقلق كبير فيها. كانت لا تنفك تقول، «ماذا أستطيع أن أفعل؟ ابني الأكبر يريد كذلك أن يذهب ويحارب!». ثم أضافت أنها هي أيضًا تود أن تذهب إلى إقليم غالي وأنها ترجو لو كانوا يسمحون لها. لم يتضح لي سبب إرادتها للذهاب إلى منطقة حرب. هل لأنها وطنية، أم خوفًا من إصابة زوجها وابنها على الطريق؟ أم لقلق الفراق، أم اجتمعت عليها كل هذه الأسباب؟ رافقتنا دالي إلى الغرفة التي تكلمنا فيها إلى زوجها من قبل وأخبرتنا قصتها.

ولدت دالي مثل زوجها في غاغرا لأسرة مثقفة. كانت أكبر إخوتها الثلاثة، وكان أبوها نودار خندادزه صحفيًّا معروفًا نشر كتبًا كثيرة. ولدت دالي في حي جورجي في غاغرا

ودرست في مدرسة جورجية هناك.[8] كان أبواها صارمين، فلم تكن تتجول خارج الحي، لذلك لم تجمعها بالأبخازيين الإثنيين أي تجربة مهمة نفسيًّا في طفولتها. أصبحت دالي بعد ذلك مدرسة، ثم بعد زواج أول قصير، تزوجت بطل كرة القدم المشهور ماموكا. كانت دالي واعية جدًّا بالاستثمار العاطفي الذي كرّسه ماموكا لبناء بيتهم في غاغرا، بيتهم الذي تحبه.

في سبعينيات القرن العشرين، شعرت دالي بوجود التوترات الإثنية. لقد جاء شيفردنادزه نفسه، الذي كان حينها مسؤولًا سوفييتيًّا إلى أبخازيا لتهدئة الأمور، ووعد بمعاقبة الذين يضطهدون الآخرين. استمرت التوترات رغم هذا. انقسم اتحاد الكتاب، الذي كان أبو دالي عضوًا فيه، إلى مجموعة جورجية ومجموعة أبخازية، وافتُتحت جامعة أبخازية جديدة ومحطة تلفزيون. استطاع الأبخازيون أن يظهروا ولاءهم لهوية جماعتهم الكبيرة بصراحة أكبر في الاتحاد السوفييتي. في عام 1979، كانت دالي مدرّسة في مدرسة كان مديرها أبخازيًّا. أمر المدير بجمع كل الكتب المكتوبة باللغة الجورجية وحرقها، حسب حديث دالي. قالت دالي إن المدير كان يفعل هذا تطبيقًا لإرادة الأبخازيين الإثنيين أصحاب المناصب الحكومية العليا في ذلك الجزء من الاتحاد السوفييتي.

تذكرت دالي اليوم الذي أصبحت فيه هي وأبناؤها نازحين داخليين. كان 20 سبتمبر 1992، قبل خمس سنوات وتسعة أشهر من لقائي بها أول مرة. سقطت غاغرا في أكتوبر 1992. دفع ماموكا، الذي كان قد ذهب إلى الحرب، دالي والأطفال إلى الهرب من غاغرا قبل أن تسوء الحرب أكثر. كانت مروحية جورجية يقودها طيار أوكراني تنقل الجورجيين من المدينة. كان الطيار يعرف ماموكا لذا وافق على نقل دالي والأطفال إلى بر الأمان. تذكر دالي أنه لم يكن أمامها إلا خمسة عشر دقيقة لتجهز للمغادرة. لم يكف الوقت لتجمع حليها حتى. بقي ركضها مع أبنائها –الذين كان أصغرهم ابن أحد عشر عامًا– إلى ملعب كرة القدم الذي حطّت فيه المروحية، ورحلتهم إلى سوخومي، واضحًا في ذاكرة دالي. عندما كانوا يركضون إلى ملعب كرة القدم رأوا سيارات تحترق وجثثًا. قالت دالي: «قُتل ناس كثيرون جدًّا، الحمد لله أن استطعنا النجاة». في سوخومي، عاصمة أبخازيا، كان المساعدة متاحة لأخذ

الجورجيين الهاربين إلى بحر تبليسي الآمن. أما ماموكا، الذي بقي في غاغرا فظل يحارب مع إخوته الجورجيين إلى أن عاد ليجتمع بأسرته.

بعد أن نقلت المروحية دالي وأطفالها إلى بر الأمان، وهي في طريقها إيابًا إلى غاغرا، أصيبت الطائرة وقُتل الطيار الأوكراني. عرفت بعد ذلك الأثر النفسي لهذا الحادث على نفسية دالي، الذي سأصفه في الفصل التالي. في حديثي الأول مع دالي، أشارت إلى أن أهم أحداث هروبهم كانت قرارها الواعي بعدم أخذ جواز سفرها الداخلي معها. كما ذكرت من قبل، كان في أيام الاتحاد السوفييتي لكل فرد جواز سفر داخلي تكتَب عليه إثنيته. خافت دالي أن يعتقلها الأبخازيون ويعرفوا من جوازها أنها بنت نودار خندادزه. كان أبو دالي منخرطًا في الاحتجاج على معاملة الجورجيين في أبخازيا وفي تعزيز المشاعر الوطنية بين الجورجيين فيها. كان خندادزه في الحقيقة مختبئًا وكانت دالي تعتقد أن الأبخازيين كانوا يبحثون عنه قبل أن تهرب. وجد الأبخازيون مرة رجلًا جورجيًّا مسنًّا ظنوا أنه أبوها، لكنهم أطلقوا سراحه عندما اكتشفوا خطأهم. ومع أن اسم زواج دالي كاشافارا كان هو المذكور في جواز سفرها، فقد قالت إن جميع الناس في غاغرا يعرفون أن زوجة ماموكا لاعب الكرة الشهير هي بنت خندادزه.

كنت أضمر سؤالًا في لقائي الأول مع دالي: لماذا تحدثت كثيرًا عن جواز سفرها الداخلي الذي تركته وراءها؟ ثم أدركت فجأة أن ترك جوازها كان يعني رمزيًّا ترك هويتها – هويتها هي المرأة الجورجية التي تربت في غاغرا مع أسرتها وتزوجت نجم كرة قدم شهيرًا وعاشت في بيت قضى زوجها نصف حياته وهو يبنيه فوق أرض ورثها من أبيه. قالت دالي إنها شعرت بانعدام هويتها عندما أصبحت لاجئة، وأن هذا الشعور أورثها شعورًا بالعار. أضافت، «عندما أذهب إلى مصرف في تبليسي، يسألونني عن هويتي. أقول لهم اسمي فلا يصدقونني». قالت لي إنها لو كان عندها «هوية» لكانت مستحقة للمعونة المالية من صناديق النازحين الداخليين. حتى تثبت دالي هويتها وتحصل على بطاقة تعريف مؤقتة، كان عليها أن تذهب إلى محكمة في تبليسي، لكنها لا تزال ترفض أن تفعل هذا. قالت إنها تشعر بالعار

من إخبار الناس أنها بلا هوية. شعرت فجأة أن شيئًا نفسيًّا داخليًّا فيها هو الذي منعها من الذهاب إلى المحكمة. هي نازحة داخلية، لذلك فهي حتمًا تحتاج إلى أي مال يمكنها أن تحصل عليه، لكن الربح الاقتصادي ثانوي أمام رغبتها في التمسك بهويتها الضائعة. إن هذه الهوية هي التي كانت سبب طردها وأسرتها من غاغرا على يد الأبخازيين.

لم تُهن دالي «هويتها الغاغرية»، التي سببت لها كل هذه الصعاب، بل تمسكت بها تمسكًا قويًّا. لقد رأيت هذه الظاهرة من قبل في العالم، كما في فلسطين، حيث أُذلّت مجموعات عرقية ووضعت تحت الضغط. من المفارقة أن هذا الإذلال وغيره من الصعوبات يزيد من استثمار الضحايا في هويات جماعاتهم الكبيرة . عرفت من دالي أن كثيرين غيرها في منطقة بحر تبليسي لا يملكون جوازًا داخليًّا ولا هوية. كلهم، بعبارة دالي، وجدوا الذهاب إلى المحكمة للحصول على هويات «جديدة» «مذلًّا جدًّا».[9]

عندما التقيت ماموكا ودالي، كان أكبر أبنائهم في البيت فاليري ابن اثنين وعشرين عامًا. وكان عندهم ابن آخر هو أليكو، عمره ثمانية عشر، وابنتهم تامونا عمرها سبعة عشر. لم أر الأطفال في ساحة السيارات أو في داخل الفندق، لكن دالي قالت إنها تقضي بعضًا من وقتها تشاهد الأطفال وهم يتحاربون لعبًا. لم يفاجئني هذا لأنني شاهدت هذه الظاهرة من قبل في مكان آخر–في الجيب التركي في قبرص، نيكوسيا، مثلًا، حيث كان الوضع أشبه بالحرب عام 1968.[10] في أيام الحرب وبعيدها، يصنع الأطفال أسلحتهم الرمزية ويمثلون الحرب لعبًا. هكذا يحاولون أن يتحكموا بشعورهم بالعجز؛ يصبحون «جنودًا» ليحاولوا قلب السلبية إلى قوة والتحكم بقلقهم. قالت دالي إنها لم تكن تحب أن تشاهد الأطفال وهم يتحاربون. لم تكن تحب أن تتذكر كيف يقتل الناس الناس. وكالمعروف في كثير من الراشدين المصدومين، لم تتكلم دالي ولا ماموكا عن مشاعرهما بشأن أحداث أبخازيا وكانا صامتين بشأن صدمتهما النفسية أمام أطفالهما. لكن في أحد الأيام كانت دالي تشاهد محطة روسية في التلفزيون ورأت منزل عائلتها في غاغرا يحترق على يد الأبخازيين. عندما رأت كلب الأسرة الأسود تشارلي، يتجول بين الأنقاض، انهارت وبكت حتى أنهكها البكاء.

خلافًا لزوجها، قالت دالي إنها شاهدت كوابيس كثيرة بشأن ما حدث لأسرتها في أبخازيا. ثم أخبرتنا بحلم واضح كانت قد رأته قبل ليلتين، عندما قال لها ماموكا إنه سيذهب مرة أخرى إلى الحرب. في الحلم كانت دالي في غاغرا تزور امرأة تقطن حيهم القديم، في جزء من المدينة تعايش فيه الجورجيون الإثنيون والأرمن الإثنيون. كانت المرأة في الحلم أرمنية. كانت السيدة تبكي لأن زوجها –وهو طبيب أسنان أرمني– قُتل رميًا بالرصاص.

ثم أخبرتني دالي بقصة هذا الطبيب. كان واحدًا من أعز أصدقاء ماموكا. بعد اشتداد التوترات في غاغرا، اختطف الأبخازيون في أحد الأيام طبيب الأسنان الأرمني وهو يمشي في الحي، وأجبروه أن يركب في سيارة، وأخذوه. شهد هذا الحدث كثير من الناس. عرفت دالي وزوجها بعد ذلك أن الأبخازيين أجبروا الطبيب أن يقاتل معهم ويقتل جورجيين. في منامها، لم تعرف دالي كيف تشعر بشأن موت الطبيب. كانت حزينة لموت صديق قديم لزوجها، لكنها كانت تظن أيضًا أنها يجب ألا تعبأ لموته، لأنه كان يقتل الجورجيين في النهاية. أفاقت دالي في تلك الليلة متحيرة.

بحكم عملي في التحليل النفسي، اعتدت سماع أحلام الذين أحللهم. لكن الناس على سرير عيادتي كانوا يكسبون أحلامهم «معاني حرة» تساعدني على فهم المعاني الخفية التي تعبر عنها الأحلام. أنا حذر من الاهتمام الكبير بالمحتوى السطحي –الذي يسميه المحللون النفسيون «الظاهر»– للحلم. لكن المحلل النفسي الخبير يستطيع أحيانًا أن يخمن معنى المحتوى الظاهر للحلم. عندما أخبرتني دالي بحلمها، اعتقدت أنها كانت تفرض مأزقها المتوقع على الآخرين. حلمت دالي بأن امرأة غيرها تبكي مقتل زوجها، لكنها في الحقيقة هي التي تخاف أن يموت ماموكا قريبًا في الحرب. كانت دالي في الوقت نفسه غاضبة من ماموكا على مستوى غير واع، لأنه جعلها قلقة بسبب انخراطه في الحرب. لم أرد أن أقول ما خطر ببالي لدالي، لكنني تفاجأت وسعدت عندما فسّرت حلمها بنفسها وأخبرتني أشياء مشابهة لأفكاري. كنت أتعامل مع امرأة ذكية جدًّا وذات عقل سايكولوجي.

بعد يومين عدنا إلى فندق الصوف الذهبي. التقتنا دالي عند المدخل وأدخلتنا إلى شقتها في الطابق السادس على الجانب الغربي من البناء. صعدنا بحذر على الدرج المعطل. من الداخل، كان مخطط الطوابق في الفندق كأي فندق آخر – ممرات طويلة تصطف فيها الأبواب على الجهتين. لكن التشابه ينتهي هنا. كانت الممرات في كل طابق مليئة بأشياء لا تحصى –آنية قديمة ومقالٍ ومواقد وجرار ذات أحجام مختلفة وعوارض خشبية وحاويات معدنية، وهلم جرًّا.

لم يفاجئني المنظر، فقد زرت من قبل أماكن للاجئين. يتقهقر اللاجئون ويصنعون ما يسميه المحللون النفسيون عالمًا «شفهيًّا أو شرجيًّا أو كليهما». يجمع اللاجئون الأشياء كما لو أنهم يريدون التأكد من أن عندهم ما يكفي من «الحليب» ليوم ماطر في المستقبل، ويكومون هذه الأشياء كما لو كانوا يكومون فضلات بشرية ليعبروا عن غضبهم العاجز ويراه العالم. قد يكون لهذه الأشياء استعمال معين، لكن سكان فندق الصوف الذهبي لم يكن عندهم طبعًا ما يكفي من المال لتنظيف المكان. اعتقدت أنهم كانوا غاضبين وأنهم أفسدوا المكان الذي يعيشون فيه كما لو أنهم يرسلون إشارة إلى «الأمّ الأرض»، التي لم تعد تعتني بهم.[11]

كانت الشقة التي تقطنها دالي وزوجها وأطفالها جناحًا عاديًّا في الفندق فيه مطبخ صغير وحمام وبعض الأثاث الفندقي. مساحة صغيرة هي غرفة المعيشة والطعام. فيها طاولة خشبية قديمة، وخزانة، وثلاثة كراسي، تبدو خالية إلا من هذه الأشياء. على الجدار صورة مثبتة ليسوع. تفصل هذه الغرفة عن غرفة نوم الزوجين بطانية معلقة متدلية من السقف. في غرفة نوم الزوجين سرير واحد، هو في الحقيقة سرير نقال. على الجانب الآخر من غرفة المعيشة باب يُفتح على مطبخ صغير وشرفة كانت تتبعثر فيها أشياء متعددة. من النافذة الكبيرة في غرفة المعيشة، خلف أغراض الشرفة، استطعت أن أرى بحر تبليسي. لعل أن هذا الجناح كان جناحًا مفضلاً في أيام عمل الفندق، لكنه حتمًا لا يكفي لخمسة أشخاص

أن يناموا فيه براحتهم. عرفت بعد ذلك أن والدي دالي يسكنان في شقة في الطابق السابع فوق التي كنا نزورها، وفهمت أن الأطفال ينامون عادة في شقة الجدين.

الفريد في هذه الشقة كان وجود شيء ثمين جدًّا: هاتف قديم أصفر باهت على الطاولة الخشبية واحده.قالت دالي إن هذا الهاتف هو الوحيد للنازحين الثلاثة آلاف الذين يقطنون في فنادق بحر تبليسي. عرفت مباشرة حينها أن ماموكا ودالي هما قائدا مجتمع اللاجئين هذا. كانت غرفة معيشتهم أشبه بغرفة عمليات. عندما كان ماموكا وغيره من المقاتلين يحاربون في حروبهم الصغيرة، كانت زوجاتهم يأتين إلى شقة ماموكا ودالي ليتصلن ويعرفن أخبار أزواجهن. قالت دالي إنها كانت مشغولة جدًّا مع بقية الزوجات منذ أن رأيناها آخر مرة وأنها لم تنم البارحة. كان التعب ظاهرًا عليها، لكنها أصرت أن تقدم لنا شايًا تركيًّا، مع بعض البسكويت. من تراث الأسر الجورجية تقديم القهوة والطعام للضيوف. حتى تحت هذه الظروف المتوترة، لم تتخل دالي عن هذه العادة، لكننا جعلنا زيارتنا قصيرة.

استمرت الحرب أقل من أسبوع، لكنها عواقبها كانت وخيمة على الجورجيين. عرفنا هذه العواقب من زوجين من مضيفينا الجورجيين، كلاهما عالم نفس، كانا قد ذهبا إلى زوغديدي، على الجانب الجورجي من إقليم غالي، ليقدما المعونة لموجة جديدة من اللاجئين. كانت هذه الصدمة الثانية لكثير منهم. لقد أجبروا من قبل على مغادرة إقليم غالي، لكن سُمح لهم بعد ذلك أن يعودوا إلى بيوتهم، واليوم عادوا لاجئين مرة أخرى. كان احتمال عودتهم مرة ثانية ضئيلًا، وقلبت مدينة زوغديدي مرة أخرى رأسًا على عقب. أُسكن اللاجئون العائدون في مبنى المدرسة الرئيسة في المدينة في الوقت الذي كان ينبغي أن يقدم الطلاب فيه امتحاناتهم. على رغم خسائرهم الكثيرة، تجدد شعور الذنب عند اللاجئين لكونهم عبئًا على أهل زوغديدي. كانت الحكومة الجورجية عاجزة. لم ترد الحكومة أن تبدأ، أو لم تستطعع بالأحرى أن تبدأ حربًا جديدة كاملة، لأسباب سياسية أو عسكرية. أمرت

حكومة شيفردنادزه القوات الرديفة، ومنها ماموكا ورجاله، بالعودة إلى بيوتهم في مخيمات اللاجئين أو أماكنهم كالتي على شاطئ بحر تبليسي.

عدت إلى فندق الصوف الذهبي مرة أخرى في زيارتي الأولى لتبليسي عام 1998. دخلت مع مترجمتي عالمة النفس الجورجية مانانا غاباشفيلي، إلى شقة كاشافارا لنجد هنالك ماموكا، مرتديًا ثيابًا مدنية، وجالسًا في غرفة المعيشة. صدمتني رؤية ملامح الحزن والاكتئاب على وجهه. كانت وضعية جسده تدل على رجل استسلم لقدر لم يكن يريده. قال إنه أراد أن يستعيد إقليم غالي لكنه أُمر بالعودة إلى تبليسي دون قتال. قال: «لم أرد أن أقتل الأبخازيين، لكننا نستطيع أن نستعيد غالي إلى الحكم الجورجي مرة أخرى، وكان يجب أن نفعل ذلك». كان ماموكا يشعر بالخيانة. أثّر فيّ يأسه واكتئابه.

ذكر ماموكا أنه كان يتجهز للقيادة سبع ساعات ليحضر جنازة لنازح داخلي شاب كان الأبخازيون قد قتلوه في آخر حرب صغيرة. أخبرنا ماموكا باسم الشاب وقال إنه لم يكن يعرفه شخصيًّا. لكن ماموكا شعر بوجوب حضور الجنازة. كانت دالي في الغرفة أيضًا، صامتة تنظر إلى ماموكا وهو يتحدث إلينا. عندما انقضت أحاديث ماموكا، بدأت دالي تتحدث عن العار والمهانة التي يشعر بها النازحون الداخليون في فنادق بحر تبليسي. قالت دالي: «نعم، أنا سعيدة بعودة زوجي، لكن عدم استعادة إقليم غالي إلى الحكم الجورجي أورثني شعورًا باليأس لا أستطيع احتماله». كان واضحًا أن دالي وماموكا، كالموجة الثانية من اللاجئين في زوغديدي، تعرضا لإعادة الصدمة. عبرت دالي عن الأمر هكذا، «هذا الجرح سيبقى مفتوحًا إلى الأبد».

بعد أن ودعنا ماموكا وذهب إلى الجنازة، دخل الشقة رجل مبجل في سبعينياته، أبيض الشعر والشارب، سماويّ العينين. كان أنيق الملبس منتصب القامة يظهر عليه الفخر. أخبرتنا دالي أنه أبوها، نودار خندادزه، الذي كان يسكن في الشقة التي فوقهم في الطابق السابق. كان واضحًا لنا أن دالي كانت فخورة جدًّا بأبيها. أخبرتنا دالي أن خندادزه كان كاتبًا مشهورًا. كتب خندادزه خمسة وثلاثين كتابًا، منها ست روايات، وبعد أن أصبح لاجئًا هو

وزوجته، صار شاعرًا. أراد خندادزه أن يعرف هويتنا أنا ومانانا وسبب زيارتنا لابنته وصهره. بدا عليه الرضا عندما شرحنا له أننا مهتمان بمعرفة حياة النازحين داخليًّا، لكن كان صعبًا عليه أن يتحدث إلينا في بيئة مدمرة هكذا. شعرت بجرح في كبريائه. بالمقابل شعرت بالانزعاج لأني سببت هذا الشعور فيه. كنت أفكر في شيء أقوله لأحسن الجو، حين قال خندادزه، «أشعر بالخزي من ثقافة المتسوّلين الجديدة». عرفت أنه كان يتحدث عن الأطفال اللاجئين في تبليسي الذين أصبحوا متسولين، وتوقعت أن هؤلاء الأطفال كانوا يمثلون حلًّا لشعوره هو نفسه بالمهانة. بدلًا من أن يعرض نفسه لمزيد من هذا الشعور الفظيع، رمى الرجل الشعور على المتسولين. ثم شاهدت كيف كان رمي الشعور هذا يحرك عقله الإبداعي. بدأ خندادزه ينشد قصيدة كان قد كتبها من قريب عن المتسولين الأطفال. ترجمتها مانانا سطرًا سطرًا:

عندما أرى يدك تتسول
تُعاني كرامتي.
لا أستطيع أن أعطيك روحي
إذ من المستحيل أن يعطي المرء روحه.
لكنني لم أعد أملك شيئًا سوى روحي.
إنني أنازع قضبان السجن.
إذا كنت تحتاج حياتي
أستطيع أن أعطيك إياها.

عندما أبديت أنا ومانانا اهتمامًا صادقًا بقصيدته، تغير مزاج خندادزه. بدا أن الرجل سُرّ. أخبرنا أنه بعيد أن أصبح لاجئًا بدأ يكتب الشعر كل يوم عن حياته وحياة اللاجئين. بدا أن كتابته للشعر كانت هي شريان حياة كرامته التي خسرها عندما أصبح لاجئًا. طلب الرجل من دالي أن تذهب إلى شقته وتأتي بقصائده. عادت دالي بمجلد سميك وأنيق كانت تمسكه كما لو كانت تمسك إرثًا ثمينًا تخاف عليه. شعرت أن قصائد أبيها كانت تتحدث باسم العائلة

كلها. أخذ خندادزه المجلد من يدي ابنته وأخبرنا بصوت حزين عن مكتبته الغنية التي تركها في أبخازيا. كان يعتقد أنها تدمرت مثل حياته.

فتح خندادزه المجلد وأخذ أول ورقة. كانت قصيدة كان قد ألفها وكتبها بخط أنيق الليلة السابقة. طلب الرجل ألا تترجمها مانانا سطرًا سطرًا. أراد أن يقرأ القصيدة كلها. فهمت سبب هذه الرغبة؛ أراد خندادزه أن يعبر عن مشاعره كاملة. إذا تُرجمت القصيدة سطرًا سطرًا، ستُقاطع قراءته، وسيدمر أثرها العاطفي. ترجمتها مانانا بعد ذلك:

أشعر بخيانة في وطني
انتصر الكذب
الآن أترك كل ما أملك هنا
وآتي إليك أيها الشمس.
كل شيء حولي مظلم
لا أرى شيئًا
تلدغني أفعى بمرارة
وتحقق هدف خيانتها
لم نستطع أن ندرك ما يجري
كان كل شيء محيرًا
لكنني أعرف أن العدو في تبليسي
آه! آه! فليكن عمر عدوّي قصيرًا
أرى وطني يعاني من الخيانة
آه! انتصر الشيطان
الاكتئاب يغزو روحي
أصلّي لك أيها الشمس، ساعدينا.

أحيت قصيدة خندادزه وطريقة إلقائه الحزينة لها ما شعر به ماموكا ودالي بشأن سقوط إقليم غالي وعجزهم عن استعادته في آخر حرب قصيرة. ساد الصمت في الغرفة بعد قراءة القصيدة. شعرت أني ومانانا لم نعد غرباء في نظر خندادزه. ضيفتنا دالي قهوة تركية وبدأ خندادزه، الجالس الآن على كرسيه، يروي لنا أحداث أبخازيا من وجهة نظره. كان خندادزه يعتقد أن الحكومة الجورجية الحالية خانتهم عندما أعادت المقاتلين من الحدود. انضمت دالي، التي كانت قد شاركت في حملة شيفردنادزه الرئاسية، إلى أبيها وعبرت عن إحباطها وعجزها وشعورها بالخيانة.

عرفت مزيدًا عن الأسرة كذلك. كان خندادزه أبًا لثلاثة أبناء وجدًّا لثمانية. غادرت أسرة ابنه أبخازيا منذ زمن طويل ولم يكونوا لاجئين، لكن ابنته الصغرى وأسرتها كانوا لاجئين داخليين في الفندق نفسه. في ذلك اليوم التقيت ثلاثة من أحفاده لقاءً وجيزًا. كان على فاليري وأليكو، الشابين الوسيمين، أن يذهبا إلى الجامعة من أجل نشاط جامعي. أخبراني أنهما في جامعة في تبليسي يتخصصان في إدارة الأعمال. التقيت ابنة دالي أيضًا، تامونا، التي أتمت عامها السادس عشر مؤخرًا.

كانت تامونا زائدة الوزن وبدا عليها الاكتئاب. سألت إن كنت أستطيع الحديث معها أنا ومانانا على انفراد. بعد أن غادر الآخرون الشقة، قالت لنا تامونا إنها تذهب إلى مدرسة ثانوية قريبة. كان في صفها أطفال لاجئون وسكان أصليون كذلك. شرحت تامونا بوضوح الشعور بين الفئتين من الطلاب، وهو شعور واضح بين «نحن» و«هم». كانت تامونا واعية تمامًا بأنها لاجئة وبشعور العار الذي يرافق هذا الوضع. عندما كانت تتحدث، أدركت أن طريقتها للتعامل مع الوضع كانت الاجتهاد في الدراسة.

أخبرتنا تامونا بصوت منخفض أن زيارة أبيها الأخيرة لمنطقة الحرب أثارت فيها «مشاعر مألوفة». لم تزل أحداث الماضي واضحة في ذاكرة تامونا. حدثتنا تامونا عن هروبها وأسرتها بالمروحية من غاغرا. كانت هلعة. تذكرت بكاءها وسماعها لصوت بكاء لاجئ آخر

بالمروحية، كان قد قتل ابنه قبيل ذلك. بعد أن انتهى حديثنا مع تامونا، انضمت دالي إلينا. شكرتها وشكرت تامونا لما شاركتاه من قصصهما معنا.

كان هدف زيارتنا إلى تبليسي تطوير مشروع لفتح قنوات التواصل المنتج بين الجورجيين والأوسيتيين الجنوبيين، لكن اندلاع الحرب في إقليم غالي جعل الوصول إلى المسؤولين في الحكومة صعبًا. كان الجميع مشغولًا ومهتمًّا بالأحداث الأخيرة والمشاعر التي رافقتها. لكننا في مجيئنا إلى بحر تبليسي للتعرف على مشكلات النازحين الداخليين، التقينا أسرة لافتة. تبين لي أن فريقي لن يستطيع تقديم أي مساعدة للاجئين في بحر تبليسي إذا أردنا أن نستجيب لاحتياجاتهم ورغباتهم بطرق عامة. لكني فكرت أننا إذا استمررنا في تطوير علاقتنا مع أسرة كاشافارا، ومع نودار خندادزه، فقد نستطيع تقديم بعض الدعم النفسي لهم. أخبرت دالي وتامونا أني على الأغلب سأزور جورجيا مرتين أو ثلاثا كل عام في السنين القادمة. سألتهما، «أتسمحان لي أن آتي وألتقيكم في زياراتي المستقبلية وأقضي بعض الساعات معكم كل مرة؟». كانت الإجابة أن هذا سيسعدهما وأنهما رأتاني رجلًا لطيفًا. ففي الحقيقة، حسب قولهما، لم يأت أحد من العالم الخارجي، من مكان بعيد جدًّا كالولايات المتحدة، ليلتقيهما من قبل.

كان في ذهني فكرة ضبابية في ذلك الوقت أنني إذا استطعت الإسهام في تحسين حياة هذه الأسرة، فإنها ستكون نموذجًا للتغيير الإيجابي لبقية الأسر النازحة داخليًّا في بحر تبليسي. فأسرة كاشافارا في النهاية هي القائدة في هذا المجتمع. أكبر دليل هو الهاتف الأصفر الباهت الذي كان على طاولتهم الخشبية القديمة في غرفة معيشتهم الخالية.

3 الانتظار عشر سنوات للحداد أم لا

بعد مايو 1998، كنت أزور عائلة كاتشافارا مرة كل خمسة أشهر تقريبًا حتى عام 2002. وعادة ما كانت مانانا غاباشفيلي ترافقني كزميلة مهنية في العمل ومترجمة شفوية. وفي المناسبات التي لم تتمكن فيها مانانا من المجيء، رافقتني جانا جافاخيشفيلي، وهي اختصاصية نفسية جورجية أخرى. في كل مرة كنا نقضي نصف يوم على الأقل في شقة كاتشافارا، نتحدث بشكل رئيسي مع دالي. وإذا كان ماموكا أو الأولاد أو نودار في الجوار، كنا نتحدث معهم أيضًا. كنت أجري «مقابلات علاجية» منفصلة مع أفراد الأسرة أو أتحدث معهم بشكل جماعي. كما كنا نجلس فحسب كضيوف ونراقب تفاعل أفراد الأسرة مع بعضهم. أما تامونا، التي تعلمت اللغة الإنجليزية حين التحقت بالكلية، فظلت تتواصل معي بعد عام 2002 عبر البريد الإلكتروني.

خلال زيارتي الثانية إلى فندق غولدن فليس، قابلت فردًا مهمًا آخر في عائلة كاتشافارا، إنه الكلب الأسود تشارلي. ربما من الأفضل مناداته «تشارلي الثاني»، بما أنه كان «كلبًا بديلًا»،[12] فتشارلي الآخر تُرك في غاغرا حين هرعت دالي وأطفالها إلى المروحية التي نقلتهم إلى بر الأمان. كان تشارلي الأول الكلب الذي لمحته دالي حين شاهدت النيران تأكل منزلهم على التلفزيون الروسي. أخبرتني دالي كيف باتت مستغرقة في التفكير بمصير تشارلي الأول. وعلى الرغم من صعوبة إرسال رسالة إلى أحد الجيران السابقين في غاغرا للاطمئنان عن الكلب، تمكن ماموكا من القيام بذلك بعد لحاقه بالعائلة في بحر تبليسي. إذ أبلغت هذه الجارة التي أعتقد أنها، كطبيب الأسنان وزوجته، من أصل أرمني، عائلة كاتشافارا أن تشارلي قد صدمته سيارة وقُتل.

كان موت تشارلي الأول ضربة موجعة لدالي، كما أوضحت لي. وخلال الأشهر الأولى كنازحين داخليًا، اعتاد ماموكا ودالي الحديث عن «خطة العام الواحد». إذ اعتقدا أن المشاكل الإثنية في أبخازيا ستُحل في غضون عام، فيعودان إلى الديار، ويبدأ ماموكا بإعادة إعمار

منزلهما. في الليل كانا يستلقيان في الفراش ويتهامسان حول مخططات العودة إلى غاغرا. فما دام كلب عائلتهما موجودًا في غاغرا، كان بإمكانهما إبقاء ارتباطهما بالديار حيًا، على الرغم من احتراق منزلهما. كان موت تشارلي الأول ضربة لـ«خطة العام الواحد». وقد أخبرتني دالي كيف أنها وماموكا بقيا مكتئبين حتى رأت ذات يوم، في بداية عامهما الثاني كنازحين داخليًا، كلبًا ضالًا أسود بدا كأنه تشارلي بالضبط، يتجول حول غولدن فليس. فأدركت على الفور أن عليها اقتناء هذا الكلب كحيوان أليف جديد للعائلة. وقد أيدها جميع أفراد الأسرة، فجلبوا الكلب إلى شقتهم، وأطلقوا عليه اسم تشارلي.

أنا أحب الكلاب. وحين التقيت تشارلي الثاني لأول مرة، قمت بمداعبته، لكنني لاحظت أن اقتناءه في شقة عائلة كاتشافارا سيكون غير مألوف. فقد كان كلبًا متوسط الحجم ولن تتوفر مساحة كافية في غرفة الجلوس عند اجتماع أفراد العائلة والضيوف مثل مانانا أو جانا وأنا. كان تشارلي نظيفًا وأحب الاستلقاء عند قدمي دالي. كما بدا تعلق دالي العاطفي بالكلب واضحًا جدًا. وقد أدركتُ أن وجود تشارلي في شقة عائلة كاتشافارا والطريقة التي عاملته بها الأسرة دليلان مهمان على أن دالي وعائلتها كانوا مفجوعين دائمين وأن الكلب ذاته كان جسمًا رابطًا حيًّا.

لفهم العمليات النفسية الداخلية لأفراد عائلة كاتشافارا، على المرء أولًا أن يفهم ما يقصده اختصاصيو الصحة العقلية بالمصطلحات: الصدمة والمفجوعون الدائمون والأجسام الرابطة. تحدث الصدمة الفردية عندما ينثال على عقل الفرد ويثقله حدث خارجي أو سلسلة متراكمة من الأحداث. فعليًا، تكون شدة المنبه التي تلقاها الفرد أكبر من أن يتم التعامل معها أو استيعابها بالطرق المعتادة. وخلال هذه الصدمة (أو الصدمات)، يكون عقل الفرد مُثقلًا بقلق شديد؛ أو يحدث العكس، فيشعر الشخص بأن عقله مشلول. ومع أنه قد يواصل أداء مهام معينة، فهو يعاني العجز في كلتا الحالتين.[13] مثلًا، على الرغم من أن دالي وأطفالها تمكنوا من الوصول إلى المروحية، أصيبت دالي بصدمة من التجربة. ومع ذلك، كانت قادرة على التفكير منطقيًا بشأن جواز سفرها الداخلي (بطاقتها الشخصية). بعد انتهاء الحدث

الصادم، غالبًا ما يسترجع المصدومون الأحداث الصادمة باستحضار الماضي، وفي الأحلام، وفي تصورات تجارب الحياة الحالية. أو يعيدون الحدث الصادم بأفعال رمزية. إنهم يعيشونه مرارًا وتكرارًا برغبة مفترضة –لكن غير واعية– في أنهم يومًا ما سيتغلبون على المنبهات الأصلية الساحقة ويستوعبونها. إلا أنهم لا ينجحون في ذلك عادة. قالت لي كل من دالي وتامونا كيف أنهما غالبًا ما تستحضران ذكريات ركوب المروحية.

ومع ذلك، إن مفهوم الصدمة في الواقع أعقد من الوصف الموجز المذكور آنفًا. ومجرد تصنيف الأشخاص على أنهم يعانون اضطراب الكرب التالي للصدمة (PTSD) يصرف انتباهنا عن فحص للاستجابات المنفردة والمحددة تجاه الأحداث الصادمة. (اقرأ الفصل السادس للاطلاع على فحص أكثر تفصيلًا لاضطراب الكرب التالي للصدمة). إن كل فرد يتمتع بقدرات فطرية وخبرات سابقة تهيئه أو توعّيه، وبالتالي يكون كل رد فعل تجاه الأحداث العنيفة مختلفًا. أيضًا، إن ذكريات الأفراد عن الأحداث الأخرى وتخيلاتهم وأمنياتهم ودفاعاتهم العقلية ضد هذه الأمنيات التي أصبحت مرتبطة بالصدمة الفعلية، تتفاوت من فرد إلى آخر. وعلى المدى الطويل، يُظهر بعض الأشخاص مرونة[14] أكبر من غيرهم. على سبيل المثال، يتعامل بعض الأشخاص مع الصدمة من خلال الإبداع،[15] بينما يتحتم على آخرين تكرارها بأساليب رمزية أو تطوير أعراض أو سمات شخصية جديدة. رغم ذلك، يفصل آخرون ذواتهم المصدومة ويضعونها، جزئيًا، في غلاف (يسمى هذا بالتفارق) ويتصرفون كأن شيئًا لم يحدث. لكن الذات المصدومة، في بعض الأحيان، تنسل من غلافها وتهيمن على ما تبقى من شخصية الفرد، فارضة نفسها كما لو أن للفرد شخصية جديدة. ينشأ ما يسمى بالشخصيات المزدوجة أو المتعددة من تجارب الطفولة الصادمة التي ظلت نشطة على الرغم من محاولات تغليفها نفسيًا.[16]

تندرج الأحداث الصادمة التي يمر بها النازحون داخليًا، مثل دالي، تحت مظلة الصدمات المشتركة التي ترتبط بالمشاعر الإثنية وتنشّط قضايا هوية المجموعات الكبيرة. لم تتعرض دالي وأفراد أسرتها لصدمات نفسية بسبب ما كانوا عليه كأفراد؛ لقد أصيبوا بصدمة بسبب

انتمائهم إلى مجموعة إثنية معينة. ودائمًا ما تكون الأحداث الصادمة المشتركة، المرتبطة بقضايا هوية المجموعات الكبيرة، ملطخة بالخزي والإذلال.[17] فعندما يتعرض الناس لهجوم من عصابة معادية ويشعرون بالمعاناة، تنتابهم أيضًا مشاعر الخزي والإذلال. وتترافق هذه الصدمات أيضًا بمزيج من الخسائر العاطفية (المجردة) العظيمة والملموسة. في بعض الأحيان، يفقد هؤلاء الأشخاص إحساسهم بالأمن والكرامة فقط، وفي أحيان أخرى تترافق هذه الخسائر العاطفية بخسائر ملموسة، كفقد الأقارب أو الأصدقاء والمنازل والكلاب وحتى الحدائق. في حالة الصدمة المشتركة، تنتشر ردود الفعل على الأذية التي أقدم عليها العدو على المستويات الفردية والعائلية والإقليمية عبر المجموعة الكبيرة بأكملها. وإذا تسببت الصدمة المشتركة في مشكلة اللاجئين، فإن الذين لم يتأثروا بشكل مباشر يتعاطفون مع اللاجئين من ناحيتهم. ولكن عندما يصبح اللاجئون، كالنازحين الجورجيين مثلًا، عبئًا أو يُنظر إليهم على أنهم عبء على أشخاص آخرين من نفس المجموعة، فقد نشهد انقسامات في المجموعة الكبيرة. مع ذلك، يمكن لتجدد الأعمال العدائية مع العدو الخارجي أن يزيل بسهولة مثل هذه الانقسامات. كما يشعر اللاجئون الذين يُجبرون على ترك بيئاتهم المألوفة بعجز شديد وفي ذات الوقت بغضب عارم حيال الحداد على ما فقدوه لأن صدمتهم تعقد عملية الحداد المعتادة.

إن فقدان شخص أو شيء مهم من الناحية النفسية يستهل الفجيعة والحداد. ونحن على علم بمراحل شفاء الجرح الجسدي في حال لم يصب بالتهاب. وبالمثل، إننا نعرف مراحل تعافي الجرح النفسي الناجم عن خسارة كبيرة إذا لم يصبح معقدًا. في مؤلفات علم النفس، لا فرق بين الفجيعة والحداد في كثير من الأحيان. وتعتبر ردود الفعل الأولية على الفقد فجيعة. فالمفجوع، إلى حد ما، يستمر بضرب رأسه بجدار – لا ينفتح أبدًا ليسمح للميت أو الشيء المفقود بالعودة. ويشمل رد فعل الفجيعة، من وقت لآخر، بعض العلامات التالية أو كلها: ضيق التنفس، وضيق في الحلق، والحاجة إلى التنهد، والوهن العضلي، وفقدان الشهية، والشعور بالصدمة أو الألم، ونوبات البكاء، وإنكار الفقدان، والمساومة مع الله أو

القدر لإعادة ما فُقد، وتقسيم وظيفة الأنا بحيث يمكن أن تحدث تصورات وتجارب متعارضة في وقت واحد. توضح العلامة الأخيرة، مثلًا، كيف أن امرأة على الرغم من أنها تعرف أن زوجها الميت متمدد في النعش في دار الدفن، فإنها «تسمع» جلبة سيارته وهي تسحق الحصى في ممر السيارات. في النهاية، تفضي الفجيعة إلى الغضب، وهو مؤشر «صحي» على أن المفجوع يشرع في قبول الحقيقة بأن ما فقده لن يعود. يستغرق رد فعل الفجيعة النموذجي بضعة أشهر حتى يزول. وفي الحقيقة، لا يوجد رد فعل فجيعة نموذجي، لأن ظروف الخسارة متنوعة، ولأن كل فرد يتمتع بدرجة مختلفة من التأهب الداخلي لمواجهة الخسائر الفادحة.

للمساعدة في شرح قصة دالي وعائلتها عن كونهم لاجئين يقاسون العديد من الخسائر العاطفية والملموسة، سأركز أكثر على عملية الحداد بدلًا من استقصاء التعبيرات المختلفة لرد فعل الفجيعة بالتفصيل. فالحداد ظاهرة أقرب إلى كونها داخلية وصامتة. تبدأ بينما ما يزال الفرد يعاني الفجيعة، ثم تستمر لسنوات. وخسارة الشخص أو الشيء المادية (شيء ملموس كالمنزل مثلًا أو شيء عاطفي ككرامة المرء) لا توازي «الدفن» الذهني للتمثيل الذهني (مجموعة من العديد من الصور) لما فقده المرء. في الواقع، إن الخسارة المادية (أو حتى التهديد بالخسارة المادية) تحول انتباه المفجوع البالغ إلى الصور الذهنية للشخص أو الشيء المفقود.[18] إذ تشير عملية الحداد لدى البالغ إلى مجموع الأنشطة الذهنية التي يؤديها المفجوع في مراجعة التمثيل الذهني للشخص أو الشيء المفقود والتعامل معه. وهذا يتضمن اختبار الغضب خلال عملية الحداد. ويكون هذا الغضب مختلفًا عن غضب عملية الفجيعة الحادة. فخلال الثاني، يكون المفجوع غاضبًا لأن الخسارة التي يرغب المفجوع بشدة في عكسها، لا يمكن عكسها. في أثناء عملية الحداد، مع ازدياد قبول الفقدان أكثر فأكثر، يعيش المفجوع جرحًا نرجسيًا يحدثه الشخص أو الشيء المفقود. فبالموت أو الاختفاء، يتسبب الشخص أو الشيء المفقود بعملية مؤلمة يجب على المفجوع أن يخوضها. عادةً، لا يكون المفجوع مدركًا هذا الغضب الموجه نحو الشخص أو الشيء المفقود؛ فغضبه موجه نحو

شخص أو شيء آخر. على سبيل المثال، شعر أفراد عائلة كاتشافارا وغيرهم من النازحين داخليًا بالغضب من شيفردنادزه في كل مرة أصابتهم حرب صغيرة جديدة بالصدمة وأحسوا بخساراتهم مجددًا.

ما دمنا على قيد الحياة، إننا لا نفقد التمثيل الذهني للأشخاص أو الأشياء المهمة أبدًا، حتى عندما نفقدهم في العالم المادي. إذا اكتملت عملية الحداد، فمن الناحية العملية، إننا نجعل التمثيل الذهني للشخص أو الشيء المفقود «بلا مستقبل».[19] ومثل هذا التمثيل الذهني لا يُستخدم بعد الآن لتلبية رغباتنا؛ فلا مستقبل له، ولا تأثير مستمر أو دائم. على سبيل المثال، يقلع الشاب عن تخيل أن زوجته، التي فارقت الحياة منذ فترة، ستمنحه المتعة الجنسية. أو تتخلى المرأة عن رغبتها في إدارة المرؤوسين لها في الوظيفة التي طُردت منها قبل سنوات. نحن «ندفن» الصور الذهنية للشخص أو الشيء المفقود عندما ننجح في جعلها بلا مستقبل. فخلال عملية الحداد، يراجع المفجوع بطريقة مجزأة صور ما فقده، وبذلك يكون قادرًا على الاحتفاظ بجوانب من صور الشخص أو الشيء المفقود داخل ذاته. في التحليل النفسي، نشير إلى هذا على أنه تماهي المفجوع مع سمات أو وظائف الشخص أو الشيء المفقود. على سبيل المثال، بعد عام أو ما شابه على وفاة والده، يصبح الشاب الطليق صناعيًا جادًا كما كان والده المتوفى. وبالمثل، قد يخلق المهاجر الذي خسر بلده تمثيلًا رمزيًا لوطنه في لوحة أو أغنية، ما يشير إلى أن هذا المفجوع قد استدخل صورًا معينة للأرض التي فقدها وحافظ عليها.

إلا أنه قد تحدث تعقيدات في أثناء عملية الحداد. وأحد الأسباب الشائعة للتعقيدات هو تلوث عملية الحداد بردود الفعل على الصدمة. فعندما ترتبط الخسارة بتجارب العجز، والغضب السلبي وبالتالي غير الفعال، والعار، والإذلال، فإن عملية الحداد تكون مصحوبة بمهام نفسية أخرى، كقلب العجز إلى نشاط، وتحويل الغضب السلبي إلى توكيد، وعكس العار والإذلال، وحتى إضفاء المثالية على الضحية إذا كانت الظروف لا تسمح للشخص بتنفيذ المهام الأخرى. قد تكون الخسارة نفسها صادمة في حد ذاتها، لا سيما حين تكون

مفاجئة أو غير متوقعة أو مرتبطة بالعنف، كجريمة القتل أو الانتحار مثلًا. وبالإضافة إلى الخسارة نفسها، إن الجمع بين خسارة فادحة وصدمة فعلية مصحوبة بتجارب العجز سيعقد عملية الحداد بطريقة خطرة.

تفضي التعقيدات في عملية الحداد إلى نتائج مختلفة. فقد يصاب المفجوعون بالاكتئاب[20] أو قد يصبحون مفجوعين دائمين، محتوم عليهم الاستغراق في الصور الذهنية لما فقدوه لعقود قادمة وحتى نهاية حياتهم.[21] يختبر المفجوعون الدائمون حدادهم دون أن يصلوا به إلى خلاصة عملية. وثمة درجات من الخطورة في مثل هذه الحالة. فبعض المفجوعين الدائمين يعيشون حياة بائسة. ويعبر آخرون عن حدادهم اللامنتهي بطرق أكثر إبداعًا، لكن حتى هؤلاء الأشخاص، عندما لا يكونون مهووسين بالإبداع، يشعرون عادةً بعدم الارتياح لأنهم يستنزفون طاقاتهم على الأشياء التي رحلت ولديهم طاقة أقل لأنشطة الحياة الفعلية والحالية. ففي كل يوم، يُعنى المفجوع الدائم «بإحياء» الشخص أو الشيء المفقود أو «التخلص منه نهائيًا». في إحدى طرق التعامل مع هذا الاستغراق اللامنتهي وتجنب المشاعر غير المريحة المرتبطة به، يستخدم المفجوع الدائم جمادات أو كائنات حية معينة ليرمز إلى أرضية مشتركة بين الصورة الذهنية لما فقده وصورة الذات المقابلة للمفجوع. إنني أسمي هذه الجمادات بالأجسام الرابطة وهذه الكائنات الحية بالأجسام الرابطة الحية.[22]

قد يكون الجسم الرابط من مقتنيات المتوفى الشخصية، على الأغلب شيئًا كان المتوفى يرتديه أو يستخدمه بشكل روتيني، كالساعة مثلًا. فالرسالة التي خطها جندي في أرض المعركة قبل مصرعه قد تتطور إلى جسم رابط. أو، كما حدث في عائلة كاتشافارا، قد يصبح الحيوان الأليف جسمًا رابطًا حيًا. وحالما يتطور شيء أو حيوان أليف إلى جسم رابط أو جسم رابط حي، يشعر المفجوع الدائم تجاهه بأنه «سحري».[23] يتجسد عمل الحداد في فحص علاقة المفجوع، مرارًا وتكرارًا، مع الشخص أو الشيء المفقود إلى أن تتوقف مثل هذه الفحوصات عن كونها ملحة ومصحوبة بمشاعر متأججة. إنه عملية داخلية. والمفجوع الدائم، بامتلاك جسم رابط، ينقل عملية الحداد، بدرجة أو بأخرى، من عملية داخلية ويضعها

«خارجًا». ومن خلال التحكم في الجسم الرابط أو الجسم الرابط الحي، الموجود «خارجًا»، يخرّج المفجوعون الدائمون حدادهم المعقد. ودون أن يكونوا مدركين ذلك تمامًا، فإنهم يؤجلون عملية الحداد من خلال إعطاء صورة ما فقدوه حياة جديدة في الجسم الرابط. ولكن كما أشرت، في حين أن وجود جسم رابط يؤجل العمل الداخلي لعملية الحداد، فإنه أيضًا يبقي الأمل حيًا لاستئناف عملية الحداد وإتمامها في وقت لاحق.[24] يخفي بعض المفجوعين أجسامهم الرابطة في الأدراج أو الخزانات المقفلة. والشيء المهم هو حاجة المفجوع الدائم إلى معرفة مكان وجود الجسم الرابط؛ إذ يجب حمايته والسيطرة عليه. يجب أن أضيف هنا، ليس كل تذكار يربطنا عاطفيًا بالأشخاص أو الأشياء هو جسم رابط. وفي الواقع، إن اقتناء مثل هذه التذكارات يمنح تجاربنا الحياتية إحساسًا بالاستمرارية ويساعدنا في الحفاظ على إحساسنا بالذات.

كما ذكرت، شعرت أن تشارلي الثاني كان جسمًا رابطًا حيًا لعائلة كاتشافارا، ولا سيما دالي. (كما سأشرح لاحقًا في هذا الفصل، ظهر الإثبات الحقيقي على أن تشارلي الثاني قد استُخدم فعلًا كجسم رابط حي لما شاهدتُ رد فعل دالي على موت هذا الكلب). ثمة أجسام رابطة مرئية أخرى تشاركتها عائلة كاتشافارا هي قصائد والد دالي، التي تُكتب كل يوم، والتي كانت أجسامًا رابطة يبدعها أحد المفجوعين. في كل صباح، كان أفراد العائلة يجتمعون في شقة دالي وماموكا حتى يتمكن نودار من إلقاء القصيدة التي كتبها في اليوم السابق. في أثناء قراءة قصيدته، يصغي الجميع دون مقاطعة. وبعد انتهائه، كان أفراد الأسرة الآخرون يدلون بتعليقاتهم حول القصيدة، التي ربط محتواها، بشكل مباشر أو غير مباشر، العائلة بماضيهم في أبخازيا وبصراعهم العاطفي للتخلي عما فقدوه ماديًا أو للحفاظ على الرغبة في استعادة ما فقدوه حية.

لقد لاحظت ظواهر أخرى (ظواهر رابطة) ربطت أفراد عائلة كاتشافارا بصور حياتهم في أبخازيا باستمرار. والظاهرة الرابطة، بخلاف الجسم الرابط الحي أو غير الحي، ليست مرئية كما كان الكلب تشارلي، لكنها تعمل بالطريقة نفسها. وقد لفتت تامونا انتباهي لمثال

عن ظاهرة رابطة في أثناء زيارتي لجورجيا خريف عام 1998. فحين زرت عائلة كاتشافارا، أخذتني دالي أنا ومانانا على انفراد وطلبت مني، كطبيب نفسي، مساعدة ابنتها على خسارة بعض الوزن. أشارت إلى الخزان المائي، وهو بحر تبليسي، عبر النافذة فوق شرفتهم المليئة بالأغراض المبعثرة، وقالت: «يسبح العديد من الناس هناك خلال الصيف وحتى الآن. إني أحث تامونا على الذهاب والسباحة هناك أيضًا. وهي دائمًا ما ترفض. لو أنها تسبح بانتظام، ستحافظ على انخفاض وزنها. ما الذي ينبغي أن أفعله؟». لاحقًا، حين كنت أنا ومانانا وحدنا مع تامونا، أخبرتُ تامونا عما يشغل بال والدتها. فرمقتني بنظرة كأنها كانت متفاجئة من أنني لم أتمكن مسبقًا من تكهن سبب عدم سباحتها في بحر تبليسي. إذ قالت: «حين كنا في غاغرا، وددت الذهاب إلى البحر الأسود والسباحة فيه. فإذا سبحت في بحر تبليسي سأضعف ذاكرتي عن البحر الأسود. وبعدم السباحة في بحر تبليسي، أحافظ على فكرتي حية بأنني سأعود يومًا ما إلى غاغرا».

لقد وجدت تامونا فتاة شابة لافتة للنظر. فهي كوالدتها، ذكية ولديها فهم خارق لسيكولوجيتها. إلا أنها، على عكس والدتها، فضلتْ أن تلتزم الصمت معظم الوقت، وبدت كأنها منطوية على نفسها ومكتئبة إلى حد ما. مع ذلك، كانت في كل مرة أتحدث معها على انفراد (بحضور مانانا أو جانا طبعًا) تعود إلى الحياة. وقد أخبرتني أن رفضها السباحة في بحر تبليسي وتجنبها في الواقع التمرينات البدنية الأخرى له تفسير آخر. فكلما نامت في غرفة الجلوس، التي كانت مفصولة عن «غرفة نوم» والديها بستارة فقط، سمعتْ ماموكا ودالي يتهامسان حول عدم توفر مال كاف لشراء الطعام. إذ كانا يخشيان عدم قدرتهما على إطعام أطفالهما كما ينبغي. ولم يفصحا عن همومهما علانية. لكن تامونا كانت تعرف مخاوفهما السرية. قالت لي: «ببقائي زائدة الوزن قليلًا، أخبر أمي كل يوم، 'انظري يا أماه! أنا لست جائعة؛ في الواقع، أنا متخمة!'». لقد تأثرت بسماع هذا. فتامونا كانت تتواصل مع والدتها من خلال مظهر جسمها لا بالتلفّظ برغبتها في تخفيف حرقة والديها. بموافقة تامونا، أخبرتُ دالي عن سبب إصرار تامونا على بقائها زائدة الوزن قليلًا. واقترحتُ أنه من

الأفضل أن يتحدثوا عن مخاوف أسرتهم علانية. ما تزال دالي تنظر إلى تامونا على أنها تلك الفتاة الصغيرة المذعورة التي تهرع إلى المروحية هربًا من موت محدق. أخبرتُ دالي أن تامونا قد بلغت الآن السابعة عشرة من عمرها، وأنها تود أن يُنظر إليها على أنها بالغة راشدة، وأن بإمكانها أن تتقبل سماع الأمور المالية.

بعد بضعة أشهر عدت إلى جورجيا. وأراد جزء مني إحضار الهدايا لعائلة كاتشافارا، كالأصناف الغذائية التي ليس في وسعهم شراؤها. لكنني قررت عدم القيام بذلك، إذ اعتقدت أن مثل تلك الهدايا ستحرجهم. وأردت أن أراعي توقعهم الثقافي بأن الزائر يجلب الهدايا، لكنني في نفس الوقت لم أرغب في الظهور كشخص أثرى منهم أو مستعلٍ عليهم. أخيرًا، توصلت إلى حل وسط: سأحضر لهم هدايا يمكنهم تقديمها للأطفال النازحين داخليًا في الفنادق الثلاثة السابقة. وهكذا، قدِمت بحقيبة مليئة بالأقلام، وأقلام الرصاص، ودفاتر الكتابة، وأدوات مدرسية أخرى لأعطيها لدالي. وهي بدورها يمكنها أن توزع هذه الأغراض على الأطفال. خلال هذه الزيارة، أخبرتني دالي كيف كانت تتواصل مع تامونا شفويًا وتتشاركان شواغل العائلة. وكانت تامونا قد خسرت مسبقًا بعض الوزن والابتسامة لا تفارق وجهها. حين تحدثتا إلي، خاطبتاني باسم «فاميكنا».

دائمًا ما كانت مانانا أو جانا على علم بموعد وصولي أنا وفريقي إلى جورجيا وكانتا تتصلان بدالي وتبلغانها بالموعد. وهكذا، كانت دالي وأفراد عائلتها ينتظرونني لزيارتهم. حين ذهبت إلى شقتهم وبدأت مقابلاتي العلاجية الفردية، عادةً ما افتتحت الحديث بقول شيء من هذا القبيل: «حسنًا، لقد كنتم على علم بأنني سأزوركم اليوم. فما الأحلام التي راودتكم الليلة الماضية لتقصّوها عليّ اليوم؟». كنت أرمي إلى تذكيرهم بأنني مهتم دائمًا بعوالمهم الداخلية. ودائمًا ما كان في جعبتهم حلم أو حلمان لنقله. خلال العام الأول أو نحو ذلك، كان المحتوى «الجليّ» لأحلامهم مشابهًا لمحتوى قصائد خوندادزه عن المتسولين والشعب في تبليسي (أي شخصية الأب شيفردنادزه)، ما يبقيهم عاجزين ويستفزهم ليظلوا غاضبين. بصفتي محللًا نفسيًا، كنت أسمع انعكاسًا لاهتمامات اللاجئين النمطيين الفموية

والشرجية. أشير بالفموية إلى الرموز والإشارات في أحلامهم التي عكست خوفًا من البقاء جياعًا، ورغبةً في التغذي، وإزاحة عوزهم إلى الآخرين، و«مضغ» العدو. وبالشرجية أنا أشير إلى الرموز والإشارات في أحلامهم التي عكست رغبة في جمع العديد من الأغراض (من زاوية تحليلية نفسية، إنها تعكس الصورة الذهنية للإمساك) وعمل كومة فوضوية أو تفجير الأشياء (تعكس حركة عنيفة في الأمعاء). في الأحلام التي «راودتهم من أجلي» في الليلة السابقة لزيارتي لهم، ظهرتُ أحيانًا بطريقة صريحة وأحيانًا كزائرٍ من خارج عالمَيهم الفموي والشرجي، زائرٍ يغذيهم أو يساعدهم في تفجير الأشياء دون الشعور بالذنب. ليس عجيبًا، في اعتقادي، أنني أصبحت «فاميكنا» بالنسبة لهم.

كنت أدرك أن وجود شخص قادم من مكان قصيّ يظهر اهتمامًا حقيقيًا بهم مهمٌ في تحريك التوجه الداخلي لأفراد عائلة كاتشافارا وفي تغيير علاقاتهم الشخصية. لقد أبلغتني دالي أن مجموعة من السيدات النازحات داخليًا في بحر تبليسي يزُرْنَها الآن بانتظام. من خلال التماهي معي، كانت تجري محادثات «علاجية» معهن، وتخبرهن بعدم التكتم على مخاوفهن وعدم إخفاء الأسرار عن أطفالهن البالغين. وقد شعرت بالسعادة لمعرفة أن دالي كانت تسأل هؤلاء السيدات أيضًا عن أحلامهن!

بعد مرور عام أو نحو ذلك على مقابلتي عائلة كاتشافارا لأول مرة، حدث تغير كبير في الأحلام التي راودت دالي وتامونا في الليلة السابقة لزيارتي لهم. كما كان سماع أحلام ماموكا ممتعًا جدًا. لكن، لسوء الحظ، أبقاه جدول عمله في هذا الوقت بعيدًا عن بحر تبليسي ولم يكن بإمكاني التحدث معه. في النوع الجديد من أحلام دالي وتامونا، لم أعد أحضر السلع لإشباع رغباتهم الفموية والشرجية، المعوزة والعدوانية. وقد أوحت الأحلام الجديدة ما أسميته إعادة عقدة أوديب لعوالمهم الداخلية. تتضمن اهتمامات الفتيات الأوديبية شخصية الأب التي تمنحهن الحب والأطفال (في الخيال طبعًا) وتساعدهن على الشعور بالرضا عن تطور أنوثتهن. فقد تغيرت أحلام تامونا بشكل واضح من قيامي بجلب (أو تمثيلي الرمزي له) الطعام لها إلى قيامي بجلب طفل لها. في أحد الأحلام كانت تُلبس طفلة ثوبًا جديدًا

وتلعب معها وتُضحكها. وبدأت دالي تحلم بأنني سأنام في شقتهم. إننا، كأطفال، نمر عادةً بمراحل تطورية في أثناء نمونا. إذ يشير التصنيف الكلاسيكي لهذه المراحل في التحليل النفسي إلى انتقال الطفل من الاهتمامات الفموية إلى الشرجية ثم التناسلية والأوديبية التي تعبر عن الصراعات والحلول للمسائل الداخلية. تدفع الصدمة الملاجئ إلى التثبيتات السابقة للمرحلة التناسلية. فقد استشعرتُ أن قدومي من الخارج واهتمامي بهم، حشد محاولات دالي وتامونا للتقدم وإعادة الرغبة لعوالمهما الداخلية. فهما ستحبان نفسيهما وستشعران بمزيد من تقدير الذات. وهذا سيستهل، كما اعتقدت، تكيفًا جديدًا وأقل إحباطًا لظروفهم الخارجية التي ما تزال بائسة.

حلمت دالي ورغبت في أن أنام في شقتهم حين أزور جورجيا، وأخبرتني أنه ينبغي عليهم إيجاد حل حتى يتوفر لي مكان مناسب للنوم بما أن نومي بجانبها وجانب ماموكا لن يكون ملائمًا. لذلك، بدأت عائلة كاتشافارا، في أواخر عام 1999، ببناء غرفة لي. وأسموها «غرفة فاميكنا». لم أقل شيئًا لمنع هذا لأنني، من الناحية النفسية، أدركت أن بناء هذه الغرفة كان مرتبطًا بتوليد الرغبة لعالمهم الداخلي – إذ كان تعبيرًا خارجيًا عن رغبتهم في جعل البؤساء محبوبين أكثر. ولأن شقة عائلة كاتشافارا كانت أقصى الجانب الغربي من أوكروس ساتسميسي، كان بإمكانهم فصل جزء من الرواق وتحويله إلى مكان للسكن بطول عشرة أقدام وعرض عشرة أقدام.

استغرق بناء «غرفة فاميكنا» عامًا. وقد لاحظت خلال زياراتي أن العائلة كانت تشارك في شكل من أشكال «اللعب العلاجي» لإصلاح عالمهم الخارجي وعوالمهم الداخلية المقابلة. وأفراد عائلة كاتشافارا مثل تامونا التي كانت في أحد أحلامها تُلبس ثوبًا جديدًا للطفلة التي «جلبتُها» لها من أمريكا، إذ كانت «غرفة فاميكنا» الطفل الجديد المشترك لعائلة كاتشافارا، الذي يجسد إحساسهم بأنهم «يولدون من جديد» من اكتئاب وحداد معقدين. اقترح المحللون النفسيون، لا سيما الذين يعملون مع الأطفال، أن أفضل وصف «للّعب» يكون من خلال وظائفه، وهم يعتبرون الطرق العديدة التي يلعب بها الأطفال محاولاتٍ لإيجاد حلول

للنزاعات، أي إرساء التغلب على الأنا والإبداع.[25] بتسمية الغرفة باسمي، احتفظوا بصورتي «العلاجية» معهم بينما يشاركون في لعبة العام الواحد. وحين كنت في أوكروس ساتسميسي لم يسمحوا لي برؤية عملهم على الغرفة، إذ طلبوا مني أن أنتظر وأرى النتيجة النهائية. كان باب الغرفة التي يبنونها مغطى بقطعة قماش معلقة. أخبروني أنهم سيضيفون موقدًا إلى الغرفة، وتحدث ماموكا عن انتهائه من تركيب الخشب على الأرضيات. حلمت دالي بحلم جديد رأتني فيه نائمًا في هذه الغرفة. بدأت أتخيل أن «غرفة فاميكنا» ستكون كجوهرة في وسط كومة من القمامة – وهو تعبير خارجي عن إعادة الرغبة لعوالمهم الداخلية. لقد استمتعت كثيرًا بسماع وصفهم للغرفة المستقبلية ورؤية حماستهم.

تساءلتُ أيضًا لم استثمرتُ الكثير في هذه العائلة. هل كنت أمضي الوقت معهم من أجل اهتماماتي الأكاديمية وجمع البيانات عن التكيف الداخلي الطويل للنفي القسري فحسب؟ لقد أدركت منذ البداية أن رغبتي تجاوزت مجرد الشعور بالسعادة لكوني عونًا لعائلة كاتشافارا. فثمة قصتان أخبروني بهما ربطتاني بهم عاطفيًا وجعلتاني أتماهى معهم. لكنني لم أخبرهم بمدى تشابه هاتين القصتين مع تجارب عشتها في حياتي، إذ اعتقدت أن مشاركة ماضيَّ قد يكون عبئًا، فهم سيرغبون بلا شك في مساعدتي في جراحي القديمة وهذا قد يستلزم المزيد من العمل النفسي عليهم.

لقد ولدت في جزيرة قبرص في البحر المتوسط وتركت تلك البقعة من العالم مع تصاعد الصراع الإثني بين اليونانيين والأتراك في الجزيرة. قبل مجيئي إلى الولايات المتحدة في عام 1957، تشاركت شقة في أنقرة بتركيا لأكثر من عامين مع تركي قبرصي آخر. وكلانا كان يدرس في كلية الطب هناك. بعد ثلاثة أشهر من وصولي بأمان إلى الولايات المتحدة، قُتل رفيقي السابق في السكن برصاص إرهابيين يونانيين قبرصيين في أثناء زيارة عائلته في قبرص. لم يُقتل بسبب ثأر شخصي، وإنما قُتل باسم الهوية. لقد كان شابًا صاعدًا في الجالية التركية في قبرص، وقد قُتل لأنه ينتمي إلى تلك الجالية، ولأن العدو أراد إيذاء المجموعة الكبيرة المعارضة وإذلالها والتسبب في جرح جماعي – أي باسم مجموعتهم الكبيرة. لما

علمت بموت صديقي، بينما كنت طبيبًا مقيمًا في مستشفى الشماسة اللوثرية في شيكاغو، شعرت بذنب الناجي.[26] كما لم أتمكن، في مرات عديدة ولشهور في كل مرة على مدار سنوات، من الاتصال بأفراد عائلتي الذين أجبروا على العيش في جيب تركي في قبرص محاط بأعدائهم. أخيرًا، في عام 1968، تمكنت من العودة إلى قبرص بعد تحسن الوضع السياسي والعسكري. وفي أثناء وجودي هناك، زرت صديقي الشاعر أوزكر ياشن.

في 25 ديسمبر 1963، وهو اليوم الذي أصبح الأتراك القبارصة يطلقون عليه اسم «عيد الميلاد الدامي»، قبض اليونانيون القبارصة على زوجة أوزكر ووالدته، كما حصل لمعظم الأتراك الآخرين الذين يعيشون في قريتهم المختلطة بالقرب من العاصمة نيقوسيا. نجا أوزكر من الأسر لأنه ذهب في يوم الاعتقال إلى القسم التركي من العاصمة. في الليلة التي أُسرت فيها زوجته، أنجبت طفلها في مستشفى نيقوسيا العام، الذي كان آنذاك تحت السيطرة اليونانية القبرصية. تُرك الطفل حديث الولادة في سرير مع أطفال أتراك آخرين صادف وجودهم هناك في ذلك الوقت، ووُضعوا في غرفة كانت تُستخدم أيضًا كمستودع لجثث الضحايا الأتراك. في نهاية المطاف، صُدمت ممرضة بريطانية لدى رؤيتها هذا المشهد، وتمكنت من فصل الأطفال الأحياء عن الأتراك القتلى. ظل أوزكر لبعض الوقت لا يعلم شيئًا عن نجاة زوجته ووالدته من الأسر، لكن شملهم التم في 10 يناير، مع الطفل الوليد، الذي سُمِّي «سافاش» (يعني «الحرب») بسبب ظروف ولادته.

في 13 يناير، كتب صديقي الشاعر قصيدة يخاطب بها ابنه:

برصاصة من شخص وضيع
كان من الممكن أن تموت، يا سافاش،
قبل أن تولد:
كنت ستموت في بطن أمك
دون أن تعرف
المعجزة التي تسمى حياة

فلها جزيل الشكر على خلاصك

لقد وُلدتَ...

وقد كان من المحتمل ألا تولد.[27]

بين 13 يناير و10 مارس من عام 1963، كتب الشاعر سلسلة من القصائد الأخرى الموجهة لابنه. ونُشرت تحت عنوان *رسائل إلى ابني سافاش*. بالإضافة إلى مجلدَي أوزكر المنشورين سابقًا،[28] شكلت هذه الرسائل تاريخًا شعريًا للصراع القبرصي من وجهة نظر تركي قبرصي. في الواقع، لقد كتب صديقي قصيدة يوميًا على مدى بضع سنوات. وحين زرته أعطاني نسخًا من المجلدات الثلاثة التي قرأتها بعد عدة أيام وشعرت بالتأثر.

بعد أحد عشر عامًا، في ربيع عام 1975، قضيت بعض الوقت مع سافاش الصغير حين زرت قبرص مرة أخرى. في إثر رؤيته جثة في بستان قريب، وهي ضحية أخرى للصراع التركي القبرصي واليوناني القبرصي المتقطع، أصيب سافاش البالغ من العمر أحد عشر عامًا بإحساس غريب في جلد وجهه. إذ بدت بشرته جافة، واعتقد أنه إذا حكّها، فإن أجزاءً من وجهه ستتهشم كأنه وجه لتمثال حجري. بعد حديثي معه، أدركت أنه يحمل عبء أن يكون رمزًا خاصًا للصراع القبرصي منذ نعومة أظفاره. في هذا الوقت، اعتقدت أنه تحول إلى «تمثال حي»، أشبه بجسم رابط حي. وقد تمكنت من مساعدة سافاش واختفت أعراضه.

حين علمتُ أن نودار كان يكتب قصيدة كل يوم كصديقي أوزكر تمامًا، ربطت في الحال عالم النازحين الجورجيين بعالم «شعبي» في قبرص في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين. وقد كان هذا أول رابط عاطفي أحسه نحو عائلة كاتشافارا. أما القصة الأخرى التي ربطتني بقوة بعائلة كاتشافارا وجعلتني أتماهى معهم أكثر، فوردت من دالي حين أخبرتني عن رؤيتها، بالصدفة، احتراق منزلهم وتشارلي الأول في بث تلفزيوني روسي. في صيف عام 1974، واجه الأتراك القبارصة مرة أخرى مصيرًا مجهولًا على أيدي اليونانيين في الجزيرة. إلا أن الجيش التركي في هذه المرة قد تدخل وسيطر على الجزء الشمالي من الجزيرة، وقسمه بحكم الأمر الواقع إلى قسم شمالي تركي وقسم جنوبي يوناني. لا شك أن

هذه الحرب أسفرت عن مآسي جديدة وهلك كثيرون من كلا الطرفين. لكنني في أثناء إقامتي في الولايات المتحدة، لم أتمكن من التواصل مع عائلتي في الجزيرة، ولم يكن لدي أدنى فكرة عما قد يصيبهم وخشيت أن يُقتلوا خلال الحرب.

في وقت متأخر ذات ليلة، كنت أشاهد التلفاز في منزلي في شارلوتسفيل بفيرجينيا، وفجأة، ظهر على الشاشة وجه أمي يغزوه الخوف، ثم رأيت إحدى أخواتي وبعض جيرانها. تحدث أحد المراسلين وقال إن الصور المتلفزة تظهر الأتراك القبارصة وهم يخلون منازلهم لأنهم يتوقعون هجوم اليونانيين القبارصة عليهم. كان منزل أختي (وما يزال) على الحد الفاصل بين القسمين التركي واليوناني في نيقوسيا. لم أصدق ما كنت أراه وأسمعه. لقد أُصبت بالصدمة وشعرت بالذنب لوجودي في مكان آمن، ولعجزي عن مساعدة أمي وأختي و«شعبي». كنت مذعورًا أيضًا. بمرور بعض الوقت، ظننت أنني كنت أهلوس كل ذلك. في صباح اليوم التالي، أعادت المحطة التلفزيونية نفسها خبر الليلة السابقة وعرضت ذات الصور، وهذه المرة شاهدتها زوجتي أيضًا. فانهار دفاعي –اعتقادي بأنني كنت أهلوس– ضد أفكاري ومشاعري المرهِقة، وتُركت تحت رحمة مخاوفي. حين أخبرتني دالي أنها رأت على شاشة التلفاز منزلها يشتعل وتشارلي الأول يركض في الأرجاء، شعرت بأنني قريب منها جدًا. من الواضح أن رغبتي في مساعدة دالي وعائلتها انطوت على جوانب من رغبتي في العمل على مسائلي غير المنتهية التي كانت مرتبطة بصدمات من ماضيَّ.

في المرة التالية التي ذهبت فيها إلى جورجيا، توقعت أن أرى «غرفة فاميكنا» الجاهزة. في صباح اليوم التالي لوصولي إلى تبليسي، قابلتُ جانا التي أعلمتني بالأخبار السيئة. فقبل أسابيع من قدومي إلى جورجيا، أصيبت دالي بسكتة دماغية وهي في حالة صحية مزرية. أضافت جانا: «أنا آسفة!». لقد حدث ذلك بعد انتهاء عائلة كاتشافارا من بناء «غرفة فاميكنا» هيكليًا. قابلت جانا دالي. ومن الواضح أنها خسرت الوزن ولم تبدُ في حال جيدة. أخبرتني أيضًا أنهم استدعوا طبيبًا جورجيًا يدعى أوكروس ساتسميسي لفحص دالي وأنه هو من شخّص حالتها على أنها من مظاهر السكتة الدماغية. ذُهلت مما سمعته وأصريت على تغيير

جدول أعمالي للذهاب إلى أوكروس ساتسميسي على الفور. أخبرتني جانا وأصدقائي الجورجيون الآخرون أنه ما من شيء يمكنني فعله ما دامت دالي تواجه صعوبة في الكلام. إلا أنهم استسلموا أمام إصراري الدؤوب وقادوني إلى بحر تبليسي.

كانت دالي مستلقية على سرير نقال موضوع في غرفة الجلوس. بدت شاحبة ومريضة، كشبح يضوي جسمه. سحبت كرسيًا وجلست بجوارها فرمقتني بابتسامة خافتة وأخبرتني أنه منذ بضعة أسابيع مات تشارلي الثاني لأسباب طبيعية. على حد علمي، كان عقلها على ما يرام. على الرغم من أنني لم أجرِ أي فحوصات عصبية خلال ممارستي للتحليل النفسي منذ عقود، فقد أدركت في الحال أن دالي لا تعاني سكتة دماغية، وإنما مصابة باكتئاب شديد. تذكرت أنه في كل زيارة تقريبًا من زياراتي إلى بحر تبليسي، أُقيمت مراسم جنازة أمام أحد الفنادق الثلاثة السابقة. وقد قيل لي إنه في هذا المجتمع من النازحين، يموت بعض الرجال والنساء فجأة «دون سبب واضح». فاستنتجت أن كون المرء لاجئًا ومصابًا بالاكتئاب مزيج مميت. لكنني لم أعرف ما التغييرات الفزيولوجية أو البيولوجية التي بدأت في هذا المكان أو كيف تطورت لتصبح قاتلة لسكانه. بدت دالي الآن كأنها ستكون قريبًا في عداد الموتى أيضًا. إلا أنني كنت راضيًا أن أدركتُ عدم إصابتها بسكتة دماغية وأنها تمكنت من إخباري سبب اكتئابها الشديد – ألا وهو موت تشارلي.

طلبتُ من الآخرين جميعهم تركي أنا وجانا وحدَيْنا مع دالي. فغادر الجميع وقضيت أنا ودالي ساعات طويلة نتحدث (بمساعدة جانا طبعًا) دون إضاعة الوقت في فعل شيء آخر. لقد «فسرت» معنى موت تشارلي لدالي، قائلًا إنه بفقدانها الجسم الرابط الحي، لم يعد بإمكانها تأجيل حدادها أو التحكم فيه. وقد أُجبرت على مواجهة حزنها وشعورها بالذنب تجاه فقدان منزلها المفضل في غاغرا، وموت الطيار الذي أنقذها وأطفالها، وفقدان تشارلي الأول والثاني – باختصار، حياتها السابقة وهويتها. أخبرتني دالي بتروٍ عن الأحداث الأخيرة وكان بإمكان كلانا أن يفهم كيف استبدلتِ تشارلي وكيف أصبحتْ هي، لا الحيوان الأليف،

جسمًا رابطًا حيًا لبقية أفراد عائلة كاتشافارا. إن عبء كونها جسمًا رابطًا حيًا كاد يقصم ظهرها، إذ كانت تؤدي بمفردها المهمة التي يقوم بها الجسم الرابط أو الظاهرة الرابطة.

انتهى بناء «غرفة فاميكنا» بالصدفة قبل موت تشارلي الثاني. وفي هذه الأثناء أيضًا، كان أصغر أولاد دالي يفسح المكان بمغادرة المستوطنة في النهار للدراسة في الجامعة. قبل موت تشارلي، تزوج فاليري صديقته من منطقة بحر تبليسي وكان أليكو مغرمًا بفتاة أخرى كانت هي أيضًا نازحة. شعرت دالي أنها تُركت خارج هذه التغييرات. فقد «كلفتها» العائلة بحمل عبء هويتهم كلاجئين. في هذا الوقت، غيرت العائلة خطة العام الواحد للعودة إلى أبخازيا إلى خطة الخمس أعوام.

أصبح إتمام بناء الغرفة وموت الكلب مرتبطين بأحداث أخرى تتعلق بالهوية. فالعملية التي أسميها «التحقق» من هويات اللاجئين الجديدة، باعتبارها استمرارًا لهوياتهم السابقة، من خلال آخرين مهمين من الناحية النفسية ضروريةٌ لتكيف اللاجئ مع بيئته الجديدة. وقد اعتبرني أفراد عائلة كاتشافارا آخر مهمًا كان يقوم بعملية التحقق هذه. سيقول المحللون النفسيون إن أفراد عائلة كاتشافارا قد طوروا «انتقالاً إيجابيًا» نحوي. فثمة حدثان مؤخران آخران «تحققا» من هويتي نودار وماموكا باعتبارهما استمرارًا لهويتهما في أبخازيا.

تلقى نودار، وهو كاتب وصحفي بارز في أبخازيا قبل الحرب، تحققًا عندما نُشرت القصائد التي بدأ بكتابتها في بحر تبليسي في صيغة كتاب ونالت اعترافًا بأنها قطعة أدبية رائعة. أخبرتني دالي أيضًا أن نودار حصل على جائزة عن كتابه وأن التجربة غيّرته. فدالي تعرف أن والدها كان في السابق رجلاً حنقًا، أما الآن فالبسمة لا تفارق شفتيه.

كما أخبرتني دالي عن حدث بالغ الأهمية في حياة زوجها. فبعد موت تشارلي الثاني، نظمت وزارة الشؤون الداخلية الجورجية مباراة كرة قدم بين لاعبي كرة القدم المحليين من تبليسي ولاعبي كرة القدم الجورجيين النازحين داخليًا من أبخازيا تخليدًا لذكرى لاعب جورجي من أبخازيا تعرض للتعذيب والقتل على يد أبخازيين. أوضحت دالي كيف شارك

ماموكا في هذه المباراة وسجل هدفين، فأثبت أنه بطل بين المتفرجين. وأهم من ذلك أنْ منحته السلطات كأسًا منقوشًا عليه اسمه وتاريخ المباراة.

في هذه اللحظة، تمكنت دالي من النهوض واصطحبتني أنا وجانا إلى «غرفة فاميكنا»، التي من الواضح أنها بنيت بحب وعناية. كانت الأرضية الخشبية مصقولة؛ وضمت الغرفة موقدًا ونافذة. إلا أنها لم تحتوِ إلا على كأس ماموكا، الذي نُصب على رف الموقد الخشبي وأرادت دالي أن نراه. لما عدنا إلى غرفة الجلوس، جلسنا جميعًا على الكراسي وتحدثت دالي عن عمل ماموكا. كان ماموكا ما يزال شرطيًا في تبليسي، ويتولى قيادة رجال شرطة من الرتب الدنيا، جميعهم من النازحين الذين يعيشون في بحر تبليسي. كانت دالي تعرف أن رئيس ماموكا المحلي رجل صالح يعامل ماموكا باحترام. وقد أخبرتني دالي أن ماموكا بدأ مؤخرًا الحديث عن تغيير خطتهم من خمسية إلى عشرية. شعرت أن دالي لم تكن جاهزة بعد لمثل هذا التغيير. وخلال حديثنا بعد ظهر ذلك اليوم، لاحظتْ إثباتًا على أنها أصبحت الجسم الرابط الحي لكل فرد في العائلة منذ موت تشارلي. فثمة طقس عائلي قديم يمارسونه مجددًا.

أخبرتني دالي أنه حتى بعد حصول والدها على الجائزة، واصل كتابة قصيدة في اليوم. فهو ما يزال يُحضِر قصائده بشكل شعائري إلى مائدة الإفطار كل صباح، ولكن الآن لا تجلس سوى دالي وتستمع إليه وهو يلقيها. ووفقًا لها، ما تزال قصائده تنطوي على إشارات إلى أوضاع اللاجئين البائسة. بعد أن يلقيها، يعطيها لدالي ويبتسم ثم يغادر الغرفة. بات واضحًا لنا أن دالي قد أصبحت الشخص الوحيد الذي يؤدي دور «الخزان» لحزنه وإحباطه وشعوره بالذنب بشكل يومي. أخبرتها أن استبدالها بتشارلي قد يرمي على عاتقها مسؤولية قطع روابط الأسرة بالماضي أو الحفاظ عليها. وما دامت تنظر إلى هذه المهام على أنها التزامات، فإنها تضع نفسها تحت الضغط. وكانت «قدرتها» على قطع هذه الرابطة –بعبارة أخرى «قتل» هوية العائلة ما قبل الهجرة– تسبب لها الشعور بالذنب. قالت لي دالي إنها فهمت شرحي.

وثمة عامل آخر يقتحم عالم دالي الداخلي ويسبب لها الاكتئاب الشديد. أخبرتني أن «غرفة فاميكنا»، كما رأيت، باتت مكتملة من الناحية الهيكلية. وسيشرعون قريبًا في تزيينها. قالت لي دالي إنه لما أوشكت الغرفة على الاكتمال، أدركتْ أنني لن أنام هناك. وكان عليها أن تتخلى عن وهمها السابق. قالت إنها بدأت تواجه الحقيقة بأنني لست فردًا من أفراد الأسرة. عند الإصغاء إلى دالي بصفتي محللاً نفسيًا، سمعت كيف كانت تستعد للتخلي عني كشخصية (انتقال) مثالية «مولدة للرغبة»، ربما تمثل أبًا أوديبيًا. أخبرتها بعبارات غير اصطلاحية أنه عليها أن تتخلى عني وتفجع على هذه «الخسارة» بنفس الطريقة التي «تفجع» بها الفتاة الأوديبية على خسارة والدها الأوديبي وهي تحل عقدة أوديب. أصغت إلي بعناية. فأخبرتها أيضًا أنه ما يزال بإمكاني الاعتناء بها حتى لو لم أنم في «غرفة فاميكنا» وأن هذه الغرفة تخصها هي وعائلتها. مع اقتراب محادثتنا الطويلة في ذلك اليوم من نهايتها، ذكّرت دالي بأن أناسًا في سنها وحتى أصغر، كانوا يموتون في بحر تبليسي، غالبًا بدون أسباب واضحة. وبعد أن علمتُ بمشاعرها الإيجابية تجاهي (الانتقال)، رفعت صوتي وأخبرتها بأنني لن أمنحها الإذن بالموت وأضفت أنها إذا لم تمت، فيمكن أن تصبح أنموذجًا للنازحين الآخرين المكتئبين، شخصًا تمكن من البقاء على قيد الحياة والتكيف.

حين عدت بعد نحو خمسة أشهر، لاحظت شيئًا على الجانب الغربي من أوكروس ساتسميسي، فعلى الجدار المواجه لموقف السيارات أنبوب مدخنة طويل جدًا بدأ من الطابق السادس ووصل إلى السطح تقريبًا. ولأنه الهيكل الوحيد من هذه الشاكلة على الجدار الخارجي، فقد بدا في غير محله، لكنني عرفت في الحال أن الموقد في «غرفة فاميكنا» أصبح الآن جاهزًا للتشغيل. بينما كنت أصعد الدرج المؤدي إلى منزل عائلة كاتشافارا، لاحظت كم كانت الممرات نظيفة. أخبرني رفاقي الجورجيون أن بعض الأموال قد جاءت مؤخرًا من النرويج وأن النازحين داخليًا في بحر تبليسي أصبحوا الآن أقدر على الاعتناء بمحيطهم المادي.

حين قابلت دالي بالكاد عرفتها. فقد اكتسبت بعض الوزن وكانت تبتسم ولأول مرة أراها تضع مستحضرات التجميل. وقفت إلى جانبها كلبة متوسطة الحجم بلون ذهبي وبقعة سوداء. وبحماسة تغلب صوتها، قالت دالي لجانا التي كانت ترافقني لترجمة كلماتها على الفور، مشيرة إلى الكلبة: «هذه ليندا». «إنها كلبة وليست سوداء. وهي ليست استمرارًا لتشارلي الأول والثاني. إنها مجرد كلبة. إلى جانب ذلك، أصلحنا منطقة مسيجة خارج أوكروس ساتسميسي لها وهي تقضي الكثير من الوقت في الهواء الطلق. وأنا لا أعتمد على صحبتها طوال الوقت. ولا أسخرها للصراع بشأن العودة إلى غاغرا أو البقاء هنا في بحر تبليسي».

خلال هذه الزيارة، كان ماموكا الذي ارتدى أفضل ملابسه المدنية في انتظارنا. وأدركتُ في الحال أن هذا سيكون يومًا مميزًا. فعائلة كاتشافارا ستصطحبنا إلى «غرفة فاميكنا» بطريقة «رسمية» إلى حد ما. إذ طلب ماموكا من دالي تقديم البسكويت والقهوة لنا على طاولة في الغرفة الجديدة بينما كان يعلِمنا أنها الآن باتت جاهزة ومؤثثة بالكامل. ومع ذلك، قالت دالي إنها ليست ترغب في خرق تقاليدنا في الاجتماع في غرفة الجلوس الأصلية للشقة التي تم تجديدها أيضًا. سارعت دالي بإبلاغي أن الغرفة الجديدة لم تعد تسمى «غرفة فاميكنا»؛ فقد أصبحت لهم. وبينما كنا نحتسي قهوتنا، تكلم ماموكا عن تغير حياتهم بعد تعافي دالي من مرضها. وأضاف قائلًا: «ليس لدينا الآن خطط لعام واحد أو عشرة أعوام». «كم كان غبيًا أن أذهب أنا ورجالي إلى الحدود ونقاتل. لقد خسرنا أبخازيا. وسنحتاج إلى الانتظار فترة طويلة لنرى كيف ستسير الأمور على الصعيد السياسي. في غضون ذلك، نحن هنا في بحر تبليسي، وعلينا أن نجعل هذا المكان منزلًا لنا. بالتأكيد، لن يكون مثل منزلنا في غاغرا. لكننا في الوقت الحالي ليس في وسعنا شراء مكان أفضل في تبليسي». واصل ماموكا تقييم وضعه. وقد كان أكثر هدوءًا الآن، لكنه كان يعاني صداعًا عرضيًا وغير قادر على الإقلاع عن التدخين بشراهة. تمتم قائلًا: «أعتقد أن هذا أفضل تكيف يمكنني القيام به. أنا بخير خلال النهار، لكنني أجد صعوبة في النوم». نزل نودار، متأنقًا أيضًا من أجل المناسبة،

وحاملاً نسخة موقَّعة من مجموعته الشعرية. بطريقة رسمية نوعًا ما قدّم النسخة لي وغادر. لم أره يومًا بهذه السعادة. ثم اصطحبتني دالي وماموكا مع جانا إلى غرفتهما الجديدة.

كانت الغرفة مؤثثة بعناية. فإلى جانب بقعة للجلوس فيها عثمانية، خزانةُ عرض تواجهها. وفي الخزانة عُرضت صور مؤطرة التقطتُها لهم خلال زياراتي السابقة وتذكارات شارلوتسفيل التي أحضرتها لهم، كفنجان قهوة عليه شعار جامعة فيرجينيا. إلى جانب الخزانة، عُلِّقت على الجدار لوحة زيتية لمبنى فاخر محفوف بالأشجار. وكان كأس كرة القدم ما يزال على رف الموقد الخشبي. طلب مني ماموكا أن أحمله لأشعر بمدى ثقله وصلابته. اعتقدتُ أنه كان بمثابة نصب تذكاري لهويته، التي تم التحقق منها باعتبارها استمرارًا لهويته كلاعب كرة قدم مشهور من غاغرا. ثم أخبرني ماموكا قصة اللوحة الزيتية.

لما حصل على كأس كرة القدم، مُنح لاعب آخر من النازحين داخليًا لوحة لفندق غاغريبش. ووفقًا لماموكا، كان فندق غاغريبش أشهر موقع في غاغرا حين عاشت عائلة كاتشافارا هناك. بعد المباراة، شعر ماموكا أنه يرغب أيضًا في اقتناء لوحة لفندق غاغريبش. لكنه لم يخبرنا بنفسه أتربطه ذكرى شخصية بهذا الفندق أم لا، وأنا لم أسأله. عرف مَن رسم اللوحة التي مُنحت للاعب كرة القدم الآخر وأجرى الترتيبات اللازمة للرسام لرسم لوحة أخرى لعائلة كاتشافارا. وحين طلبتُ منهم أن يخبروني أكثر عما تعنيه اللوحة لهم، أخبرني ماموكا ودالي أنهما كانا على دراية تامة بأن اللوحة كانت تذكارًا لهويتيهما ما قبل اللجوء. إنها الآن في «غرفة فاميكنا» سابقًا، كشاهدة القبر التي تساعد المفجوعين على إكمال حدادهم. ولأن دالي تعرف الكثير عن الأجسام الرابطة بفضل محادثاتنا السابقة، كانت مستعدة لإخباري بأن اللوحة ليست جسمًا رابطًا لأنها، كما أخبرتني هي وماموكا، ترمز إلى أنه لن يكون هناك عودة إلى غاغرا. فالآن لا خطط في جعبتهم للعودة. أدركتُ أن اللوحة كانت «ذكرى لا مستقبل لها».[29]

سرعان ما حضرت تامونا وأليكو وفاليري وزوجتاهما. شعرتُ أن زوجة فاليري تشبه دالي الشابة. كان حفل زفاف أليكو قد أُقيم قبل مجيئي بأسبوع لرؤية «غرفة فاميكنا» السابقة. ساد جو احتفالي في منزل العائلة. كان على ماموكا الذهاب إلى العمل وكان على الأولاد أيضًا المغادرة، إلا أنهم قبل أن يغادروا، قدموا لي هدية باسم عائلة كاتشافارا. كان سيفًا جورجيًا نموذجيًا بغمد مزخرف. بعد مغادرة أفراد عائلتها، طلبت دالي مني ومن جانا الانضمام إليها في غرفة الجلوس الأصلية، إذ أرادت إجراء محادثة معي كالتي أجريناها خلال مرضها قبل نحو خمسة أشهر. قالت: «لقد لاحظت وجود مشكلة، وأود أن أفهمها. فأنا لم أتشاركها مع ماموكا والآخرين». جلستُ على كرسي أمامها وبدأتْ هي الكلام. شرحت لي مدى سعادتها بزواج ابنها الأصغر. إلا أنها تعرضت لنوبة قلق في اليوم التالي لزواج ابنها، وهي تريد الآن أن تفهم السبب. كما ذكرتُ سابقًا، قامت دالي وماموكا بفصل الغرفة الرئيسية في شقتهما إلى قسمين بواسطة ستارة؛ وكانت المساحة خلف الستارة بمثابة غرفة نوم لهما. نام أليكو في الليلة السابقة لزواجه على سرير نقال في القسم الآخر، حيث كنت أجري عادةً مقابلاتي معهم. وقد كان على الابن وزوجته الجديدة الانتقال إلى مكان آخر في بحر تبليسي بعد زواجهما.

استيقظت دالي في اليوم التالي لزواج ابنها وخرجت من غرفة نومها لتجد سرير ابنها فارغًا. يبدو أن أليكو قد نهض مبكرًا وغادر الشقة. عند رؤية السرير الفارغ، شعرت دالي بالقلق على الفور. قالت إنها توقعت أن يكون الانفصال عن ابنها صعبًا، لكنها شعرت أن قلقها مرتبط بشيء آخر. لقد راودها أيضًا شعور بأن أحدًا ما على وشك الموت. وكانت في حيرة شديدة. لم تتعرض دالي لنوبة القلق مجددًا، لكنها اعتقدت، بما أنني هناك، أن محاولتها فهم سبب حدوث ذلك ستكون فكرة معقولة. لقد تذكرتْ خوفها من أن أطفالها قد يموتون خلال هروبهم من غاغرا. قالت إنها كانت ترى بعين عقلها أطفالها متجمعين حولها في المروحية التي طارت بهم إلى بر الأمان. ثم استرجعتِ الحادثة بتفصيل كبير وتصورت نفسها تبكي. تذكرتِ الشعور بأنها ستموت لو فقدت أحد أطفالها. وأدركتْ أن رؤية سرير

أليكو الفارغ قد أحيا الخوف القديم الذي غمرها في تلك الرحلة، إذ كان الانفصال والشعور بالموت الفعلي مرتبطين في عقلها.

في هذه اللحظة، أخبرتني دالي شيئًا ما عرفته قط: يحمل طيار المروحية الأوكراني الذي لقي حتفه نفس اسم ابنها الأكبر. بدأتْ بوصف الخصائص البدنية لهذا الطيار بالتفصيل. كان شابًا ووسيمًا، كابنيها الآن. لقد أدركتْ أن عدم رؤية ابنها الأصغر ممددًا في سريره يرمز إلى شعورها بالذنب على «مقتل» الطيار الشاب. قالت لي دالي إنها حين تجتمع مع السيدات النازحات الأخريات في بحر تبليسي، أحيانًا ما يُذكر اسم الطيار، لكن السيدات يغيرن الموضوع حالًا. علمتُ أن الطيار الشاب، قبل أن يلقى مصرعه، قد نجح في إنقاذ العديد من الأشخاص الذين يعيشون الآن في بحر تبليسي. فالرحلة التي أخذت بدالي وأطفالها والرجل الذي ثكل ابنه وآخرين إلى بر الأمان كانت رحلته الأخيرة. في طريق عودته إلى غاغرا لإنقاذ آخرين، أُسقطت مروحيته وفارق الحياة. أخبرتني دالي، وعيناها مغرورقتان، أنه لم يُقام حفل تأبيني أو حداد عام على الطيار القتيل. وأضافت: «بينما نحن [عائلة كاتشافارا] نكمل حدادنا بعد عشر سنوات من مغادرة غاغرا وتوجيه حياتنا في مسار أفضل، وبينما أرى أبنائي مع زوجاتهم، إنني الآن أكثر وعيًا بالشعور بالذنب على مقتل الطيار. ثمة آخرون هنا يشعرون بالذنب أيضًا، فنحن لا نتحدث عنه حتى، ولا نعترف علانية كم نحن مدينون له».

اقترحتُ أنه لربما بإمكانها زيارة الكنيسة وأداء طقوس جنائزية للطيار الميت، وأن القيام بذلك قد يقلل من شعورها بالذنب ويساعدها على فصل ابنها (أبنائها) عاطفيًا عن صورة الطيار الميت. فوافقتْ. بعد أسبوع، حين عدت إلى الولايات المتحدة، أرسلت لي دالي رسالة عبر جانا. أرادت أن أعرف أنها ذهبت بالفعل إلى الكنيسة، وأشعلت الشموع للطيار، وصلّت من أجل روحه، وكانت تشعر بتحسن كبير.

بعد «الاحتفال» في «غرفة فاميكنا» السابقة وبعد قبول هديتهم التي كانت سيفًا جورجيًا تقليديًا (هدية لربما كانت في نظرهم تدعم رجولتي بشكل رمزي)، عرفتُ أن زياراتي

«العلاجية» لعائلة كاتشافارا قد بلغت النهاية. فبعد عشر سنوات من تحولهم إلى لاجئين، فجعوا على خساراتهم بقدر ما استطاعوا وشرعوا الآن في إعطاء استجابات تكيفية لصدمتهم المشتركة. كما انتهت برامج فريقي الأخرى في جورجيا، وبعد هذه الزيارة الأخيرة لم تسنح لي الفرصة للعودة إلى جورجيا. لقد واصلت العمل مع زملاء من جورجيا وأوسيتيا الجنوبية لعام آخر، لكنهم جاؤوا خلال هذا الوقت إلى تركيا لحضور اجتماعاتنا. بعد عام أو نحو ذلك، شعرت بالسعادة لتلقي رسالة بالبريد الإلكتروني من تامونا. أخبرتني أنها كانت تنتظر أن تتحسن لغتها الإنجليزية حتى تكتب إلي. وفقًا لها، كانت العائلة بخير. وقالت إن حياة دالي قد تغيرت كثيرًا؛ فقد أنجب فاليري وزوجته صبيًا وأصبحت جدة. أرسلت لي تامونا أيضًا نسخًا من قصائد نودار الجديدة، لكنها كانت بالأبجدية الجورجية ولم أتمكن من قراءتها. كتبت تامونا أن قصائده ما تزال تركز في المقام الأول على الصراع الجورجي الأبخازي. كما ضمّنتْ تامونا قصيدة كتبها نودار لابنته دالي، وترجمتْها سطرًا بسطر. تساءلتُ عن سبب إرسال تامونا هذه القصيدة لي. كما تساءلتُ أكانت دالي من طلب منها أن تفعل ذلك. فكرتُ في أن قصيدة والدها «تحققت» من هوية دالي، تمامًا كما تحقق الكأس من هوية ماموكا. تقول القصيدة التي تحمل عنوان «فتاة صغيرة»:

إلى ابنتي الكبرى دالي
لستُ كما كنتُ في تلك الأيام الخوالي،
لكنني ما زلت أتلعثم بلغة الأطفال.
فطفولتك ما تزال جزءًا مني،
وتدفعني إلى القيام بما تريد.
لقد منحتُك الدفء في الشتاء،
حتى عندما كنت أعاني.
فأنتِ طفلتي المدللة،
حينما كنتِ فتاة صغيرة.

أنتِ أمٌّ مسبقًا،
ولديكِ ابنة وولدان.
لا يمكنني أن أكذب –فأنا أؤمن بالله–
أنا لا أستطيع العيش من دونكِ ولو للحظة.

4 المزيد عن اللاجئين وأجسامهم الرابطة

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة، طرح الرئيس الأمريكي جورج إتش دبليو بوش فكرة «النظام العالمي الجديد» التي تتصور أيامًا «ألطف وأجمل». لكن هذه الرؤية، كما نعرفها جميعنا جيدًا، لم تتحقق بأي حال من الأحوال. فقد حدثت مآسي إنسانية كبيرة تسبب بها عمدًا «الآخرون» –وهم أشخاص يُعرفون عادة باسم «الأعداء»– في بقاع مختلفة من العالم خلال رئاسته وبعدها، ونتج عنها، بالإضافة إلى كوارث أخرى، عدد لا يحصى من اللاجئين وطالبي اللجوء. لاحقًا، غدا ابن الرئيس السابق، جورج دبليو بوش –وجميعنا بلا شك– أكثر وعيًا من أي وقت مضى بنوع جديد من العدوان الدولي في شكل الإرهاب الإسلامي المتطرف، فضلًا عن نوع جديد من الرد القاسي عليه، يدعمه نوع جديد من العقيدة السياسية الأمريكية التي تبيح ضرب العدو المحتمل أولًا ثم طرح الأسئلة.

لماذا ظلت الأيام الألطف والأجمل والنظام العالمي الجديد بعيدة المنال؟ تكمن الحقيقة في أن علم النفس البشري، سواء الذي يتعلق بالأفراد أو المجموعات الكبيرة، لم يتغير. من جانب، نحن نتبنى مظاهر التكنولوجيا الحديثة ونثني على رقينا «المتحضر». لكنه من جانب آخر، بصفتنا أفرادًا في مجموعات كبيرة، كالجماعات الإثنية أو الدينية مثلًا، ما زلنا نتبع هذا القائد أو ذاك ومختلف الأيديولوجيات وأنظمة المعتقدات، وحين تتعرض هويتنا المشتركة للتهديد، إننا نجنح إلى إذلال «الآخرين» وشلّهم وحرقهم وقتلهم من أجل تعزيز هويتنا الجماعية الكبيرة أو حمايتها أو بقائها، حتى في الحالات التي لا يتعرض فيها بقاؤنا الجسدي للتهديد.

في كتابي *الثقة العمياء: القادة وأتباعهم في أوقات الأزمات والإرهاب*، تحدثت عن الإمكانات العنيفة للمجموعات الكبيرة باستخدام تشبيه الخيمة.[30] نحن جميعنا نرتدي منذ الطفولة فصاعدًا طبقتين من الملابس. يكون الثوب الأول، الذي يخص الفرد الذي يرتديه فقط، مناسبًا بشكل مريح ويمثل الهوية الشخصية. أما المجموعة الثانية من الملابس

الخارجية الأوسع، فتكون مصنوعة من نسيج الخيمة الإثنية (أو الدينية أو الأيديولوجية) للمجموعة الكبيرة. تكسو قطعةٌ من القماش نفسه كلَّ فرد في المجموعة الكبيرة، وهي تحمي الشخص كالوالدين أو أي مقدم رعاية آخر. تحمي قماشة الخيمة بذلك آلاف أو ملايين الأفراد تحتها كأنها قطعة واحدة هائلة، وتمثل هوية المجموعة الكبيرة.

ما دامت الخيمة مستقرة ومتينة، يمكن لأفراد المجموعة الكبيرة ممارسة حياتهم دون أن يكونوا مهووسين بطبيعة قماش خيمتهم. ومع ذلك، إذا تزعزع قماش الخيمة أو تخلخل، كما يحصل في حالات العجز والإذلال المشترك التي يسببها «الآخرون»، فإن العواطف المشتركة كالقلق والغضب تبلغ الذروة، وينهمك عمليًا جميع الأفراد الموجودين تحت الخيمة في محاولة إعادة الخيمة إلى وضع الاستقرار. كما أنهم يسعون إلى دعم القادة الذين يعتبرونهم مخلِّصين، وبالتالي يصبحون بسهولة سريعي الاستجابة للدعاية السياسية والتلاعب. في مثل هذه الأوقات، يصبح ارتداء المرء لثوبه الشخصي أقل أهمية من اكتسائه بشكل جماعي بالثوب القماشي الثاني. على سبيل المثال، في مخيمات اللاجئين، يُعنى الناس بطبيعة الحال ببقائهم أو بقاء أفراد أسرتهم وتكيفاتهم. لكن الإحساس «بحالة نحن» سرعان ما ينتشر من الأسرة والعشيرة ويتضمن استثمارًا متجددًا في المجموعة الكبيرة الإثنية أو القومية أو الدينية بأكملها. يحدث هذا لأن الناس يقعون ضحية ليس نتيجة لهجوم «الآخرين» عليهم فحسب، وإنما نتيجة لتماهيهم المتبادل كأفراد في مجموعة كبيرة مشتركة أيضًا.

في ما يتعلق بالإثنية أو الجنسية أو الدين، يتشارك جميع الأفراد تحت هذه الخيمة بإحساس شخصي بالتماثل، على الرغم من أن معظمهم لن يتقابل أبدًا خلال حياتهم. ويشعر الآلاف أو حتى الملايين من الناس بالمساواة في ما يتعلق بهذا الإحساس المشترك بالتماثل، سواء أكانوا رجالًا أم نساء، أغنياء أم فقراء. إذا كان الأفراد جورجيين، مثلًا، فإن إحساسهم بأنهم جورجيون لا يتأثر بعوامل كالوضع الاجتماعي أو درجة الثراء. وفي الأوقات العصيبة على وجه الخصوص، يتماهى جميع أفراد المجموعة مع هويتهم الإثنية

المشتركة، على الرغم من أن الجورجيين ينتمون أيضًا انتماءً راسخًا إلى مناطق مختلفة من جورجيا، مثل كاخيتي وإيميريتي ومتوليتي وغوريا وغيرها، وبعضهم يتحدث لغة خاصة بشكل رئيسي، كما في مينغريليا، وقد يكونون مسلمين، كما في أجاريا.

يجب أن أوضح أنه حين أتحدث عن مجموعة كبيرة، فأنا أركز على عملياتها النفسية العامة المشتركة. أما هؤلاء الأفراد في المجموعة الذين لا يتماشون، بدرجة أو بأخرى، مع هذه العمليات، فأنا لا أركز عليهم. فداخل كل مجموعة كبيرة، ثمة دائمًا منشقون. بعد فترة من الصدمة، إذا لم يتمكن الزعيم السياسي من البقاء «كمخلِّص» في نظر الأتباع، فقد يحدث انقسام خطير في المجموعة الكبيرة بين الذين ما زالوا يتبعون الزعيم والذين يعارضونه. هنا أركز على الحالات التي يهيمن فيها إحساس قوي بأن خيمة المجموعة الكبيرة قد تزعزعت. علاوة على ذلك، في كل مجموعة كبيرة، ثمة أشخاصٌ قد ينتمي أحد والديهم أو أحد جديهم إلى إثنية أو جنسية أو دين آخر. على سبيل المثال، من المرجح أن يواجه أبناء الثنائي الجورجي والأوسيتي الجنوبي الذين يعيشون في تبليسي صعوبة في الاختيار بين المجموعتين الإثنيتين حين يكتشفون أنهم منخرطون في نزاع ساخن. أما في مستوطنة اللاجئين، فيصبح تآزر المجموعة الكبيرة المعمم ملحوظًا. وأنا بسبب هذا الارتباط الوثيق بين اللاجئين، اعتقدت أن العمل مع عائلة كاتشافارا قد يساعد في الواقع العديد من الأشخاص الآخرين في بحر تبليسي، حتى لو لم أقابلهم أبدًا.

حين قابلت ماموكا ودالي لأول مرة، لاحظت أنهما كانا شخصين مؤثرَين في مجتمع النازحين. وبالتعرف عليهما وعلى أفراد عائلة كاتشافارا الآخرين والتعامل بطريقة علاجية مع عمليات حدادهم وتكيفهم، كنت آمل في تطوير منهجية للوصول إلى العديد من العائلات النازحة دون العمل معهم فعليًا. في اليوم الذي أقمنا فيه أنا وعائلة كاتشافارا، وجانا، احتفالاً بمناسبة إكمال ما كانوا يسمونها ذات مرة «غرفة فاميكنا»، علمتُ أن ما لا يقل عن اثنتي عشرة عائلة نازحة أخرى في بحر تبليسي قد أكملت بناء غرفها أو بدأت في إضافة غرف لشققها. كما علمتُ أن عائلة كاتشافارا قد بنت مرآبًا للسيارات وأن نحو أربعين مرآبًا

إضافيًا قد بات موجودًا الآن. ولمّا ذهبتُ لرؤية المنطقة المسيجة المخصصة للبندا بالقرب من موقف السيارات أمام أوكروس ساتسميسي، لاحظت وجود مناطق مسيجة أخرى لحيوانات العائلات الأخرى الأليفة. وقد شعرت بالسعادة لأن «المنهجية» التي تصورتها للوصول إلى اللاجئين الآخرين من خلال العمل المكثف مع قادة مستوطنتهم بدت ناجعة.

عرفتُ أيضًا أنني كنت وافر الحظ للعثور على شخص مثل دالي. فلما بدأتْ بملاحظة وفهم مشاكلها النفسية كلاجئة، أصبحت أشبه بمستشارة للآخرين في هذا المجتمع. وأعتقد أن دالي حين نجت من «السكتة الدماغية» –أدركتُ أن الكثيرين في بحر تبليسي تابعوا من كثب مرضها وتعافيها اللافت للنظر– برزت كأنموذج لهزيمة الاكتئاب. أنا لم أجرِ دراسة علمية في بحر تبليسي –ولا يمكنني تقديم أي نتائج إحصائية، لأن إجراء دراسة علمية هناك أمر بالغ الصعوبة– إلا أنني حين توقفتُ عن الذهاب إلى أوكروس ساتسميسي، أبلغتني جانا بوجود إجماع على أن عدد الأشخاص الذين ماتوا هناك فجأة «دون سبب واضح» قد انخفض انخفاضًا كبيرًا بعد تعافي دالي من «السكتة الدماغية».

قبل أن تطأ أقدامنا هذه المنطقة لأول مرة، عملت جانا وآخرون، بتمويل من النرويج، مع الأطفال النازحين داخليًا في الفنادق الثلاثة السابقة، وتعاملوا مع مشاكل التعلق لدى الأطفال. بعد الصدمات الهائلة المشتركة، يفقد معظم الأطفال اللاجئين قدرًا كبيرًا من قدرتهم على «التعلق» بشكل صحيح ببعضهم وكذلك بالبالغين. وقد تسبب مثل هذه الصعوبات مشاكل كبيرة لهؤلاء الأطفال مع تقدمهم في السن. حتى بعد نضوب تمويل هذا المشروع، واصل أصدقاؤنا الجورجيون الاهتمام برفاه الأطفال والبالغين في بحر تبليسي. وقد كان هذا، على ما أعتقد، عاملاً مهمًا في نجاح «منهجيتنا» الواضح. ولما انتهيتُ من العمل في أوكروس ساتسميسي، أصبح المكان أنظف إلى حد كبير. كانت الأموال التي جاءت من النرويج مفيدة بلا شك. ومع ذلك، لا يمكنني أن أكف عن التفكير في أنه لولا التكيف المحسن مع بيئتهم الجديدة، ولولا الحاجة إلى التعبير عن «ساديتهم الشرجية» المشتركة ضد «الأرض

الأم»، إذا صحّ التعبير، ولولا العمل على عمليات حدادهم، لكان هؤلاء اللاجئون أقل نجاحًا في رعاية بيئتهم.

عندما انتهت عائلة كاتشافارا من إضافة الملحق إلى شقتهم، قاموا أيضًا بإنشاء رواق صغير جدًا خلف مدخلهم، حيث وضعوا الهاتف الأصفر على منضدة، بعد أن نقلوه من مكانه الأصلي. وعلقوا فوق الهاتف كزينة فيلًا محشوًا بطول 10 بوصات مصنوعًا من قماش رمادي ويرتدي معطفًا أخضر. راودتني التساؤلات حول هذا الحيوان المحشو، لكن الفرصة لم تسنح لي للتحقق من مصدره. بصفتي محللًا نفسيًا، لقد درست دلالات دمى الحيوانات المحشوة لدى الأطفال، تحديدًا دمى الدببة. في عام 1953، أطلق دونالد وينيكوت، طبيب الأطفال البريطاني الذي أصبح لاحقًا محللًا نفسيًا ذائع الصيت، على هذه الألعاب وأشياء مثل بطانية الشخصية الكرتونية لينوس، اسم «الأجسام الانتقالية». يصبح الجسم الانتقالي، في عقل الطفل، أول شيء يقتنيه «ليس-أنا»، وهو شيء موجود فعليًا في العالم الخارجي. لكن الجسم الانتقالي لا يكون عنصر «ليس-أنا» تمامًا، لأنه يمثل أيضًا صورة الطفل عن الأم التي تخضع لسيطرة الطفل المطلقة (هذا وهم بالتأكيد).[31] في وقت لاحق، درس محللون نفسيون آخرون ما يسمى «الصلة الانتقالية»: بوضع الدبدوب أو أي حيوان محشو آخر بين ذاته والبالغين في البيئة، يبدأ الطفل التعرف على العالم المحيط. ويتصل الطفل بالبيئة باستخدام الجسم الانتقالي كأنه الضوء الذي ينير دهاليز الواقع. فإذا أصبحت البيئة محبطة، يتصل الطفل فقط بالدمية ذاتها، ويزيل بطريقة ما ما هو أبعد منها. نحن نعلم من عملنا السريري أن بعض البالغين الذين يكونون في حالة نكوص يواصلون استخدام نسخ البالغين من الأجسام الانتقالية و/أو الصلة الانتقالية.

لطالما اعتقدت أن الهاتف الأصفر أدى دور الجسم الانتقالي لعائلة كاتشافارا، ولثلاثة آلاف نازح آخر في بحر تبليسي. فباستخدامه كان بإمكانهم «معرفة» ما هو أبعد من مستوطنتهم، وبفصله تمكنوا من إزالة العالم الخارجي المحبط. وخطر في بالي أنه بتعليق فيل محشو فوق هذا الهاتف، أخبرت عائلة كاتشافارا الزوار بطريقة رمزية بوظيفة هذا

الهاتف. ومع أنه ما يزال أحد أهم الأغراض في بحر تبليسي، لما أنهيت عملي هناك، قيل لي إن أربعة هواتف أخرى قد نُصبت في منطقة الفنادق الثلاثة الفخمة سابقًا.

قد لا يرى بعض المراقبين عائلة كاتشافارا مثالًا جيدًا لعائلة لاجئة مصابة بصدمة شديدة. ففي نهاية المطاف، لم يفارق الحياة أي فرد من العائلة خلال محنتهم، وهُجِّروا إلى مكان ضمن جورجيا نفسها حيث لا خوف على حياتهم. أنا على يقين بأن معظمنا قد قرأ قصصًا أكثر ترويعًا عن اللاجئين حول العالم. لكن عائلة كاتشافارا، باستضافتها لي لمدة خمس سنوات، منحتني الفرصة للاطلاع على عملياتهم الداخلية في أثناء تكيفهم على مدى سنوات مع تهجيرهم من منازلهم. وبمعرفة ما مروا به داخليًا، أعتقد أنه في وسعنا تكوين صورة واضحة عن سيكولوجية الضحايا النازحين بسبب صراعات الهوية.

قدم المحللون النفسيون إسهامات جليلة في فهمنا للعوالم الداخلية للناجين من الهولوكوست، الذين هُجِّروا في معظمهم وأُجبروا على الاستقرار في أماكن أخرى غير مواطنهم الأصلية. لكن أولى الدراسات الجادة للعمليات الداخلية والتكيفات الداخلية المختلفة لدى الناجين من الهولوكوست لم تُجرَ إلا بعد عقود من نهاية الحرب العالمية الثانية.[32] عمومًا، خارج الدراسات المتعلقة بالهولوكوست، لا يوجد الكثير من الدراسات المتعمقة وطويلة المدى لتكيفات اللاجئين الداخلية. وعندما تكون الكارثة في طور تأزمها، فإن قدرة المنظمات الدولية، كالمفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين (UNHCR) ومنظمة الصحة العالمية (WHO) والصليب الأحمر والهلال الأحمر، على مساعدة هؤلاء المتضررين تعتمد بالتأكيد على الظروف على أرض الواقع. على سبيل المثال، قد يكون الوضع شديد الخطورة على العاملين الأجانب في مجال الصحة العقلية وغيرهم للدخول في البداية. إلا أنه فور تحقيق مستوى معين من الأمن ووصول العمال الأجانب إلى الموقع، فإن الطريقة التي يتعاملون بها مع الأشخاص المصدومين موثقة جيدًا.

في أثناء زيارة جمهورية جورجيا من أجل مشاريعنا في مركز دراسة العقل والتفاعل البشري (CSMHI)، كنت أيضًا مستشارًا مؤقتًا لمنظمة الصحة العالمية لفترة قصيرة وزرت

ألبانيا ومقدونيا، حيث أجريت ندوات للعاملين المحليين في مجال الصحة الذين يعملون مع اللاجئين الألبان من كوسوفو. وأصبحت على اطلاع بالدليل المشترك الرسمي لمنظمة الصحة العالمية والمفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين (طبعة 1996) حول الصحة العقلية للاجئين. لم يذكر هذا الدليل سوى أشياء مثل طرق التدخل في الأزمات، وتقنيات الاسترخاء، ومشاكل الكحول والمخدرات، والسلوك المهني تجاه ضحايا الاغتصاب. بعد وقوع كارثة، تنال حالة الأزمة الأسبقية على الاعتبارات الأخرى، إلا أنه حين تنتهي الأزمة، تستمر عمليات الحداد والتكيف الحاسمة بكامل قوتها. ثمة، بالتأكيد، منظمات غير حكومية أخرى مهتمة أيضًا باللاجئين وغيرهم من ضحايا الحروب أو الحالات الشبيهة بالحرب.[33] عمومًا، لا تسعى جهودهم، مع أنها مجدية في أغلب الأحيان، إلى فهم العمل الداخلي الذي يكون اللاجئون بحاجة إلى القيام به، وتحديد المدة الزمنية اللازمة للقيام بهذا العمل، وتقدير صعوبة أو حتى استحالة الوصول بهذا العمل إلى نتيجة مرضية.

ثمة، بالتأكيد، أنواع مختلفة من التهجير لا توازي تجارب عائلة كاتشافارا، إذ تُقدَّم قصص تجارب التهجير عبر تاريخ البشرية على طيف يتراوح من «الهجرة القسرية» (وهو مصطلح لا ينصف المآسي التي ارتُكبت حين جُلب الأفارقة إلى الأمريكتين كعبيد) إلى «الهجرة الطوعية»، حين يترك الفرد منطقة ويذهب إلى أخرى بحثًا عن حياة أفضل. يمكننا بسهولة أن نتخيل العديد من الأنواع الأخرى «للهجرة الطوعية»، لذا لن أدرسها بتعمق هنا، إذ سأواصل التركيز على الحالات التي أُجبر فيها الأشخاص، كأفراد عائلة كاتشافارا، على النزوح وشعروا بالعجز بسبب صراعات هوية المجموعة الكبيرة. مع ذلك، ثمة بعض العناصر المشتركة التي تكمن وراء سيكولوجية المهاجر «الطبيعي» (الطوعي) والمهاجر القسري المصدوم، كطالب اللجوء واللاجئ والنازح داخليًا. إذ يتعين عليهم جميعًا الحداد على فقدان جزء من ذواتهم وأحبائهم أو أشيائهم، كما يتعين عليهم التعامل مع مشاعر الذنب على البقاء على قيد الحياة في حين قد تُرك آخرون في الديار أو قُتلوا. وجميعهم، بسبب تكوينهم النفسي الشخصي أو الظروف الخارجية، قد يواجهون تعقيدات في الحداد

والتكيف مع مواقعهم الجديدة. وعليه، سأقدم ملخصًا لبعض نظريات التحليل النفسي التي تتعلق بسيكولوجية الأشخاص المهجَّرين.

لفترة طويلة لم يدرس المحللون النفسيون سيكولوجية المهاجرين واللاجئين على نطاق واسع. وهذا مفاجئ نظرًا إلى أنه يوجد، وكان يوجد، العديد من المحللين النفسيين في الولايات المتحدة وفي بلدان أخرى، هم أنفسهم مهاجرون. بلا شك، ثمة استثناءات لهذا الغياب في الاهتمام.[34] إلا أنه على حد علمي، كان ليون وريبيكا غرينبرغ أول من نشر دراسة تحليلية نفسية شاملة عن كل من الهجرة والنفي بصيغة كتاب في عام 1984 باللغة الإسبانية وتُرجمت في عام 1989 إلى الإنجليزية.[35] وبعد أن «تنقّل» الثنائي في مناسبات عديدة وعملا في ثلاثة بلدان، اعتُبرا «مراقبَين مشاركَين» بالمعنى الحقيقي.

في مشاهداتهما التحليلية النفسية لأنواع مختلفة من الهجرة والنفي، لاحظ ليون وريبيكا غرينبرغ أن أولئك الذين تُركوا في الديار، كالذين غادروا، يستخدمون آليات دفاعية لاشعورية مختلفة للتعامل مع ألم خسارتهم. كما لاحظوا أن الكلمة الإسبانية المقابلة لكلمة «حداد» –*duello*– مشتقة «من كلمة الألم والمبارزة، أو التحدي أو القتال من جانبين».[36] وهي تشير بالتساوي إلى آلام المهاجرين بالإضافة إلى آلام الذين تُركوا في الديار.

من المجالات التي ركز عليها ليون وريبيكا غرينبرغ كانت مهمة تعلم لغة جديدة، وهي مشكلة رئيسية يواجهها جميع المهاجرين. (يجب التذكير بأن عائلة كاتشافارا قد تفادوا هذه الصعوبة لأنهم كانوا نازحين داخليًا). درس الثنائي نظرية تطور اللغة وتأثير العلاقة بين الأم والطفل عليها، لا سيما في حالات الانفصال. وقد وصفا مقاومة القادم الجديد النفسية لتغيير لغته الأم وخلصا إلى أن العمر كان عاملاً مؤثرًا. فالأطفال قادرون على التماهي مع بيئة ثقافية جديدة بسرعة نسبية وقادرون على استيعاب اللغة الجديدة. أما المهاجرون البالغون، فيكونون أمام مهمة أصعب بسبب سنهم؛ وبالتالي قد لا ينجحون أبدًا في اكتساب «موسيقى» (لكنة وإيقاع) اللغة الجديدة.

في كتابي *الحاجة إلى اتخاذ أعداء وحلفاء*[37]، تحدثت عن استحالة تغيير هوية المرء الإثنية بعد المراهقة. فحين يواجه القادمون الجدد مشاعر إثنية جديدة واستثمارات في موقع جديد، إنهم يواجهون مصاعب تتراوح من الهينة إلى العسيرة في تطوير توليفة لإثنيتين. قد يطور البعض، لا سيما الذين هاجروا طواعية، إذا ظلوا مقبولين في البلد الذي رحلوا عنه، تكيفًا ثنائي الثقافة فور الانتهاء من عمل الحداد، كما قال ديميتريوس يوليوس، الطبيب النفسي من أصل يوناني أمريكي. هذا سيثريهم داخليًا. صرّح يوليوس، الذي عمل معي من كثب لعقود عديدة كعضو زميل في مركز دراسة العقل والتفاعل البشري: «لقد توصلت بأناةٍ إلى تقدير لأهمية التكامل الثقافي داخل النفس، وأهم من ذلك، إلى قبول للاختلافات الثقافية الواسعة بين البلدين [اليونان والولايات المتحدة]. وشرعت في قبول بعض المفارقات النفسية والشعور بأنني ثنائي الثقافة».[38]

قد يطور اليافع الذي لم يخض مرحلة المراهقة بعد وأصبح مهاجرًا، استثمارًا حقيقيًا في إثنية الموقع الجديد. ومع ذلك، عادة ما يصبح هذا معقدًا بسبب «تدخلات» الوالدين المهاجرين أو المبعَدين أو غيرهم من القادمين الجدد البالغين وعدم قبول البلد المضيف. على سبيل المثال، في حين أن معظم اليهود الذين فروا من النازيين وانتقلوا إلى أمريكا أو غيرها من البلدان غير الفاشية قد نجحوا نسبيًا في تكيّفاتهم، خصوصًا حين قبل الناس في مواقعهم الجديدة إثنيتهم اليهودية، ثمة بالتأكيد العديد من الأمثلة على مهاجرين يهود شعروا بعدم الترحيب في هذا البلد. كتب مارتن وانغ، وهو محلل نفسي شهير ومهاجر يهودي ألماني المولد، أنه بعد فترة وجيزة من وصوله إلى الولايات المتحدة، تلقى ردًا على طلبه للحصول على تدريب من مستشفى في الجنوب جاء فيه: «لقد لاحظنا أن الأشخاص غير المنتمين إلى طائفتنا لا يشعرون بالارتياح في العمل هنا». وأضاف «تلقيتُ وزوجتي رسالة مماثلة من منتجع في جبال آديرونداك. بعدها، حين اشترينا منزلًا لقضاء العطلة في ولاية كونيتيكت، أُبلغنا على الفور أن النادي الريفي المجاور (الذي لم نعقد النية لارتياده) لا يقبل باليهود».[39] لقد لاحظت شخصيًا حالة مشابهة في شارلوتسفيل بولاية فيرجينيا،

حيث استقريت في عام 1963 ويوجد، حتى عهد قريب، نادٍ ريفي لا يقبل اليهود أو السود أو المسلمين أعضاءً فيه. إلا أن الأمور على الأغلب قد تغيرت كثيرًا في الولايات المتحدة في ما يتعلق برهاب الأجانب والعنصرية. مع ذلك، ما تزال مثل هذه المواقف موجودة هنا كما هي موجودة في أي بقعة أخرى في العالم؛ فكونك «متفوقًا» تقنيًا واقتصاديًا لا يغير الطبيعة البشرية. على سبيل المثال، بعد 11 سبتمبر 2001، اشتدت كراهية الأجانب والعنصرية في الولايات المتحدة تجاه المسلمين، حتى تجاه الذين لطالما اعتبروا البلاد وطنهم.

لقد استند ليون وريبيكا غرينبرغ إلى نظريات ميلاني كلاين في التحليل النفسي[40] وأوضحا كيف أن الشعور بالذنب على خسارة أجزاء من الذات –أي، هوية المهاجر أو اللاجئ السابقة واستثماره في الأرض والأشخاص الذين رحل عنهم– قد يعقّد عملية الحداد على القادم الجديد. فحين يكون الشعور بالذنب «اضطهاديًا» ويكون المرء منساقًا بالشعور بالذنب لتوقع عقاب الآخرين، يصبح القادم الجديد عرضة للحداد المعقد. وإذا اعترف الفرد داخليًا بخسارة الحياة السابقة وكان قادرًا على قبول الألم –يسمي الكلاينيون هذا «الشعور بالذنب الاكتئابي»– فقد يُظهر الفرد الأسى ولكنه سيظل قادرًا على الاحتفاظ بالميول الإصلاحية. لذلك، فإن المهاجر أو اللاجئ الذي يعاني الشعور بالذنب الاكتئابي مجهزٌ بشكل أفضل للتكيف مع حياة جديدة.

لتوضيح ما يقصده الكلاينيون بهذين النوعين من الشعور بالذنب، أقدم الملخص التالي الذي كتبه ليون غرينبرغ:

> غالبًا ما يكون مفهوم الوقت، لدى المرضى الذين يعانون الشعور بالذنب الاضطهادي، مرهونًا بخصائص العملية الأولية (اللاوعية). وفي مثل هذه الحالات، غالبًا ما نجد فترة زمنية يختلط فيها الماضي والحاضر. تشمل العواطف الرئيسية التي ينطوي عليها الشعور بالذنب الاضطهادي الاستياء، والألم، واليأس، والخوف، وتوبيخ الذات، وغيرها. من ناحية أخرى، في الشعور بالذنب الاكتئابي، يتشكل الوقت تمشيًا مع قوانين العملية الثانوية (الواعية). ثمة تمييز بين الماضي والحاضر، وثمة أيضًا

منظور ومستقبل. وأهم مشاعر الشعور بالذنب الاكتئابي: القلق على الشيء والأنا، والحزن، والتوق إلى الماضي، والمسؤولية.[41]

في حالة اللاجئ، يولد التنظيم النفسي الخاص بالفرد شعورًا بذنب الاضطهاد أقوى مما يمكن أن يشعر به الفرد الذي يصبح مهاجرًا باختياره. ففي نهاية المطاف، يُعزَّز شعور اللاجئ بالذنب لأنه نجا بينما قُتل أقاربه وأصدقاؤه أو ما يزالون في خطر. ومع ذلك، إذا واجه المهاجر أو اللاجئ تمييزًا داخل المجتمع المضيف، فإن مخاوف الاضطهاد تظل قائمة.

وردت دراسة تحليلية نفسية رئيسية حديثة لعوالم المهاجرين واللاجئين الداخلية في كتاب من تأليف المحلل النفسي في فيلادلفيا، سلمان أختر، الذي ينحدر من عائلة مسلمة وهاجر طواعية إلى الولايات المتحدة.[42] بينما اعتمدت عائلة غرينبرغ على التصورات الكلاينية للتحليل النفسي، ركز أختر على تكيف المهاجرين مع البلد الجديد وفقًا لمفهوم مارغريت مالر الانفصال والتفرد. كانت مالر محللة نفسية بارزة أجرت دراسات حول كيفية إتمام الأطفال تفردهم المنفصل عن أمهاتهم وكيفية تطوير إحساسهم المستقل بالذات.[43] ناقش أختر أن تكيف المهاجر يشكل «تفردًا ثالثًا»، فالأول حصل في مرحلة الطفولة والثاني خلال مرحلة المراهقة. تتضمن دراسته استجابات خلّاقة على صعوبة الحداد، بالإضافة إلى دور التوق إلى الماضي وتسميم التوق إلى الماضي في عقل المهاجر أو اللاجئ.

عمومًا، يصعب وربما يستحيل على اللاجئين والمنفيين إتمام الحداد. وهذا ينطبق خصوصًا على الذين تعرضوا للعجز والإذلال والاغتصاب والتطهير الإثني والتعذيب والعار قبل فرارهم إلى بر الأمان أو في أثنائه والذين رُحِّلوا إلى أماكن لا يرحب بهم أناسها، ولا يتحدثون لغتهم، ولا يأكلون طعامهم، ولا يغنون أغانيهم. وتتداخل الصدمة الشديدة المرتبطة بالخسارة مع عملية الحداد. تتضمن عملية الحداد «الطبيعية» شعور المفجوع بآلام نرجسية وما يصاحبها من إحساس بغضب «طبيعي» على كونه مجروحًا نفسيًا من جراء الخسارة. أما الذين يتعرضون لصدمة شديدة، فيتجنبون الشعور بغضبهم، لأنه يصبح بلا وعي مشوبًا بالقتل والإبادة وما يصاحب ذلك من مشاعر العجز والعار والإذلال والتماهي

مع غضب المضطهِد. وبالتالي، إنهم يتجنبون تجربة الغضب «الطبيعي» ولا يستطيعون الحداد بشكل صحيح. مثل هؤلاء الأشخاص يجب أن يصبحوا أولًا مهاجرين عاديين «طبيعيين» كي يبدؤوا عمل الحداد بطريقة حقيقية. أعتقد أن وجودي إلى جانب أفراد عائلة كاتشافارا على نحو متقطع لسنوات عديدة قد ساعدهم على أن يصبحوا مهاجرين عاديين.

في سرد قصة عائلة كاتشافارا باعتبارهم نازحين داخليًا، ركزتُ على دور الأجسام الرابطة والظواهر الرابطة كنقطة دخول، إذا صح التعبير، إلى صراعات النازحين الداخلية. والطريقة التي يستخدمون بها أجسامهم وظواهرهم الرابطة تخبرنا بالكثير عن الشوط الذي قطعوه في حدادهم على خسائرهم وتكيفهم مع بيئتهم الجديدة. بالنسبة لعائلة كاتشافارا، كان تشارلي الأول ثم تشارلي الثاني أجسامًا رابطة. بعد موت تشارلي الثاني، مثلت دالي بنفسها الجسم الرابط لدى العائلة. بالإضافة إلى ذلك، أدت «غرفة فاميكنا» ولوحة فندق غاغريبش بشكل جزئي دور نصب تذكاري خاص لدى العائلة لما تركوه وراءهم. (لاحقًا في هذا الكتاب، سأوضح كيف تؤدي النصب التذكارية للخسائر وظائف مختلفة). يعد النصب التذكاري، كالذي شيدته عائلة كاتشافارا، نوعًا مختلفًا من الجسم الرابط: فهو يمتص ما تبقى من أعمال حداد المفجوع غير المكتملة ويحبسها داخله. ينشغل المفجوع الدائم بجسم رابط منتظم ويستهلك طاقة للتحكم فيه والتحكم أيضًا في الصراع بين إعادة أو «قتل» ما تركوه وراءهم. من ناحية أخرى، يحرر النصب التذكاري الثابت، «كغرفة فاميكنا»، المفجوع ليستثمر في أشياء جديدة في البيئة الجديدة بدلًا من استنزاف الطاقة على الماضي.

ثمة أيضًا «نصب تذكارية» تؤدي وظيفة معاكسة: ألا وهي بَلْورة الحداد الدائم. يضرب أنطونيوس روبن، وهو أنثروبولوجي من جامعة أترخت، مثالًا جيدًا على هذا في تقصيه عن «الحرب القذرة» في الأرجنتين التي اندلعت من عام 1976 إلى عام 1983. خلال هذه الفترة من العنف والفوضى، «اختفى» العديد من الأفراد، أي أنهم اختُطفوا من منازلهم وقُتلوا لأنهم اعتُبروا «أعداءً» للحكومة الشمولية. وقد حافظ بعض الآباء، تعبيرًا عن حدادهم الدائم، على غرفة الشخص المفقود ومقتنياته. أصبحت هذه النصب التذكارية «فريدة» من نوعها بعد

عام 1984 لما اتضح أن المختفين كانوا أمواتًا لا مسجونين. زار روبن «بين عامي 1989 و1991 الأشخاص الذين ما زالوا يغيرون الملاءات على سرير ابنتهم المختفية أو يحضّرون كل بضعة أيام حلوى البودينغ المفضلة عند ابنهم حتى يتذوقها فور ظهوره عند عتبة الباب». في عام 2002، أجرت سلافيكا جورسيفيتش وإيفان أورليك دراسة مع عائلات الأبناء المختفين من حرب 1991–1995 في كرواتيا. وكانت النتائج التي توصلوا إليها مشابهة لملاحظات روبن في الأرجنتين. في كرواتيا، شيّدت العديد من العائلات «الأضرحة التذكارية» التي تشبه شكلًا من أشكال المذابح التي توضع عليها صورة الشخص المفقود محاطة بالرموز الأيقونية الكاثوليكية والزهور والشموع. ودائمًا ما توجد مثل هذه الأضرحة التذكارية في الغرفة حيث تقضي العائلة معظم وقتها و/أو حيث تستقبل الضيوف.[44]

دائمًا ما ترافق الصراعاتُ بشأن الحداد أو لا، وبشأن الارتباط بما تركوه وراءهم أو الانفصال عنه، مختلفَ أنواع مشاعر الذنب لدى اللاجئين ومحاولاتهم الداخلية للتكيف. في ظل ظروف معينة، قد يتأتى عن هذا الصراع أعراض فردية وجماعية فريدة. ولقد درست صراعات اللاجئين الداخلية لأول مرة في عام 1975 في القسم الشمالي من جزيرة قبرص. في الواقع، إن ما استهل دراستي هذه هو سلوك جماعي غريب. فخلال صيف عام 1974، حطّ الجيش التركي على الجزيرة بعد أن واجه القبارصة الأتراك مصيرًا كارثيًا على أيدي القبارصة اليونانيين. وقد أفضى هذا إلى تقسيم الجزيرة إلى قسمين شمالي تركي وجنوبي يوناني. في السابق، كان القبارصة اليونانيون والقبارصة الأتراك يعيشون في كل أرجاء الجزيرة، في القرى اليونانية بالكامل، أو في القرى التركية بالكامل، أو في القرى المختلطة، بينما ضمت المدن القبرصية كلتا الجماعتين الإثنيتين. بعد أن اقتحم الجيش التركي شمال الجزيرة، فرّ القبارصة اليونانيون في الشمال إلى الجنوب، بينما هرب القبارصة الأتراك الذين يعيشون في الجنوب إلى الشمال. وقد عملت حكومة قبرص الشمالية المشكَّلة حديثًا على إيواء هؤلاء الأتراك الذين جاءوا إلى الشمال في منازل القبارصة اليونانيين الراحلين وقراهم وبلداتهم، ما خلق حالة استثنائية. ففي حين أن عائلة كاتشافارا وثلاثة آلاف نازح

جورجي آخر من أبخازيا أقاموا في بحر تبليسي الذي لم يحمل أي صورة ذهنية مرتبطة بالعدو، حلّ القبارصة الأتراك في مساكن كان قد أخلاها أعداؤهم توًّا. وبشكل جلي، ترتبط الصور الذهنية لهذه المواقع ارتباطًا مباشرًا بالعدو.



وصلتُ إلى قبرص الشمالية بعد نحو ستة أشهر من انتهاء حرب صيف 1974. وكان أحد زملائي في المدرسة الثانوية، وهو أحمد سافالاش، قد تحصل على عمل في المكتب الإداري المركزي لقبرص الشمالية. ومن مهامه مساعدة الشباب الحاصلين على تعليم جامعي المفروزين إلى أحد المجتمعات اليونانية سابقًا حيث يستقر اللاجئون القبارصة الأتراك. وقد مُنح كل من هؤلاء الرجال، أُطلق على الواحد منهم اسم *كيلافوز kılavuz*، أي المرشد، منزلًا خاصًا به وعُيِّن مسؤولًا عن مبنى يُستخدم كمستودع. في هذه المباني، خُزِّنت أغراض صالحة للاستخدام كان قد تركها القبارصة اليونانيون عند فرارهم، كالأسرّة وآلات الخياطة والطعام وأجهزة التلفاز. في غضون ذلك، أقام اللاجئون القبارصة الأتراك في منازل اليونانيين الخالية في معظمها الشبيهة بمنازلهم التي كانوا يعيشون فيها في الجنوب.[45]

في أثناء زيارتي لأحمد في مكتبه، اتصل به *كيلافوز* يشتكي من المستوطنين الجدد في القرية المفروزين عنده بأنهم يحرقون البطانيات التي زوّدهم بها من مستودعه. بات في حيرة من هذا السلوك الغريب. نحن في فصل الشتاء، والمستوطنون بحاجة إلى بطانيات.

فلماذا يحرقونها؟ قال أحمد إنه تلقى مؤخرًا تقارير مماثلة من مرشدين آخرين، لذا قررنا التحري في الأمر وتوجهنا إلى القرية التي تقع قبالة الطريق الرئيسي الذي يربط العاصمة نيقوسيا بفاماغوستا، ثاني أكبر مدينة في قبرص الشمالية. يقضي الرجال القرويون في قبرص، حين لا يعملون، وقتًا طويلًا في المقاهي. لذلك قررنا الاطلاع على موضوع حرق البطانيات بزيارة مقهى القرية ومقابلة الناس هناك ومراقبة التفاعلات بينهم.

في المقهى في ذلك اليوم –وفي الأيام القادمة– حَلَلْتُ تدريجيًا لغز السلوك الجماعي الفريد لهؤلاء المستوطنين الجدد، إذ علمت أنه بعد انتهاء الحرب، لم يكن لدى الإدارة القبرصية التركية ما يكفي من أغطية الأسرّة الجديدة لتلبية احتياجات اللاجئين. فصدر أمر لصنع الألحفة من أي قماش مناسب خلّفه القبارصة اليونانيون وراءهم. وقد عرف القادمون الجدد آنذاك أن الألحفة والبطانيات التي قُدِّمت لهم كانت مصنوعة من الفساتين وملابس النوم والملابس الداخلية اليونانية. فإذا استخدموا أغطية السرير التي وُزِّعت عليهم، سيكونون فعليًا على اتصال «جسدي» مع القبارصة اليونانيين. بناء على ذلك، كانت البطانيات بالنسبة للمستوطنين أجسامًا رابطة لصور العدو. ليس الحب وحده ما يربطنا بعمق مع الآخرين؛ الكراهية تربطنا كذلك. ومثلما يجب أن نفجع على رحيل من نحبهم، نحتاج أيضًا إلى الحداد حين نفقد الأشخاص أو الأشياء المكروهة بشكل وثيق، على الرغم من أننا نحاول عادةً إنكار ذلك. ومع أن القبارصة اليونانيين أصيبوا بصدمة من جراء فرارهم إلى الجنوب، فإن القبارصة الأتراك الذين يحرقون البطانيات، كما هو معتاد في مثل هذه الحالات، لم يتعاطفوا مع مأساتهم. إلا أنهم في خضم فجيعتهم وصدمتهم، كان ضروريًا من الناحية النفسية أن يحرق القبارصة الأتراك هذه الأجسام الرابطة ويخلقوا الوهم في أذهانهم بانفصال فوري وجلي عن العدو دون المرور بعملية الحداد المطلوبة.[46]

كان هؤلاء القبارصة الأتراك، كعائلة كاتشافارا، نازحين لأن موقعهم الجديد أصبح تحت الحكم القبرصي التركي. وكانوا بين أفراد من الإثنية نفسها ولم يحتاجوا إلى تعلم لغة جديدة. إلا أن منازلهم وأراضيهم الأصلية في جنوب الجزيرة سكنها الآن القبارصة

اليونانيون، فتضمنت عملية حدادهم استغراقًا في اليونانيين لأنهم يعيشون الآن في منازلهم. بعد عام، زرت القرية مجددًا برفقة أحمد لجمع المزيد من البيانات حول تكيفهم. وعلى الرغم من أن حرق البطانيات لم يعد مشكلة هناك، تعاظمت في الحجم كومة من القمامة كنت قد لمحتها في وسط القرية العام الفائت، كأنها تمثال مصنوع من القمامة. تكونت الكومة من الأغراض التي تركها القرويون القبارصة اليونانيون، من نعال ممزقة، وأوان ومقال مهشمة، وأثواب من القماش، وأهم من ذلك، صور باهتة لبعض القبارصة اليونانيين وأطفالهم الذين فروا خلال الحرب. أثارت رؤية هذه الصور عواطفي، مع أنني في ذلك الوقت كنت ساخطًا على القبارصة اليونانيين بشكل عام بسبب الأعمال الشنيعة التي ارتكبوها بحق أقاربي وأصدقائي وغيرهم من القبارصة الأتراك.

لقد أدركت أن هذه الكومة الهائلة من النفايات كانت تربط ذوات المستوطنين الجدد بصور اليونانيين المـُلَّاك الأصليين للمنازل والأراضي التي يشغلونها الآن. فبالنسبة لهم، جسّد القرويون اليونانيون الراحلون بشكل رمزي كل القبارصة اليونانيين الذين سببوا لهم المعاناة في الماضي. لكن القادمين الجدد لم يتمكنوا من نزع المـُلَّاك اليونانيين السابقين من أذهانهم لشعورهم بالذنب أنهم حلوا محلهم في هذا المكان. وكانت كومة القمامة الهائلة جسمًا رابطًا مشتركًا بوضوح يوحي بمشاعر عدوانية قوية. كانت الكومة «في الخارج» وسط ساحة القرية مقابل المقهى. وعلى الرغم من أن كومة القمامة لم تكن قريبة كالبطانيات التي كانت ستلامس أجساد الأشخاص الذين استخدموها، فإنها أتاحت استخراج عملية الحداد. وكما أشرت سابقًا، من المعتاد أن ينكص اللاجئون إلى حالة ذهنية فموية وشرجية ويفسدوا بيئتهم. لكن هذه الكومة من القمامة لها أيضًا معنى محدد آخر كجسم رابط مشترك.

بينما كنا جالسين في المقهى نشير إلى كومة القمامة، أعرب أحمد عن إحباطه وإحباط الحكومة القبرصية التركية من المستوطنين الجدد، قائلًا: «لقد أخبرناهم إن كل ما يحتاجون إليه هو علبة بنزين وعود ثقاب للتخلص من هذه الفوضى، لكنهم لا يصغون إلينا. كما

أرسلنا لهم أشخاصًا مثقفين طبيًا لإعلامهم بأن وجود كومة القمامة هذه قد يسبب مشاكل صحية، لكننا لم نلقَ آذانًا صاغية». وقد نوّهت بأن الحكومة لو كانت قلقة، فبإمكانها بسهولة إرسال شخص من خارج القرية للتخلص من هذه الفوضى. لكنها على ما يبدو لم تفعل ذلك. فتساءلت إن كان الأفراد في الحكومة قد شعروا دون وعي بالأهمية النفسية لهذا الجسم الرابط المشترك وعلى هذا لم يحركوا ساكنًا.

بعد سبع سنوات من زيارتي الأولى لهذه القرية تغير مظهرها تغييرًا جذريًا. أولًا، ظهرت لافتة إعلانية ضخمة لامرأة نصف عارية تروّج لنوعية معينة من البنزين مقابل الطريق الرئيسي بين نيقوسيا وفاماغوستا، في محاولة لجذب المسافرين العابرين لشراء البنزين لسياراتهم. وأُزيلت كومة القمامة من وسط القرية. في وقت لاحق، افتُتحت مطاعم صغيرة وملهى ليلي أيضًا بالقرب من اللافتة. زرت هذه القرية مرة أخرى العام الماضي، بعد ثلاثين عامًا على إتمام دراستي هناك. وعلى نحو غريب، لم يتذكر أحد ممن تحدثت معهم حرق البطانيات أو «التمثال» الضخم المصنوع من القمامة. ربما كَبَتَ البعض ذكرى حدادهم الصعب، بينما تورط آخرون في تطورات أحدث في العلاقة بين القبارصة الأتراك والقبارصة اليونانيين.

لقد هُجِّر اللاجئون في كل من بحر تبليسي وقبرص الشمالية. لكنني لاحظت خلال العقود العديدة التي أمضيتها في مراقبة المجتمعات التي أصيبت بصدمة بسبب «الآخرين»، أنه في بعض الأحيان ليس من الضروري أن يتعرض الناس للتهجير جسديًا كي يصبحوا لاجئين. إنهم ما زالوا يعيشون في نفس المكان؛ و«المهجَّر» هو المحيط المألوف. فمثلًا، حين يتغير المحيط المادي للجماعة تغييرًا جذريًا، وتدمَّر المنازل، وتُقتلع الأشجار، وتُحرق الحقول على يد العدو، فإن الأشخاص الذين يتخبطون من صور الراحلين والأشياء المفقودة قد يصبحون مفجوعين دائمين؛ فهم يختبرون الشعور بالذنب والعار والإذلال، وباختصار، يطورون سيكولوجية اللاجئين. لنضرب مثالًا قرية جاكوفا في كوسوفو، التي يسكنها 740 عائلة ألبانية بالقرب من الحدود الألبانية. حين هاجم الصرب بقيادة سلوبودان ميلوسيفيتش

القرية، قتلوا أكثر من مائتي شخص، تاركين 138 أرملة وأربعمائة يتيم. كما أُصيب العديد من القرويين بالتشوهات والإعاقات. وقيل آنذاك إن معظم جثث ضحايا المذبحة قد أُحرقت في محارق جاكوفا. هذا يعني أن الأرامل والأيتام وغيرهم من القرويين المصدومين كانوا يستيقظون كل صباح على مشهد المباني التي تحولت فيها جثث الأزواج والآباء والأقارب المقتولين إلى رماد. وبذلك، «هُجِّرت» بيئة القرويين المادية المألوفة سابقًا، وتصرفوا كأنهم لاجئون حقيقيون.

وبالمثل، خلال خريف عام 2004، تحركت القوات التي تقودها الولايات المتحدة لاجتثاث المتمردين العراقيين من الفلوجة، المدينة التاريخية على نهر الفرات. فأحالت مئات المنازل إلى أنقاض وصيرّت المدينة بأكملها غير صالحة للسكن. بعد عدة أسابيع من «تطهير» المدينة من المتمردين، سمح الأمريكيون لبعض العراقيين (في البداية سمحوا لألف وأربعمائة منهم فقط) بالعودة. وقد وجد هؤلاء الأفراد أن مدينتهم قد تم «تهجيرها»، فأعربوا عن غضبهم وسخطهم وإحباطهم البائس. كما في جاكوفا، أعتقد أنهم أصبحوا لاجئين وهم في منازلهم، وأظن أن سكان الفلوجة سيجدون صعوبة في الحداد على مدينتهم «المفقودة».[47]

وكما هو الحال مع اللاجئين، فإن الأشخاص الذين سُلبت منهم بيئتهم المادية المألوفة يستخدمون أيضًا أجسامًا رابطة. وقد جُسِّد مثل هذا الجسم الرابط بطريقة درامية على لوحة للمهندس المعماري والرسام النمساوي، وولف ويرديجير.[48] ويرديجير يهودي يعيش في فيينا. خلال الحرب العالمية الثانية، أُرسل والده وزوجة والده الأولى وابنهما الصغير، الذي يُدعى أيضًا وولف، إلى معسكرات الاعتقال. وهناك، قُتل الصبي وأمه على يد النازيين، لكن والد ويرديجير نجا. وفي عام 1945، لما حطت الحرب أوزارها، التقى ممرضة مسيحية وتزوجها وأنجب منها ابنًا ثانيًا، هو وولف ويرديجير. نشأ ويرديجير كيهودي، إلا أن أخواته ترعرعن كمسيحيات.

إن ويرديجير ضليعٌ بمفاهيم التحليل النفسي ويعتقد أن رسم مفاهيم التحليل النفسي التي تتعلق بالصراعات القومية أو الإثنية أو الدينية يمكن أن يقدم وجهات نظر جديدة لفهم

سيكولوجية مثل هذه الصراعات، ويستهل طرائق جديدة للتفكير بها، ويفتح أيضًا الأبواب للنظر في حلول سلمية. عُرضت لوحاته في القدس وتل أبيب ورام الله وفيينا ونيويورك. تُظهر إحدى لوحاته التي تحمل عنوان *قوة الأرض* الوجه المعذَّب لرجل مغمض العينين فاغر الفم. يتوارى جسده أسفل عنقه في الأرض. وحول عنقه خمسة مفاتيح كبيرة عتيقة تبرز من الأرض. شرح لي ويرديجير أن الفلسطينيين الذين هدمت الجرافات الإسرائيلية بيوتهم يحتفظون على الأغلب بمفاتيح منازلهم كأجسام رابطة. إن لوحة ويرديجير تنطق بالضوء الذي تلقيه على العذابات التي يقاسيها البشر باسم هوية المجموعة الكبيرة ما هو أبلغ وأبين من الكلام.

في الفصل التالي، سأشارك بعض الملاحظات عن عاصمة أوسيتيا الجنوبية، المعروفة باسم تسخينفالي للجورجيين وتسخينفال للأوسيتيين الجنوبيين.[49] هذه المدينة الواقعة شمال غوري هي المكان الذي ولد فيه جوزيف ستالين وما يزال الكثيرون هناك يجلّونه كشخصية تاريخية مثالية عظيمة. بعد حرب 1991–1992 بين الجورجيين والأوسيتيين الجنوبيين، التي تحدثتُ عنها بإيجاز في الفصل الأول، كانت تسخينفالي، إلى حد ما، «مهجَّرة». لقد طوّر الأوسيتيون الجنوبيون الذين يعيشون في هذه المدينة سيكولوجية اللاجئين التي سأستكشفها في الفصل التالي. والمناقشة في الفصل التالي مهمة لسبب آخر. ففي الحديث عن الصدمة التي يشعر بها الأوسيتيون الجنوبيون، أود أن أذكر القارئ أنه في النزاعات بين الجماعات الإثنية المجاورة، يعاني الطرفان كلاهما عادة. أرجو أيضًا تذكير القراء أنه في الجماعات الكبيرة المنتكصة دائمًا ما نجد أشخاصًا أكثر «مناعة» ضد التأثيرات النفسية التي تمارسها مجموعتهم الكبيرة بشكل جماعي. وبدراسة فرد مثل هذا، سأحاول توضيح الاختلافات بين سيكولوجية الفرد وسيكولوجية المجموعة الكبيرة.

عندما أتحدث عن سيكولوجية المجموعة الكبيرة، أشير إلى الظواهر النفسية المشتركة العامة. بشكل واضح، ليست المجموعة الكبيرة كائنًا حيًا واحدًا بدماغ واحد أو عقل واحد، ولا تعمل بالطريقة نفسها التي يعمل بها الفرد. ومع ذلك، ثمة بعض أوجه الشبه. ونظرًا

لعدم وجود مفردات منفصلة، إنني أطبق المصطلحات المستخدمة في سيكولوجية الفرد على سيكولوجية المجموعة الكبيرة. على سبيل المثال، يمكننا أن ندرس من كثب عملية حداد الفرد ونكوصه في بيئة سريرية. لكن المجموعات الكبيرة أيضًا «تفجع» و«تنكص».[50] وبينما نلاحظ بعض انعكاسات عملية حداد الفرد ونكوصه في حداد المجموعة الكبيرة ونكوصها، فإن عملية حداد المجموعة الكبيرة ونكوصها يمكن ملاحظتهما فقط في الاتجاهات المشتركة العامة المجتمعية والسياسية والعسكرية، وفي التغيرات المادية والبيئية أيضًا. وحين نلقي نظرة على مجموعة كبيرة تعيش تحت قبضة نظام شمولي، أو تتكون من لاجئين، ثمة الكثير من السلوكيات الفردية والجماعية التي تساعد في تعريفها بأنها منتكصة. في حالات نكوص المجموعة الكبيرة هذه، يفقد الأفراد الموجودون ضمن المجموعة فرديتهم إلى درجة ما، ويتبعون القائد (القادة) اتباعًا أعمى، ويصبحون عرضة لاستيعاب (استدخال) الدعاية السياسية دون التشكيك في صحتها. يحدد وصف سيغموند فرويد الأصلي لسيكولوجية الحشود هذه الظاهرة، على الرغم من أنه لم يسميها على وجه التحديد نكوص المجموعة الكبيرة، كما أنه لم يحاول تفسير نكوص بعض الأفراد وعدم نكوص البعض الآخر.[51]

لا يعرض كل شخص في المجموعة الكبيرة المنتكصة النكوص الفردي بالطريقة نفسها، لكنني لا أعتقد أن الملاحظات والنظريات المتعلقة بالسلوك النفسي الجمعي تكون بذلك غير صالحة. ففي ظروف معينة، لا ينكص بعض الأفراد ضمن المجموعات الكبيرة المنتكصة، كالمنشقين، أو ينكصون بطرق مختلفة عن عامة الناس. على سبيل المثال، كان نودار شارفيلادزه، وهو رجل جورجي قابلته خلال عملي، قادرًا على التمسك بعقله الفردي في أثناء العيش في ظل الاتحاد السوفيتي وبعد عودة استقلال جورجيا. وكما سأبيّن، فقد أدى دورًا مفصليًا في مساعدتي في مراقبة الحركات المجتمعية المختلفة في تسخينفالي وعرفني على بعض الأوسيتيين الجنوبيين الرائعين (وبعض الأوسيتيين الجنوبيين المخيفين أيضًا)، من بينهم شابة حسناء تدعى إيرين بيكوفا. لاحقًا، كان من دواعي سروري أن أصبح «الجد» الفخري لأول مولود لإيرين، ساشا (ألكسندر).

5 «هل قرأت *اختيار صوفي*؟»

نودار شارفيلادزه، هو أستاذ في علم النفس، ذو وجه مستدير، يحمل في أغلب الأحيان ابتسامة عريضة، ويعلوه شعر رمادي وحواجب داكنة. أما إكسسواراته المميزة، فهي وشاح يرتديه عادةً بدلًا من ربطة العنق وسلسلتي أمان تتدليان من جانبي نظارته، وتختفيان تحت وشاحه. إجمالًا، يمثل نودار الشكل الكلاسيكي للأستاذ الشارد الذهن. إنه ليس رجل ضخم جسديًا على نحو خاص، لكن عمله فيما يسميه «إعادة التأهيل الاجتماعي» لجورجيا جعله، في رأيي، شخصيةً عملاقة. يجسد نودار، الذي يتمتع بقدرات قوية في مراقبة الذات، رجلاً «عاديًا» بلا طموح سياسي تطور ليصبح مواطن دبلوماسي ومعالج.

ولد نودار عام 1945 في باتومي، قرب الحدود الجورجية–التركية، وكان الطفل الأكبر في أسرة مكونة من أربعة أفراد. كان والده، الذي تعرفت عليه قبل وفاته في عام 2000، سائق شاحنة غير مهتم بتاتًا بالمساعي الفكرية. أما والدة نودار، التي لم ألتقِ بها، فقد كانت ممرضة جمعت الكتب وأحبت القراءة في أوقات فراغها. اتبع نودار خطى والدته، فهو أيضًا قارئ وجامع كتب عظيم. عندما كان شابًا، كان معجبًا جدًا بزميله الجورجي يوسف ستالين. يتذكر أنه لما كان في الحادية عشرة من عمره، عندما احتج المتظاهرون على الحكومة في تبليسي، ذهب إلى تمثال ستالين، راغبًا في الدفاع عنه ضد المهاجمين المحتملين. تلت إدانة نيكيتا خروتشوف لابن جورجيا الأصلي في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في فبراير 1956، حملة مناهضة لستالين في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي، أدت إلى نفور العديد من الطلاب في تبليسي، بمن فيهم نودار. وعندما نظموا مظاهرات لمنع إزالة تمثال ستالين، أرسلت السلطات السوفيتية دبابات قتلت العشرات وجرحت المئات في الشارع الرئيسي في تبليسي.

يعتقد نودار أنه بدأ يشكك في ارتباطه بصورة ستالين ويحرر نفسه من تأثير دعاية الدولة في عام 1963. بدأ، متأثرًا بوالدته، في دراسة الفلسفة بشكل مستقل، وقراءة أعمال

أفلاطون، وأرسطو، وشوبنهاور ونيتشه. اكتشف سيغموند فرويد وكارل يونغ في نفس الوقت تقريبًا، وجد كتبًا «في الشوارع» تحتوي على أعمال فرويد؛ فقد ترجمت معظم أعمال فرويد المبكرة إلى اللغة الروسية منذ مدة طويلة، رغم حظرها في جورجيا، وفي أماكن أخرى في الاتحاد السوفيتي أيضًا. فتنت هذه الكتب نودار، وبدأ يتفكر في الطبيعة البشرية، وفي العمليات المجتمعية للاستبداد والقومية أيضًا. قصد نودار في النهاية موسكو ليصبح طالبًا في علم النفس. كان عازمًا جدًا على مقابلة علماء النفس الأجانب لدرجة أنه تمكن من الدخول، دون دعوة، إلى حفل استقبال في الكرملين عام 1966 لإلقاء نظرة على الشهير جان بياجيه، الذي كان يحضر مؤتمرًا في المدينة.

شعر أن عقله بحاجة إلى تدريب، لا يختلف عن التدريب الذي تلقاه ليصبح لاعب شطرنج محترف ومتسلق جبال جسور. وتمامًا كما يجب على المرء أن يفكر في كل خطوة يخطوها عند لعب الشطرنج أو تسلق الجبال، بدأ نودار في اتخاذ خطوات استثنائية في حياته. درس اللغة الفرنسية، ما مكنه من مغادرة الاتحاد السوفيتي بعد وصول ليونيد بريجنيف إلى السلطة. وأمضى عامًا في فرنسا يدرس علم النفس الاجتماعي وبعض من نظرية التحليل النفسي. افتتح أيضًا مكتبًا خاصًا للعلاج النفسي في تبليسي في عام 1980، على الرغم من أنه كان غير قانوني. ولإصراره على معرفة المزيد عن الطبيعة البشرية ومساعدة الآخرين، أظهر اهتمامًا متزايدًا بمفهومي الحرية والمسؤولية. عندما قدم ميخائيل غورباتشوف برنامج الغلاسنوست والبيريسترويكا، تبنى نودار الإصلاحات التي وعدت بحريات جديدة في التعبير والإعلام. ونتيجةً لذلك، مع أنه لم يشارك شخصيًا في حركة الاستقلال، صدم بشدة عندما نفى غورباتشوف مسؤولية الاتحاد السوفييتي عن مذبحة تبليسي في 9 أبريل 1989، الموصوفة في بداية هذا الكتاب.

بعد بضعة أشهر فقط من ذلك اليوم المأساوي، وجد نودار نفسه في أرمينيا المجاورة يحاول مساعدة المتضررين من زلزال ضخم أودى بحياة أكثر من خمسة وعشرين ألف شخص. يتذكر قائلًا: «لقد كانت تجربة شافية لي». لقد تبلور تحوله من محب ستالين

الشاب: فقد بدأ يشعر بالالتزام بفعل كل ما في وسعه لمساعدة الأشخاص المصدومين. وعلى الرغم من ازدواجيته المستمرة حول رد الزعيم السوفيتي على مذبحة تبليسي، أصبح نودار مؤيدًا لـ«التفكير الجديد» لغورباتشوف، حتى أنه ظهر على شاشات التلفزيون لتقديم أفكار الزعيم إلى مواطنيه. ولكن، مع انهيار الاتحاد السوفيتي، رأى نودار أن الاختلافات الإثنية والدينية ستتفاقم في جميع أنحاء «الإمبراطورية» السابقة، ما قد يؤدي إلى صراعات عنيفة خطيرة. راقب بقلق تصاعد القومية الجورجية وتوقع اندلاع صراعات إثنية كبرى في جورجيا.

في أوائل التسعينيات «غلب ثاناتوس إيروس»، على حد تعبير نودار، في جورجيا، وأصبح يشعر بمسؤوليته كمواطن لمواجهة الدمار والموت. بدأ سعيه لفهم سيكولوجية التنوع الاجتماعي والصراع. وعند عودته إلى جورجيا من رحلة أكاديمية مطولة إلى إسرائيل، وجد أن بعض أصدقائه قد تضرروا نفسيًا خلال الحروب الإثنية، ما أثر به بشدة. كان النازحون الداخليون في كل مكان. لذا ذهب لزيارة مكتب المجلس النرويجي للاجئين (إن آر سي) في تبليسي وعرض خدماته وأعد مقترحًا لهم في يوم واحد فقط. جمع نحو خمسة عشر من أصدقائه، بمن فيهم عالمة النفس جانا جافاخيشفيلي ومانيانا غاباشفيلي، اللتان ساعدتاني في ملاحظاتي في بحر تبليسي، وابنته ناتو شارفيلادزه. ضمت مجموعته أيضًا الأطباء النفسيين نينو مخاشفيلي، وزوراب بربراشفيلي، وريزو جوربنادزه. وانضم إليه أيضًا صديقه، كاتب السيناريو الشهير، أميران دولدزه. وشكلوا مؤسسة التنمية البشرية (إف دي إتش آر). خدمت جهود مؤسسة التنمية البشرية الأولى النازحين الداخليين الجورجيين في مواقع مختلفة في جميع أنحاء البلاد، بما فيها بحر تبليسي، حيث استقرت عائلة كاتشافارا، وغوري حيث ما يزال يوجد تمثال ضخم لستالين قائم في وسط المدينة وحيث يوجد متحف ستالين أيضًا.

في أثناء عمله مع النازحين داخليًا في غوري، التقى نودار رجلًا عجوز سأله، «أتدري أن الأوسيتيين الجنوبيين يحتاجون أيضًا إلى نوع الخدمة الذي تقدموه لنا؟ إنهم مصدومون

أيضًا». لذا رتب نودار، مفتونًا به، لقاءً مع جنرال روسي مسؤول عن مفاوضات معينة بين جورجيا وأوسيتيا الجنوبية. في أثناء جلوسه في غرفة الانتظار، صُدم نودار لسماع الجنرال وهو يحاول الاستفادة من بؤس الشعب: فقد كان الجنرال مهتمًا باتخاذ ترتيبات للتجارة غير المشروعة بين المجموعتين المتحاربتين أكثر من اهتمامه بصنع السلام. وفور استدعائه للتحدث مع الجنرال، عرض نودار إحضار أشخاص من تبليسي للتعاون مع الأوسيتيين الجنوبيين في بعض برامج إعادة التأهيل الاجتماعي. وعد الجنرال بالتحدث مع رئيس برلمان أوسيتيا الجنوبية آنذاك، لكن نودار لم يتلق ردًا من الجنرال أو سلطات أوسيتيا الجنوبية وقرر التصرف. في صباح أحد الأيام، استعار سيارة تابعة للمجلس النرويجي للاجئين، عازمًا على القيادة إلى تسخينفالي بمفرده. ورغم خطورة هذه الخطوة في حد ذاتها، لكنه شعر أنها كانت ضرورية. التقى في تسخينفالي، بواسطة اتصالات المجلس النرويجي للاجئين، ببعض المعلمين وعلماء النفس الأوسيتيين الجنوبيين. وخططوا معًا –في أول مشروع مشترك لحل النزاع بين جورجيا وأوسيتيا الجنوبية– لإحضار مجموعة من المراهقين الجورجيين والأوسيتيين الجنوبيين –مع مقدمي رعايتهم البالغين– إلى مخيم صيفي لمدة أسبوعين.[52] وبعد فترة وجيزة، وافق المجلس النرويجي للاجئين في جورجيا على تمويل البرنامج.

كانت مشاعر نودار حول هذا المشروع القصير مختلطة؛ لم يكن لدى مؤسسة التنمية البشرية وشركائه الأوسيتيين الجنوبيين خبرةً في توجيه هذه العملية الحساسة. لكنه كان عازمًا على البدء من مكان ما. في الطريق إلى موقع المخيم في كوبوليتي، وهو منتجع على البحر الأسود بالقرب من باتومي، جلس نودار بجوار مراهق وسيم رياضي من أوسيتيا الجنوبية. يعتنق معظم الأوسيتيين الجنوبيين المسيحية الأرثوذكسية، ويعتبر الأوسيتيون الإثنيون أنفسهم منحدرين من الألان، وهم شعب دفع من السهول نحو سفوح القوقاز في القرن الرابع بعد الميلاد. تمتعوا بسلام نسبي مع الجورجيين، حتى صراع 1990–1992 الدموي. كان الصبية الأوسيتيون الجنوبيون متحمسين للغاية عندما توقفت المجموعة على

الطريق، إذ لم تسبق لهم رؤية البحر أو بساتين الحمضيات الوارفة والمشذبة. وجد نودار نفسه يقول لزميله في المقعد، «الآن ترون مدى جمال بلادنا جورجيا!» لقد أدرك على الفور إحساسًا بالمنافسة مع هذا الصبي، شعورًا بأنه كان يريد إحباط الفتى. لاحظ أنه حتى عندما يريد المرء بوعي أن يكون مفيدًا لـ«العدو»، قد يملك دون وعي مشاعر معاكسة – ويتصرف بناءً عليها. دهش نودار عندما فطن كيف يلاحظ الناس بحرص الاختلافات بين هوية جماعتهم الكبيرة وهوية المجموعة المعادية في أوقات الصراع الإثني. وأدرك أنه يريد أن يُظهر للصبي، الذي دافع بالطبع عن شعبه ومثل هوية شعبه المشتركة، أن الجورجيين أفضل من الأوسيتيين الجنوبيين.

في كوبوليتي، أدرك نودار أنه لن تحدث معجزات فورية وبدأ في تقدير الدور الذي تلعبه قضايا الهوية في تأجيج صراعات الجماعات الكبيرة. أدلى مقدم الرعاية الرئيسي الأوسيتي الجنوبي، وهو رجل يدعى فيليب، بتصريحات عدائية حول الجورجيين مرارًا وتكرارًا أمام الأطفال، الذين كان من المفترض بالطبع أن يكونوا هناك لحل الصراع، وليس لإشعاله. شعر نودار وزميلتاه في مؤسسة التنمية البشرية، جانا وناتو، اللتان رافقتاه إلى كوبوليتي، أن فيليب قد جاء إلى كوبوليتي للشجار فحسب، ولم يكن هناك طرف ثالث للتدخل. وفي نهاية المطاف، نفد صبر نودار فقاطع أحد خطابات فيليب العنيفة المسهبة طالبًا منه بحدة أن يهدأ ويدع الأطفال يتكلمون. خرج فيليب غاضبًا، ليعود لاحقًا ويلتزم الصمت. لا شك في أن فيليب قد عبر عن غضبه بصمته، لكن نودار شعر بالذنب لأنه «قتل» روح فيليب. بعد فترة وجيزة من جولة كوبوليتي، توفي فيليب في حادث سيارة. لقد كان جهة الاتصال الرئيسية لنودار في أوسيتيا الجنوبية، لذا استغرق البرنامج بعض الوقت للنهوض مجددًا. ثم، خلال رحلة أخرى إلى تسخينفالي، التقى نودار أخيرًا فينيرا باسيشفيلي، التي أطلق عليها الجورجيون لاحقًا «نودار أوسيتيا الجنوبية»، وأُسست صلة إنسانية بين جورجيا وأوسيتيا الجنوبية.

عندما وصلت إلى جورجيا في مايو 1998، استقبلني نودار شارفيلادزه ويوري أوربانوفيتش في مطار تبليسي في الساعة الثالثة صباحًا. كان يوري قد ذهب إلى جورجيا قبل أسبوعين للتحضير لاجتماع بين ممثلي مركز دراسة العقل والتفاعل البشري –أنا وآندي تومسون ويوري– وأعضاء مؤسسة التنمية البشرية، بمن فيهم نودار، وجانا، ومانيانا، وناتو، ونينو، وزوراب وغيرهم. عندما التقينا نودار للمرة الأولى، مع ابتسامته العريضة المعهودة، عانقني وأخبرني أنني أبدو جورجيًا وأنني بالتأكيد جيغاري *كاتسي*، «رجل حقيقي». في وقت لاحق من ذلك اليوم، التقينا جميعًا في مكتب مؤسسة التنمية البشرية وأصبح مركز دراسة العقل والتفاعل البشري شريكًا –بشكل غير رسمي- باعتباره «طرفًا محايدًا ثالثًا» في أعمال مؤسسة التنمية البشرية الجارية مع الأوسيتيين الجنوبيين لمساعدة كلا الجانبين على ترويض المشاعر وتنفيذ أعمال سلام أكثر فاعلية.

بتطبيق خبرتي الطبية عند الاستماع إلى نودار وزملائه خلال أحد الاجتماعات المبكرة لمركز دراسة العقل والتفاعل البشري ومؤسسة التنمية البشرية، شعرت أنهم ربطوا وفاة فيليب دون وعي بعدائهم له. وإن كان تقييمي دقيقًا، فإن عملهم المستمر مع الأوسيتيين الجنوبيين كان، جزئيًا على الأقل، مدفوعًا بالذنب. بعبارةٍ أخرى، إن كان نودار قد تخيل أنه «قتل» فيليب بإسكاته، وإن كان هذا الخيال «تحقق» بحادث فيليب المميت، فقد شعروا أنه يجب أن يكفروا عن ذنبهم من خلال مساعدة الأوسيتيين الجنوبيين، وخاصةً الأطفال الذين كانوا محور مشروعهم التعاوني. ومع ذلك، يحتمل أن يؤدي فعل الخير بدافع الشعور اللا واعي بالذنب إلى عواقب نفسية فوضوية محتملة: فقد يتصرف الذين يشعرون بالذنب، دون إدراك، بطريقة معينة لمعاقبة أنفسهم، ما يجعل من المستحيل عليهم التواصل مع «الآخرين» كأنداد. ومن دون حرية الاقتراب من بعضهم البعض كأنداد، لا يمكن لأعضاء الجماعات المتعارضة أن يولدوا مفاوضات واقعية أو تعاونات عملية. فالإيثار الحقيقي لا يتضمن هذا العنصر المازوخي، وبالتالي لا يؤدي إلى تدمير الذات: لا يمكن للشخص الانخراط في أنشطة إيثارية حقيقية إلا عند الاعتراف بمشاعر الذنب – استيعاب حاجته المتصورة إلى بذل جهد

من أجل «الآخر» أكثر مما هو ضروري (أو ربما ممكن حتى). لحسن الحظ، في هذه الحالة، تمكنت أنا وآندي ويوري في النهاية من المساعدة في الكشف عن العواقب النفسية لموت فيليب، وعززنا شعور أعضاء مؤسسة التنمية البشرية بالإيثار بمجرد تطهيره من عناصر الذنب.[53]

عندما بدأت زياراتي إلى جورجيا، لم تكن المحادثات الرسمية والسرية بين السلطات الجورجية والأوسيتية الجنوبية تصل إلى نتيجة. أخبرني مسؤول رفيع المستوى في السفارة الأمريكية في تبليسي لاحقًا أن الحكومتين الأمريكية والروسية اتفقتا على عدم التدخل في الوضع الأوسيتي الجنوبي، إذ لم يعد هناك ضحايا للصراع. لا يهم ما إذا كانت معلومات المسؤول دقيقة أم لا. فلم يذهب أي مسؤول أمريكي إلى أوسيتيا الجنوبية، وقد فوجئ الأمريكيون الذين التقينا بهم في تبليسي والذين كانوا مرتبطين بشكل أو بآخر بالحكومة الأمريكية بتخطيط أعضاء هيئة التدريس في مركز دراسة العقل والتفاعل البشري للذهاب إلى تسخينفالي، لاعتباره مكانًا خطيرًا بالنسبة لهم.

أُبلغت أنا وآندي ويوري أنه يوجد ممثلون لبعض المنظمات الدولية للاجئين في تسخينفالي وقد بُذلت بعض المحاولات لبناء منازل ومنشآت دائمة للنازحين الداخليين الأوسيتيين الجنوبيين هناك. لكن عانت هذه المحاولات من عمليات الاحتيال، إذ استخدم بعض البنائين مواد رديئة في بنائها، ليختلسوا التوفيرات. ونتيجةً لذلك، كانت المنازل غير ملائمة إطلاقًا للحماية من فصول الشتاء القارسة في تسخينفالي. لم تكن هناك –ولم توجد بعد– أي تحقيقات عامة أو لجان لتقصي الحقائق المتعلقة بأي من النزاعات الأهلية في جورجيا. وبالتأكيد لم تكن هناك جهود جادة لبناء تفاعلات شخصية مستمرة بين الجورجيين والأوسيتيين الجنوبيين قبل جهود نودار الشجاعة لبناء شراكة بين مؤسسة التنمية البشرية وفينيرا باسيشفيلي، مديرة قصر إبداع الأطفال في تسخينفالي، وهو مركز ترفيهي وتعليمي لشباب أوسيتيا الجنوبية أسس في الحقبة السوفيتية.

عندما ذهبت أول مرة إلى تسخينفالي، سافرنا إليها في سيارتين، مررنا بغوري وشعرنا بظل ستالين يسقط علينا. كانت السيارة التي ركبت فيها مع يوري وجانا ملكًا لأميران، كاتب السيناريو، الذي عمل كسائق لنا. كان أميران قد أخبرني سابقًا عن «المدرسة الجورجية» لصناعة الأفلام التي وجدت خلال الحقبة السوفيتية عندما وجبت الموافقة على كل سيناريو بواسطة لجنة حكومية. لم يستطع الكاتب التعبير علانيةً عن رأي ضد الشيوعية أو الوضع في الاتحاد السوفيتي. لذا، سعت «المدرسة الجورجية» دائمًا إلى التعبير الرمزي. في الحقيقة، استعاروا غالبًا أشكالًا من التعبير الرمزي من الكتاب المقدس أو الأساطير لخداع أعضاء اللجنة. حثت اللجنة كتاب السيناريو على تمجيد النظام السوفيتي والطبقة العاملة. كانوا يقولون لأميران: «أنتم الجورجيون شعب سعيد»، مضيفين: «اجعلوا الناس يبدون سعداء في الأفلام». كان أميران ملزمًا بجعل الناس يبدون سعداء ظاهريًا في نصوصه، لكنه عبر عن مشاعر شخصيته الحقيقية بطرق أخرى. فمثلًا قد تحمل إحدى الشخصيات سلة مليئة بالبيض المكسور، الذي يرمز إلى روحها المكسورة.

كتب أميران نصوصًا لخمسة أفلام جورجية بين عامي 1980 و1985 وكان معروفًا ومثيرًا لإعجاب المثقفين هناك.

ولكن، بعد إعادة استقلال جورجيا، لم يتوفر المال كافي لإنتاج الأفلام. كان الجورجيون ينتجون ما يصل إلى عشرين فيلمًا سنويًا خلال الحقبة السوفيتية؛ في عام 1998 أنتجوا ثمانية فقط. لم يكن أميران يعرف الإنجليزية، وبالطبع لم أكن أعرف اللغة الجورجية أو الروسية، لكن يوري، كالعادة، كان جاهزًا للمساعدة.

كنا قد ذهبنا أنا ويوري وأميران سابقًا إلى المبنى الذي يضم الشركة المساهمة للأفلام الجورجية في تبليسي. نصبت في حديقتها تماثيل لكبار مخرجي الأفلام الجورجيين. وفي الداخل، رغم وجود سجاد أحمر وغرفة عرض ذات كراسي حمراء مريحة، كان كل شيء يتداعى وكان الجو كئيب نوعًا ما. جلسنا في غرفة العرض وشاهدنا فيلم *نايلون كريسماس تري* الذي كتبه أميران عام 1987. وأخرجه المخرج الجورجي الشهير ريزو إسادزه. ترجم

يوري الحوار لي. استطعت مشاهدة أكثر رموز أميران ذكاءً للحياة في ظل النظام القمعي. ومثل نودار، استطاع أميران الحفاظ على فرديته رغم العيش في ظل نظام سياسي قمعي بفضل الكتابة.

ركز الفيلم على حافلة مليئة بالأشخاص الذاهبين إلى منازلهم للاحتفال بعيد الميلاد. الجميع «سعداء»، لكن الحافلة المزدحمة، التي تمثل جماعة كبيرة متراجعة، لا تصل إلى أي مكان. وفي الوقت نفسه، فإن سائق الحافلة، الذي يمثل القيادة السوفيتية، لا يكترث بالركاب. وفي مرحلةٍ ما، توقف الشرطة الحافلة، وسرعان ما تتحول الثرثرة التي كانت على متن الحافلة إلى صمت مطبق. وطوال الوقت، يحمل أحد الركاب شجرة عيد ميلاد مصنوعة من النايلون، والتي ترمز إلى أن «الحياة السعيدة» للجورجيين كانت مجرد محاكاة اصطناعية.

قبل أميران في جورجيا الجديدة، التي بات فيها من دون دخل، عرض صديقه نودار للانضمام إلى مؤسسة التنمية البشرية. في أثناء قيادتنا إلى أوسيتيا الجنوبية، أخبرنا أميران أنه كان يعمل على سيناريو فيلم جديد يسمى ذا سيلنغ. وأوضح: «إن كان لديك سقف، فهذا يعني أن لديك منزل؛ لست تائهًا. نبحث نحن الجورجيون عن سقف جديد منذ عشر سنوات». تذكرت تشبيهي لهوية الجماعة الكبيرة بالخيمة. أندهش دائمًا من مقدار «معرفة» الرسامين والشعراء والروائيين وغيرهم من المبدعين الذين لم يتلقوا تدريبًا رسميًا في التحليل النفسي بمفاهيم التحليل النفسي المتعلقة بالطبيعة البشرية.

لن أنسى أبدًا أول مرة رأيت الحدود الجورجية–الأوسيتية الجنوبية. لقد حددت بحواجز خشبية على طول الطريق، أشبه بتلك الموجودة عند معابر السكك الحديدية في الولايات المتحدة. أُسكن حرس الحدود في برج مراقبة بجوار المتراس. وكانت مئات الشاحنات قد توقفت في الحقول حول المتراس وتجول سائقوها المتجهمون في الوحل. كان لدي انطباع قوي بأن هذا المعبر كان حرفيًا بوابة يتدفق عبرها الناس، والمال، والطعام والأسلحة إلى آسيا الوسطى. ساد إحساس بالخروج على القانون، وشعور بأن هؤلاء الناس كانوا يحاولون

معرفة من يكونون، وأي قضية إثنية أو دينية يريدون أن يناصروها. لم نواجه أي مشكلة في عبور الحدود. وعندما رأيت مباني المدينة لأول مرة، تذكرت مجددًا بعض الأماكن في القطاع التركي من نيقوسيا، قبرص، كما كانت بعد عام 1974، حيث تميزت جدران العديد من المباني بثقوب الرصاص. لقد دمرت البنية التحتية للمدينة بشكل أساسي. ولم يكن هناك سوى بضعة أشخاص في الشوارع المليئة بالحفر.

وصلنا أخيرًا إلى قصر إبداع الأطفال، الذي كان متهدمًا أيضًا للأسف. عندما يسمع المرء كلمة «قصر»، يفكر عمومًا في صرح مهيب بني لإيواء الملوك، لكن قصر إبداع الأطفال لم يكن مكانًا كهذا. حولت ساحة فنائه إلى موقف سيارات. وفي الداخل، تحطمت الأرضية الرخامية الجميلة سابقًا إلى قطع عديدة، واحتوت غرف الموظفين على أثاث قليل قديم. بينما احتوت قاعة الدخول على تمثال نصفي للشاعر الأوسيتي الجنوبي والرسام والثوري كوستا خيتاغوروف (1859-1906)؛ ألصقت صور وقصاصات صحفية للعديد من الشخصيات الأدبية الأوسيتية الجنوبية والأمريكية، بشكل مدهش، على الجدران. افتخرت المديرة فينيرا باسيشفيلي وبعض مساعديها جدًا بمعرفتهم العميقة بالأدب الأمريكي، وكان إرنست همنغواي، وويليام فوكنر، وإدغار آلان بو من الكتاب المفضلين لديهم. وقد بدت فينيرا سعيدة للغاية عندما أخبرتها (بواسطة مترجم) أنني أتيت من جامعة فيرجينيا، حيث درس بو وحاضر فوكنر.

كانت فينيرا أرملة محلية من إثنية جورجية في الستينيات من عمرها وكان زوجها أوسيتي جنوبي، وقد خلصت إلى تعريف نفسها على أنها أوسيتية جنوبية. في خضم الدمار العاطفي والجسدي، كانت تحاول جعل قصر إبداع الأطفال مكانًا للشفاء لأطفال أوسيتيا الجنوبية المصدومين بسبب الحرب وحصار تسخينفالي. عندما كانت امرأة شابة، كانت باسيشفيلي معلمة معروفة ومحترمة؛ حتى أنها علمت بعض الأوسيتيين الجنوبيين الذين يشغلون الآن مناصب سياسية نافذة. وبالتالي، كما خمنت وسرعان ما تأكدت، كانت شخصية ذات نفوذ سياسي في المنطقة الانفصالية. لذا كان تصرفها شجاعًا عندما وافقت

على العمل مع «العدو» – أي عند قبولها اقتراح نودار شارفيلادزه بالعمل معًا لتقديم خدمات نفسية لمجموعة من الأطفال الأوسيتيين الجنوبيين. وبما أن الأطباء النفسيين وعلماء النفس الجورجيين الذين عملوا مع مؤسسة التنمية البشرية كانوا مدربين بشكل أفضل وذوو خبرة أكثر من زملائهم في تسخينفالي، جرى الاتفاق على أن يتناوب نودار وزملاؤه في مؤسسة التنمية البشرية من تبليسي، مدعومين بتمويل المجلس النرويجي للاجئين، على القدوم إلى قصر إبداع الأطفال مرة واحدة في الشهر للإشراف على عمل المعلمين وعلماء النفس الأوسيتيين الجنوبيين. وأن يبدأ مقدمو الرعاية الأوسيتيين الجنوبيين، بعد تعلم التقنيات في جلساتهم الشهرية مع الجورجيين، في عقد جلسات أسبوعية مع الأطفال.

في تلك الزيارة الأولى لقصر إبداع الأطفال في مايو 1998، تحدثنا أنا وآندي ويوري مع الموظفين فقط ولم نراقب عملهم أو عمل الجورجيين مع الأطفال. أوضحنا لهم سبب رغبة فريق مركز دراسة العقل والتفاعل البشري في مراقبة جهودهم: أردنا المساعدة في تدريب مقدمي الرعاية الأوسيتيين الجنوبيين على أمل أن يوفر عملهم مع الأطفال نوعًا من «التطعيم» ضد تأثير الأحداث الصادمة التي مروا بها و حتى ضد العنف في حال حدوث أزمة شديدة أخرى في المستقبل. فوافقوا على أن يكونوا شركاءنا. لقد أربكني التجاور بين الحدود الجورجية–الأوسيتية الجنوبية المرعبة والأوسيتيين الجنوبيين الودودين مع قصاصاتهم المجموعة بمحبة للشخصيات الأدبية الأمريكية على جدران قصر إبداع الأطفال. شعرت أنني أرى الطبيعة البشرية تتجسد أمامي – العداء والحب، القبح والجمال، يقفان بجانب بعضهما البعض. لقد استغرقت بعض الوقت لدمج هذه الأضداد في ذهني. فعند زيارة مكان مثل تسخينفالي في يوم ربيعي بارد لأول مرة، يحتاج الأجنبي إلى إنجاز عمل نفسي داخلي ليكامل هذه الأقطاب من أجل إجراء محادثة واقعية مع السكان المحليين الذين تكيفوا للتعايش مع تناقضات المجتمع المصدوم.

عندما ركنا سياراتنا لأول مرة أمام قصر إبداع الأطفال، رأينا أربعة موظفين – جميعهن سيدات– أمام مدخل المبنى. كانت إحداهن طويلة القامة وجميلة، وكانت تقف على

عكازين بسبب إصابتها في ساقها. كانت هذه مادينا غازايفا، أخصائية نفسية من أوستيتا الجنوبية ستعمل معنا من كثب لسنوات قادمة. أخبرتنا مادينا (بالروسية) أنها كانت لاعبة كرة سلة وأنها قبل أيام قليلة كسرت ساقها أثناء اللعب. امرأة شابة تلعب كرة السلة في مدينة متهدمة –فكل مبنى رأيناه يحتاج إلى إصلاح– تجبر أجنبيًا مثلي على إجراء مزيد من العمل الداخلي التكاملي: لفهم كيف يمكن لامرأة شابة أن تستمتع بممارسة الرياضة وهي محاطة ببيئة مادية تذكرها باستمرار بأهوال العدوان البشري.

قررت أن الاستماع إلى القصص الشخصية المتعلقة بالحرب لفينيرا ومادينا وغيرهما من الأوسيتيين الجنوبيين سيشعرهم بالراحة مع أعضاء مركز دراسة العقل والتفاعل البشري. تحدثوا لساعات عن ملاحظاتهم المباشرة لمختلف الأحداث المأساوية. استمع إليهم أصدقاؤنا الجورجيون أيضًا وأظهروا بعض التعاطف. لكنني علمت أن بعضهم أراد «منافسة» العدو ورواية قصصه المرعبة.

خلال هذه الفترة الزمنية، كان متوسط الراتب الشهري للمعلم في تسخينفالي أقل من دولارين. وطور الكثير من الناس نظام مقايضة للنجاة. كان إيجاد التدفئة خلال فصل الشتاء مشكلة كبيرة بشكل خاص. قيل لنا إن مجموعة من المسنين، المدركين أن الشتاء القادم سيقتلهم، حفروا قبورهم التي دفنوا فيها فعلًا في وقت لاحق. علمنا أيضًا أن البغايا، ومعظمهن من الشابات والأطفال، كسبوا دولارًا أو اثنين مقابل كل خدمة. كانت المدينة نفسها مثالًا ملموسًا على تراجع وفوضى الجماعة الكبيرة.

بعد قضاء ساعات طويلة في قصر إبداع الأطفال، ذهبنا لرؤية وزير خارجية أوسيتيا الجنوبية الذي كان، على ما أعتقد، من طلاب فينيرا السابقين. اكتشفت خلال سنواتي الطوال التي أمضيتها في العمل الدبلوماسي غير الرسمي في العديد من الأماكن المضطربة في العالم، أن تقديم احترامنا لمسؤول (مسؤولين) في الحكومة عن طريق زيارة قصيرة مفيد دائمًا. يمنحنا هذا –الهيئة التدريسية في مركز دراسة العقل والتفاعل البشري– المصداقية ويحفظنا من أن يُنظر إلينا على أننا نفعل شيئًا في الخفاء ونخفي شيئًا عن

السلطات المحلية. في أثناء زيارة مكتب وزير الخارجية في أوسيتيا الجنوبية، وجدنا غرفة صغيرة بها مكتب وكرسيان. كان الوزير نفسه، الذي ارتدى معطفًا سميكًا في الداخل، وحيدًا تمامًا في المكان باستثناء سكرتيرة واحدة توقد نارًا صغيرة. شكر يوري وزير الخارجية باللغة الروسية، اللغة المشتركة بين الجورجيين والأوسيتيين الجنوبيين، لاستقبالنا خلال «جدوله اليومي المزدحم!» ابتسم وزير الخارجية ابتسامة عريضة. أعتقد أنه كان يتمتع بروح الدعابة.

عدت أنا ويوري إلى تسخينفالي في نوفمبر 1998، مع نودار وجانا ونينو وأميران. و أتيحت لي الفرصة هذه المرة لمراقبة العمل التعاوني الجورجي–الأوسيتي الجنوبي الجاري مع أطفال أوسيتيا الجنوبية. في البداية شارك ستون طفلاً من سن التاسعة حتى الثانية عشرة في المشروع. ثم أضيف لاحقًا ثلاثون آخرون. كانوا يجتمعون مرة واحدة أسبوعيًا مع معلمين وعلماء نفس من أوسيتيا الجنوبية في مجموعات مؤلفة من 20 حتى 25 شخصًا. يأتي الجورجيون مرة واحدة في الشهر، ويلتقي الأطفال، في مجموعاتهم الخاصة، جانا ونينو. يسمح لهم البرنامج بالتحدث عن تجاربهم أثناء الحرب والتعبير عن مشاعرهم. كان الهدف هو إزالة الاستجابات المرضية للصدمات من نفسية هؤلاء الأطفال ومنعهم من البقاء كحاملين أحياء للكراهية الإثنية.

في صباح يوم 3 نوفمبر 1998 الجليدي، كان هناك خمسة وعشرون طفلاً في قصر إبداع الأطفال للمشاركة في لقاء لمدة ساعتين مع جانا ونينو. كانت الغرف التي اجتمع فيها الأطفال لجلساتهم على الجانب الأيمن من قاعة المدخل، بعد المراحيض المتداعية والمغمورة دائمًا – لم يتوافر المال حتى لإصلاحات السباكة الأساسية. عندما دخلت إحدى هذه الغرف رأيت الأطفال الأوسيتيين الجنوبيين جالسين على مقاعد خشبية في ثلاث دوائر متحدة المركز. كان بعضهم محليين، وجاء آخرون من مأوى للأطفال من الريف الذي دمرته الحرب، حيث انهارت بنية الأسرة وغادر العديد من الآباء إلى روسيا بحثًا عن عمل. كان هناك موقد معدني متوضع في إحدى الزوايا، ينفث الدخان في الفناء المغطى بالثلوج من خلال أنبوب

مؤقت. حضر اثنان من المستشارين الجورجيين لقيادة الجلسة مع الأطفال. وجلست مع خمسة مدرسين وعلماء نفس أوسيتيين جنوبيين، ونودار وأميران من مؤسسة التنمية البشرية، ويوري على مقاعد أعلى وخارج الدوائر وراقبنا. جرت كل المحادثات باللغة الروسية. كانت إيرين بيكويفا مترجمتي في ذلك اليوم، وهي امرأة أوسيتية جنوبية، ربما كانت في أوائل العشرينيات من عمرها، والتي تحدثت الإنجليزية بلهجة أمريكية. لم أقابل إيرين من قبل، وقد تأثرت كثيرًا بإجادتها للغة الإنجليزية، فاستفسرت عن المكان الذي تعلمت فيه التحدث بها. أخبرتني أنها لم تغادر أوسيتيا الجنوبية قط إلا لدراسة الأدب الإنجليزي والأمريكي في جامعة نالتشيك في جمهورية قبردينو –بلقاريا في شمال القوقاز في الاتحاد الروسي. كانت إيرين جميلة، لكنني شعرت أنها كانت كطائر صغير مجروح. لم أعلم لماذا خطرت لي هذه الفكرة.

بدأت جانا الاجتماع بتقديم نفسها وتوضيح أنها وزملائها جاءوا إلى قصر إبداع الأطفال للتحدث إلى الأطفال. مشيرةً إلى أنها تعرف بالفعل معظم الأطفال، وحثتهم على عدم الخجل وطلبت منهم تقديم أنفسهم وهي تلقي كرة صفراء لينة تجاه المجموعة. كان من المفترض أن يقدم الأطفال أنفسهم ويذكروا هواياتهم المفضلة عند الإمساك بالكرة. تحدثوا عن حب كرة القدم، والموسيقى، والمصارعة والرقص. بعد أن أتيحت الفرصة لكل طفل تقريبًا للتحدث، قدمت جانا لمسة جديدة للعبة. كان من المفترض أن يسمي كل طفل، بعد التقاط الكرة، «قاعدة» واحدة للسلوك الاجتماعي تعترف بها المجموعة. قال أحدهم: «الابتسام». وأضاف آخر «كن ودودًا». وتابعوا «استمع أكثر وتحدث أقل.... أن نتقبل مظهر بعضنا البعض.... كن مهذبًا».

بعد نحو ساعة، طُلب من الأطفال اختلاق قصة وروايتها كمجموعة، وهي تقنية عمل مع الأطفال المصدومين علمها بعض المعلمين الزائرين برعاية نرويجية للمدربين. من وجهة نظر مقدمي الرعاية، فإن نشاط سرد القصص يشكل نوعًا من قماش الرسم المشترك الذي يمكن للأطفال أن يخرجوا ويسقطوا عليه جوانب من عوالمهم الداخلية. وبمجرد نشرها في

العلن، يمكن مناقشة هذه الإسقاطات بطريقة يمكن أن تكون علاجية. بدأ الأطفال: «كان هناك رجل... أبحر إلى جزيرة... وبحث هناك عن الطعام».

لقد تأثرت فوريًا بإشارات الأطفال الوفيرة إلى الماء. على البر، كانوا يضحكون هم والمدربون ويدردشون حول مدى متعة الإبحار في البحيرة أو البحر إلى جزيرة وقضاء عطلة على الشاطئ. لكنني أتذكر، أن أوسيتيا الجنوبية غير ساحلية تمامًا، ولا يوجد فيها أي بحيرات كبيرة أو محيطات أو بحار داخلية. ونظرًا لأن الإبحار ليس خيارًا واقعيًا في أوسيتيا الجنوبية، فإن استغراق الأطفال في الاصطياف على الشاطئ يبدو أنه يمثل خيالًا للتواجد في مكان آخر. في ذهني المحلل النفسي –واستنادًا إلى تجربتي مع الأطفال المصدومين بسبب الحرب في أماكن أخرى– شعرت أن الأطفال يحاولون، من ناحية أخرى، إرسال رسالة إلى البالغين في الغرفة، كما لو كانوا يصرخون، «الماء، الماء في كل مكان». تساءلت إن كان الماء الذي أشاروا إليه بقلق شديد يعكس أيضًا أعراض التبول اللا إرادي؛ غالبًا ما يكون الماء بارزًا في أحلام الأطفال المصدومين الذين يبللون أسرتهم، ويرتبط التبول اللا إرادي غالبًا بمشاعر الغضب اليائس.[54] اعتقدت أن الأطفال قد سعوا ربما، عن طريق سردهم القصص، إلى عكس البلل المزعج، أي إعادة صياغته كتجربة ممتعة. حين قدمت هذه الفكرة إلى مقدمي الرعاية في أوسيتيا الجنوبية بعد الجلسة، أكدت فينيرا أن التبول اللا إرادي كان شائعًا فعلًا بين الأطفال، ولكن نادرًا ما جرى التحدث عنه علانيةً لأنه كان مذلًا جدًا، خاصةً للأطفال الأكبر سنًا. والجدير بالذكر، أن أمهات الأطفال كن يهمسن أحيانًا بهذا الأمر للمديرة الموقرة. لم تناقش فينيرا الأمر حتى مع مقدمي الرعاية الأوسيتيين الجنوبيين الأصغر سنًا أو زملائهم الجورجيين حتى ذلك اليوم بالذات. فبالنسبة للأطفال والبالغين في تسخينفالي المصدومة، كان التبول اللا إرادي للأطفال سرًا، رمزًا لإذلال المجتمع.

لكن الأهم من ذلك أنني شعرت أن الجزيرة في قصة الأطفال تمثل أوسيتيا الجنوبية المحاطة بـ«الأعداء»، رغم أن أيًا من الأطفال لم يشر إلى الجورجيين أو إلى أنفسهم كأوسيتيين جنوبيين. في إحدى مراحل قصة الأطفال، يرى الرجل زورقًا إيرانيًا معاديًا

ويريد محاربة الأشخاص الموجودين على متنه. تجنب الأطفال بجدية الاختلافات داخل الغرفة، وحولوا أي مشاعر عدائية تجاه الإيرانيين «الآخرين». ولما بان العداء، قال أحد الأطفال بطريقة آلية: «رغم صعوبة تكوين صداقات بعد الحرب، لكننا نريد السلام!» مع ابتسامة باردة على وجهه، رسم طفل آخر شخصية عصا على الجزيرة مرفوعة اليدين، كأنها تستسلم لعدو غير مرئي؛ وإلى جانب الشخصية، رسم مربع يشبه بالون كرتوني وكتب فيه بالإنجليزية، كما لو كان ذلك من أجلي أنا ويوري، «النجدة! النجدة!» لقد تأثرت كثيرًا بنضاله ليعلن مباشرةً أنه يحتاج هو والأطفال الآخرون إلى مساعدتنا، رغم أنه أراد إخفاء ذلك. ولكن، كما لو أنها لا تستطيع رؤية رسالة «النجدة»، قالت إحدى المدربات للصبي: «أليس جيدًا أنك الآن في إجازة على هذه الجزيرة، تقفز مرحًا صعودًا وهبوطًا؟»

مع تقدم الجلسة التي استمرت ساعتان، شعرت بالإحباط. وبدلًا من التعبير عن مخاوف الأطفال وعداءاتهم، بدت جانا ونينو تتماشيان مع –بل تشجعان– إنكار الأطفال لأي مشاعر سلبية. كنت متلهفًا لمناقشة كل ما فاتهما في الجلسة – فرغم كل شيء، كنت هناك كمستشار وشعرت أن لدي الكثير لأعلمه لهاتين الزميلتين! نفد صبري لمناقشة ما رأيته، فالتفت إلى إيرين، مترجمتي الشابة، وسألتها، «أليس مدهشًا أن هاتين المدربتين قد فوتتا مناشدات الأطفال لمناقشة مشاعرهم المؤلمة، وقمعتا بدلًا من ذلك بفعالية تعابير الأطفال!» استدارت إيرين ونظرت إلي بدهشة. قالت: «جانا ونينو، مثل المعلمين وعلماء النفس الأوسيتيين الجنوبيين هنا، تدركان ما يريد الأطفال التحدث عنه»، مضيفةً في همس، «لسنا أغبياء!» واستطردت تقول –وهي محقة تمامًا في رأيي– إن مقدمي الرعاية أنفسهم، الجورجيين والأوسيتيين الجنوبيين على حد سواء، مصدومين، لذا فهم غير قادرين بعد على تحمل آلام الأطفال وخوفهم، لأن هذا قد يفتح جروح مقدمي رعايتهم. سكتت للحظة، ثم سألتني: «هل قرأتَ *اختيار صوفي*؟»

في ذلك اليوم الكئيب في تسخينفالي، وفي أثناء مشاهدة جانا ونينو تواصلان العمل مع الأطفال، ومحاولة تدفئة أيدينا بين الحين والآخر فوق موقد مدخن في تلك الغرفة

القاتمة، أخبرتني إيرين قصتها هامسةً وبكل كرامة. كانت في منتصف مراهقتها عندما هاجم الجورجيون تسخينفالي. كان والدها قد توفي قبل الحرب مباشرةً، وكانت تعيش مع والدتها وأختها، وجميعهن في حالة حزن حاد، عندما اندلعت الحرب. وصلت منظمة دولية إلى تسخينفالي في أثناء العدوان لنقل المراهقين الأوسيتيين الجنوبيين بعيدًا عن الأذى طوال فترة الصراع، لكن كان بإمكانهم أخذ أربعين مراهقًا فقط. طلب ممثلو المنظمة من والدة إيرين اختيار إحدى ابنتيها للمشاركة في البرنامج. وبمجرد اختيار إيرين، نقلت بسرعة خلف الجبال إلى الاتحاد الروسي إلى مدينة نالتشيك، حيث عاشت في مهجع لأربعة أشهر بينما بقيت والدتها وأختها في تسخينفالي. كانت أكبر الأطفال الأربعين المنقولين إلى بر الأمان. وهذا بحد ذاته فصلها عن الشباب الأوسيتيين الجنوبيين الآخرين في المهجع. وبمجرد استقرارها بأمان، صُدمت إيرين، القارئة الشغوفة، بالتشابه بين قصتها ورواية *اختيار صوفي* لويليام ستايرون. كانت هي المختارة.

بينما كانت إيرين بعيدة، لم يكن لديها أي فكرة عما كان يحدث لأمها وأختها، لم يكن لديها أصدقاء في مهجعها، وكان عقلها مليئًا بتخيلات حدوث أشياء سيئة لعائلتها بينما هي في آمان. ابتليت بالكوابيس، وانتهى بها الأمر بكره نفسها لكونها «المختارة». لحسن الحظ، وجدت إيرين عائلتها على قيد الحياة وبصحة جيدة عند عودتها، لكنها استوعبت هذه المشاعر الشديدة بالذنب لدرجة أنها تعتبر نفسها الآن شخصًا سيئًا. شعرت بأنها غير قادرة على مناقشة هذه المشاعر مع العائلة أو الأصدقاء. أخبرتني أنها، مثل المدربين الجورجيين، لا ترغب أو لا تستطيع السماح للأطفال في قصر إبداع الأطفال بالتحدث عن صدماتهم أو ذكريات الأحداث المروعة. لكونها قد نجت من صدمة كهذه، فإن سماع الآخرين يتحدثون عنها يعيد إحساسها الشديد بالذنب. شعرتُ أن ذنبها الداخلي يكاد يلمس. واصلنا التحدث في همس شديد. أخبرتني أن والدها، الذي توفي قبل ترحيلها مباشرةً، كان من إثنية جورجية. بعد رحيله، طلبت والدة إيرين الأوسيتية الجنوبية من ابنتيها التوقف عن استخدام لقب والدهما واعتماد لقب الأم بدلًا منه. وافقت الفتاتان على ذلك. فقد كان استخدام اسم

أوسيتي في أوسيتيا الجنوبية بعد الحرب مع جورجيا أكثر أمانًا وتكيفًا. شعرت أن ذلك خلق مشكلة داخلية لإيرين. فإن كونها «المختارة» و«خيانتها» لأختها فيرا قد كثف بـ«خيانتها» لوالدها. لقد شعرت بالذنب أيضًا لـ«قتل» صلتها بوالدها.

نظرت إلي إيرين فجأةً وقالت: «عندما رأيتك لأول مرة حسبتك جورجيًا». أدركت أنها قد شبهتني بوالدها المتوفى؛ لقد «أعادت خلقه» وأرادت التوجيه منه/مني. أخبرت إيرين أنه بما أنها منحتني امتياز أن أكون مثل والدها الجورجي، ولو مؤقتًا، يمكنني إخبارها، بصفتي أب، أن استمرار عيشها مع الذنب سيكون أشبه بالجريمة. يمكنها نسيانه. بدأت تبكي بصمت وحاولت إخفاء ذلك عن الآخرين في الغرفة، لكن ليس عني. ثم أخبرتني أنه بعد عودتها إلى تسخينفالي وإيجاد والدتها وأختها على قيد الحياة، تركتهما مرةً أخرى لعدة سنوات، إلى نالتشيك أيضًا، لمتابعة تعليمها. ووصفت كيف أن تجربة الذهاب إلى نالتشيك لمدة أربعة أشهر بصفتها «المختارة» قد أفسدت تجربتها كطالبة في نالتشيك.

بعد انتهاء جلسة جانا ونينو مع الأطفال، أخذتُ إيرين جانبًا ووضعنا خطة لمشاركة مشاعرها، تدريجيًا، مع والدتها وأختها. أخبرتها أن تتمشى مع أختها، فيرا، مرة واحدة على الأقل شهريًا وتشاركها كيفية شعورها لكونها «المختارة». تحدثنا أيضًا عن كيف يمكنها التحدث مع والدتها عن شعورها بالذنب المتعلق بنفس الموضوع. وكيف يمكنها إخبار والدتها بأنها ممتنة لكونها الشخص الذي اختارته لإرساله إلى بر الأمان، ولكن يجب أن تعرف والدتها أيضًا كيف كان هذا عبئًا عليها، كعبء التخلي عن لقب والدها بسبب مخاوف واقعية تتعلق بالسلامة.

اجتمعنا في غرفة فينيرا لساعة اجتماعية بعد الجلسات في قصر إبداع الأطفال. رغم معاناتهم، كان الأوسيتيين الجنوبيين قد أعدوا الطعام والشراب: كانت رغبتهم في إظهار العزة والكرامة مؤثرة للغاية. وفي أثناء تناول وجبتنا، كما يحدث عادةً في تجمعات الأشخاص من مجموعات «العدو»، كانت الاختلافات الطفيفة بين الجورجيين والأوسيتيين الجنوبيين موضوعًا للمحادثات الاجتماعية – مثل طرق إعداد *الخاتشبوري*، وهي نوع من

البيتزا التقليدية لكلا المجموعتين. أصبح واضحًا لي أن مقدمي الرعاية الأوسيتيين الجنوبيين والجورجيين، كما أشارت إيرين، كانوا على دراية بقصورهم بالنسبة لمحاولات الأطفال للتعبير علنًا عن مشاعرهم بشأن الصدمة وحقبة الحرب. وكان نودار، بقدرته غير العادية على مراقبة الذات، قادرًا على الإدلاء بعدة تعليقات لبقة حاولت معالجة الصدمات ومشاعر الذنب لدى مقدمي الرعاية.

ولكن لم يتمكن زملاؤنا الجورجيون من مؤسسة التنمية البشرية من التحدث عن مدى صعوبة سفرهم إلى أوسيتيا الجنوبية إلا في اليوم التالي لعودتنا إلى تبليسي. تحدثوا عن خوفهم من أن يُنظر إليهم على أنهم خونة داخل مجتمعاتهم في تبليسي لأنهم كانوا يتعاونون مع الأوسيتيين الجنوبيين لمحاولة مساعدة أطفال «العدو».تذكرت جانا حادثة وقعت خلال الساعة الاجتماعية بعد اجتماعاتنا ومناقشاتنا في قصر إبداع الأطفال. كانت تجلس على طاولة مع الآخرين عندما دخل رجل طويل بعض الشيء الغرفة. كان رد فعلها الفوري هو الخوف الشديد؛ لقد شعرت أن الوافد الجديد كان أوسيتيي جنوبي جاء لأخذها كرهينة. تتذكر قائلة: «اعتقدت أنني لم أره من قبل ولم أعرف من هو». «ثم طلب منه أحدهم الجلوس معنا، فأدركت أنه السائق الجورجي للسيارة التي ركبتها من تبليسي، وتحدثنا معًا لمدة ثلاث ساعات في السيارة في طريقنا إلى تسخينفالي». لقد أدى مستوى قلقها من التواجد في منطقة «العدو» إلى تشويش قدراتها العادية على الملاحظة. وحدث شيء مشابه لأميران في قصر إبداع الأطفال في اليوم السابق. في وقت ما خلال الجلسة مع الأطفال، كان قد غادر الغرفة لفترة وجيزة لتدخين سيجارة، لكنه أوضح أن السبب الرئيسي لمغادرته الغرفة لم يكن التدخين، وإنما للتحقق من مجموعة من الرجال الأوسيتيين الجنوبيين الذين لاحظهم من خلال النافذة. كانوا يتسكعون حول سيارته، وكان يخشى أن يتلفوا أو يهاجموا السيارة بسبب لوحات ترخيصها الجورجية. لا يهم تحديد مدى عقلانية خوفه: فقد عكس قلقه مشاعر الخطر المتزايدة التي تتداخل أحيانًا مع المهام الأساسية لمقدمي الرعاية في

مؤسسة التنمية البشرية. أعجبت بشجاعتهم واستعدادهم لمحاولة التغلب على العقبات العاطفية والواقعية لمساعدة الآخرين.

عدت إلى تسخينفالي مرةً أخرى في ربيع عام 1999، مع يوري مجددًا. كان آندي معنا في هذه الرحلة أيضًا، بالإضافة إلى الطبيب النفسي غريغوري ساثوف، وهو عضو آخر في مركز دراسة العقل والتفاعل البشري. انشغلت خلال هذه الرحلة بذكرى ما اعتقدت أنه «ساعة كاملة من العمل التحليلي» مع إيرين خلال زيارتي السابقة. كنت أعلم أنها شعرت بتعاطفي معها في الغرفة المليئة بالدخان في قصر إبداع الأطفال؛ فقد أخذت مكان الأب المهتم، على ما أعتقد، في عقلها. وتمكنت من مساعدتها، مستخدمًا هذا الدور، على التحدث عن شعورها الرهيب بالذنب.

عندما وصلنا إلى قصر إبداع الأطفال، كانت إيرين تنتظرني. لم تعد طائرًا صغيرًا مجروحًا. أخبرتني أنها أبقت محادثتنا حيةً في ذهنها واتبعت تعليماتي من كثب. في الواقع، لقد ازدهرت كمحترفة ووقعت في حب شاب تقدم لخطبتها. علمت إيرين أنها لا تستطيع الموافقة على الزواج منه حتى تحصل على «إذني». لذلك انتظرت عودتي بفارغ الصبر. فأعطيتها «إذني».

لم أعد أبدًا إلى تسخينفالي بعد هذه الزيارة، ويرجع ذلك أساسًا إلى أن وضع تسخينفالي قد ساء وإلى أن السفارة الأمريكية في تبليسي أخبرتنا مباشرةً بعدم السفر إلى أوسيتيا الجنوبية. لكنني واصلت العمل مع مادينا وشركائها فاطمة تورمانوفا، وإنغا كوشييفا، وإرينا يانوفسكايا. عندما كنت في تبليسي، انضموا إلى مركز دراسة العقل والتفاعل البشري ومؤسسة التنمية البشرية لعمل إضافي. استمر البرنامج مع الأطفال الأوسيتيين الجنوبيين نحو ثلاث سنوات. في أواخر عام 2002 أبلغتنا مادينا وآخرون في اجتماع في إسطنبول بتركيا، كان الجورجيون والأوسيتيون الجنوبيون حاضرين فيه، أن الإجرام والبغاء أصبحا متفشيين في تسخينفالي، حتى بين المراهقين الصغار. لكن مادينا وزملاؤها أخبرونا أن أيًا من الأطفال التسعين الذين خاضوا برنامج قصر إبداع الأطفال لم

يصبحوا مجرمين أو عاهرات. ومع ذلك، فإن أكثر نتائجهم إثارةً للدهشة تتعلق بمأوى الأطفال في الريف. من بين مئتي طفل في المأوى، شارك عشرون فقط في برنامج قصر إبداع الأطفال. لاحظت مادينا وزملاؤها أن هؤلاء الشباب العشرين قد تكيفوا جيدًا كمراهقين، بينما أصبح البقية مجرمين أو عاهرات.

إن مثل هذه النتائج حول فعالية برنامج قصر إبداع الأطفال –مهما كانت سابقة لأوانها– ليست شاذة. لكن الضغوط المالية والسياسية دائمًا ما تكون جزءًا مهمًا من السياق الذي تحدث فيه الجهود المدروسة نفسيًا لمداواة الجروح المجتمعية، ولسوء الحظ، لا تستجيب الدبلوماسية التقليدية عادةً إلا إن احتدم الصراع العسكري–السياسي «الساخن». كما ذكرت، أخبرت سفارة الولايات المتحدة في تبليسي مركز دراسة العقل والتفاعل البشري في عام 2001 أن سياسة الولايات المتحدة وروسيا تجاه التفاعلات الجورجية–الأوسيتية الجنوبية كانت «عدم التدخل» تمامًا: لم يكن لأي من البلدين أي مصلحة في التورط في الصراع. حتى النرويج نقلت معظم مساعداتها من المبادرات الجورجية–الأوسيتية الجنوبية بمجرد اندلاع الحرب الشيشانية ووصول آلاف اللاجئين إلى جورجيا. لسوء الحظ، يميل المجتمع الدولي إلى الابتعاد عندما «يبرد» الصراع السياسي العسكري المميت إلى صراع مجتمعي مميت.

قد يكون لهذا الإهمال عواقب وخيمة بالفعل، ليس فقط من ناحية العلل المجتمعية من إجرام وبغاء وتفكك أسري وما شابه ذلك. في أثناء عملنا هناك، اعتقد الجورجيون أن روسيا تعتزم إبقاء جورجيا ضعيفة وفي حالة توقف التنمية، بحيث تظل بشكل غير مباشر تحت سيطرة الدولة الأقوى. أمكن للأوسيتيين الجنوبيين السفر إلى روسيا من دون تأشيرة، لكن الجورجيين احتاجوا إليها؛ عاملتهم روسيا كدولتين منفصلتين، رغم أن أوسيتيا الجنوبية ليست دولة معترف بها دوليًا. جعلت أحداث 11 سبتمبر 2001 علاقة جورجيا مع روسيا أكثر توترًا، إذ اعتقد الجورجيون أن الحرب الدولية على الإرهاب وسعت حقوق الحرب لتشمل روسيا، التي قصفت بين الحين والآخر أجزاء من جورجيا اشتبهت بأنها تضم نشاط إرهابي – أي المتمردين الشيشان. من الواضح أن جداول الأعمال الدولية للدول القوية مثل

روسيا والولايات المتحدة، عندما يتعلق الأمر بجورجيا، لم تتضمن الحاجة إلى تخفيف المعاناة وتقليل التوترات الإثنية هناك، وقد لاحظت ذلك في تبليسي بعد أيام قليلة من وصول الجيش الأمريكي في أوائل مارس 2002. رغم أن الجيش الأمريكي جاء بسبب نشاط مشتبه به للقاعدة في جورجيا، فقد طور النازحون الداخليون الجورجيون خيالًا مشتركًا بأن الأمريكيين كانوا هناك لمساعدتهم في محاربة الأبخاز. ظننت بشدة أنه بعد فترة، عندما تتجلى الحقيقة ولا يساعدهم الأمريكيون في نزاعهم المتواصل، سيُترك النازحون الداخليون الجورجيون محبطين ويصدمون مرةً أخرى.

عندما زرت تبليسي للمرة الأخيرة في مارس 2002، قيل لي إن إيرين بيكويفا سترافق الأوسيتيين الجنوبيين الآخرين إلى العاصمة الجورجية حيث سيجتمعون مرةً أخرى مع نظرائهم الجورجيين وفريق مركز دراسة العقل والتفاعل البشري. ولكنها أرسلت لي رسالة بدلًا من ذلك عن طريق الأوسيتيين الجنوبيين الآخرين الذين جاءوا إلى تبليسي، والتي أثرت بي للغاية. احتوى الظرف على صورتين لألكسندر (ساشا)، ابن إيرين البالغ من العمر سبعة أشهر، الذي لم تتمكن من تركه للحضور إلى تبليسي. كتبت: «أنت لا تعرف حتى كم تعني لي. يا له من دور عظيم لعبته في حياتي. حياة بلا خوف، بلا ضغوط، ومن دون شعور بالذنب. لقد علمتني أن أكون حكيمة وأن أتقبل مصيري وكل شيء كما هو. لقد أعطيتني درسًا عظيمًا عن كيف أكون قوية». وتابعت إيرين للحديث عن سعادتها الحالية واختتمت رسالتها قائلةً: «بما أن ابني ليس لديه أجداد (توفي والد زوجي قبل عام)، هل تعترض على أن يكون لديك حفيد في أوسيتيا الجنوبية؟ هل يمكننا أن نسميك جدنا؟»

ثمة مناسبات أسأل فيها نفسي لماذا أضع نفسي طواعيةً في مواقف غير مريحة وخطيرة في كثير من الأحيان حول العالم. إلى جانب الرضا الفكري لفهم سلوك الأفراد والجماعات الكبيرة تحت الضغط، يشرفني للغاية أنني أثرت في حياة أشخاص مثل إيرين. رغم أنني لم أرها منذ عام 1998، لكن مراسلاتها وحدها (آخر مرة سمعت خبرًا منها كانت

في يونيو 2005، عندما أخبرتني أنها وزوجها وساشا في حالة جيدة) جعلت كل المجهود الذي بذلته لفهم الوضع في منطقتها من العالم يستحق العناء شخصيًا.

الجزء الثاني

الصدمة المجتمعية
والنقل عبر الأجيال

6 من الكوارث الطبيعية إلى التطهير الإثني

عندما تحدث كارثة ضخمة، مثل كارثة تسخينفالي التي وصفتها في الفصل السابق، قد يعاني المتضررون من تأثيرها النفسي بطرق عديدة. أولًا، سيعاني العديد من الأفراد مما يُعرف في الأدبيات النفسية والطب النفسي باضطراب الكرب التالي للصدمة (بيّ تي إس دي). يعد اضطراب الكرب التالي للصدمة فئة تشخيصية جديدة نسبيًا في مجال الصحة العقلية، إذ لم يُعترف به رسميًا حتى عام 1980 من قبل جمعية التحليل النفسي الأمريكية. باختصار، إنه يشير إلى اختبار حالات عقلية غير متوقعة تتجلى فيها تجارب المرضى الصادمة بوضوح. قد يعانون من أحلام متكررة، واسترجاع للأحداث، وصعوبة في التركيز والنوم. ويتغير تنظيم المشاعر، والوعي، وإدراك الذات، وإدراك مرتكب الصدمة، والعلاقات مع الآخرين ومعنى الأحداث. بدأت التطورات في علوم الأعصاب في العقود الأخيرة تعلمنا كيف تشكل التجارب الدماغ وكيف يؤدي المرور بتجارب صادمة إلى تغيير بيولوجيته.[55] في أثناء تأليفي لهذا الكتاب، تعمم مذكرات بين أعضاء مجموعة النهوض بالطب النفسي (جي إيه بيّ) وغيرها من المنظمات المتعلقة بالصحة العقلية، تنبه الأطباء السريريين إلى الاستعداد لتهافت العسكريين العائدين من العراق الذين يعانون من أعراض اضطراب الكرب التالي للصدمة.

لا تخبرنا علامات وأعراض اضطراب الكرب التالي للصدمة عن القصص الوجدانية للأشخاص المصدومين، مثل تشابك صور الكارثة الخارجية مع الصور الداخلية لتجاربهم السابقة، وصراعهم مع الحداد على الخسائر ومعاني ما فقد، ومحاولاتهم للتكيف. في الأساس، تخبرنا أعراض اضطراب الكرب التالي للصدمة بوجود كابوس ولكنها لا تخبرنا بقصة الكابوس ومعناه. بالتأكيد، لا يملك مقدمو الرعاية الوقت للتعامل بشكل فردي مع آلاف الأشخاص المصدومين عند العمل في منطقة حرب أو مخيم لاجئين منشأ حديثًا. ولكن عندما يسمح الوقت والظروف، يلزم إجراء مزيد من العمل الدقيق للتركيز على ما وراء

اضطراب الكرب التالي للصدمة وفهم الصراعات الداخلية للفرد المتضرر. قدمت في الجزء الأول من هذا الكتاب منظورًا يمكننا من خلاله التعرف على ردود الفعل الشخصية على الصدمات الضخمة الناتجة عن صراعات الهوية الإثنية. عندما عملت مع أفراد عائلة كاتشافارا وإيرين بيكويفا، مضيت أبعد من التفكير في اضطراب الكرب التالي للصدمة وتعرفت عليهم، بقدر ما استطعت، كأفراد في حد ذاتهم، أفراد أثرت بي قصصهم الداخلية.

بالإضافة إلى وجود اضطراب الكرب التالي للصدمة لدى الأفراد، يمكن أن تؤدي الصدمات والكوارث الضخمة أيضًا إلى أربعة أنواع من ردود الفعل لدى المجتمع ككل. وهي تشمل: (1) شواغل مجتمعية جديدة؛ (2) تعديل العادات الثقافية الموجودة؛ (3) بناء المعالم التذكارية ككائنات ربط مشتركة؛ و(4) نقل الصدمة عبر الأجيال. لا نستطيع فهم كيف يمكن أن ترتبط المشاكل الطبية والنفسية التي يعاني منها المصابون بعد صدمة مشتركة أو كيف يمكن أن تتطور إلى حركات اجتماعية وسياسية وتاريخية إلا بدراسة هذه الاستجابات المجتمعية.

ترتبط الاستجابة الأولى، الشواغل المجتمعية الجديدة، ارتباطًا مباشرًا بالتمثيل العقلي المشترك للحدث الصادم. أحد الأمثلة على ذلك هو الانشغال بالبطانيات الذي وصفته لدى بعض اللاجئين القبارصة الأتراك – وعلى وجه التحديد، كان انشغالهم بالبطانيات مرتبطًا بشكل مباشر بصراعهم الإثني. في هذا الفصل، سأنظر من كثب في الشواغل المماثلة التي أطلقت عمليات مجتمعية جديدة بعد الكوارث الضخمة الأخيرة.

تتضمن الاستجابة المجتمعية الثانية تعديل العادات الثقافية الموجودة مسبقًا بعد تجربة كارثة. إن العادات الثقافية أشبه بالتصاميم المرسومة على قماش خيمة الجماعة الكبيرة. عندما تهتز الخيمة أو تمزق، يتعين على الجماعة الكبيرة استعادة أو إعادة رسم التصاميم للحفاظ على الرموز الأولية ورموز هويتها. سأقدم في هذا الفصل مثالًا على هذه الظاهرة.

وسأخصص لاحقًا فصلين للاستجابة المجتمعية الثالثة: بناء المعالم التذكارية ككائنات ربط مشتركة (انظر الفصلين 7 و8).

تتناول الاستجابة المجتمعية الرابعة مفهوم النقل عبر الأجيال. باختصار، قد لا يتمكن أفراد المجتمع المصدوم من أداء بعض المهام النفسية الضرورية بشكل كامل، مثل الحداد على خسائرهم. لذا «ينقلون» هذه المهام غير المكتملة إلى الجيل (الأجيال) التالي حتى يتمكن نسلهم من أداء هذه المهام غير المكتملة نيابةً عنهم (انظر الفصل 9). سأوضح لاحقًا كيف يمكن أن تلعب مشاركة المهام المنقولة عبر الأجيال دورًا حاسمًا في تشكيل العمليات المجتمعية والسياسية والتاريخية، وفي إلهام اندلاع العنف الجماعي، وفي التأثير على هوية الجماعة الكبيرة (انظر الفصل 10).

قبل أن أوجه انتباهي إلى هذه الاستجابات الأربعة المحددة للكوارث الضخمة، يجب أن نعترف بوجود أنواع مختلفة من الكوارث المشتركة. إذ تنجم بعض الكوارث الضخمة عن أسباب طبيعية، مثل العواصف الاستوائية، والفيضانات، والثورانات البركانية، وحرائق الغابات، والانهيارات الثلجية، والانزلاقات الطينية، والزلازل وأمواج تسونامي. وبعضها كوارث عرضية من صنع الإنسان، مثل حادث تشرنوبيل الذي وقع في 26 أبريل 1986 والذي أطلق عشرة أطنان من الغبار المشع في الغلاف الجوي. تعزى الكوارث الضخمة الأخرى إلى فقدان شخص يتشاركه آلاف أو ملايين الأشخاص كشخصية ذات أهمية رمزية. تثير هذه الخسارة استجابات فردية ومجتمعية على حد سواء، كما فعل اغتيال جون ف. كينيدي في الولايات المتحدة وإتسحاك رابين في إسرائيل،[56] وموت رواد الفضاء الأمريكيين والمعلمة كريستا ماكوليف في انفجار مكوك الفضاء *تشالنجر* في يناير 1986. [57] تنجم الصدمات الأخرى عن الدعاية السياسية، والقومية، والدينية والأيديولوجية على شكل حروب ثورية أو أهلية تؤدي إلى خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات، وتغيرات اجتماعية جذرية تقلب حياة العديد من الأفراد رأسًا على عقب، ما يخلق قلقًا مشتركًا شديدًا. تحدث مثل هذه الصدمات عادةً بين المجموعات الفرعية التي تنتمي إلى نفس الإثنية أو الجنسية.

نعلم من التاريخ أن الناس يذلون أحيانًا أبناء جلدتهم ويقتلونهم ويخلقون الرعب من الأعلى. فتحت حكم الدكتاتور أنور خوجة (1908–1985)، أذل الألبان وعذبوا ونفوا وقتلوا ألبان آخرين. في الواقع، انقسم السكان الألبان بين «معذِبين» و«معذَبين». استوعب المواطنون هذا الانقسام، وظل التأثير المجتمعي لهذا الانقسام حيًا لسنوات عديدة بعد وفاة الديكتاتور داخل المجتمع وأمكن الشعور بتأثيره في اهتمامات ألبانيا السياسية والاقتصادية والقانونية.[58] ونفذت الديكتاتوريات القمعية التي هيمنت على قارة أمريكا اللاتينية منذ منتصف الستينيات وحتى التسعينيات ما أصبح يعرف باسم «الحروب القذرة» ضد مواطنيها، التي قضت فيها على مئات الآلاف من الأفراد والعائلات وحتى مجتمعات كاملة.[59]

ولكن كيف تختلف الكوارث التي يتسبب بها «الآخرون»، والتي ترتبط ارتباطًا مباشرًا بقضايا هوية الجماعة الكبيرة، عن أنواع الكوارث المذكورة أعلاه؟ سأبحث هذه المسألة في نهاية هذا الفصل وسأشير إلى بعض مجالات الاختلاف المحددة. قد يكون من الصعب أحيانًا التمييز بين جميع فئات الكوارث الضخمة. فقد تتشابك كارثة طبيعية، مثلًا، مع الصراعات السياسية والإثنية. ففي أعقاب كارثة تسونامي التي ضربت في 26 ديسمبر 2004، أمر المتمردون الانفصاليون في إقليم آتشيه على الطرف الشمالي من سومطرة بوقف إطلاق النار، بينما استجابت الحكومة الإندونيسية بتخفيف قيود السفر إلى المنطقة والسماح لوكالات الإغاثة والصحفيين بزيارتها.[60] في المقابل، خلق هذا جوًا سمح للحكومة والمتمردين بتوقيع اتفاقية سلام في أغسطس 2005 وضعت أخيرًا نهاية لحربهم التي استمرت لعقود. بينما لم تساهم التسونامي في سريلانكا في أي شكل من أشكال المصالحة بين الحكومة التي يهيمن عليها السنهاليون ومتمردو نمور التاميل. ويرجع ذلك جزئيًا على الأقل إلى الخلافات حول مساعدات التسونامي. وإن كان قد حدث شيء، فهو أن الوضع هناك أصبح أكثر عنفًا من أي وقت مضى.[61] ومع ذلك، نظرًا لحدوث كارثة التسونامي في الماضي القريب، ما يزال مستحيلًا تحديد العواقب طويلة المدى للكارثة على الصراعات السياسية والإثنية في المنطقة.

لكن الزلزال الذي وقع في تركيا عام 1999 والذي قتل ما يقدر بعشرين ألف شخص حدث منذ فترة بعيدة كفايةً لنرى كيف أحدثت هذه الكارثة الطبيعية تغييرًا في المشاعر الإثنية التي ظلت جامدة حتى ذلك الحين. قبل سنوات قليلة من الزلزال، كانت التوترات بين تركيا واليونان شديدة للغاية. لقد كادا أن يخوضا حربًا بسبب نزاع على جزر صغيرة من الصخور في بحر إيجه قبالة الساحل التركي مباشرةً، والمعروفة باسم كارداك لدى الأتراك وإيميا لدى اليونانيين.[62] أججت هذه الحادثة المشاعر التركية واليونانية. ولكن بعد الزلزال التركي، رحب الأتراك بعرض المساعدة اليوناني. وبنشرها صور وقصص عمال الإنقاذ اليونانيين على الأراضي التركية، لعبت الصحف التركية دورًا مهمًا في «إضفاء الطابع الإنساني» على اليونانيين كجماعة كبيرة. عندما ضرب زلزال أصغر اليونان في الشهر التالي، ردت تركيا بالمثل بإرسال عمال الإنقاذ بسرعة إلى اليونان. نتيجةً لذلك، بشرت الزلازل ببدء عهد جديد من العلاقات بين البلدين. في الواقع، عزا العديد من الدبلوماسيين التطورات السياسية الإيجابية إلى ما يسمونه «دبلوماسية الزلزال».[63]

سافرت إلى تركيا بعد يومين من الزلزال وقدمت بعض الاستشارات للعاملين الأتراك في مجال الصحة العقلية من إسطنبول الذين زاروا المنطقة المتضررة. وأجريت أيضًا مقابلات مع العديد من الأشخاص حول مشاعرهم فيما يتعلق بمساعدة اليونانيين، ومنهم صناع قرار مؤثرون. وشاركت، قبل الزلزال التركي وبعده، في سلسلة من الاجتماعات التي هدفت إلى فتح حوار غير رسمي بين الأتراك واليونانيين المؤثرين. حضر هذه الاجتماعات قادة عسكريون وسفراء يونانيون وأتراك متقاعدون معروفون، بالإضافة إلى علماء من كلا البلدين. وباستخدام المشاركين كممثلين لبلدانهم، تمكنت من إلقاء نظرة تفصيلية على تخفيف حدة التوترات بين تركيا واليونان بعد الزلازل. استنتجت أن هذا التخفيف كان مدفوعًا، متجاوزًا الاعتبارات السياسية الواقعية، بديناميكيات نفسية عميقة، غير ملحوظة غالبًا. لم تختفِ التخيلات العدوانية المشتركة التي ترافق قضايا الهوية أو العداوة أو المعارضة. وإنما تمت تغطيتها بتكوين عكسي مشترك واضح. إن مصطلح «تكوين عكسي»

هو مصطلح خاص بالتحليل النفسي يشير إلى الاستجابة لشعور أو فكرة غير مرغوب فيها من خلال إظهار الشعور أو الفكر المعاكس علانيةً. فقد لعبت الرغبة اللا واعية المشتركة في حدوث شيء سيئ «للعدو» دورًا في كرم اليونانيين. رد الأتراك على ذلك من خلال تكوين عكسي مشترك خاص بهم تمثل بالتخلي عن غضبهم وشكاواهم من اليونانيين بسرعة و«نسيان» العداء قبل الزلزال بين البلدين.

لم تنتزع هذه الدوافع السلبية اللا واعية التي لاحظتها خلال مراقبتي من واقع التقارب الجديد بين الأتراك واليونانيين. وكانت القضية الحاسمة هي ما إذا كان يمكن لهذا التقارب أن يتسامى. يكون للمبادرات الإيجابية في العلاقات الإنسانية أحيانًا، وفي العلاقات الدولية أيضًا، دوافع سلبية غير واعية، ولكن عندما تصبح راسخة داخل المجتمع وتضفي عليها الاتفاقات الدبلوماسية طابعًا مؤسسيًا، فإن ما بدأها في اللا وعي قد لا يكون مهمًا. بعد الزلزال التركي، عاد نوع من الحنين إلى التعايش القديم بين الأتراك واليونانيين الذين يعيشون جنبًا إلى جنب في إسطنبول. أصبح عزف وغناء الأغاني اليونانية شائعًا في *الميحانات* (الحانات) والنوادي الليلية في إسطنبول. وجد السم العاطفي في العلاقة التركية– اليونانية ترياقًا. لا يعني هذا أنه لن تكون هناك تقلبات في الأنشطة الدبلوماسية والقانونية والعسكرية بين تركيا واليونان، لكن السم العاطفي لم يعد مميتًا.

تثير جميع أنواع الكوارث الضخمة استجابات مجتمعية. بينما أدت الزلازل في تركيا واليونان إلى تحسين العلاقات بين البلدين، لم يؤدِ الزلزال الهائل الذي ضرب أرمينيا في عام 1988 إلى تقارب بين أرمينيا وأذربيجان، عدوتها المجاورة. ورغم أن الزلزال دمر البلاد، عندما عرض الأذربيجانيون المساعدة عن طريق التبرع بالدم، غلبت قضايا الهوية الإثنية على الحاجة الملحة للمساعدة الطبية. رفض الأرمن قبول الدم الذي تبرع به الأذربيجانيون؛ قاوموا «خلط الدم» الذي يمثل في الواقع «خلط الهويات» رمزيًا.[64] لكن تعتمد درجة تعميم هذه الاستجابات داخل الجماعة الكبيرة ومدى بقائها «إقليمية» (أي داخل حدود الموقع الجغرافي المتضرر أو القبيلة المتضررة أو حتى الحزب السياسي المتضرر) على العديد من

العوامل. فقد عممت الاستجابة لمأساة *تشالنجر*، مثلًا، بسرعة كبيرة في جميع أنحاء الولايات المتحدة ليس فقط بسبب الضربة التي لحقت بمكانة أمريكا وبرنامجها الفضائي الجبار، ولكن أيضًا لوجود كريستا ماكوليف على متنه، المعلمة المدنية التي مثلت جميع الأمريكيين رمزيًا.

لم يبقَ حادث تشيرنوبيل صدمة إقليمية أيضًا. فسرعان ما عمم الحادث وأصبح متعدد الجنسيات في نطاقه، عندما حملت الرياح المادة المشعة إلى أماكن بعيدة. أدى الحدث، مثلًا، إلى انشغال مجتمعي جديد في بيلاروسيا المجاورة، حيث اعتبر آلاف الآلاف أنفسهم، محقين ومتوهمين، ملوثين بالإشعاع. اختار الكثير عدم الإنجاب خوفًا من العيوب الخلقية. ونتيجةً لذلك، تعطلت إلى حد كبير المعايير القائمة لإيجاد شريك والزواج والتخطيط لإنشاء عائلة. وغالبًا ما ظل أولئك الذين لديهم أطفال قلقون باستمرار من أن يؤثر شيء «سيئ» على صحة أطفالهم. حتى أن كارثة تشيرنوبيل أصابتني بصدمة. عندما وقع الحادث، كانت إحدى أقربائي الشباب المفضلين من شمال قبرص تدرس في كلية الطب في كييف، عاصمة أوكرانيا. وبعد تخرجها، عادت إلى قبرص كطبيبة وتزوجت، لكنها سرعان ما أصيبت بسرطان الدم. كنت متأكدًا من أنها أصيب به بسبب تعرضها للإشعاع. توفيت بعد أشهر، وما زلت أشعر بالحزن على هذه الخسارة المأساوية.

تعد كارثة بوفالو كريك التي حدثت عام 1972 في ولاية فرجينيا الغربية مثالًا آخرًا على مأساة مشتركة. في 26 فبراير 1972، انهار سد خَبث هائل، وأطلق العنان لآلاف الأطنان من الماء والطين على وادي بوفالو كريك. خلال خمس عشرة دقيقة، قُتل 125 شخصًا، وتشرد أربعة آلاف، ومحيت أربع عشرة قرية تعدين.[65] وفي مأساة مشتركة مماثلة، في 21 أكتوبر 1966، اجتاح سيل من طين الفحم في ويلز مدرسة ابتدائية وعدة منازل في قريتي أبرفان ومرثير فيل، وأدى إلى مقتل 116 طفلًا وثمانية عشرين شخصًا. تتضمن دراسات كلتا المأساتين بيانات تتجاوز بكثير أوصاف ردود الفعل الفردية، وما يمكن تسميته اليوم باضطراب الكرب التالي للصدمة (لم يكن هذا المصطلح متاحًا عند إجراء دراسات

بوفالو كريك والقريتين الويلزيتين)، وتدرس طوليًا بعض العمليات المجتمعية التالية للكوارث.

رغم أن كلتا المأساتين ظلتا «إقليميتين»، لكنني أذكر هذين الحدثين لأن دراستهما توفر لنا مفهومين يمكن تطبيقهما على استجابات أكثر عمومية للصدمات الضخمة، بما فيها تلك التي يسببها الأعداء. يأتي المفهوم الأول، «تمزيق نسيج الحياة الاجتماعية»، من كاي إريكسون، عالم الاجتماع بجامعة ييل المشهور،[66] بينما صاغ المفهوم الثاني، «التجديد البيولوجي الاجتماعي»، الطبيب النفسي البريطاني ك. موري باركس، الخبير في سيكولوجية الحداد، الذي ارتبط بمعهد تافيستوك للعلاقات الإنسانية في لندن.[67] فقد كل شيء في بوفالو كريك، من العائلة والأصدقاء إلى الممتلكات والتذكارات. وإلى جانب هذه الأشياء، فقد الشعور بالمجتمع أيضًا. بالنسبة لإريكسون، يحدث تمزق نسيج المجتمع عندما تختفي الروابط التي تربط الناس معًا. أجد صدى لتصور إريكسون لفقدان نسيج المجتمع في عمل المحلل النفسي الإسرائيلي الراحل رافاييل موزس، صديق عزيز وصف فقدان الأمن في العوالم الشخصية للذين عانوا من التعرض للاضطهاد النازي لفترات طويلة أو قصيرة.[68] وأعتبر أيضًا ما حدث في بيلاروسيا بعد تشيرنوبيل مثالًا على الأنسجة المجتمعية المقطوعة.

عمل ك. موري باركس مع ر. م. ويليامز، طبيب نفسي محلي في أبرفان وميرثير فيل، للبحث في ما حدث للمجتمعين بعد الكارثة. أبدى الناجون حماسًا شديدًا ليس لإصلاح الضرر فحسب بل لإخراج شيء إيجابي من الأنقاض أيضًا. كشفت أبحاث ويليامز وباركس أنه في السنوات الخمس التالية للمأساة، ارتفع معدل المواليد في أبرفان وميرثير فيل بشكل ملحوظ، كما لو كان ذلك لتعويض الأطفال المفقودين. علاوةً على ذلك، لم تقتصر زيادة المواليد على الآباء المفجوعين، بل انتشرت بين جميع السكان. في الواقع، تُعزى نسبة صغيرة فقط من معدل المواليد المرتفع إلى الآباء المفجوعين. خلص هذان المحققان إلى أن «معدل المواليد المتزايد في أبرفان وميرثير فيل الملاحظ خلال السنوات الخمس الأولى بعد الكارثة

كان في الأساس نتيجة لعملية تجديد بيولوجي اجتماعي بواسطة أزواج لم يفقدوا طفلًا». عندما لا يتمزق نسيج المجتمع تمامًا، فإن التحولات النفسية والاجتماعية بعد الكوارث «لا تكون مدمرة تمامًا في آثارها عندما ينظر إليها من منظور المجتمع الكلي الذي تحدث فيه».[69] اقتداءً باستخدام باركس وويليامز لمصطلح التجديد البيولوجي الاجتماعي، أستخدم مصطلح الانتكاس البيولوجي الاجتماعي للإشارة إلى الحالات التالية للصدمة الضخمة التي تتضرر فيها الأنسجة المجتمعية.[70]

يمكن أيضًا ملاحظة التجديد والانتكاس البيولوجي الاجتماعي بعد الكوارث الناتجة عن الأعمال العدائية الإثنية أو غيرها من الأعمال العدائية المتعلقة بهوية الجماعة الكبيرة، مثل الحروب. حدث تجديد بيولوجي اجتماعي غير مباشر إلى حد ما بين القبارصة الأتراك خلال فترة الست سنوات (1963–1968) عندما أجبرهم القبارصة اليونانيون على العيش في جيوب معزولة في ظل ظروف لا إنسانية. على الرغم من تعرضهم لصدمة ضخمة، لم ينكسر «ظهرهم» بسبب أملهم في أن يأتي وطنهم الأم، تركيا، لمساعدتهم. وبدلًا من إنجاب أعداد متزايدة من الأطفال مثل سكان أبرفان ومرثير فيل، ربوا المئات والمئات من الببغاوات في أقفاص (الببغاوات ليست أصلية في قبرص)، ليمثلوا ذواتهم «المسجونة». وطالما غنت الطيور وتكاثرت، ظل القلق المشترك بين الأتراك القبارصة تحت السيطرة.[71] يمكن أيضًا اعتبار الفن والأدب الناجمين عن مأساة هيروشيما شكلًا من أشكال التجديد البيولوجي الاجتماعي الرمزي. لكن في حالة هيروشيما، أبدى المجتمع أيضًا انتكاسًا بيولوجيًا اجتماعيًا وأظهر «بصمات الموت»[72] لعقود بعد الكارثة؛ فقد تمزق النسيج الاجتماعي للمجتمع في الواقع، والتجديد البيولوجي الاجتماعي لا يمكن إلا أن يكون محدودًا ومتفرقًا.

ومن المثير للاهتمام، أنه في حال عدم تمزق النسيج المجتمعي، يبدأ أولئك الذين لم يتأثروا مباشرةً بالصدمة الضخمة، سواء بقيت «إقليمية» أو عممت في الجماعة الكبيرة الكلية، في إلقاء النكات عن المأساة وضحاياها. في الحقيقة، أعتبر ظهور النكات وقولها داخل المجتمع مؤشرًا على أن نسيج المجتمع ليس متضررًا لدرجة تعذر إصلاحه. لاحظت ذلك

في مدينة مكسيكو بعد زلزال سبتمبر 1985 الذي أودى بحياة عشرة آلاف شخص وجرح ثلاثين ألفًا وترك مئة ألف بلا مأوى. سافرت إلى هناك بعد شهرين من الكارثة. قادتني مضيفتي، التي قابلتني في المطار، إلى المدينة وأشارت إلى بعض المناطق المدمرة أثناء مرورنا من أمامها. فجأةً، ابتسمت لي هذه المرأة الواعية اجتماعيًا وسألتني، «ما الشبه بين مدينة مكسيكو والدونات؟» ولأنني لم أستطع الإجابة، أجابت: «الأجزاء الوسطى منهما مفقودة»، في إشارة إلى الثقب في الدونات والمباني المنهارة في وسط مدينتها. ثم شرعت في إخباري بنكات الزلزال الأخرى التي كانت تنتشر في المدينة وتعبّر عن العداء تجاه ضحايا الكارثة.

وبالمثل، رغم أن الصدمة الناجمة عن كارثة *تشالنجر* كانت معممة، لكنها لم تكسر ظهر أمريكا، إذ نتج عن هذه المأساة العديد من النكات أيضًا. صبغت هذه النكات أيضًا بمشاعر وتصرفات عدوانية ضد الذين ماتوا. فقد أشارت إحدى النكات مثلًا إلى غسل الجثث المشوهة على الشاطئ. ولأن هذه النكات تافهة، لا أرغب في تكرارها هنا، لكن من المثير للاهتمام أن معظم الناس لا يردعون محتوى مثل هذه النكات. إن ظهورها بعد الكوارث ظاهرة غريبة. لماذا نصبح قساة جدًا؟ لماذا نضحك؟ إن الأسباب النفسية لهذه الظاهرة الاجتماعية متعددة العوامل: فهي تساهم في عكس التأثير (بمعنى إنكار الشعور بالحزن)؛ وتفرغ التوتر من خلال الضحك؛ وتحتفل بنجاة الباقين؛ وتعبر عن الغضب على من جرحنا موتهم؛ وتسمح لنا بتقليل شعورنا بالذنب للعيش من خلال تصوير المأساة كما لو أنها حدثت في رسم كاريكاتوري. نرى في هذه النكات أيضًا مشتقات ردود الفعل الفردية الأولية للحزن، مثل محاولات اختبار الواقع بأن الخسائر قد حدثت بالفعل، ومحاولات إنكار الخسائر، ومحاولات التماهي مع الضحايا والعثور على رابط معهم أو، على العكس من ذلك، كسر هذه الروابط.

قد تبدو بعض الانشغالات المجتمعية الأولية، إلى جانب ظهور النكات، غريبة. لقد ذكرت بالفعل واحدة: البطانيات التي أحرقها القبارصة الأتراك بعد حرب 1974. وثمة عملية مجتمعية غريبة أخرى حدثت في شمال قبرص في الوقت نفسه، وهي تطوير حالة بدنية

غير مألوفة. بدأ العديد من القبارصة الأتراك زيارة مكاتب الأطباء يشكون من الحكة. لم يجد الأطباء الذين تحدثت معهم أي تفسير لهذا الوباء المصغر من الحكة بين المواطنين. بدأت أفهم هذا الانشغال الاجتماعي الجديد عندما سمعت نظرية الناس بأن أولى حالات الحكة بدأت بين الذين ذهبوا للسباحة في الشواطئ الشمالية بعد أن نزل الجيش التركي هناك في بداية الحرب. نظرًا لوجود جثث في الماء وعلى الشواطئ خلال الأيام الأولى من الحرب، بدا لي أن ظاهرة الحكة كانت بسبب الجير الحي الذي تناثر على الجثث. إن لامست يدك الجير الحي، ستحترق بشرتك وستشعر بالحكة. بقيت آثار الجير الأبيض على الأرض لشهور في مناطق معينة. لكن بعد فترة طويلة من جرف الجير الحي، استمرت ظاهرة الحكة، ربما كعلاقة رمزية مع الموتى؛ لم تمثل الحكة شعورًا بالذنب للنجاة وطرد العدو من منازلهم فحسب، بل مثلت أيضًا دليلًا على كون المرء حيًا بالفعل، وقد أوضح ذلك إحساس المرء بجلده.

يمكن أن يؤثر اغتيال زعيم سياسي أيضًا على نسيج الجماعة الكبيرة. عندما تحدث صدمة مجتمعية بعد اغتيال زعيم، فإن انتماء القاتل إلى الجماعة الكبيرة المصدومة نفسها أو إلى «الآخرين» يحدث فرقًا كبيرًا. فمثلًا، كان يمكن أن يحدث فرقًا كبيرًا في النسيج المجتمعي لأمريكا لو قُتل جون ف. كينيدي على يد عميل سوفيتي وليس أميركيًا. ورغم أننا علمنا لاحقًا بالتزام لي هارفي أوزوالد المفترض بالماركسية، لكن قتله للرئيس، الذي أصبح صدمة ضخمة، لم يثير قضايا تتعلق بهوية الجماعة الكبيرة. وبالمثل، إن اغتيال إتسحاك رابين في 4 نوفمبر 1995، أحدث صدمة شديدة وتمزق في نسيج المجتمع الإسرائيلي، كما وصفته المحللة الإسرائيلية رينا موزس هروشوفسكي في كتابها *الحزن والشكوى: اغتيال إتسحاك رابين*،[73] ولكن على المدى الطويل، ولمواجهة عدو خارجي، لم يصبح التمزق في نسيج الجماعة الإسرائيلية الكبيرة كبيرًا كفايةً لإلحاق الضرر الدائم بالدولة. لتوضيح كيفية تقارب العمليات الشخصية والمجتمعية في كثير من الأحيان، سأقدم وصفًا موجزًا لبعض الأحداث التي أدت إلى اغتيال رابين وتمزق المجتمع الإسرائيلي.

من 1 فبراير حتى 30 مايو 2000، تشرفت بكوني زميل رابين افتتاحي في مركز إتسحاك رابين للدراسات الإسرائيلية في تل أبيب. شاهدت هناك فيلمًا وثائقيًا من إنتاج طاقم تلفزيون فرانس 2. أصبح الفيلم الآن جزءًا من الأرشيف الدائم لمركز رابين، يظهر الفيلم الدعاية والتحريض على العنف من قبل متطرفين يهود متدينين قبل اغتيال رابين. بالنسبة لي، لم تكن مشاهدة هذا الفيلم سوى تجربة مرعبة. رغم أن الدعاة تحدثوا بالعبرية، وهي لغة لا أفهمها، لكن إيماءاتهم وحدتهم العاطفية أصابتني كالرصاص. أجبرت نفسي على تذكر أنه رغم تفاعل معظم الإسرائيليين مع هذا الفيلم الوثائقي (ومع المتطرفين أنفسهم) بنفس الطريقة السلبية القوية التي شعرت بها، كان هناك آخرون ممن سمعوا كلمات الدعاة والمحرضين كمصدر إلهام. توجد أدلة واضحة تشير إلى أن مثل هذه الدعاية اليمينية المتطرفة، والقومية الدينية، والتي وصفت إتسحاك رابين بالخائن وطالبت بطرده من إسرائيل لتوقيعه على اتفاقيات أوسلو ومصافحة ياسر عرفات، أثرت بصورة حاسمة على إيغال أمير، قاتل رابين البالغ من العمر 25 عامًا.

كان إيهود شبرينزاك، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة العبرية في القدس والمعلق الشهير في الإذاعة والتلفزيون، يدرك تمامًا التطرف الداخلي الذي اشتدت حدته بعد توقيع اتفاقيات أوسلو. في ربيع عام 2000، شرح لي كيف أرسل عدة مذكرات إلى رابين يرجوه أن يستثمر المزيد من الأفكار والموارد في التحقيق في التطرف الداخلي قبل تصاعد الأحداث. لقد كتب في كتابه *الأخ ضد الأخ* عام 1999، «بكل الأسى، اكتشفت أن الأحداث الدرامية فاقت بكثير قدرتي المحدودة على إحداث فرق».[74] وفقًا لشبرينزاك، بدأ العد التنازلي لعملية الاغتيال مع مجزرة الخليل في 25 شباط 1994. في ذلك اليوم، خلال شهر رمضان المبارك، دخل باروخ غولدشتاين، طبيب غرفة الطوارئ أمريكي المولد ويهودي أرثوذكسي متدين، القاعة الإسحاقية في الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل التي تحتلها إسرائيل وأطلق النار على المسلمين الفلسطينيين أثناء صلاتهم، فقتل تسعة وعشرين وأصاب مئة مصلي. أراد رابين إجلاء المستوطنين الإسرائيليين من الخليل وتل رميدة المجاور لتجنب المزيد من إراقة

الدماء، لكن المستشارين أبلغوه أن القيام بذلك سيثير في الواقع مزيدًا من العنف، لذلك تخلى عن هذه الخطة. بدأ ذلك فترة من المواجهة الحادة بين رابين والحاخامات القوميين المتطرفين. أدت سلسلة التفجيرات الانتحارية التي نفذتها حماس والجهاد الإسلامي – هجمات انتقامية لمجزرة الخليل– التي أودت بحياة سبعة وثمانين إسرائيلي وإصابة أكثر من مئتين إلى زيادة حدة هذا الصراع. بدأ بعض الحاخامات في الإشارة إلى مفاهيم *دين موزير* و*دين روديف* الدينية القانونية: «[أ] موزير هو يهودي مشتبه في أنه يزود غير اليهود بمعلومات عن اليهود أو يمنحهم ممتلكات يهودية بشكل غير قانوني.... [أ] روديف هو شخص على وشك ارتكاب جريمة قتل أو تسهيل ارتكابها. الغرض من إعدامه الفوري هو إنقاذ حياة اليهود. لا تنطبق هذه القاعدة على القاتل، الذي يُقبض عليه بعد القتل، والذي يتعين عليه تقديمه إلى المحاكمة. دين روديف هي الحالة الوحيدة التي تسمح فيها الهالاخاه لليهود بقتل يهودي آخر دون محاكمة».[75]

يوضح شبرينزاك أن أساليب المواجهة والعنف اللفظي للقوميين المتطرفين خلقت جوًا سمح لإيغال أمير بإقناع نفسه أنه كان ينقذ حياة اليهود بقتل رابين. عند استجوابه بعد الاغتيال، اعترف بأنه ناقش مفاهيم دين روديف ودين موزير مع عدة حاخامات. رغم أن أيًا منهم لم يمنحه «الإذن» باغتيال رابين تحديدًا، لكنه أضاف: «لولا إصدار بعض الحاخامات الذين أعرفهم حكم هالاخاه بدين روديف ضد رابين، لكان القتل صعبًا جدًا علي. هذا القتل يجب أن يكون مدعومًا. لو لم أحصل على الدعم ولم أمثل العديد من الأشخاص، لم أكن لأتصرف».[76] ومع ذلك، وجد عالم النفس الإسرائيلي أفنير فيلك أن سيكولوجية عمل الاغتيال الذي نفذه أمير كانت مبالغة في التحديد؛ إذ تتداخل دوافعه النفسية الشخصية بشكل قاتل مع أعمال القادة الدينيين الراديكاليين التحريضية.[77]

جاء والدا أمير إلى إسرائيل من اليمن في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات وربيا ثمانية أطفال في ظروف صعبة. ولد ابنهما الأول، حغاي، عام 1968؛ وولد إيغال، القاتل المستقبلي، بعد عامين. يركز تحقيق فيلك بشكل خاص على علاقة أمير ووالدته غيولا، معلمة

روضة أطفال. حسب رواية فيلك، لقد كانت امرأة تعيسة وحادة المزاج، والشخصية المهيمنة في المنزل، وكانت متزوجة من رجل لم تحبه على الأرجح، شلومو أمير، كاتب مخطوطات يهودي أرثوذكسي وجزار شعائر ورجل سلبي ومُعال. ظاهريًا، بدا أمير طفل غيولا المفضل. وفقًا لفيلك، دعته غيولا «غالي»، وهو اختصار لـ«يغالي»، وهو يعني كلاً من «إيغال الخاص بي» و«مخلصي».[78] ولكن يبدو أن «غالي» الصغير لم يتلقَ الحب من والدته إلا لما كان ذكيًا وموهوبًا ومسليًا – عندما «خلصها» من تعاستها فقط؛ ورفضته في الحالات الأخرى.

مع تقدمه في السن، أثبت أمير أنه غير قادر على الانفصال عن ارتباطه العاطفي الإشكالي بوالدته. يصف فيلك كيف بحث أمير، متناقض المشاعر تجاه والديه، دون وعي عن والدين أفضل في العالم الديني لاستعادة احترام الذات الذي حطمته غيولا، «والدته السيئة»: «أصبح إله إسرائيل والد إيغال الصالح، وأرض إسرائيل والدته. وكما هو الحال بالنسبة للعديد من القوميين اليمينيين المتطرفين، إن أرض إسرائيل ليست الدولة الفعلية بل هي فكرة مجردة، كائن عاطفي مقدس يضم جميع أراضي إسرائيل وفلسطين. في أثناء محاكمته، قبل قراءة الحكم، في 27 مارس 1996، قال إيغال: «كل ما فعلته، فعلته من أجل إسرائيل، وتوراة إسرائيل، وشعب إسرائيل، وأرض إسرائيل – إنها عقدة لن تنفك أبدًا».[79]

في الواقع، أقنع أمير نفسه أنه بقتله لرابين لم يكن ينقذ أرواح اليهود فحسب، بل إسرائيل نفسها. فرغ غضبه من والده ووالدته (كما يشير فيلك، «كانت الأم، وليس الأب، رئيسة الوزراء في المنزل») على رابين،[80] قصد أمير دون وعي الهروب من منزل «والدته السيئة» بالدفاع عن «الأم الصالحة»، إسرائيل، و«الأب الصالح»، الله، ضد الآباء «السيئين» «الضعفاء» الذين تصورهم في منزله وفي مكتب رئيس الوزراء. وقد نجح بالفعل: إذ ذكرت والدته بعد الاغتيال، دون أن تدرك على ما يبدو المعنى الأعمق لما كانت تقوله، «لقد ترك هذا المنزل بفعله».[81] علاوةً على ذلك، يلاحظ فيلك أن رفض حبيبته ساهم أيضًا في قرار القاتل الكارثي، وربما أعاد إحياء مشاعر التنافس بين الأشقاء والغضب ضد «والدته السيئة»: «لقد تمنى استعادة حبيبته بعمل بطولي يجعله مميزًا وعزيزًا جدًا بالنسبة لها... نافا هولتزمان،

حبيبة أمير الوحيدة، في علاقة استمرت خمسة أشهر، تركته في يناير 1995 وتزوجت أحد أصدقائه، فأذل ذلك أمير وأصابه باكتئاب صريح».[82]

رغم أن أمير تصرف بمفرده نوعًا ما، لكن الدعاية من الجماعات الدينية الفرعية الأصولية القومية قد خلقت جوًا ذا عواقب مميتة. أعتقد أن اغتيال رابين ما يزال يمثل قضية حساسة تبقي على شرخ في نسيج الجماعة الإسرائيلية الكبيرة، لكن تُنحى المخاوف المتعلقة بهذه القضية جانبًا بسبب صراعات الهوية الإسرائيلية المستمرة مع جيرانهم وقضاياهم الأمنية في العالم الحقيقي.

قد تخلق أشكال المأساة الأخرى أيضًا انقسامًا داخل الجماعات الكبيرة. إن استمر الصراع بين المجموعات الفرعية الأيديولوجية أو الدينية لفترة طويلة، مثلًا، فقد لا يُصلح التمزق في نسيج الجماعة الكبيرة الشاملة بسهولة أو قد لا يُصلح إطلاقًا. إذا استمر هذا الصراع لعقود من الزمان، فقد تتطور الجماهير المتعارضة ببطء كمجموعات إثنية منفصلة، خاصةً عندما تعيد أيضًا تنشيط ذكريات الخلافات القديمة والمآسي الأخرى بينهم – أي إذا طوروا ارتباطات قوية بالتصورات الذهنية للأحداث المجيدة والصادمة من تاريخهم وانشغلوا بقضايا الهوية. سنعرف مع الوقت كيف ستتطور قضايا هوية الجماعات الكبيرة في كوريا، التي تنقسم أساسًا على أسس أيديولوجية. هل ستوحد الكوريتين في المستقبل أم ستظلان دولتين مختلفتين بهويتين جماعيتين متميزتين؟ ومن وجهة نظري، فإن المشاكل في أيرلندا الشمالية قد تحولت أو إنها على الأقل تتحول إلى مشاكل هوية «إثنية».

أذكر هذين المثالين بإيجاز، لكنني أعرف أكثر عن الانقسام بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية السابقتين وإعادة توحيدهما اللاحقة. أدت الصدمات المشتركة للنظام النازي والحرب العالمية الثانية على الألمان أنفسهم والعمليات السياسية والأيديولوجية والعسكرية التي قسمت ألمانيا إلى شرقية وغربية إلى تعقيدات في هوية الجماعة الكبيرة. بدأ الألمان المنقسمون أيديولوجيًا في التجمع بعد سقوط جدار برلين في 9 نوفمبر 1989. ومع ذلك، فإن الاندماج بين الألمان الشرقيين والغربيين السابقين لم يحدث فوريًا بعد انهيار الجدار.

بعد بضعة أشهر من إعادة توحيد ألمانيا، زرت صديقًا يعيش في غوتينغن، وهي بلدة تقع على الجانب الغربي من الحدود الألمانية الشرقية–الألمانية الغربية السابقة. قادني إلى منطقة عشبية كانت قد حددت ذات مرة الحدود بين الدولتين الألمانيتين. أخبرني صديقي أن الأشجار في المنطقة قد قطعت ليتمكن حرس الحدود الألمانيين الشرقيين من الحماية بسهولة أكبر ضد الانشقاقات. لمّا كنت هناك لم يكن هناك جنود، بالطبع، وكانت أبراج المراقبة فارغة. ومع ذلك، أدهشني الصمت الرهيب للمكان وأيضًا الطريقة التي كان صديقي يهمس بها. كان الأمر كما لو أنه ما يزال هناك خطر على طول هذه الحدود السابقة. ثم قدنا عبر الحدود القديمة إلى ألمانيا الشرقية السابقة، وهذا ما لم يفعله صديقي منذ قبل تقسيم ألمانيا. رغم إعادة توحيد الجانبين رسميًا، لكن اتضحت التفاوتات المادية بينهما فوريًا. إلى الشرق، كانت الطرق سيئة الصيانة والتصميم، وحتى شكل الأعمدة الكهربائية كان مختلفًا عن تلك الموجودة في الغرب. لا جدال في أننا كنا قد صرنا في «بلد» مختلف.

بينما كنا نسير عبر الريف، تاركين الازدحام المروري خلفنا، أخذ صديقي نفسًا عميقًا ثم سألني إن كنت أشم رائحة كريهة. لم أستطع اكتشاف أي شيء خارج عن المألوف وأخبرته بذلك، لكنه لم يقبل إجابتي. أشار إلى سيارة تسبقنا مسافة كبيرة وقال، «أترى تلك السيارة؟ إنها شيوعية الصنع. تفوح رائحة تلك السيارات». كنت متأكدًا من أنه لا يستطيع أن يشعر حقًا بأي شيء ينبعث من السيارة لأنها كانت بعيدة جدًا. بدا أن حواسه قد خدعته، لأنه «عرف» أن السيارات الشيوعية لها رائحة كريهة. لقد حفزت رؤية السيارة شمه رائحة السيارة. ولكوني محللًا نفسيًا، توصلت أيضًا إلى استنتاج آخر: كان صديقي يخرج بعض العناصر غير المقبولة الخاصة به ويسقطها على الألمان الشرقيين. كان «طاهرًا» والألمان الشرقيون «نتنون». لم أعبر عن استنتاجي لكنني شعرت أن صديقي، وهو أيضًا محلل نفسي، قد توصل إلى نتيجة مماثلة بشأن تجربته. فقد بدا محرجًا وسرعان ما غير موضوع المحادثة.

بسبب الصدمة المجتمعية المرتبطة بوجود أيديولوجيات وتاريخ منفصلين، تطورت المجموعتان الألمانيتان، أو على الأقل كانتا تتطوران، إلى مجموعتي هوية مختلفتين. ومن المثير للاهتمام، أن امتلاك «هويتين»، ساعد الألمان، إلى حد ما، في التعامل مع الصورة النازية للماضي، صورة تضمنت أفعالًا صادمة للغاية ضد الآخرين، وخاصةً اليهود. وطالما كانت هناك دولتان ألمانيتان، أمكن لأحد الطرفين (دون وعي) أن يتخيل أن ألمانيا «الأخرى» هي الوريث الحقيقي للنازيين. لذا، لم يمكن ممكنًا إعادة توحيد الدولتين الألمانيتين فوريًا، من الناحية النفسية. كانت رحلتي إلى الحدود الألمانية الشرقية–الألمانية الغربية السابقة عاملًا في مشاركتي في مشروع مع غابرييل أست، وهو محلل نفسي مارس عمله في ميونيخ، لدراسة كيفية اختبار الألمان من كلا الجانبين إعادة التوحيد هذه داخليًا (دون وعي) خلال السنة الأولى. لم يكتمل هذا المشروع بسبب نقص التمويل. ومع ذلك، جمعنا بيانات كافية لاقتراح أن كل جانب قد أسقط الماضي النازي على الجانب الآخر قبل إعادة التوحيد.

لفتت انتباهي فرصة لمواصلة دراسة آثار الصدمة التاريخية التي فصلت الألمان بعد الحرب العالمية الثانية وطوال عصر الحرب الباردة في مايو 2002 في اجتماع في لايبزيغ لجمعية التحليل النفسي الألمانية. لقد كان هذا أول اجتماع سنوي تعقده المنظمة في ألمانيا الشرقية السابقة. كنت ضيفًا على الجمعية في هذا الاجتماع وشاهدت من كثب التفاعلات بين الزملاء الألمان الذين جاءوا من ألمانيا الغربية السابقة والزملاء من ألمانيا الشرقية السابقة. أعتقد أن هذا «الاجتماع القسري» جعلهم حتمًا منشغلين ومدافعين عن هويات جماعاتهم الكبيرة. عندما جمع فريق مركز دراسة العقل والتفاعل البشري ممثلي العدو معًا ليتحاوروا، فعل المشاركون من كل جانب الشيء نفسه في البداية، لذا كان هذا النوع من التفاعل مألوفًا لي ولم أتفاجأ برؤيته بين الألمان الشرقيين والغربيين السابقين. ما لاحظته في لايبزيغ سيصبح واضحًا بشكل خاص خلال المناقشة «الأكاديمية» لعلم نفس إعادة التوحيد. رغم أنني لا أتحدث الألمانية، فقد فهمت ما قيل بواسطة مترجم وتمكنت من ملاحظة التعابير الوجهية (حتى أن بعض الزملاء الألمان الشرقيين بكوا عندما شعروا، محقين أو مخطئين،

أن الألمان الغربيين لا يعتبرونهم مساوين لهم في التدريب والمعرفة فيما يتعلق بالطبيعة البشرية). في أثناء وجودي هناك، قابلت إيرين ميسيلفيتز، محللة نفسية من ألمانيا الشرقية كان اهتمامها البحثي الرئيسي هو تأثير عمليات التحول الاجتماعي والسياسي على النفس البشرية. كتبت ورقة بحثية لمجلة مركز دراسة العقل والتفاعل البشري بعنوان *العقل والتفاعل البشري*، ووصفت تجربتها الشخصية في تطوير هوية ألمانية شرقية:

> خلال 40 عامًا من الانفصال، تطورت هويات جماعات كبيرة مميزة جدًا في ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية. وباستخدام استعارة الخيمة لفولكان، يبدو أننا عشنا في خيام إثنية منفصلة أو «خيام فرعية» أصغر. في أثناء الانفصال، أخفي هذا واختبر دون وعي إلى حد كبير. لم تتضح الخلافات حتى عام 1990 بمجرد فتح الحدود وبدء المواجهات اليومية بين المجموعتين... لقد أزعج اللقاء الألماني–الألماني كلا الجانبين بشدة. وإلا لكان من الصعب تفسير سبب محاولة كلا الجانبين باستمرار الاختباء تحت خيمتهما الألمانية الشرقية أو الغربية ومقاومتهما مرارًا وتكرارًا السكن في الخيمة المشتركة حديثًا لألمانيا الموحدة.[83]

يمكن أحيانًا، إذا مرت قرون، للأشخاص المنتمين إلى نفس الأصل الإثني فصل هوياتهم واعتبار أنفسهم مجموعات إثنية متميزة تمامًا. حدث هذا، مثلًا، بين السلاف الجنوبيين. باتباع ديانات مختلفة والتمسك بالتمثيلات الذهنية للتجارب التاريخية المختلفة، وخاصةً الصدمات الضخمة التي تسبب بها الجانب الآخر، برز السلاف الجنوبيون، بين الآخرين، كصرب وكروات وبوشناق. إذا انخرطت مجموعتان من نفس أصل الهوية في صراع طويل كفايةً، فإن الصدمات المرتبطة بهذه الصراعات سيكون لها ديناميكيات مماثلة لتلك الملاحظة بين الأعداء «الأجانب».

مع وضع هذا في الاعتبار، دعونا ننظر بإيجاز في العلامات النفسية الخاصة بالصدمات التي يسببها عدو ذو هوية جماعية كبيرة منفصلة، كما حدث في جمهورية جورجيا وجزيرة قبرص. في حالات الصراع الإثني، أو القومي، أو الديني أو الأيديولوجي

بين مجموعات متعادية متميزة، يوجد تصميم متعمد لإذلال «الآخر» وجعله عاجزًا وقتله باسم هوية الجماعة الكبيرة. يجرد العدو أحيانًا من إنسانيته قبل قتله.[84] عندما يجرد الآخرون من إنسانيتهم، يصدر «ترخيص» لقتل العدو دون ذنب. هناك نوعان من التجريد من الإنسانية. في النوع الأول، يعتبر العدو أولًا أعضاء جماعة كبيرة غير مرغوب فيهم ثم يجردهم من إنسانيتهم، كما حدث في ألمانيا النازية. حدث الشيء نفسه في عام 1994 في رواندا عندما اندلع التنافس الإثني الذي دام قرونًا، إذ اعتبر الهوتو التوتسي صراصير خطيرة، وأدى هذا إلى مقتل مليون شخص. يؤكد العديد من العلماء أيضًا أن الانتحاريين يجردون ضحاياهم من إنسانيتهم قبل تفجير متفجراتهم. ولكن، هذا النوع من التجريد من الإنسانية مختلف. فصحيح أن الانتحاريين يتجاوزون حماية هوياتهم الفردية وهويات ضحاياهم وبالتالي يرتكبون الانتحار والقتل. لكنهم «يعيدون إضفاء الطابع الإنساني» على أنفسهم كمتحدثين باسم جماعتهم الكبيرة قبل أن يتحولوا إلى قنابل حية. و«يعيدون إضفاء الطابع الإنساني» على ضحاياهم كممثلين عن المجموعة المعارضة. إنهم يقتلون هؤلاء الممثلين من أجل إيذاء الجماعة المعارضة وإرسال رسالة إليها.

ومع ذلك، فإن الكوارث الطبيعية أو العرضية التي يسببها الإنسان لا تُخجل، أو تذل، أو تجرد الآخرين من إنسانيتهم، أو تقتل أو تدمر البيئات المادية باسم هوية الجماعة الكبيرة. فمثلًا، لم يكن للتسونامي الذي وقع في ديسمبر 2004 «عقل»؛ ولم يميز ضد أي جماعة كبيرة. رغم من أن التسونامي تسبب في موت جماعي، لكنه لم يرتكب التطهير الإثني أو الإبادة الجماعية عمدًا كما حدث في رواندا أو في أي مكان آخر. قد يعتبر الأفراد الذين يعيشون في مناطق الكوارث الطبيعية أنفسهم «غير محظوظين». لكن عندما تحدث المآسي، لا يشعرون بالخزي أو الإذلال أو التجرد من الإنسانية بسبب الطبيعة لتعمدها انتقاءهم، وجعلهم عاجزين، وقتل أحبائهم. ومع ذلك، هذا لا يعني أن بعض الناس لن «يضفي الطابع الإنساني» على الطبيعة. في الواقع، يتحدث الكثير كما لو أن كارثة معينة كانت عن قصد الطبيعة – أو قوة أعلى. فقد يقول البعض مثلًا إن المياه قد غمرت منطقة ما كعقاب على

قبول شعبها للمثلية الجنسية. يعتقد بعض المسيحيين «الألفيين» أن الكوارث الطبيعية هي علامة على العودة الوشيكة ليسوع المسيح إلى الأرض. وفي أمثلة أخرى، يرتبط ما هو مخصص للطبيعة أو للحادث مباشرةً بقضايا هوية الجماعات الكبيرة أو النزاعات. قد يعتقد بعض المسلمين، مثلًا، أن الأرض تهتز لمعاقبتهم بسبب التأثير الغربي المتزايد على هوية جماعتهم الكبيرة. رغم ذلك، بعد وقوع كارثة طبيعية أو حادث، فإن تخصيص دماغ أو عقل للظاهرة لا يعمم عادةً ولا يؤدي إلى الخزي والإذلال المشتركين. إذ يقبل هؤلاء الناس على المدى الطويل أفعال «الله» أو «القدر» دون الخزي أو إذلال.

ثمة ملاحظة أخرى تميز بين الصدمة الضخمة التي يسببها العدو والصدمات الضخمة الأخرى التي لا تشمل قضايا هوية الجماعة الكبيرة تتمثل في أن الأولى لا يمكن أن تظل أبدًا صدمة «إقليمية». إن شعور بعجز الناس في القطاع المتضرر الناجم عن كارثة طبيعية ليس عرضة للتعميم في قطاعات أخرى من المجتمع، رغم أن الناس في مناطق أخرى قد يشعرون بالحزن أو الأسى على الضحايا. لكن خزي الناس وإذلالهم على أيدي «الآخرين» في المنطقة المتضررة يشعر به تلقائيًا كل من ينتمي إلى نفس هوية الجماعة الكبيرة. يحدث هذا كلما هددت هوية الجماعة الكبيرة. إن الشعور بالخزي والإذلال والغضب العاجز هي عوامل حاسمة في نشر مشاعر الجماعة الكبيرة وبدء حركات مجتمعية للتعامل مع تأثير الحدث الصادم ولتعزيز أو تعديل المعايير الثقافية القائمة. تهدف هذه الأنشطة المشتركة إلى إصلاح إهتراء قماش خيمة الجماعة الكبيرة.

إحدى الطرق السريعة لإصلاح اهتراء قماش الخيمة وإزالة الشعور المشترك بالإذلال والخزي هي الانتقام، خاصةً إذا سمح الوضع الخارجي بذلك. لهذا الفعل عواقبه الخاصة وعادةً ما يؤجج الصراع أكثر. في حالات الكوارث الطبيعية، لا توجد رغبة مشتركة في الانتقام من الطبيعة أو الله أو القدر. لكن الجماعة الكبيرة التي لا تستطيع الانتقام من عدوها تستوعب عدوانيتها غالبًا. فعندما تحاول مثل هذه المجموعة زيادة أو إعادة تنشيط عادات ثقافية معينة من أجل تقوية إحساسها بـ«النحن» وتمييز هوية جماعتها الكبيرة عن هويات

«الآخرين»، فإننا غالبًا ما نرى استبطان العدوان في الفعل. توجد في أوسيتيا الجنوبية، مثلًا، عادة «خطف» راسخة: على وجه التحديد، «يخطف» الشاب امرأة يحبها ثم يتزوجها بمباركة الأسرة. بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وحروب أوسيتيا الجنوبية مع جورجيا، أصبحت طقوس الاختطاف هذه خبيثة للغاية. في هذه الحالات، اختطفت واغتصاب شابات – بلا زواج. قابلت ذات مرة فتاة شابة من أوسيتيا الجنوبية تعرضت للخطف والاغتصاب والتعذيب ثم أعيدت إلى والدتها. حاولت أن أكون مفيدًا، لكن في النهاية شعرت بالعجز والحزن. علمت أن حديثي معها لبضع ساعات لا يمكن أن يزيل الضرر الذي لحق بها وعائلتها.

كما هو الحال بعد الكوارث الطبيعية أو العرضية، غالبًا ما تظهر النكات أيضًا بعد وقوع كارثة على يد العدو. لكن هذه النكات، على عكس الموصوفة سابقًا المتعلقة بزلزال مدينة مكسيكو وكارثة *تشالنجر*، لا تسخر من الضحايا. تهدف النكات التي تقال بعد صدمات هوية الجماعة الكبيرة عمومًا إلى محو الخزي والإذلال عن طريق إهانة صورة العدو. عندما أجرى مركز دراسة العقل والتفاعل البشري مشروعًا في الكويت، مثلًا، بعد سنوات قليلة من صد الولايات المتحدة وحلفائها قوات صدام حسين الغازية، سمعت نكات عديدة من الكويتيين الذين قابلتهم. عزت إحدى النكات موت واختفاء الحيوانات في حديقة حيوان مدينة الكويت إلى جنود عراقيين جائعين قيل إنهم أكلوها. تحدثت نكتة أخرى عن عراقيين جاهلين وغير متحضرين لم يروا آلة صراف آلي من قبل واعتقدوا أنه في الكويت الغنية يمكن لأي شخص ببساطة الضغط على زر على جدار البنك للحصول على المال. هذه النكات هي محاولات للتعامل مع الخزي والإذلال بجعل العدو يبدو غبيًا ودون إنساني.

ثمة علامة أخرى فريدة من نوعها للكوارث الضخمة التي يسببها العدو تتضمن نقل الصدمة عبر الأجيال. على المستوى الفردي، سينقل بعض البالغين المصدومين بسبب كوارث طبيعية أو كوارث من صنع الإنسان، وغير القادرين لسبب أو لآخر على إنجاز المهام النفسية للتعامل بشكل تكيفي مع هذه المآسي، بعض مهام الحداد إلى ذريتهم. ومع ذلك، في حالات

الصدمة الضخمة التي يسببها العدو، يعمم النقل عبر الأجيال للعمليات النفسية غير المكتملة ويشارك حتمًا في تعزيز هوية الجماعة الكبيرة المشتركة وحتى في تعديلها. هذا موضوع واسع ومهم للغاية سأبحثه لاحقًا في هذا المجلد.

لكن سأناقش أولًا، في الفصلين المقبلين، سيكولوجية بناء النصب التذكاري، وهي عملية مجتمعية مشتركة تلي الصدمة ضخمة التي يتسبب بها العدو. سأصف في الفصل السابع شبكة أيتام الحرب العالمية الثانية الأمريكية (إيه دبليو أو إن) ومشاركة أعضائها في النصب التذكاري للحرب العالمية الثانية في واشنطن العاصمة منذ افتتاحه في عام 2004، فقد تطور النصب التذكاري للحرب العالمية الثانية بالفعل ككائن ربط مشترك للكثيرين. ثم سأستكشف في الفصل الثامن تطور الأنصاب التذكارية الأخرى وأبحث في السؤال العريض: ماذا يخبرنا فحص هذه الأنصاب التذكارية عن سيكولوجية الجماعة المتضررة، وعملية حدادها، ومحاولتها عكس الخزي والإذلال، واستعدادها لقبول «اعتذار» عدوها، واستعدادها «لمسامحة» عدوها؟

7 شبكة أيتام الحرب العالمية الثانية الأمريكية وألف نجمة ذهبية

في يوم الذكرى عام 2004، أُقيم نصب تذكاري للحرب العالمية الثانية بحجم ملعب كرة قدم وسط ضجة كبيرة في واشنطن العاصمة. ويخلد هذا النصب ذكرى 16 مليون فرد خدم في قوات الولايات المتحدة المسلحة وأكثر من أربعمائة ألف أمريكي مات خلال تلك الحرب. وانتظرت عائلتي افتتاح هذا النصب بشيء من الحماس. فقد كان جورما بالونين، والد زوجتي بيتي، من بين خسائر تلك الحرب. وقد مات حين كان بعمر التاسعة والعشرين. وبعد زواجه بثلاثة أعوام، جُند في الجيش حين كانت زوجته حبلى – قبل أن تولد بيتي بثلاثة أشهر. وفي إجازته التي أعقبت تدريبه العسكري، رأى بيتي مرتين قبل أن يُبعث إلى أوروبا. وفي إحدى زياراته تلك، اُلتقطت صورة له وهو يحمل طفلته الرضيعة.

مات جورما في 21 نوفمبر 1994 في إيطاليا. وبعدها بأربعة أعوام عادت جثته إلى الولايات المتحدة ودُفنت في مقبرة بلدة ماساتشوستس الصغيرة، لوننبرغ، التي لا تبعد كثيرًا عن حدود الولاية مع نيو هامبشير. وفي يوم الذكرى عام 1949، أُقيم نصب تذكاري حجري في منتصف لوننبرغ يحمل أسماء المقتولين في الحرب العالمية الثانية ممن كانوا من تلك البلدة، ومن بينهم جورما بالونين. وكشفت بيتي، التي كانت بعمر الخامسة حينها، عن هذا النصب التذكاري في احتفال أقامته البلدة. وفي 1950، بعد أن دُفن زوجها على أرض الولايات المتحدة، تزوجت والدة بيتي مرة أخرى، وأنجبت طفلة أخرى، وقدمت بيئة أسرية جيدة لأطفالها. ولم تتكلم كثيرًا عن زوجها الأول، ولكنها علقت رسمة فيها جورما وهو يرتدي زي الجندي العسكري في غرفة نوم بيتي. ولبقية حياتها حتى اليوم الذي توفيت فيه عام 2002، ارتدت خاتمي زفاف ملحومين سويًا. ولهذا السبب، ولأن الأقارب من جهة والدها

عاشوا في لوننبرغ وحافظوا على علاقاتهم الودية بوالدة بيتي وزوجها الجديد، نشأت بيتي وحولها الكثير مما يذكرها بوالدها المتوفى. فمثلًا، كانت هناك زيارات شعائرية لموقع دفنه. ولكن أقارب بيتي، كحال والدتها، لم يتكلموا كثيرًا عن جورما وحياته. ولذا، تُركت بيتي لتخلق تصورًا لوالدها وحياته في عالم الخيال.

أشارت حكومة الولايات المتحدة إلى بيتي و183,000 طفل أمريكي آخر ممن فقدوا والدهم خلال الحرب العالمية الثانية باسم «أيتام الحرب العالمية الثانية». ولكن، نظرًا إلى أن معظم هؤلاء الأطفال كانوا لا يزالون يعيشون مع أمهاتهم، لم يشعر هؤلاء الأطفال بأنهم «أيتام» حقًا. فقد أخبرني والتر لين، طيار متقاعد لدى القوات الجوية من إنديانا فقد والده حين كان بعمر الثانية، أنه لم يعتبر نفسه يتيمًا على الإطلاق حين نشأ لأنه عاش مع والدته. وحين بلغ السادسة تزوجت أمه مرة أخرى. ورغم ذلك، كان والتر على دراية بأن زوجها الجديد ليس والده الحقيقي. فقد وضح والتر قائلًا:

> أنا متأكد تمامًا من أنني وضحت ذلك لزوج والدتي كثيرًا لدرجة أنه في مرحلة ما طلبت مني والدتي أن أدعوه أبي. ومنذ تلك اللحظة شعرت أن عليّ أن أحمي مشاعر والدتي بفعل ما يتوجب فعله لجعلها سعيدة. وضعت والدي على الرف، إذا جاز التعبير، بعد وفاته حتى وصلت إلى نقطة في حياتي أربي فيها أطفالي، وبدأت استقر في مرحلة تكوين العائلة في حياتي. وفي 1985 شرعت في إعادة والدي إلى حياتي من خلال تعقب أيامه الأخيرة في أوروبا. أردت أن أشعر بما رآه وربما أحظى بلمحة عما شعر به

خلال تلك الشهور القليلة. ولم يكن ذلك بغرض البحث عما أنجزه،
بل أردت بالأحرى أن أعرف ماهيته، وأي نوع من الرجال هو.

قدمت حكومة الولايات المتحدة صناديق فيدرالية لدعم تعليم الأيتام. وبالفعل، استفادت بيتي من مثل تلك الصناديق وتمكنت من الالتحاق بجامعة خاصة لم يكن بوسع عائلتها أن تتحمل نفقاتها لولا ذلك. وحين تزوجنا، انتقلت رسمة جورما إلى بيتنا. ولا زالت معلقة على حائط في غرفة المعيشة لدينا. وتعرفت على جورما من خلال تلك الرسمة، وكذا تعرف عليه أطفالنا لاحقًا. وأدركت بيتي أن القدر كلفها بمهمة، وهي رحلة بحث تستمر طوال الحياة لمعرفة ما كان عليه جورما كشخص حقيقي على قيد الحياة، لا مجرد رسمة على حائط.

لا بد للبالغين الذين عانوا من فقدان شخص عزيز عليهم في مرحلة الطفولة دون أن يتعرضوا بالقدر الكافي للفقيد من أن ينسجوا صورة لهذا الفقيد في مخيلتهم حتى ينسوه. وقد يكون من الأصعب أن يحزن المرء على فقدان والده إذا كوّن معظم صورته أو كلها عنه في الخيال من أن يحزن على فقدان والده الذي ظل مشاركًا في حياة الطفل حتى وفاته. وباختلاف الأعمار التي فقد الأطفال آباءهم فيها، لم يحظ أيتام الحرب العالمية الثانية بفرصة التفاعل مع آبائهم على أرض الواقع وأن ينموا صورًا ذهنية قائمة على تلك التفاعلات، مُعدلة من خلالها على الأقل. وذلك لا يعني أنه لم يكن بوسعهم أن يشكلوا صورًا عن آبائهم البيولوجيين في عقولهم. بل على النقيض من ذلك، كان لا بد لهم من تشكيل مثل تلك الصور، ولكن ما شكلوه كان قائمًا في الأساس على الحاجات، والأماني، والتوقعات، والمثاليات، وإنقاص القيمة، وغيرها من الدفاعات العقلية الأخرى. وإذا أضحت أمهات الأيتام في حالة حداد دائم على فقدان أزواجهن –حتى لو جزئيًا– وظللن صامتات حيال أزواجهن

المتوفين، ولم يشجعن أيتامهن على الحديث عن صورهم الذهنية لآبائهم حتى يتسنى لهم تصحيح خيالاتهم من خلال البالغين الذين عرفوا الفقيد حقًا، يُترك الأطفال شاردين مع خيالاتهم.

يفقد ملايين الأطفال آباءهم أو يولدون بعد وفاة آبائهم لأسباب متنوعة، مثل المرض، أو الحوادث، أو الانتحار، أو القتل. ويستجيب كل هؤلاء الأطفال بطريقتهم النفسية الخاصة لغياب الأب. ويعتمد شكل تلك الاستجابة على عمر الطفل في وقت الوفاة،[85] وتكوينه النفسي، والدعم الذي يتلقاه الطفل في استيعاب المهام التنموية المقترنة بالعمر. ولكن، في حالة أيتام الحرب العالمية الثانية، اقترن فقدانهم مباشرةً بصورة حدث تاريخي ومشاعر عامة مشتركة عن الأفراد الذين ماتوا من أجل وطنهم. ومن الواضح أن اتصالهم بحدث مهم ووصف الحكومة الأمريكية لهم بأيتام الحرب العالمية الثانية لعب دورًا في تمييزهم عن الأطفال الآخرين. فقد قال والتر، الذي ظن أنه ليس مهووسًا بالتعرف على والده حين كان صغيرًا، أنه شعر بأنه طفل مميز «كلما سأل أحدهم عن سبب اختلاف اسمه الأخير عن إخوته». وقد شعر أيضًا ببعض الذنب حيال «استغلال مكانة والدي البطولية في الشعور بالتميز».

إذا كانت الصورة التي شكلها الطفل عن والده الفقيد جزئيًا أو كليًا في مخيلته صورة مثالية –إذ يمُجد الجنود المتوفين عادةً باعتبارهم أبطالًا– يغدو الحداد على فقدانهم (أو الصورة المتخيلة عنهم) أصعب. ثمة مقاومة نفسية للتخلي عن بطل مُشكل داخل عقل المرء وجعله مجرد فقيد عادي. وعلاوةً على ذلك، من الصعب أن يتخلى المرء عن إحساسه بكونه مميزًا لكونه طفلًا لبطل وأن يغدو طفلًا عاديًا لأب متوفى عادي. وثمة مصدر أعمق للإحساس بالتميز: عاملت الأرامل الشابات، اللاتي كن متزوجات قبل بضعة أيام أو شهور

من الوقت الذي رحل فيه أزواجهن إلى الحرب ولم يعودوا، أطفالهن من أزواجهن المفقودين، عن علم أو دون علم، كجسم حي يربط بينها وبين زوجها بدرجة أو بأخرى. فقد كُلف الأطفال بمهمة سرية تنطوي على الربط بين أمهاتهم وآبائهم المتوفين. وكثيرًا ما اضطرت هؤلاء الأمهات، اللاتي اضطررن إلى مواصلة حياتهن بشكل طبيعي، إلى قمع أو إنكار الحب أو حتى النزاع الذي كان موجودًا في زيجاتهم السابقة.

ولا بد من الأخذ في الاعتبار أن أيتام الحرب العالمية الثانية الذين عُوملوا سرًا كأجسام حية رابطة هم أطفال حزانى في ذات أنفسهم، حتى وإن كانوا في الواقع لم يعرفوا آباءهم، أو بالكاد عرفوهم. فقد شعروا بأن شيئًا ما مفقود. والأطفال الحزانى في حاجة إلى الأجسام الرابطة الخاصة بهم أيضًا حين يكبرون حتى يندبوا آباءهم المتوفين. وبدون الاستعانة بمثل تلك الأجسام (أو الظواهر) الرابطة لا يمكن للفرد البالغ الذي فقد شخصًا عزيزًا له في طفولته أن يجعل التمثيل الذهني للشخص المتوفى معقولًا بالقدر الكافي حتى «يُدفن» داخل عقل الفرد ويغدو، كما قال فيكو تاهكا، «بلا مستقبل».[86]

كانت بيكي محظوظة إلى حد كبير. فرغم أن والدتها وأقارب والدها لم يتحدثوا عن جورما وعن حياته، فقد احتفظوا بالعديد من الأشياء التي كانت بمثابة وسائل تذكير بوجوده الحقيقي، مثل خطاباته، وصوره الفوتوغرافية، وأوسمته. ومن خلال تلك الأشياء تمكنت بيتي من تشكيل صورة خيالية من والدها قائمة على أساس واقعي بعض الشيء. وإذا لم تكن تلك الأشياء بحوزتها لكان من الصعب عليها أن تشكل صورة عن رجل متوفى ليس لديها ذاكرة عنه.

ومع وجود أكثر من 180,000 فرد من أيتام الحرب العالمية الثانية في الولايات المتحدة، يتشارك العديد منهم في المهمة النفسية التي تنطوي على البحث عن آبائهم

البيولوجيين والإحساس بالتميز، وهو ما يمثل في حد ذاته، من ناحية نفسية، عبئًا. ومن بين أفراد تلك المجموعة آن بينيت ميكس. فحين كانت صغيرة، لم تدرِ آن أنها كانت «يتيمة حرب»، ولم تعلم أن هذا المصطلح ينطبق عليها إلا لاحقًا. وتتساءل عن حال غيرها من الناس الذين فقدوا أبًا لهم خلال الحرب والكيفية التي تكيفوا بها مع ذلك قائلةً:

> لم يكن لدي أي فكرة عما يكونون، وأين يكونون، وكم منهم موجودون (أيتام الحرب العالمية الثانية). وحين جئتُ إلى الهيئات الحكومية طلبًا للمساعدة اكتشفت أنهم كانوا غافلين عن ذلك أيضًا! كان جليًا لي أنني بصدد الخوض في كفاح طويل، ولكنني كنت عازمة أن نجتمع سويًا ونتكلم عن حياتنا وعما حدث! بدأت التقي ببعض الناس، وحين تكلمنا شعرت بالغضب والحزن حين علمتُ أن قلة قليلة منهم تكلموا مع أيتام حرب آخرين، أو سُمح لهم بالكلام عن آبائهم. وعلمت أن معظمنا قضينا حياتنا ونحن نشعر بالعزلة ولم نكن نعلم إلا القليل عن خدمة آبائنا أو الكيفية التي ماتوا بها.[87]

وفي عام 1990 شرعت آن في البحث عن أيتام آخرين واتخذت تدابير أولية لتشكيل شبكة أيتام الحرب العالمية الثانية الأمريكية (AWON). ولاحقًا في العام التالي، قرأت آن مقالة في مجلة *باراد* أعلنت عن حفلة إهداء شجرة لعائلات الذين ماتوا في الحرب العالمية الثانية. وقد دُعم هذا الحدث المُقام في مقبرة أرلنغتون الوطنية في 8 ديسمبر 1991 من قبل نو غريتر *لوف*، وهي منظمة أُسست في 1971. وتقدم تلك المنظمة برامج للذكرى وتقديم الرعاية للعائلات التي فقدت شخصًا عزيزًا لها ممن ماتوا في خدمة الولايات المتحدة

أو إثر عمل إرهابي. اتصلت آن بكارميلا لا سبادا التابعة لنو غريتر لوف وطلبت منها الإذن لتوزيع بعض المنشورات عن AWON أثناء مراسم الاحتفال. وبمباركة كارميلا، سافرت آن إلى واشنطن وقابلت أيتامًا آخرين ووزعت المنشورات. وفي أثناء ذلك الاحتفال، قابلت بيتي آن لأول مرة. وبعد أن نشرت *واشنطن بوست* مقالة كبيرة عن آن وعن جهودها، تحولت AWON إلى حقيقة بالفعل. واليوم، تضم تلك المنظمة أكثر من ثمانمائة عضو.

صرت متحدثًا معتادًا في الاجتماعات السنوية لشبكة أيتام الحرب العالمية الثانية الأمريكية، بدءًا من اجتماعها الأول. وبصفتي طبيب ومحلل نفسي ذو باع طويل في دراسة الحداد ومضاعفاته على نطاق واسع، اعتقد أعضاء AWON أن بوسعي أن أقدم لهم بعض العون. ولكن أعظم فائدة من فوائد AWON تكمن في الأعضاء الذين يلتقون ببعضهم بعضًا ويدركون سويًا تشابه المهام النفسية التي اضطلعوا بها جميعًا. فقد حكوا قصصهم الشخصية وأدركوا أنه، بجانب فقدانهم لوالدهم، «فقد» معظمهم أيضًا أمهات طفولتهم. إذ تداخلت مرحلة حداد أمهاتهم مع وظائف أمومية محددة. وقد أدركتُ مدى صعوبة أن تتكيف أرملة حرب شابة مع الحياة كأم وحيدة في أربعينيات القرن العشرين. إذ تعتبرهن بعض الشابات المتزوجات تهديدات، أو منافسات لحنان أزواجهن وانجذابهم الجنسي. ولم تتزوج بعض أرامل الحرب مجددًا إلى الأبد. وبعضهم فعل عكس ذلك. فقد تزوجن مرة أخرى وحاولن أن يمحين أي صلة ملموسة تربطهن بأزواجهن الأوائل وعائلات أزواجهن، باستثناء الأطفال الذين عُوملوا كأجسام رابطة حية سرية. وبالطبع، حرمت جهود محو أي رابط ملموس أطفال الزوج الأول من أي علاقة ملموسة بآبائهم، ما يجعل هؤلاء الأطفال يشعرون بالحرمان وبالتميز بطريقة غريبة في ذات الوقت.

علمت كم كان شائعًا للأرامل الشابات ألا يتحدثن عن أزواجهن المتوفين. وحين تعرفتُ على الكثير من أعضاء AWON كأصدقاء، لاحظتُ أن أولئك الذين كانوا محظوظين بما فيه الكفاية للحصول على روابط ملموسة بآبائهم المتوفين كانوا قادرين بصفة عامة أن يتكيفوا بشكل أفضل لبيئتهم في مرحلة البلوغ. وفي عدة مناسبات، سألني البعض عما إذا كان لي رأي في الأسباب التي جعلت أيتام الحرب العالمية الثانية ينتظرون حتى بلوغهم سن الخمسين والستين حتى يكون لديهم مشاعر قوية تجاه بحثهم عن آبائهم وأن يشاركوا بنشاط في تحويل آبائهم الخياليين إلى حقيقة. ولا أزعم أنني أمتلك إجابة حاسمة لذلك، ولكنني أشتبه في أن بلوغ أطفال الأيتام نفس الأعمار التي بلغوها حين قُتل آباؤهم حفّز مهمة «البحث عن الأب» التي دامت مدى الحياة.

عبر أعضاء AWON في مرحلة البلوغ عن مشاركتهم في تكوين صورة آبائهم الذهنية المتخيلة في العديد من التصرفات المختلفة. وبهذه التصرفات، يبحث هؤلاء الأيتام عن آبائهم بصورة رمزية، ثم يعثرون عليهم «بطريقة سحرية»، ثم «يفقدونهم» مجددًا، ثم تتكرر تلك الحلقة مرات عدة. فمثلًا، تزوجت بعض النساء برجال يواءمون، داخل عقول هؤلاء النساء اللاواعية، صورهم عن آبائهم جيدًا. ويتوقعون من أزواجهن أن يؤدوا المهام التي كان من المفترض لآبائهن أن يؤدوها. ولكن نظرًا إلى أن الأزواج ملوثون بالصور الذهنية لآباء الزوجات، خشيت النساء عن وعي أو دون وعي أيضًا من أن أزواجهن قد يموتون فجأة أو يتركوهن. وقد شعرت أن بعض هؤلاء النساء شعرن دون دراية بأن ممارسة الجنس مع أزواجهن هو بمثابة زنا محارم، بالمعنى الرمزي. وقد أدى ذلك إلى نشوء نزاع أدى بدوره إلى الطلاق. وقد حاول بعض الأيتام الذكور جاهدين في مرحلة البلوغ العيش مع الصور المثالية لآبائهم المتوفين، في حين أن البعض الآخر أنقص من قيمة مثل تلك الصور حتى يحقق

استقلاله الذاتي الخاص. وانضم الكثير من الرجال إلى الجيش كوسيلة للتماهي مع آبائهم. فقد حكى لي والتر عن أنه اشترك هو وأخوه الصغير في أنشطة خطرة مثل الطيران وسباق السيارات. وأضاف قائلًا: «قررت منذ الصغر أن أنضم إلى الجيش لأنني ظننت أنني مدين بذلك إلى والدي وإلى المحاربين القدامى». ولكن، في ذات الوقت، قال والتر أيضًا أنه لم يلق بالًا لصورة والده المتوفى. وطور البعض الآخر، على خلاف والتر، مشاعر قوية مناهضة للحروب، وربما يكون ذلك لإنكار وجود خسائر الحروب، بما فيها موت آبائهم. فإذا لم تكن الحروب موجودة، فلن يموت والد طفل في منطقة حرب. وباختصار، لا مفر ولا مهرب من تأثير الصور الذهنية للآباء المتوفين المفعمة بالتوقعات المتوهمة، سواء بالنسبة للرجال أو النساء. وبالطبع، أنا أعمم هنا فقط من أجل إيصال تلك النقطة.

كان لدى بعض أيتام الحرب العالمية الثانية أزواج أمهات أو بدائل أبوية أخرى في الصغر. إذا كانت العلاقة بين الطفل اليتيم وزوج الأم مرضية وإذا كان زوج الأم قادرًا على مساعدة اليتيم أن يتفاوض بشأن الخوض في ممرات تنموية محددة، مثل أن يمر الطفل بمرحلة أوديبية يلعب فيه الوالد وصورته دورًا رئيسيًا، فمن شأن ذلك أن يروض «رحلة البحث عن الوالد» هذه. أما إذا كانت العلاقة بين الطفل وزوج الأم، إلى جانب الإخوة، يشوبها النزاع، فسيزداد مدى استثمار اليتيم في الصورة المُشكلة عن الوالد البيولوجي المتوفى، وسيُرغم الطفل على أن يبقي إحساسه بالتميز أكثر سرية بصورة متزايدة. وينطوي ذلك على عواقب نفسية مرهقة.

أضحى بعض أعضاء AWON، مثل جاك فورجي، عقيد متقاعد في الجيش الأمريكي، باحثين، وشرعوا في مراجعة ملفات الحكومة، وسجلات المستشفى، وغيرها من المستندات للعثور على إجابات لأسئلة الأيتام. ومن بين الأسئلة الشائعة: «كيف مات والدي؟»، «أين هو

رفاته؟»، «أثمة شخص ما على قيد الحياة حارب مع والدي وعرفه وبوسعه أن يخبرني عنه؟». أراد أعضاء AWON أن يعرفوا حقيقة الظروف التي أحاطت بأيام آبائهم الأخيرة. ويذكرني ذلك بعمل صديقتي المحللة النفسية نانسي هولاندر مع أقارب المختفين في أمريكا اللاتينية. فقد وصفت حالة تخص زميلة أرجنتينية أُختطف ابنها خلال حكم بينوشيه، وتعرض للتعذيب، ثم قُتل. وبعدها بعدة أعوام اكتشفت تلك المرأة تفاصيل ما حدث لابنها، وعلقت قائلةً: «إن معرفة الحقيقة، رغم تفاصيلها المروعة، منحتني قدرًا من السلام... وقد أخبرتني أمهات المختفين قسريًا عن كم أنا محظوظة. وكان (حظي) هو أنني علمت أنهم قتلوا ابني برشاش آلي. قالت لي الأمهات أنهم يتمنون لو كانوا في مكاني. هنا تكمن أهمية الحقيقة، أهمية المعرفة».[88]

شرع أعضاء AWON في العمل جاهدين، بعد خمسين عامًا من نهاية الحرب العالمية الثانية، فرديًا وجماعيًا، على تحويل صور آبائهم إلى حقيقية. وفي اجتماعاتهم السنوية قسموا أنفسهم إلى جماعات صغيرة وقارنوا قصص موت أو اختفاء آبائهم. فقد أسقطت النيران طائرة كان يحلقها أحد الآباء فوق فرنسا، بينما تعرض آخر للقصف وأُلقي به في البحر في مكان لا يبعد كثيرًا عن اليابان ومن المرجح أن أسماك القرش قد التهمته. وقد سافرت رئيسة مجلس الإدارة الحالي لمنظمة AWON، باتريشا غافني كينديغ، آلاف الأميال لبابوا نيو غينيا حتى تعثر على طائرة والدها المفقودة في أدغال جبلية غير صالحة للسكن. وقد أُكتشف موقع الحطام في النهاية وحُددت بقايا والدها من سجلات الأسنان التي احتفظت بها باتريشا. واصطحبت بقايا والدها إلى ويسكونسن من أجل مراسم الجنازة، ثم إلى مقبرة أرلنغتون الوطنية للدفن. وقد زار العديد من الأيتام مقابر جيش الولايات المتحدة في بلدان مختلفة من أجل زيارة مقابر آبائهم. وتعاون مسؤولو حكومة الولايات المتحدة على أتم وجه مع أعضاء AWON في بحثهم.

وبرزت العديد من الاكتشافات المؤثرة على السطح. فقد عرف سام تاننباوم أن والده قُتل في معركة الثغرة بالقرب من أوترا، بلجيكا. ولكن ما لم يكن يعرفه هو أن توني فاكارو، جندي صار صديقًا لوالده حين كانا يخدمان في فوج المشاة رقم 331، التقط صورًا لجسده الميت راقدًا في الثلج في يناير 1945. وأضحت تلك الصورة معروفة للغاية وعُرضت في مناطق عديدة من العالم. في الواقع، لقد رأيتها أنا وبيتي في إحدى المرات في لندن في معرض يحتفل بذكرى إنزال نورماندي السنوية. وحين كان سام صغيرًا، لم يكن يعلم حتى أين دُفن والده. ومن خلال AWON انتهى به المطاف بمقابلة رجل من لوكسمبورغ يُدعى جيم شيلتز، وحصل منه سام على طرف الخيط الذي كان في حاجة إليه ليعلم المزيد عن والده. وجه شيلتز سام إلى كتاب بعنوان *لوكسمبورغ 1935–1945* كتبه توني فاكارو. وقد أدى ذلك إلى المقابلة المؤثرة بين سام وتوني. واتضح أن توني كان دائمًا يتساءل عن ابن صديقه المتوفى، وتمنى لو يتمكن من التواصل معه. واكتشف سام أن والده دُفن في كوينز، نيويورك. وفي إحدى الزيارات التي رافقته فيها زوجته ريتشيل إلى قبر والده، كان توني معهما أيضًا. وفي يونيو 2002، انضم توني إلى سام وريتشيل في إقامة نصب تذكاري لوالد سام في البقعة التي قُتل فيها والده في المعركة منذ خمسين عامًا. وقد حضر الاحتفال أكثر من ثلاثمائة فرد من الولايات المتحدة، وبلجيكا، ولوكسمبورغ، وألمانيا، وفرنسا، وهولندا.

وفور سماع أعضاء AWON بقصص مثل قصة سام، فرت الدموع من أعينهم في أول اجتماع سنوي للمنظمة. ومع مرور السنين، إلى حد ملاحظتي، أضحى الأعضاء مشاركين في عملية حداد أكثر صمتًا من الحداد الذي يمر به البالغون في العادة إثر فقدان شخص عزيز لهم. وفي غضون ذلك، شقت قصص عديدة من قصصهم طريقها إلى الإعلام.[89] فمثلًا، حين كتب مذيع أخبار إن بي سي السابق توم بروكاو مقالة *الجيل الأعظم يتحدث: خطابات وتأملات*،[90] أضاف إليها قصة باتريشا غافني كينديغ بالإضافة إلى قصة عضو AWON آن

مولوني بلاك التي وُلدت بعد وفاة والدها ولم تتزوج أمها مرةً أخرى، وماتت في التسعينات من عمرها.

وقامت زوجتي بيتي باكتشافها الخاص في محاولة معرفة المزيد عن والدها. ففي أغسطس 2002 سافرت معي إلى بولونيا، إيطاليا حيث ألقيت محاضرة. وتقع على مشارف بولونيا بلدة صغيرة تُدعى ليفرنيانو. وفي ضواحي تلك البلدة بالتحديد أُصيب والد بيتي، جورما بالونين، بنيران النازيين حين حاول الأمريكيون تحريرها. وبفضل أبحاث جاك فورجي كان بحوزتنا خريطة عسكرية وصورة للتل الذي جُرح عليه والد بيتي. وقد علمنا أيضًا أن أهل البلدة أقاموا تمثالًا لجندي أمريكي تعبيرًا عن امتنانهم للأمريكيين الذين أنقذوهم. وفي أحد الأيام الممطرة سنحت لنا الفرصة للسفر بالحافلة إلى ليفرنيانو وأجرينا محادثة مع نادلة متحدثة بالإنجليزية في مقهى بالقرب من محطة الحافلات. وقلنا لها أننا راغبون في زيارة التمثال. ونظرًا لعدم وجود سيارات أجرة في البلدة، أخبرتنا النادلة أن علينا أن نسير ميلين لنهاية البلدة الأخرى حتى نراه. وأخبرتنا أيضًا عن أومبيرتو مانياني، كهربائي البلدة الذي كان خبيرًا بتاريخ تحرير ليفرنيانو خلال الحرب العالمية الثانية. وكان لدى أومبيرتو، على حد فهمنا، متحف صغير احتفظ فيه بأشياء متعلقة بالحرب، ومقالات أخبار، وصور. وقالت إنها على استعداد للإجابة عن أي أسئلة عن الحرب إذا أردنا ذلك؟ وحاولت أن تتصل به عبر الهاتف، لكنه لم يرد. وبسبب الأمطار، ارتأينا أن نؤجل مسيرتنا إلى التمثال نصف ساعة تقريبًا ونحتسي كوبًا آخر من الكابتشينو. واتضح أن ذلك كان قرارًا مصيريًا، ذلك أن بقاءنا لفترة أطول في المقهى جعل مقابلة أومبيرتو أمرًا ممكنًا.

حين كنا ننتظر توقف الأمطار، اتصلت النادلة بأومبيرتو مرةً أخرى. وفي تلك المرة أجاب عليها. وبعد بضع دقائق جاء إلى المقهى. وعرض علينا أومبيرتو، الذي لم يكن يتحدث بالإنجليزية، أن يقودنا بسيارته إلى التمثال. ولم نكن نتوقع أن نفعل أي شيء سوى أن نقف بجوار التمثال ونلتقط بضع صور ونلقي نظرة على التلال المغطاة بالأشجار المحيطة بالمنطقة لنرى إن كان أي منها يشبه التل في الصورة التي أعطانا إياها جاك. وحين وصلنا

إلى التمثال توقفت الأمطار. ونزلنا أنا وبيتي من سيارة أومبيرتو وأخذنا وقتنا في البحث بينما جلس أومبيرتو في مقعد القيادة. وفجأة، أخرج أومبيرتو رأسه من النافذة وسأل بيتي عن اسم والدها. فأخبرته بيتي بذلك، وتفاجأنا بأن الاسم بدا مألوفًا له. ثم خرج من سيارته وطلب من بيتي أن تكتبه. وبعد أن وجدت قطعة من الورق وقلم كتبت بيتي «بالونين». وحين رأى أومبيرتو ذلك، أشار بسرعة إلى صدره وصاح قائلًا: «قربة بالونين! قربة بالونين!». واستغرقنا دقيقة أو اثتنين حتى ندرك أن أومبيرتو احتفظ بقربة والد بيتي في متحفه الصغير. وفي تلك اللحظة المفاجئة أجهشت بيتي بالبكاء، واغرورقت عيناي بالدموع أنا أيضًا. وبدأ أومبيرتو يعاملنا كما لو كنا أقاربه المقربين. ونظر إلى صورة جاك وخريطة التل ثم قادنا فورًا إلى المكان الذي أُصيب فيه جورما.

كان هناك ثلاثة خنادق حاول جنود الولايات المتحدة أن يختبئوا ويحتموا من نيران النازيين المصوبة من أرض مرتفعة فيها. وما أدهشنا هو ما رأيناه ولمسناه، بعد مرور ثمانية وخمسين عامًا: مفرقعات متحجرة حملها جورما ورفاقه معهم في تلك المهمة. وكان المكان لا يزال تغطيه الشظايا والأسلاك الكهربية وغيرها من أشياء الحرب. كنا نعلم أنه بعد أن أُصيب جورما لم يكن بالإمكان نقله إلى أسفل التل في التو واللحظة. وأفادت أبحاث بيتي الأولية أن المسعفين استغرقوا اثنتي عشرة ساعة في نقل والدها المصاب بجروح خطيرة بعيدًا عن الخطوط الأمامية. وفي النهاية نُقل إلى مستشفى عسكرية في فلورنسا حيث مات بعدها بأكثر من شهر. وللمرء أن يتخيل كيف تُركت قربته خلفه حين نُقل خارج هذا المكان.

وحين قادنا أومبيرتو بسيارته إلى المتحف، بدأت الأمطار تهطل مجددًا، وبشدة هذا المرة. ولم يكن هذا المتحف أكثر من منطقة تخزين تحتوي على علم أمريكي قديم، وكتب، وأوراق، ومعدات اتصال، وخوذ، وأزياء رسمية، وحاوية كبيرة احتفظ فيها أومبيرتو بعشرة قِرَب. ولم تكن أسماء الجنود مطبوعة على القِرب التي يصدرها جيش الولايات المتحدة، ولذا تسعة منها كانوا غير مميزين على الإطلاق. ولكن جورما تمكن من كتابة اسمه الأخير والعام والبلد الذي كان يحارب فيه من خلال سلسلة من الانبعاجات الصغيرة على القربة – بواسطة

رصاصة على الأرجح: «بالونين، 44، إيطاليا». وقد خدش عليها أيضًا كلمة «ماس» اختصارًا لماساتشوستس، ولايته الأصلية، وشرع في تسنين الخط الأول من الحرف M قبل أن «يُصاب بجروح خطيرة»، كما قيل في أحد السجلات العسكرية. وحين حملت بيتي القربة لأول مرة عانقتها.

لن ننسى أبدًا طيبة أومبيرتو التي سمحت له بإعطاء القربة لبيتي. وهي الآن تقف على طاولة تحت لوحة جورما في بيتنا كشيء يمثل حقيقة أن جورما كان رجلًا حقيقيًا بالفعل، وقد حارب هذا الرجل النازيين، وقُتل. وقربته هي تذكار بيتي الخاص لوالدها. وإبان سماعها قصة بيتي، كتبت سام رسالة لها وأشارت إلى الجسم الرابط الجديد هذا في حياتها واصفة إياه بأنه جاء «من شفتي أباك إلى قلبك».

تخبرنا قصص أعضاء AWON أنه حين تنتهي الحرب قانونيًا أو حين تختفي ظروف الحرب، يستمر ضرره النفسي أو تأثيره على الأفراد على الأقل، حتى في أفراد الجيل التالي. فقد اضطر أعضاء AWON، على غرار عائلات المختفين قسريًا في أمريكا اللاتينية، وأمهات الأبناء والبنات المفقودين في كرواتيا عقب انهيار يوغوسلافيا السابقة، والمهجرين داخليًا في جورجيا وجنوب أوسيتيا، إلى التمسك بأجسام رابطة –وحتى خلقها– واستعمالها لتأجيل عمليات الحداد حتى تبدأ في تاريخ لاحق. وأنا متأكد عائلات ضحايا مأساة 11 سبتمبر وحروب العراق وأفغانستان في الولايات المتحدة مشغولون بفعل نفس الشيء. وأنا متأكد أيضًا أن عائلات ضحايا القصف الإرهابي في مدريد، والدار البيضاء، وإسطنبول، ومومباسا، وطابا، ولندن وغيرها من الأماكن سيعانون من صعوبة الحداد لأجيال قادمة. فالأشخاص الذين تعرضوا لصدمة وأطفالهم يتحملون نفس المهام النفسية، حتى وإن كانت لدينا نزعة إنسانية بعدم الاكتراث عاطفيًا بشأن مآسي الناس في أماكن بعيدة عنا.

كما وصفت في الفصل السابق، لا بد لمجتمع أن يخضع لعمليات محددة عقب خوضه حربًا أو صدمة شبيهة بالحرب حتى يتكيف مع الواقع الجديد. وتنطوي إحدى تلك العمليات على إنشاء النصب التذكارية العامة، وهي معالم تذكارية تؤدي غرض جسم رابط مشترك.

وفي هذا الكتاب، سأتبع تعريف «نصب تذكاري» و«معلم تذكاري» الذي قدمه جيمس يونغ، الذي لخص مكان النصب والمعالم التذكارية في الثقافة المعاصرة. وقال: «أنا أعامل كل مواقع الذكرى معاملة النصب التذكارية، والأجسام التشكيلية داخل تلك المواقع هي المعالم. قد يكون النصب التذكاري يومًا، أو مؤتمرًا، أو مكانًا، ولكن لا يلزم أن يكون معلمًا. ولكن المعلم من الناحية الأخرى هو دائمًا نوع من أنواع النصب التذكارية».[91] ويجادل جيفري كارل أوشسنر، أستاذ العمارة في جامعة واشنطن في سياتل، قائلًا: «نود لو نبقي الموتى أحياء في الذاكرة –أحياء كما تُعاش الحياة وكما نشعر بها، لا في العمل فقط، بل في التفاعل الإنساني. وتكمن الصعوبة في أن الذكريات تتلاشى مع مرور الزمن. ونحن نسعى إلى صنع تذكارات –سجل أبدي عام في هيئة المعالم والنصب التذكارية– تمثل رموزًا لأولئك الذين رحلوا من قبل (أو الأحداث التي شاركوا فيها) حتى يظلوا أحياء في الذاكرة».[92] ويستطرد أوشسنر كلامه مذكرًا إيانا بأنه حين نقرر إقامة شواهد القبور والمعالم من أجل تخليد ذكرى حياة الموتى:

> نحن لا نعتزم بناء الأجسام الرابطة، ولكن الأجسام التي نصنعها بالفعل تخدمنا بهذه الطريقة بوضوح. وبالفعل، لا يستلزم الدور الذي تلعبه الأجسام الرابطة أن تكون أجسامًا مخلوقة عمدًا لتأدية هذا الغرض (رغم أن الأمر قد يكون كذلك) أو أن تكون أجسامًا شاركناها شخصيًا مع من نتذكره (ومجددًا، قد يكون الأمر كذلك). وبوسع الأجسام الأخرى أن تؤدي هذا الدور أيضًا طالما أن لديها «المساحة» الكافية للسماح بحدوث ظاهرة الإسقاط النفسية. إن تلك المساحة وعدم الاكتمال المتأصل في الجسم الرابط هو ما نشعر به بقوة كمساحة من الفراغ.[93]

وهنا يقدم مثالًا قويًا لتوضيح الكيفية التي تتمكن بها «الأجسام الأخرى» من تأدية دور الأجسام الرابطة. ويقول إن من بين أكثر التجارب تأثيرًا في متحف الهولوكوست في

الولايات المتحدة مجموعة من الأجسام العادية التي «حُصدت» من أشخاص على وشك أن يُقتلوا، ومن بينها أحذية وفرش شعر وفرش أسنان ومقصات. وكتب: «تبدو المسافة والزمن الفاصلان بين تلك الأشياء وأصحابها وبين الأشياء المماثلة التي نتملكها وأنفسنا قصيرين. وبوسعها أن تكون مواقع للإسقاط (أجسام رابطة)، ومن خلالها بوسعنا أن نخوض (أو نسقط) اتصالاً وثيقًا بالإحساس بحياة أولئك الذين ماتوا».[94]

لقد جعلتنا قربة جورما نشعر بعطش جورما وإنسانيته. أخذت بيتي القربة معها حين انضم كلانا إلى أكثر من ثلاثمائة عضو في AWON للمشاركة في حفل إهداء نصب الحرب العالمية الثانية التذكاري الذي ترأسه الرئيس جورج دبليو. بوش. وقبل الإهداء، تحدث بوب دول في المؤتمر، وهو محارب قديم في الحرب العالمية الثانية خدم في فرقة الجبال العاشرة التي كان والد آن ميكس فردًا فيها أيضًا.

لعبت آن وأعضاء AWON الآخرين دورًا في تصميم نصب الحرب العالمية الثانية التذكاري. فقد أدركت آن مبكرًا أن صانعي هذا النصب التذكاري أرادوا بناء نصبًا تذكاريًا لآبائهم أو للمحاربين القدامى، ولكن ليس لأولئك الذين ماتوا أو لعائلاتهم. وشعرت أن أولئك المسؤولين عن اختيار تصميم النصب التذكاري أرادوا بناء معلمًا «خاصًا» بهم. ونتيجة لذلك، ضغطت آن بشدة من أجل إدراج أسماء الموتى في النصب التذكاري. وحين وجدت أن هذا الاقتراح قُوبل بالمقاومة، جاءت بفكرة استخدام النجوم لتمثيل الموتى. وبفضل جهودها وُضعت 4,000 نجمة ذهبية على سور الحرية المحيط بمسبح قوس القزح الخاص بالنصب التذكاري. وكل نجمة تمثل مائة جُندي أمريكي قُتل في الحرب. ولذا، شعر أعضاء AWON بملكية خاصة لتلك النجوم، ورؤية النجوم جعلتهم يشعرون باتصال وثيق ببقية النصب التذكاري. وقرر الأيتام أيضًا أن يحملوا نجومًا ذهبية على ورق مقوى في حفل الافتتاح ولوحوها باستمرار أثناء حديث الرئيس بوش وغيره. وكان من الواضح أنه بمجرد افتتاحه، أضحى نصب الحرب العالمية الثانية التذكاري، ولا سيما النجوم، جسمًا رابطًا مشتركًا

لأعضاء AWON. وسرعات ما لاحظت أنه أضحى جسمًا رابطًا مشتركًا لآلاف الأمريكيين الآخرين.

وقيل للعامة ألا يتركوا تذكارات في موقع نصب الحرب العالمية الثانية التذكاري، ولكن بحلول اليوم التالي، تُركت مئات الأشياء، من صور وخطابات إلى ميداليات وأزهار، هناك، للتعبير عن روابط الزوار العاطفية بالنصب التذكاري. واتخذ المسؤولون الذين قرروا تجميع تلك الأشياء قرارًا مدروسًا من ناحية نفسية وأعلنوا أنهم سيضعون الأشياء المتروكة في مخزن، ما يرمز إلى الحفاظ على الروابط الفردية لجسم رابط مركزي مشترك. ونفس الشيء يحدث مع الأشياء المادية التي كانت ولا تزال تُترك في نصب قدامى حرب فيتنام التذكاري المجاور.

حين يغدو نصبًا تذكاريًا متصلًا اتصالًا وثيقًا بمجموعة من الحزانى ويؤدي دور التمثيل الذهني لا لخسارة أرواح خاصة بفرد بعينه وحسب، بل لخسارة جماعية مشتركة، فهو يصبح «حيًا»، ولن «يموت» إلا حين يتلاشى التمثيل الذهني لم فُقد بعد عقود أو قرون تالية. وطالما يظل النصب التذكاري «حيًا»، فستكشف لنا الطريقة التي تواجهها بها المجموعة الكثير عن تلك المجموعة – وستعلمنا الكثير عن ظواهر خاصة بمجموعات كبيرة.

بوسعنا أن نجد نقاط التقاء القوى النفسية والاجتماعية والتاريخية والسياسية حولنا في كل مكان، والدلائل المهمة على تضافرها ليست مستترة أو محجوبة أو طي الكتمان دائمًا. أجل، علينا في بعض الأحيان أن نجتهد لنعثر عليها ونرى الأمور بوضوح أكثر، كما في حالة كلب دالي الثاني تشارلي، وقربة والد بيتي، والبطانيات التي اختار قبارصة الأتراك أن يحرقوها رغم أن الشتاء كان قادمًا. ولكن في حالات أخرى نجد الدلائل أمامنا تمامًا كلوحة إعلانات ضخمة. وأنا أدعو تلك «الأماكن الساخنة».

المكان الساخن هو مصطلح استعمله لوصف موقع مادي يحفز (أو يعيد تحفيز) مشاعر قوية بين أفراد جماعة إثنية أو أي جماعة كبيرة أخرى، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي. وهو في العادة مكان قُتل فيه أشخاص أو تعرضوا للإهانة مؤخرًا. وتحظى بعض الأماكن الساخنة بأهمية تاريخية قائمة منذ زمن طويل، وقد يكون بعضها معالم تذكرنا عمدًا بحدث معين، وبعضها يتشكل بطريقة أكثر عشوائية حين تشعر جماعة كبيرة بتهديد لهويتها. ولكن كل المعالم تحفز مشاعر مشتركة نشطة أو سلبية تنطوي على الحزن، والغضب، والاضطهاد، والرغبة في الاضطهاد، والمشاعر الأخرى المقترنة بالفجيعة أو الحداد على نحو معقد.

لم يكن من الصعب العثور على أماكن ساخنة وقت تفكك الاتحاد السوفيتي – إذ أن تلك الفترة، رغم كل شيء، كانت فترة «ساخنة» للغاية. وفي زياراتي العديدة إلى لاتفيا، وليتوانيا، وإستونيا في مطلع تسعينيات القرن العشرين، التقيتُ ببعضها، عمدًا في بعض الأحيان وعن غير عمد في أحيان أخرى.[95] فمثلًا، قتل الجنود السوفييت جماعة من الليتوانيين الذين تظاهروا من أجل الاستقلال في فيلنيوس، العاصمة. وقد ميّز الليتوانيون هذا الموقع بإقامة صلبان طولها يتراوح بين خمسة وستة أقدام تمثل أبناء وطنهم الذين ضحوا بحياتهم. وهذا المكان ساخن وقد أُقيم بالفعل لتقوية وحماية مشاعر الجماعة الكبيرة

المشتركة. وعقب انفصال لاتفيا من الاتحاد السوفيتي، تحولت مقبرة لاتفيا الوطنية –مقبرة الإخوة في السلاح– أيضًا إلى مكان ساخن حين أراد اللاتفيون أن يزيلوا ما يقرب من مائتي ضابط وقائد عسكري سوفيتي ممن دُفنوا هناك. وقد قُتل هؤلاء الجنود في الحرب العالمية الثانية حين استولى الجيش الأحمر تحت قيادة ستالين على لاتفيا من سيطرة النازيين. ولكن اللاتفيين اعتبروهم من الروس والأجانب – الأعداء. وأراد اللاتفيون أن ينبشوا قبور هؤلاء الجنود من أجل «تطهير» المقبرة من «الآخرين» غير المرغوبين فيهم، وذلك رغم أن هؤلاء «الآخرين» لم يشكلوا تهديدًا وقد ماتوا منذ أكثر من خمسين عامًا.[96]

حين كنت أعمل أنا وزملائي من مركز دراسة العقل والتفاعل الإنساني (CSMHI) في جمهوريات البلطيق في مطلع تسعينيات القرن العشرين ومنتصفها، أدركنا أنه إذا أخذنا ممثلي جماعة متأثرة إلى مكان ساخن، فسرعان ما يصيرون متحدثين باسم جماعتهم الكبيرة. ويشرعون في التعبير بحماس شديد عن مشاعر جماعتهم تجاه العدو، والإشارة إلى التوقعات المستقبلية الواقعية أو المتخيلة عن هؤلاء «الآخرين»، والتحدث عن معتقداتهم السحرية المشتركة المقترنة بعلاقتهم بالعدو. وقد جمعنا رؤىً قيمة على نحو ثابت. وفي بعض المناسبات أخذ فريق CSMHI ممثلي كل جانب من جانبي النزاع إلى مكان ساخن. فمثلًا، تمكنا من أخذ اللاتفيين، بالإضافة إلى الروس الذين يعتبرهم اللاتفيون الإثنيون «معتدين»، إلى المقبرة اللاتفية الوطنية في ريغا. وعلى غرار ذلك، أخذنا كلًا من الإستونيين والروس عمدًا إلى بالديسكي، وهي قاعدة بحرية سوفيتية ضخمة كانت تضم أسطولًا من الغواصات النووية. (وكلٌ من بالديسكي والقاعدة العسكرية السوفيتية في بارنو كانت أماكن محرمة على المواطنين الإستونيين ولذا كانت مصادر للخوف والإهانة لنسبة كبيرة من السكان. ونتيجة لذلك، أضحت هاتان القاعدتان أماكن ساخنة بعدما استعادت إستونيا استقلالها).[97]

وتخبرنا التعليقات المعرب عنها في مثل تلك الزيارات عن نظم المعتقدات المشتركة الواعية وغير الواعية لكل جانب من الجانبين ومخاوف الجماعة التي لوثت وعرقلت التواصل

الفعال والمفاوضات السلمية في العادة. وحين أحضرنا الممثلين المتضادين معًا من أجل محاورات حقيقية ومحادثات دبلوماسية غير رسمية، تمكنا من التعامل بشكل أفضل مع نوبات الاحتدام العاطفية والمقاومات العنيدة التي أحبطت النقاشات الواقعية. فمثلًا، في بالديسكي، أضحت التخيلات المشتركة للإستونيين التي تخص تاريخهم مرئية. إذ نظرًا إلى أنهم عاشوا في ظل حكم «الآخرين» لقرون، كانوا خائفين من أن يُبتعلوا ويصبحوا في طي النسيان بعد حصولهم على الاستقلال. ولتلك التخيلات المشتركة انعكاسات مجتمعية وسياسية. وترتب على ذلك أننا، خلال المفاوضات غير الرسمية التالية مع الروس، لفتنا انتباه المفوضين الإستونيين إلى تلك التخيلات وساعدناهم على تخطيها. وقبل ذلك كتبت أن زيارة الأماكن الساخنة، من نواحٍ عديدة، «يمثل بالنسبة لسيكولوجيا الجماعات الكبيرة ما يمثله تذكر الأحلام بالنسبة إلى فرد يخضع للتحليل النفسي. فكلاهما يوفران طريقًا مباشرًا للنواحي الخفية والرمزية للبيئة السيكولوجية. ومن خلال إحضار أفراد الجماعات المتضادة إلى مواقع متشربة بأهمية مأساوية، بوسع المرء في أغلب الأحيان أن يظهر ما يتشبث به الناس بعمق من أماني ومشاعر ووجدان وأحكام كانت لتظل مخفية لولا ذلك».[98]

وتتطور الأماكن الساخنة في أغلب الأحيان إلى نصب تذكارية حقيقية حيث يُقام فيها معالم تذكارية للتذكير بمحنة الجماعة وخسائرها. وفي مقابل ذلك، تؤدي بعض النصب التذكارية، حين تُبنى لأول مرة على الأقل، دور الأماكن الساخنة. ومن المؤكد أن «الطابق الأرضي» الذي وقف عليه برجا التجارة العالمية في مدينة نيويورك قبل 11 سبتمبر 2001 مكان ساخن. وفي حفل التأبين الذي أُقيم هناك في 28 أكتوبر 2001، تلقى أفراد عائلة الضحايا قوارير خشبية تحتوي على تراب وغبار ورماد من الموقع. وكان المعنى الذي تحمله تلك القوارير واضحًا، إذ أن الرماد يمثل الأحباء الذين هلكوا رمزيًا، إن لم يكن حرفيًا. وسيحظى أفراد العائلة بقطعة من أحبائهم حتى إذا لم يكن يمكن لهم استردادها. ومن خلال ذلك سيربطون أنفسهم نفسيًا بمن فقدوهم. ولا أعرف شخصيًا ما الذي فعله أفراد العائلة بقواريرهم، ولكني أشتبه في أن معظمها أصبحت أجسامًا رابطة. وبعد انتهاء تلك المراسم

بوقت قصير، بدأت المناقشات في العلن وفي الإعلام عن إقامة نصب تذكاري –جسم رابط مشترك– في الطابق الأرضي. أينبغي أن يُترك جزء من المنطقة المدمرة كنصب تذكاري؟ أينبغي خلق صورة من البرجين بأشعة من الضوء تنبعث من الأرض إلى السماء؟ في ربيع 2005 أفادنا الإعلام بأن إعادة إنشاء الطابق الأرضي وقعت في أوقات مؤلمة نظرًا إلى الاعتبارات الاقتصادية والسياسية. ولكن من السهل لنا أن نفترض أن التصميم المختار لمعلم تذكاري في هذا الموقع سيخضع إلى نقاشات طويلة وعاطفية.

إذا بُني نصب تذكاري على موقع لا يزال ساخنًا، فسيغدو مكانًا رمزيًا تنتفع به الجماعة المتأثرة حتى يحافظوا على عملية الحداد المشتركة والرغبة في الانتقام. ولكن في النهاية، «يهدأ» هذا النصب التذكاري «الساخن» ويغدو صندوقًا رمزيًا من الحجر أو الرخام أو المعدن يجمع بداخله عمل الحداد الجماعي غير المكتمل، ويضع حدًا حول مشاعر الجماعة المشتركة، وتختتم الجماعة، لأهداف عملية، عملية الحداد. وقد تحول نصب الحرب العالمية الثانية التذكاري الذي أشرت إليه في الفصل السابق إلى صندوق كهذا فورًا، ويعزى ذلك بدرجة كبيرة إلى أنه بُني بعد ستة عقود من نهاية الحرب. فهو يرمز ويكرم كلًا من الأربعمائة ألف فقيد إلى جانب كل أولئك الذين تأثروا بالحرب من الأمة على نحو فحال. وبذلك تصبح ذكرى أولئك المفقودين مُعترفًا بها وخالدة، ما يجعلها «بلا مستقبل».

ولتوضيح الكيفية التي تُعرب عنها مشاعر الجماعات الكبيرة داخل تلك النصب التذكارية ومن خلالها إلى مدى أبعد، سأقدم مقارنة بين موقعين مختلفين للغاية: نصب الأب الباكي التذكاري في تسخينفالي، جنوب أوسيتيا، ونصب قدامى حرب فيتنام التذكاري في العاصمة واشنطن. فالأول الذي يُعد خليطًا بين مكان ساخن ونصب تذكاري، موجود للحفاظ على مشاعر الجماعة الكبيرة متقدة، في حين أن الآخر أضحى مكانًا أعان حداد الجماعة الكبيرة في أمريكا على نحو هائل، ما يخمد المشاعر المختلطة حيال حرب فيتنام ويضع نهاية أخيرًا إلى العمل النفسي الذي لم يُحسم بعد.

أحاطت القوات الجورجية بتسخينفالي لعدة شهور خلال النزاع بين جورجيا وجنوب أوسيتيا في 1991–92. وفي مرحلة ما خلال هذا الحصار، مات ثلاثة مقاتلين شباب من جنوب أوسيتيا خلال لحظات. ولأن الجورجيين استولوا على المقبرة التي في ضواحي المدينة واحتلوها، دُفن هؤلاء الرجال في فناء المدرسة الثانوية الخامسة في جادة لينين في تسخينفالي. وقد التحق أحد هؤلاء الضحايا بتلك المدرسة، وكان يُعتقد أن فناء تلك المدرسة كان مكانًا آمنًا لدفنهم. وبصورة تدريجية، دُفن المزيد والمزيد من المدافعين الموتى هناك، ومن بينهم ثلاثون قُتلوا في النفس اليوم على ما يبدو. واليوم يصل عدد القبور هناك إلى أكثر من مائة قبر.

وقد علمت بأمر فناء المدرسة هذا في زيارتي الثانية إلى تسخينفالي. وعقب انتهائنا من عملنا في قصر إبداع الأطفال وحين استعددنا للعودة إلى تباليسي، اقترح نودار شارفيلادز أن نزور المقبرة التي في المدرسة الخامسة. وقد ظننت أنه يريد أولئك الذين من الولايات المتحدة، أعضاء CSMHI، أن يشعروا بمعاناة سكان جنوب أوسيتيا. ورغم أن نودار جورجي، فقد أرادنا أن نكون منصفين وأعطانا فرصة لفهم الصدمة التي خلقها النزاع بين جورجيا وجنوب أوسيتيا للجانب الآخر بشكل أفضل. وأنا أعتقد أن نودار حضر إلى هذا المكان مسبقًا، ولكن الجورجيين الذين رافقونا هذا اليوم لم يروه أبدًا. قد حضرتُ أنا ويوري أوربانوفيتش إلى عدة أماكن ساخنة وعلمنا أن الغرباء لا ينبغي عليهم أن يزوروها دون استعدادات ودون «مرافقين» من الجماعة المتأثرة. ومن خلال فينيرا باسيشفيلي أو الجنوب أوسيتيين الآخرين الذين تعرفنا عليهم، كان بإمكاننا أن نحصل على «إذن رسمي» للذهاب إلى المدرسة الخامسة. ورغم أننا لم نفعل ذلك، لم أبد أي اعتراضات لاقتراح نودار. فقد كان اقتراحه نبيلًا، ورغم كل شيء، فقد تركنا للتو بعضًا من أكثر سكان جنوب أوسيتيا لطفًا وودًا.

وهكذا مشينا نحن، جورجيون وأمريكيون، في جادة لينين المهجورة، وقفزنا فوق حفر الطريق ونحن نسير بجانب جدار متهالك طوله لا يزيد عن خمسة أقدام يفصل بين

فناء المدرسة والشارع. ووصلنا إلى بوابة المدرسة الخامسة ورأينا موقع الدفن في الجانب الأيمن من الفناء. وأخرجت كاميرتي لالتقاط بعض الصور. وفجأة، ظهرت شاحنة وسيارة من حيث لا ندري. ووثب منها رجال غاضبون من جنوب أوسيتيا، بثياب مدنية، وأحاطوا بنا. وقد رأيت أن بحوزتهم مسدسات. وكان من الواضح أنهم يريدون أن يعرفوا ما الذي كنا نحن، الأجانب، فاعلون في موقع أضحى مكانًا مقدسًا لهم. هل كنا هناك لتدنيس الذكرة المكرمة المثالية لأبطال جنوب أوسيتيا الذين دُفنوا هناك؟

كنت خائفًا. كان بوسع هؤلاء الرجال أن يأخذوا كاميراتنا منا، ويبرحونا ضربًا، أو يقتلونا. ولأنني لم أكن قادرًا على التواصل مع هؤلاء الرجال، شعرت بالشلل وبدأت ألعن نفسي في صمت على نسياني لمقدار المشاعر التي تحفزها الأماكن الساخنة في أعضاء الجماعة المصدومة، ومدى الحذر الذي كان ينبغي علينا أن نتحلى به في التجهيز لزيارة إلى مكان كهذا. قدم نودار نفسه بالإنجليزية والروسية، وتحدث معهم بالروسية بطريقة هادئة للغاية. وكما علمتُ لاحقًا، قال لهم أنه أستاذ جورجي على اتصال بزملاء من جنوب أوسيتيا، وأن جميعنا حضر إلى هذا المكان لتقديم العزاء للموتى، وأننا لم نقصد إساءة مشاعر أي أحد. وفي النهاية، سمح لنا هؤلاء الرجال، الذين أشتبه في أنهم ينتمون إلى جماعة شبه عسكرية جنوب أوسيتية، بالعودة إلى سياراتنا دون مضايقة. وغني عن القول إنني أعجبت كثيرًا بسلوك نودار الهادئ. وشعرت بالامتنان الشديد له على إنقاذنا مما كان من المحتمل أن يكون موقفًا شنيعًا.

لم أعد أبدًا إلى فناء المدرسة الخامسة في جادة لينين في تسخينفالي، ولكن يظل هذا المكان في ذهني مثالاً واضحًا على مكان ساخن. وحين واصلت أنا وزملائي من CSMHI تسهيل المناقشات في الأعوام التالية بين الجورجيين وسكان جنوب أوسيتيا، ظلت تلك المقبرة موضوع نقاش. وعلمتُ أن سكان جنوب أوسيتيا شيدوا لاحقًا مصلى كنسي صغير، وأقاموا تمثالاً يُدعى الأب الباكي في فناء المدرسة. وأرسلت إليّ إنغا كوتشيفا من جنوب أوسيتيا صورًا للمصلى والتمثال. ويشبه تصميم المصلى الصغير قوس النصر في باريس، والأب

الباكي هو تمثال حجري بالحجم الطبيعي يقف على كتلة مربعة. وترتدي شخصية التمثال التي تقف في وضعية حزينة غطاء رأس جنوب أوسيتي تقليدي ومعطفًا طويلًا. وفي ثقافة جنوب أوسيتيا، ليس من المفترض للرجال أن يبكوا، ولذا تعكس دموعه الأبوية ألمًا حادًا لا يتوقف.

ورغم وجود سياج حديدي يفصل مكان الدفن والمصلى الصغير والأب الباكي عن بقية فناء المدرسة، فبإمكانك رؤيتهم من المدرسة. وحتى يتسنى الدخول إلى مبنى المدرسة المكون من ثلاثة طوابق، يضطر الطلاب (الذين استأنفوا الحضور إلى فصولهم مجددًا بعد انتهاء القتال في تسخينفالي) إلى المرور بجانبهم. وبوسع الطلاب والمدرسين أن ينظروا إلى موقع الدفن والنصب التذكاري من جميع طوابق المدرسة. يتم تذكير الصغار دائمًا باضطهاد سكان جنوب أوسيتيا، وعجزهم، وخسائرهم. وفي خلال السنين الأولى التي تلت نزاع 1991–92، أُقيمت مراسم متكررة في فناء المدرسة. وقد قيل لي إن سلطات جنوب أوسيتيا استعانت بكل عذر ممكن لإقامة مثل تلك الاحتفالات التي تفاوتت من ذكريات سنوية إلى عطلات دينية. وقد دعم العامة السلطات بالمشاركة في تلك الاحتفالات بأعداد غفيرة. وقد شُجع الصغار أيضًا على كتابة وقراءة الشعر الذي يتحدث عن الاضطهاد، وما هو أهم من ذلك، الانتقام. وقد روجت صورة عن العدو من أجل تعزيز هوية الجماعة المضطهدة والوهم القائل بأن قتال هؤلاء «الآخرين» من شأنه أن يمكن سكان جنوب أوسيتيا من استعادة خسائرهم في المستقبل.

وخلال سلسلة حواراتنا المستمرة، أضحت علاقة سكان جنوب أوسيتيا بتمثال الأب الباكي مؤشرًا من نوع ما عن المزاج العام في تسخينفالي وطبيعة تفاعلات سكان جنوب أوسيتيا مع الجورجيين. وقد اعترف المشاركون من جنوب أوسيتيا أن وجود تمثال الأب الباكي والاحتفالات المتكررة المقامة في هذا الموقع تسمم عقول الصغار الملتحقين بالمدرسة الخامسة وتبقي المشاعر السلبية تجاه الجورجيين حية داخل جيلهم. وقد تحدث المشاركون عن ذلك للسلطات في تسخينفالي معربين عن قلقهم. وأفادوا لاحقًا بأنه، بفضل جهودهم،

أقامت السلطات احتفالات أقل تدريجيًا مع مرور الزمن في فناء المدرسة. وأفادوا أيضًا بأن المشاعر في القصائد التي يقرأها الطلاب أصبحت أقل حدة، وذلك بفضل تشجيع السلطات والمدرسين. ولكن هؤلاء الصغار كانوا لا يزالون مضطرين إلى المرور بجانب تمثال الأب الباكي، والمصلى، ومكان الدفن في كل يوم دراسي. وشرع أفراد جنوب أوسيتيا أيضًا في التحدث عن الحاجة لحل تلك المشكلة: فقد علموا أن عليهم إما أن ينقلوا المقابر إلى مكان آخر أو يشيدوا مدرسة أخرى. ولكن الخيار الأول كان مستحيلًا، وذلك لأن المعتقدات الدينية والتقاليد الثقافية تمنعهم من إزعاج الموتى، والخيار الثاني كان غير واقعي لأن البلد لم يكن يتحمل نفقات بناء مدرسة جديدة.

وبعد فترة من الزمن، مكنت النقاشات المتمحورة حول النصب التذكاري ومسائل أخرى المشاركين الجورجيين أن يشرعوا في التعبير عن نوع من الندم على خوض حرب ضد جنوب أوسيتيا وعلى القومية في جورجيا في عهد زفياد جامساخورديا التي حفزت تلك الحرب. ولكن المشاركين الجورجيين شعروا رغم ذلك أن مكافحة الأبخازيين كان أمرًا ضروريًا، ولكن بعضهم صار يحمل على عاتقه جزءًا كبيرًا من المسؤولية بسبب دور جورجيا في تأجيج النزاع بين جورجيا وجنوب أوسيتيا. وقد بدا على المشاركين من جنوب أوسيتيا أيضًا أنهم أكثر استعدادًا لــ«سماع» بعض من إحساس الجورجيين بالندم على النزاع الدموي.[99] وحين قالت سيدة جورجية أنها تأثرت بمأزق سكان جنوب أوسيتيا وأنها أرادت أن تزور المدرسة الخامسة لتعزية الموتى، بدا على المشاركين من جنوب أوسيتيا أنهم سعداء، ولكنني لا أعتقد أن تلك الزيارة حدثت بالفعل.

ولكن المشاكل في جنوب أوسيتيا لم تكن تقتصر على أولئك الذين ماتوا في الحرب وتخليد ذكراهم. فبعد انتهاء الحرب، رحل الكثير من رجال جنوب أوسيتيا للعمل في روسيا. وقد وضع تركهم زوجاتهم وأولادهم عبئًا مهولًا على قيم العائلة التقليدية. وحين اضطرت النساء إلى الخروج والبحث عن عمل، وجدن إحساسًا بالاستقلال. وحين عاد أزواجهن، وجدوا أن حياة زوجاتهم لم تعد تتناسب مع المعيار المألوف لثقافتهم. وارتفع عدد حالات

الطلاق، وأثّر ذلك بدوره على حياة الأطفال.[100] وأصبح العديد من الصغار إما مجرمين أو عاهرات. وفي ذات الأثناء، أضحت سلطات جنوب أوسيتيا أكثر عرضة للتلاعب السياسي الروسي، ما صعّب الوصول إلى اتفاق سياسي مع الجورجيين، وقد استمر نسيج الحياة في جنوب أوسيتيا في التمزق نتيجة الضغط المستمر للنزاع. وقد علمنا أن توسيع نطاق الحوارات بما يسمح بإشراك شخصيات مؤثرة سياسيًا من كلا الجانبين من شأنه أن يساعد في منع بعض التأثيرات السلبية طويلة المدى التي قد تعاني منها المنطقة لولا ذلك. ولكن، مع حلول نهاية الحرب المفتوحة، سرعان ما جفت الأموال المخصصة للعمل في جورجيا وجنوب أوسيتيا.

بعد أن توقفت منظمة CSMHI عن زيارة جورجيا، استطعنا أن نعمل مع المشاركين من جورجيا وجنوب أوسيتيا لعام آخر من خلال إحضارهم إلى تركيا – مرة إلى إزمير ومرة إلى إسطنبول. وبعد ذلك، واصل المشاركون من كلا الجانبين التعاون في محاولة فهم العمليات المجتمعية المحددة، مثل زيادة العنف الأسري نتيجة النزاع الإثني. ولكن، في 2004، وقع اشتباك دموي جديد بين جورجيا وجنوب أوسيتيا، ما أدى إلى انهيار تام للتواصل بين المشاركين من جورجيا وجنوب أوسيتيا في السلسلة الأولى من حوارات CSMHI. وأنا لا أعلم سبب حدوث ذلك جيدًا، ولكني بقيت على اتصال مع كلا الجانبين من خلال البريد الإلكتروني. وعلمت من شخص ما من جنوب أوسيتيا أن نودار شارفيلادز أرسل تحيات عيد الميلاد المجيد إلى سكان جنوب أوسيتيا في ديسمبر 2004. ورغم أن سكان جنوب أوسيتيا كانوا سعداء شخصيًا باستقبالهم تلك الرسالة، فبسبب التطورات السياسية والعسكرية الأخيرة، وجد هؤلاء الناس المشاركة مع «العدو» أمرًا مستحيلًا، ولذا لم يردوا عليه. وعلمت أيضًا من سكان جنوب أوسيتيا أن الجماعة لاحظت مرة أخرى «دموع» الأب الباكي.

كما أشرت سابقًا، أنا لم أعد أبدًا إلى المدرسة الخامسة، ولكن ما علمته من ملاحظات مشاركي جنوب أوسيتيا عن هذا الموقع علمني درسًا. فمن شأنه أن يخبرنا الكثير عن حداد

الجماعة، وإحساسهم بالانتقام، وقدرتهم على المغفرة. وسأعود لفحص مثل تلك المشاعر المشتركة داخل جماعة أكبر لاحقًا في هذا الفصل.

رغم أن المعلم الذي بُني في فناء المدرسة الخامسة أُستخدم كجسم رابط مشترك لإبقاء عملية حداد سكان جنوب أوسيتيا على قيد الحياة، فقد ساهم نصب قدامى حرب فيتنام في العاصمة واشنطن في مقابل ذلك في وضع حد لتلك العملية. فقد ساعد المبنى ونصب قدامى حرب فيتنام ورد الفعل اللاحق للمحاربين القدامى، وعائلات الضحايا، والعامة الأمريكيين على تقبل أن خسائرهم كانت حقيقية وأن الحياة ستستمر دون استعادة أولئك المفقودين. وفي وقت سابق، نعى أفراد العائلة والأصدقاء ضحايا حرب فيتنام الأمريكيين، ودُفنوا بجهود خاصة. ولكن على المستوى العام، لم يُعترف بوفاتهم بصورة جماعية. وبالنظر إلى المشاعر المختلطة حيال تلك الحرب، عاد المحاربون القدامى إلى وطنهم دون أن يستقبلهم الناس بالتصفيق والإشادة. وظلت أسئلة كثيرة عن تلك الحرب غير مُجابة في عقول الشعب الأمريكي. هل مات الناس من أجل قضية نبيلة أم أنهم هلكوا بسبب سياسة سيئة وحسب؟ هل خسرنا الحرب؟ وإذا كان الأمر كذلك، هل ينبغي علينا أن نكرم من ضحوا بالكثير؟ يخبرنا جيفري أوشسنر أنه، بالنظر إلى مشاعر الأمريكيين المحايدة تجاه تلك الحرب، «في الواقع، كانت أكثر الإجابات شيوعًا إنكار»[101] المشاعر والأفكار التي يحملها الناس تجاه الموتى، تجاه المحاربين القدامى، وتجاه تراجع مجتمعي داخل المجتمع الأمريكي. «ورغم ذلك، بدا أن إنشاء نصب قدامى حرب فيتنام التذكاري الذي يحمل أسماء الموتى والمفقودين غيّر كل ذلك».[102]

كانت مصممة النصب التذكاري، مايا ينغ لين، طالبة بعمر الواحد والعشرين في جامعة ييل حين أُعلن عن مسابقة تصميم النصب التذكاري. وأفادت لين، في مقابلة مع كارول فوجل نُشرت في *نيويورك تايمز* في 9 مايو 1994، بأنها حين كانت في ييل في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، أخبرها أساتذتها أن بوسعها إما أن تكون فنانة أو معمارية، ولكن ليس كلاهما. وأضافت قائلةً: «أنا أحب المعمار والنحت، ولكن لم يكن بوسعي التفضيل بينهما أبدًا. فالنحت بالنسبة لي كالشعر، والمعمار كالنثر».[103] وأثناء تصميمها

لنصب قدامى حرب فيتنام، بصفتها معمارية وفنانة في ذات الوقت، ربطت الموت «بألم حاد تخف وطأته مع مرور الزمن، ولكنه لا يلتئم تمامًا ويترك ندبة مكانه».[104] وأرادت أن تأخذ سكينًا وتشق الأرض، «ومع مرور الوقت سيشفي العشب هذا الألم».[105] ولكن حين عُرض تصميمها على العامة، وجده بعض الناس مسيئًا ووصفوه بأنه «حائط مبكى» أو «جرح أسود عميق من الخزي».[106]

ورغم أن تصميم الحائط افتعل بعض الجدل ووضع ملحًا على جروح الحرب التي لم تلتئم، فقد أقيم نصب قدامى حرب فيتنام التذكاري في 13 نوفمبر 1982. [107] ومن ملامحه الرئيسية بلاط طويل من الجرانيت الأسود تلتقي جميعها بزاوية وترتفع تدريجيًا عن الأرض. وتحمل أسماء أكثر من خمسين ألف طاقم عسكري مقتول أو مفقود في المعركة. ويتسم ترتيب الأسماء على الجرانيت الأسود بأنه غير معتاد.[108] كتب أوشسنر: «قبل نصب قدامى حرب فيتنام التذكاري، عرضت معظم المعالم التذكارية الوارد بها المقتولين أو المفقودين من حرب أو معركة أسماء الضحايا بتسلسل هرمي للمنظومة العسكرية... ولكن، في نصب قدامى حرب فيتنام، تجد الأسماء مرتبة وفقًا للتسلسل الزمني دون أي إشارة إلى أي رتبة عسكرية. ولن تجد فيها أي تواريخ سوى عامين فقط. ورغم ذلك بوسعك أن تستشعر إحساسًا بمرور الأيام من المجموعات الأبجدية للأسماء – إذ تشير كل مجموعة بدهاء إلى الأرواح المفقودة في كل يوم... وكلما سرنا على طول هذا المعلم التذكاري مررنا بأعوام متعاقبة من الخسائر حتى نجد أنفسنا في مواجهة أمام ضخامة الإطار الزمني حيث نجد التاريخين 1959 و1975 على الأوجه المتقابلة للقمة».[109]

نظر أحد أبنائي، كورت فولكان، إلى نصب قدامى حرب فيتنام من زاوية نفسية، وكحال أوشسنر اعتبره جسمًا رابطًا مشتركًا. وشدد كورت بصفة خاصة على السيكولوجيا الكامنة وراء رؤية الفرد لانعكاسه وهو يتداخل مع الأسماء المنحوتة على الجرانيت الأسود اللامع. فقد كتب: «من المؤكد أن تفسير أي فنان، سواء كان مجازيًا أو استعاريًا، لحرب فيتنام ينطوي على معنى أقل من العنصر الإنساني الذي ينطوي عليه رؤية الفرد لنفسه

وبيئته المعيشية منعكسة على حجر خلف أسماء جنود متوفيين».[110] ونظرًا إلى أن صور الموتى مرتبطة بالصورة المقابلة لها للزائرين الأحياء، يمثل هذا المعلم بالفعل جسمًا رابطًا مشتركًا. ويقول كورت: «من خلال لمس الحجر والأسماء المنقوشة عليه، يعزز الأحياء صلتهم بالأموات – فمع كل شيء، الاسم مصطلح رمزي يجسد كل شيء عن وجود فرد ما... والأسماء المنقوشة على الجرانيت، التي ستظل موجودة لآلاف السنين، تجعل الموت أمرًا رسميًا ونهائيًا في عقل الفرد»[111]. ويستطرد كلامه موضحًا الكيفية التي تجعل بها رؤية العديد من الأسماء المتراصة جنبًا إلى جنب على الجرانيت الأسود الخاص بحائط النصب التذكاري –على غرار رؤية العديد من النجوم الذهبية جنبًا إلى جنب على حائط الحرية في نصب الحرب العالمية الثانية التذكاري– المعلم التذكاري جسمًا رابطًا مشتركًا، مضيفًا أن: «إذن بإمكان الحائط أن يكون كأم تبكي لأجل ابنها المفقود على المستوى الشخصي، أو كأمة تبكي على تاريخها الماضي الذي لم تجد له حلًا بعد على المستوى العام».[112]

ودون أي مبادرات دبلوماسية من الاعتذار أو الغفران بين الولايات المتحدة وفيتنام، كان إنشاء النصب التذكاري ورد الفعل الأمريكي له –الذي أدى عملًا نفسيًا مهمًا في حداد الجماعة– خطوة مهمة في تحييد العلاقات بين البلدين. ولذا بدا أن جروح حرب فيتنام قد التأمت، على مستوى الحس الجماعي على الأقل. ولا ينطبق ذلك على سكان جنوب أوسيتيا، الذين جعلتهم استجاباتهم للصدمة جامدين كحجر الأب الباكي في تسخينفالي. ومن المستحيل لهم أن يستجيبوا لأي إيماءات بالمصالحة من الجورجيين. وخلال سلسلة الحوارات التي أدارتها CSMHI بين الجورجيين وسكان جنوب أوسيتيا، طُرحت مفاهيم الاعتذار والمغفرة، ولكن حين طُرحت تلك المفاهيم أسرع سكان جنوب أوسيتيا في العودة إلى مناقشة ما يعنيه الأب الباكي لهم. من المؤكد أن الكيفية التي تتفاعل بها الجماعة مع نصب تذكاري تخبرنا عن مدى استعدادهم لسماع اعتذار الجانب الآخر.

وبدون الحداد، بمعناه النفسي التحليلي،[113] لا يمكن تقديم أو استقبال «اعتذارًا» أو «مغفرة» من جانب الجماعات التي تعرضت للصدمة من جماعات أخرى. وذلك لا يحمل في

العادة أهمية كبيرة في الدبلوماسية العالمية نظرًا إلى أن الأمم وقادتها نادرًا ما يقدمون اعتذارات رسمية لأولئك الذين حاربوهم في الحروب الماضية. ولكن ذلك حدث بالفعل. ففي إحدى الحالات التي حظيت بتغطية إعلامية واسعة، اعتذر المستشار الألماني حينها، ويلي براندت، لليهود البولنديين في زيارته يوم 7 ديسمبر 1970 إلى موقع الحي اليهودي السابق في وارسو، حين ارتكز براندت عفويًا على ركبتيه اعترافًا منه بما فعله النازيون. وعُرف هذا الاعتذار الدرامي باسم (Kniefall) وعلقت صورته في أذهان الناس داخل وخارج ألمانيا لأعوام عديدة. ولم يعجب بعض الألمان بما فعله براندت، بينما واجهه الشعب البولندي بقبول عامة. وبصفة عامة، كان اعتذار براندت فعالًا لأن العديد من العمليات السياسية الأخرى في ألمانيا بعد الهولوكوست جهزت الضحايا لسماع كلمة الاعتذار. والاعتذار في حد ذاته لم يبد وكأنه كلمة سحرية. وهو أيضًا جزء مما عُرف بسياسة براندت الشرقية، التي تمثلت في جهوده لتطبيع العلاقات مع الاتحاد السوفيتي وبلدان الكتلة الشرقية الأخرى.[114]

وقع ثاني اعتذار يحظى بتغطية إعلامية واسعة في 1990 حين اعتذر القائد السوفيتي حينها ميخائيل غورباتشوف عن مجزرة غابة كاتين في الحرب العالمية الثانية في بولندا. ففي ربيع 1950، أُسر نحو 4,500 جندي احتياطي بولندي، من بينهم أطباء ومحامون وعلماء ورجال أعمال، ونُقلوا إلى غابة كاتين بالقرب من سمولينسك في روسيا الغربية. ثم كممهم الجنود السوفييت وربطوهم وأطلقوا عليهم النيران بأمر مباشر من جوزيف ستالين. وعقب اكتشاف جندي ألماني لتلك المقبرة الجماعية في 1943، اتهم الألمان السوفييت بارتكاب تلك المجزرة. وأنكر السوفييت مشاركتهم في تلك المأساة، وعلى ما يبدو أن الأمريكان والبريطانيين سايروا هذا الإنكار وحاولوا إلقاء اللوم على النازيين كجزء من بروباجندا الحلفاء الموجهة ضدهم. وقد «سُمع» اعتذار جورباتشوف نظرًا للتغيرات السياسية والاجتماعية العديدة التي بادر بها قبل اعتذاره. ولكن، في 1995، رفض بوريس يلستين أن يحضر مراسم تذكارية خاصة في موقع المجزرة، ما أدى إلى تأجيج العلاقات البولندية الروسية.

ورغم ذلك، بعد اعتراف جورباتشوف العلني لمسؤولية الاتحاد السوفيتي عن تلك المجزرة، بدأ مفهوم الاعتذار، إلى جانب مفهوم المغفرة، يجذب اهتمام الممارسين والباحثين الذين يتناولون العلاقات الدولية. وقد صار موضوعًا رائجًا للغاية في أوساط بعض الدوائر الحكومية، لا سيما بعد تشكيل لجنة جنوب أفريقيا للحقيقة والمصالحة (TRC) كوسيلة للتعامل مع الفظائع التي ارتكبت في فترة الفصل العنصري. وشملت العملية ضحايا يحكون قصصهم علنًا ويسامحون المعتدين عليهم الذين اعترفوا بأفعالهم واعتذروا عنها.

أضحى الحصول على اعتذار محسوس من المرتكب وتشجيع مثل هذا المرتكب بقوة على الاعتذار من خلال طرف ثالث محايد يُعد عنصرًا مهمًا في حل النزاعات الإثنية، والقومية، والدينية، والأيدولوجية بين الجماعات الكبيرة. ولذا، أضحى الناس يروجون لمفهومي الاعتذار والمغفرة، المرتبطين ارتباطًا وثيقًا بتعاليم دينية محددة منذ آلاف السنين[115]، باعتبارهما ممارسات دبلوماسية وسياسية. وانتشرت اللجان التي حذت حذو TRC في مناطق متفرقة من العالم. ولكن المشاكل –والإخفاقات– التي تواجه أولئك الذين يحاولون تقليد عمل TRC توحي بالحاجة إلى دراسة أعمق وفهم أفضل للأوقات والطرق التي يثمر بها الاعتذار والمغفرة عن نتائج.

رغم أنني كنت أعلم منذ وقت مبكر من سلسلة حوارات CSMHI أن الأطراف المتنازعة غير قادرة على تقديم اعتذار، وقبوله، ومسامحة الطرف الآخر دون إثارة الجدل، سلطت لي مساهماتي في إحدى مجموعات مفاوضات التصالح الضوء على المشاكل التي قد تقابل الفرد حين تكون الاعتذارات، والمغفرة، والنصب التذكارية جزءًا من الحوارات الدائرة بين جماعتين. وبدأت مشاركتي في تلك المفاوضات في أواخر تسعينيات القرن العشرين، حين اتصل بي صديقي غندوز أكتان، دبلوماسي محترف سابق سبق له شغل منصب سفير الأمم المتحدة في جينيفا، واليونان، واليابان، ووكيل وزارة الخارجية التركية. ومنذ تقاعده عن الخدمة العامة، أضحى غندوز صحفيًا بارزًا ورئيسًا لمركز أبحاث تركي مشهور. وكشخص لا يزال يتمتع بنفوذ كبير في تركيا، طلب مني غندوز أن أنضم له أنا وآخرون كأعضاء في لجنة

التصالح التركية الأرمينية (TARC) المشكلة حديثًا. وهدف تلك اللجنة –التي يرأسها وييسر جهودها شخص أمريكي– هو جمع ستة أتراك وستة من الأرمن في سلسلة من المقابلات على مدار عدة أعوام لمناقشة أحداث 1915 المأساوية، حين قُتل مئات الآلاف من الأرمن –وعدد كبير من الأتراك– على أيدي بعضهم البعض وبسبب المجاعات والأمراض. ونظرًا إلى أن كل طرف من الطرفين يحمل تفسيرات مختلفة تمامًا عن الآخر لما تسبب في تلك الأحداث، وما آلت إليه الأمور، وبالفعل، عدد الضحايا، كان الأمل المنشود من تلك المبادرة هو أنها ستؤدي إلى نوع من التصالح بينهما. وقد علمت أن كلًا من الوفود التركية والوفود الأرمينية شملت سياسيين متقاعدين ومسؤولين، إلى جانب رئيس وزراء تركي سابق ورئيس وزراء أرميني سابق.

كنت مترددًا في الانضمام إلى TARC لعدة أسباب. وأولها هو أن النقاش فيما يعرف بصفة عامة بـ«الإبادة الجماعية للأرمن» يعتريه الجدل والعداوة الممتدة لأجيال عديدة. ورغم أنني مهتم بتاريخ هذا الحدث نظرًا إلى أنه متداخل مع سيكولوجيا وهوية الجماعات الكبيرة، فأنا لست مؤرخًا ولا أعلم سوى القليل عن تاريخ العلاقات التركية الأرمينية. وقد أوقع النقاش حول هذا الوقت المضطرب والشنيع بالعديد من المؤرخين البارزين في عدد لا يحصى من البلدان لعقود طويلة، فكيف عساني أن أساهم في ذلك؟

والسبب الثاني هو أنني لم أكن مواطنًا تركيًا أبدًا. فقد ولدت في قبرص حين كانت الجزيرة مستعمرة بريطانية، ولذا حين هاجرت إلى الولايات المتحدة في 1957 كنت أحمل جواز سفر بريطانيًا. ثم صرت مواطنًا أمريكيًا في 1964 وقضيت معظم حياتي البالغة في فيرجينيا. ويعود تاريخ معرفتي الوحيدة بالأرمن وتعاملي معهم إلى أيامي المبكرة. فحين كنت ولدًا صغيرًا، كان جيران عائلتي من الأرمن، وقد تواصلنا مع بعضنا بعضًا بالتركية وكنا على وفاق معهم. وإلى جانب ذلك، كان معلم الكمان لدي، مونسنيور بيديليان، الذي أعجبت به منذ مرحلة ما قبل المراهقة وحتى في مرحلة المراهقة، أرمينيًا، وقد اعتدت العزف على الكمان على مسرح كنيسة أرمينية. في الواقع، حين كنت طفلًا ومراهقًا، لم أكن على

دراية بأي عداوة بين الأرمن والأتراك. ولذا فقد تساءلتُ عن مدى أهليتي لأن أكون عضوًا في TARC. ولكنني تيقنت من أن بقية أعضاء اللجنة لهم خلفيات مشابهة: فقد كان أحد المشاركين قائدًا أرمينيًا أمريكيًا لمجتمع أرميني في الولايات المتحدة، وكان آخر قائدًا لمجتمع أرميني في الاتحاد الروسي. في الواقع، عرفتُ الأخير من عملي السابق في العلاقات الأمريكية السوفيتية وعلاقات جمهوريات البلطيق بالاتحاد الروسي. وكان زملائي أعضاء اللجنة الأتراك على علم بأنني أمتلك معرفة شخصية ومهنية محدودة بالعلاقات التركية الأرمينية، ولكنهم رحبوا بيّ كشخص ذي خبرة في الدبلوماسية غير الرسمية وسيكولوجيا العلاقات الدولية.

راودني شعور بأن الأرمن كجماعة لم يتمكنوا من الحداد على موتاهم بصورة جماعية، وأن لديهم إحساسًا داخليًا بالاضطهاد، ما يجعل ذلك جزءًا بارزًا من هويتهم الجماعية المشتركة. وعلى ما يبدو أن معظم هويتهم قائمة على ما فعلته بهم أيادي أعدائهم في بداية القرن العشرين. وكنت أعلم أيضًا أن تلك الملاحظة لم تكن مستحدثة، ذلك أن الأرمن كتبوا بأنفسهم عن مثل هذا الشعور المشترك.[116] ورغم أنني لم أكن خبيرًا في أرمينيا، فلديّ بعض المعرفة عن جماعات أخرى تتسم بإحساس مشترك بهوية مضطهدة. وفي كتابي *سلالات: من الفخر العرقي إلى الإرهاب العرقي* حكيت قصة إحساس الصرب باضطهاد مستمر، والكيفية التي أعاد بها سلوبودان ميلوشيفيتش تنشيطه لتعزيز إحساس أحقيتهم بالانتقام.[117] ومن هذا المنطلق توقعت أن الأرمن سيجدون صعوبة في سماع اعتذار «الآخر» و/أو مسامحتهم، نظرًا إلى أن حركات مثل هذه تتطلب تعديلًا لهوية الجماعة الكبيرة القائمة، وذلك يؤدي، بدوره، إلى إثارة قلق جماعي.

ولم يمض وقت طويل حتى بدأت التعقيدات في المفاوضات تتصاعد. وبالفعل، برزت مشاكل متعلقة بالنصب التذكارية، والاعتذارات، والمغفرة على الفور في أول اجتماع أحضره لمنظمة TARC. وبدأ هذا الاجتماع الذي جرى في أوروبا بالبيان الآتي من الوفود الأرمينية: «تمكنا خلال العقود الماضية من جمع مبلغ هائل من المال، ونحن نخطط في استعماله لبناء

معلم تذكاري هائل في العاصمة واشنطن تخليدًا لذكرى الإبادة الجماعية للأرمن على يد الأتراك في 1915. إذا اعترفتم أنتم الأتراك بالإبادة الجماعية للأرمن واعتذرتم عنها، فسيمثل هذا المعلم الأتراك في صورة أفضل. أما إذا لم تعترفوا بالإبادة الجماعية للأرمن، فسيجعل النصب المُقترح الأتراك يبدون أشخاصًا بشعين للغاية. الاختيار بيديكم!» علمت حينها فورًا أن هذا الاجتماع أخذ منحنًا سيئًا من البداية، وأي أمل للحياد أو الموضوعية بين المشاركين سيكون صعبًا في أحسن الأحوال. ورغم ذلك، حاولت أن أراقب بعض الظواهر الجماعية الخفية وغير الخفية ذات الصلة بكلٍ من الأرمن والأتراك وأنا أحاول أن أظل محايدًا.

ومما لاحظته هو أن إحساس الهوية الجماعية للأرمن كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بهوية الأتراك الجماعية، ولم يكن له وجود أو لم يكن بإمكانه أن يكون موجودًا بشكل مستقل عن الهوية التركية. إذ يمتلك الأرمن بداخلهم «طابعًا تركيًا» –المرتبط في أذهان الأرمن بالإمبراطورية العثمانية– كجزء من هويتهم الجماعية. ولم تكن تلك ملاحظة غير متوقعة بالنسبة لي. فالجماعة الإثنية التي تعيش تحت حكم قوة أجنبية مركزية لعقود أو قرون تستوعب صورًا من الجماعة الإثنية السائدة التابعة لتلك القوة المركزية بداخل هويتها مع الحفاظ على هويتها الإثنية والثقافية والدينية الأساسية. ونفس الشيء ينطبق، على حد اعتقادي، على كل الجماعات، وليس فقط الجماعات المسيحية المختلفة التي عاشت تحت الحكم العثماني لعدة قرون. فحين تنهار إمبراطورية أو قوة مركزية، لن تتمكن الجماعة الإثنية المستقلة حديثًا من محو «الهوية المزدوجة» الداخلية التي تطورت مع مرور الزمن على نحو مفاجئ. وفي العادة يتحول جزء الهوية الجماعية المتعلق بالجماعة الحاكمة السابقة إلى «شر مطلق» والجزء غير «الملوث» إلى «خير مطلق». وينشأ صدام داخلي قوي بين الهويتين.

ويخرج هذا الجزء الذي يمثل «الشر المطلق» من الباطن ويُغرس في أحفاد الجماعة الحاكمة أو ورثة الإمبراطورية، ويخضع للمراقبة ويكافح ضده باستمرار. ولا أحد يصف ما أتكلم عنه هنا بشكل أفضل من الكاتب اليوناني المشهور نيكوس كازانتزاكيس. ففي كتابه

تقرير إلى غريكو، يشير كازانتزاكيس إلى طفولته في كريت ويعكس ما حدث لليونانيين الذين عاشوا لقرون كرعايا للإمبراطورية العثمانية. ويقول:

> أن نحظى بالحرية من الأتراك أولًا وقبل كل شيء، تلك كانت الخطوة المبدئية، ولاحقًا، بدأ كفاح جديد: *أن نحظى بالحرية من الأتراك الداخليين* (الخطوط المائلة مضافة) – من الجهل والحقد والحسد، من الخوف والكسل، من الأفكار البراقة الزائفة، وأخيرًا، من الأوثان، جميعها، حتى أكثر الأوثان تبجيلًا وشعبية... وقد احتدم (هذا الكفاح)، الذي تجاوز حدود كريت واليونان، في كل العصور والأماكن واجتاح تاريخ البشرية. فالمعركة القائمة الآن ليست بين كريت وتركيا، بل بين الخير والشر، النور والظلام، الله والشيطان. ولطالما كانت نفس المعركة الخالدة، ولطالما كانت كريت من يقف وراء الخير، خلف النور والله؛ ولطالما كانت تركيا من يقف وراء الشر، وراء الظلام، ووراء الشيطان.[118]

ولا بد من أن هويتي الأرمن المزدوجة كضحية ومضطهد كانتا قائمتين داخليًا، جنبًا إلى جنب في الخفاء، من أجل خلق هوية الأرمن المرئية. ووصف بعض المشاركين ممارسات تربية الأطفال في أرمينيا وفي العائلات الأرمينية في أماكن أخرى تبين الكيفية التي تُنقل بها هاتين الهويتين المتعايشتين إلى أطفال الأرمن بدءًا من عمر الثانية، حين يحكي لهم والديهم عن قصص الاضطهاد. وحين يكبر هؤلاء الأطفال، عليهم أن يخرجوا هذا الجزء التركي من ذواتهم الأساسية إلى السطح حتى يكونوا أحرارًا من الكفاح الداخلي بين الضحية والمضطهد. ولذا فإن الأرمن البالغين –وأنا أعمم هنا بالطبع– مُلزمون بتكريس حياتهم للانشغال بهذا الجزء العثماني/التركي الخارجي.

أوحى لي الإنذار الذي سمعته في الاجتماع الأول الذي حضرته في TARC، إلى جانب عدة ملاحظات أخرى من اجتماعات لاحقة، بأنه إذا حدث واعترف الأتراك حقًا بالإبادة

الجماعية للأرمن وكفلوا لهم حق الاعتذار، فسيعكر ذلك أساس الهوية الأرمينية الجماعية بدرجة كبيرة. وفي المقابل، سيحث ذلك حدوث اضطراب داخل المجتمع. ومن هذا المنطلق، خلصت إلى أنه قد تكون هناك جهود لاواعية وواعية مبذولة من جانب الأرمن للحفاظ على الوضع الراهن للعلاقة التركية الأرمينية الشائكة. وقد اعترف جميع أعضاء لجنة TARC الأتراك علانية بحدوث مأساة هائلة واضطهاد للأرمن في 1915، ولكنهم كلما حاولوا أن يعبروا عفويًا عن أي تعاطف مع معاناة الأرمن، بدا أنهم قُوبلوا فورًا بالرفض. فحتى حين طلب أعضاء اللجنة الأرمينيون التعاطف من الأتراك بوضوح وقوة، لم تكن هناك مساحة لقبول تعاطف أعضاء اللجنة الأتراك. وعلمت أن مئات رسائل البريد الإلكتروني ورسائل الهاتف أُرسلت من أرمينيا والشتات الأرميني إلى أعضاء اللجنة الأرمينيين، والمنظمات الأرمينية، والإعلام الأرميني تحث أعضاء اللجنة الأرمينيين على عدم تقويض الضغط العالمي على تركيا من خلال تكوين صورة إيجابية عن المشاركين الأتراك، وعن الأتراك بصفة عامة (تفقد الرابط الآتي على سبيل المثال: www.asbarez.com/Tarc/Tarc.html) ولم تحدث ظاهرة مشابهة من الجانب التركي ضد أعضاء اللجنة الأرمينيين أو الأرمن بصفة عامة.

ولكن ذلك لا يعني أن الجانب التركي من TARC لم يكن يخلو من مشاكل متعلقة بالهوية الجماعية. ومن المشاكل القائمة صمت المجتمع التركي بشأن ما حدث للأرمن في ظل الإمبراطورية العثمانية حين بدأت في الانهيار، وكما سأصف لاحقًا، صمت الأتراك بشأن ما حدث لأنفسهم في نفس الوقت. وقد كان أعضاء اللجنة الأتراك يمثلون مجتمعًا «صامتًا» مثل هذا، وكان من الصعب عليهم أن ينشقوا من معيار اجتماعي قائم بالفعل.

وكما ذكرت، نشأت في قبرص بصفتي تركيًا. ورغم أنني كنت أعرف عددًا من الأرمن، لم أكن واعيًا أبدًا بأي عداوة بين هذين المجتمعين. وحين انتقلت إلى تركيا في نهاية فترة مراهقتي لدراسة الطب، لم يتكلم أحد عن الأرمن. وكان أحد أساتذتي في كلية الطب تركيًا أرمينيًا، ولكن لم يبدو أن أحدًا أبدى أي اهتمام بإثنيته.[119] وعم الصمت بشأن «المشكلة الأرمينية». في الواقع، لم أعلم بمدى انتشار تلك «المشكلة» قبل ذهابي إلى أمريكا في 1957.

وفي بداية حياتي المهنية كطبيب نفسي، حين حضرت اجتماعًا مهنيًا، جلست إلى طبيب نفسي آخر بنفس عمري. وحين عرف أنني تركي من قبرص، قال لي أنه أرميني أمريكي وأنني أول تركي يقابله على الإطلاق. ولن أنسى أبدًا خوفه مني. فقد بدا لي كولد صغير ينظر إلى أكثر الوحوش رعبًا من مخيلة طفولته.

وفي وسط المشاركين الأرمينيين والأتراك في TARC، كان إدراك سبب الصمت مختلف بدرجة كبيرة، ما يجعل الحوار التعاطفي بينهم أمرًا صعبًا للغاية. فبالنسبة إلى الأرمن، سبب صمت الأتراك بسيط للغاية: فالأتراك يشعرون بالذنب ولذا لن يتكلموا عما فعله أسلافهم العثمانيين بالأرمن. ولكن تلك لم تكن تجربة المشاركين الأتراك. إذ كان تصور الأتراك عن صمتهم له علاقة كبيرة بعجزهم عن الحداد على موتاهم خلال القرن الأخير من الإمبراطورية العثمانية. فمنذ 1821، أو بداية التمرد اليوناني على الإمبراطورية العثمانية، وحتى 1922، نهاية حرب الاستقلال التركية، شُرد ما يُقدر بنحو 5 ملايين تركيًا وغيرهم من الرعايا المسلمين قسرًا من بيوتهم إبان الحروب المتكررة في البلقان والقوقاز مع تقلص حجم الإمبراطورية العثمانية. وقد أُجبر هذا العدد المهول من الناس على الهجرة إلى قلب تركيا، الأناضول، من قبل رعايا الإمبراطورية السابقين غير المسلمين، بمساعدة الأوروبيين والروس المسيحيين. وطبقًا للتقديرات، قُتل خمسة ملايين فردًا آخرين.[120] وعززت البروباغندا الأوروبية من فكرة أن العثمانيين يعيدون الأراضي التي احتجزوها لقرون لملاكها الشرعيين، ما خلق خلفية وتبريرًا «أخلاقيًا» لـ«نسيان» الخمسة ملايين فرد الذين تعرضوا للنفي، والخمسة الملايين الآخرين الذين قُتلوا.

وما زاد الأمور تعقيدًا وحرم الأتراك من الحداد على فقدانهم إمبراطوريتهم، وأهلهم، وبيوتهم، وهيبتهم هو ولادة الدولة التركية الحديثة بقائدها الجذاب، مصطفى كمال أتاتورك. فمن أجل خلق تركيا جديدة، حارب الأتراك القوميين الأتراك الآخرين الموالين للسلطان. أي بعبارة أخرى، كانت الصورة التي كونها الأتراك الجدد عن السلطان –وبالتبعية العثمانيين– صورة «سيئة». وفي الفترة الأولى من تركيا الحديثة، قُدرت نواحي مختارة فقط من الماضي

العثماني، وتعرضت الأجزاء الأخرى للإنكار. وعم صمت شامل عن الخسائر، وعن الحداد عليها، وعن المعاناة الشديدة، كما لو كانت تركيا الجديدة وقائدها الجذاب كافيين، ولم يكن لديهم وقت إضافي لوضع حل لذكريات ومشاعر كريهة بطريقة أو بأخرى. إذن فقد كان الصمت الخاص بما حدث للأرمن في 1915 جزءًا من هذا الصمت الأعم.

أتذكر أن أعضاء اللجنة الأتراك أضحوا واعين بذلك حين كانوا وحدهم خلال استراحة من الاجتماع. وأدركوا فجأة أن كلهم، باستثناء واحد فقط عاش أسلافه دائمًا في الأناضول، كانوا أطفالاً لأتراك أجبرهم رعايا الإمبراطورية العثمانية السابقين المسيحيين على ترك منازلهم. وأنهم قد حُرموا جميعًا من الحداد على منازلهم، إذ لم يشتكي أسلافهم قط من نفيهم القسري. وكان هذا أمرًا مختلفًا تمامًا عما سمعناه عن بيوت الأرمن، حيث ظلت الجروح مكشوفة. وقد أُحبطت محاولة مشاركة تلك الملاحظة مع الأعضاء الأرمينيين في مهدها، وذلك لأن أسلوب هذا الاجتماع تحت تنظيم المسهل الأمريكي –تلميذ لما يُدعى استراتيجية «الفوز المشترك» العقلانية لحل النزاع– لم يكن ملائمًا لتسليط الضوء على اعتبارات نفسية مثل هذه. ولذا لم يكن التواصل التعاطفي ممكنًا.

وقد شعر الأعضاء الأتراك أيضًا بأن الأرمن يشبّهون مأساتهم بشكل واعي بالهولوكوست. فقد أنفق الأرمن عقودًا من الزمن في بلورة هذا النموذج وجعله «واقعهم النفسي» المشترك. ولم يسمحوا بأي نقاشات توضح الفروقات الهائلة بين ما حدث في ألمانيا النازية وما حدث في الإمبراطورية العثمانية أثناء انهيارها، والنواحي التي تتشابه فيها الإبادة الجماعية لليهود تحت الحكم النازي مع مذابح الأرمن والنواحي التي تختلف عنها أيضًا. فالمشكلة لم تكمن في إنكار المأساة، بل في التشكيك في كيفية تعيين اسم لها.

وبعدما صرت عضوًا في TARC، قرأت الكثير عما حدث في 1915 من المصادر الأرمينية والغربية. وقرأت الكثير أيضًا من المصادر العثمانية التي طُبعت بالأبجدية الجديدة عقب ولادة الجمهورية التركية. وخلصت إلى أن المأساة، من ناحية تاريخية، كانت بالفعل معقدة للغاية، وأن ترتيب الأمور يستلزم فعله بحذر من المؤرخين من كلى الجانبين تحت

إشراف طرف ثالث محايد مع إتاحة كل الوثائق لفحصها من قبل كل طرف. وأدركت أيضًا أن ذلك لن يحدث على الأرجح في ظل التجسيد الحالي لمنظمة TARC نظرًا للملاحظات التي دونتها أعلاه. وخلصت أيضًا إلى أنه لا بد من استكشاف مأساة كبيرة مثل هذه –بصرف النظر عن أسبابها وعن الطرق المختلفة التي يتصورها كل طرف من الطرفين المتضادين– أولًا برفق وبهدوء حتى نخلق مساحة للتواصل التعاطفي. وبدون وجود مناخ كهذا، اعتقدت أن نقاشات TARC ستصدم بطريق مسدود.

وكما لاحظتُ، لم يكن نهج «الممثل العقلاني» الذي يتبعه الأمريكي المسؤول عن اجتماعات TARC –وحتى يومنا هذا لا أعلم من أين جاءت الأموال التي دعمت تلك الأنشطة– ملائمًا لخلق مناخ كهذا. وحتى نحرز تقدمًا حقيقيًا، لا بد من أخذ المقاومات النفسية في الاعتبار حتى «يسمع» الأعضاء بعضهم بعضًا، ولكن المسهل الأمريكي اختار بدلًا من ذلك أن يحول تلك الاجتماعات إلى جلسات مفاوضة. وبعد عدة سنوات، استقلت من TARC رغم أنني استحدثت رغبة حقيقية في أن أقدم بعض العون في تحسين العلاقات التركية الأرمينية. وعلمت أيضًا بوجود اجتماعات أكثر نجاحًا بين الأتراك والأرمن على المستوى الشعبي، ووددت لو أن كل تلك الأموال والجهود أُنفقت على نموذج أكثر فعالية من المفاوضات غير الرسمية، مثل تلك التي سأصفها في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

وعقب استقالتي من TARC، لحق بي غندوز، ومن ثم استقال كل أعضاء اللجنة الأتراك منها باستثناء واحد، ورغم ذلك دُعي أعضاء جدد للمشاركة واستمرت اجتماعات TARC. وعلى حد فهمي، لم تطرأ أي تطورات مهمة في تلك الاجتماعات اللاحقة. ولكن، في مارس 2005، اقترحت الحكومة التركية، بدعم كامل من الحزب المعارض في البرلمان التركي، مبادرة تسعى إلى جمع المؤرخين الأتراك والأرمينيين سويًا للتحقيق المشترك في المحفوظات الوطنية في إطار بعثة كاتب عدل من منظمة دولية خارجية، مثل اليونسكو. وحتى الآن، أبدت الحكومة الأرمينية والمجتمع الأرميني الداخلي الأوسع مشاعر باردة تجاه مقترح التحقيق العلمي هذا.

لم أكن متفاجئًا بوجود مقاومة لمجرد التحليل التاريخي للتاريخ الأرميني والتركي، وذلك لأن التاريخ والهوية الجماعية أصبحا متداخلين بشكل وثيق جدًا عبر الأجيال. وحين تعجز جماعة تعرض للصدمة عن إبطال إحساسها بالعجز والإهانة، وحين تعجز عن خوض مهمة الحداد بشكل فعال، تنقل تلك الجماعة تلك المهام النفسية غير المنتهية للأجيال المستقبلية. وقد وضح المحللون النفسيون وخبراء الصحة النفسية الكيفية التي تحدث بها عمليات النقل العابرة للأجيال مثل هذه، ولا سيما في دراسات عديدة عن أطفال وأحفاد الناجين من الهولوكوست.[121] وباختصار، تنتقل مثل تلك المهام في الأغلب من خلال أنماط الوالدين السلوكية، والإيماءات الجسدية، وغيرها من وسائل التواصل غير اللغوية، ومنح الطفل الحنان أو حرمانه منه إذا تصرف الطفل بطرق محددة. وبعبارة أخرى، تحدث عمليات النقل مثل هذه في أغلب الأحيان بشكل واعٍ في إطار العلاقة بين الطفل والأبوين (أو الطفل والراعي).

ورغم الاختلاف الفردي لكل طفل في الأجيال المتعاقبة، ففي جماعة كبيرة تعرض أسلافها لصدمة هائلة وخسائر بالغة على يد العدو، يُكلف أطفال الأجيال التالية بمهام أولية مشابهة: استكمال عملية الحداد على الموتى، وإبطال الخزي والإهانة، وتحويل السلبية إلى تأكيد الذات. وبما أن كل تلك المهام متعلقة بالتمثيل الذهني لنفس الحدث الذي يخلق صدمة نفسية هائلة، يربط التمثيل الذهني لهذا الحدث أفراد الجماعة ببعضهما بعضًا بطريقة غير مرئية. وبعد عدة قرون يتطور هذا التمثيل الذهني للحدث إلى علامة لهوية الجماعة الكبيرة. وأدعو تلك الصدمات التاريخية صدمات مختارة[122] – أي أن الصورة التاريخية لتلك الصدمة «مُختارة» لتمثيل جماعة بعينها. يخلد التشيك ذكرى معركة بيلا هورا من عام 1620، التي أدت إلى خضوعهم لإمبراطورية هابسبورغ لما يقرب من ثلاثمائة عامًا. وفي الولايات المتحدة، يستذكر هنود لاكوتا الذكرى السنوية لهلاكهم عام 1890 في ووندد ني. ومتى يغدو الحدث صدمة مختارة للأجيال التالية، لا تعود الحقيقة التاريخية المشكلة الحاسمة لتلك الجماعة. والمهم هو أنه، من خلال مشاركة الصدمة المختارة، يرتبط أفراد الجماعة

ببعضهم بعضًا. وتصبح الصدمة المختارة، باعتبارها «علامة هوية» حاسمة، مهمة في حياة الجماعة الكبيرة.

وقد تقوم الجماعات الكبيرة بأمور مختلفة مع تلك المهام المخولة لهم، وذلك يعتمد على الظروف التاريخية. فمثلًا، قد تشارك الأجيال اللاحقة في عداوات مع الجيران المنحدرين من سلالة المضطهِدين ويمثلون المضطهِدين الأصليين رمزيًا. وإذا سمحت الظروف الخارجية السياسية أو العسكرية لأحفاد الجماعة المضطهَدة أن تحظى بقوة عسكرية أو سياسية، فمن المحتمل أن يخوضوا مواقف مشابهة للحروب أو أن يصبحوا شوكة سياسية في حلق «العدو». ولا أقصد بذلك أن صدمة الجماعة الكبيرة المختارة تتسبب في الحروب أو ظروف مشابهة للحروب. بل ما أعنيه أنه حين يُعاد تنشيط تلك الصدمة فمن شأنها أن تأجج نزاعًا ما.

حين يتداخل التاريخ، والخرافة، وهوية الجماعة الكبيرة مع الصدمة والحداد المعقد، فمن شأن النصب التذكاري أن يعيد تنشيط صدمة جماعة كبيرة مختارة بنتائج كارثية. فمثلًا، حين كان سلوبودان ميلوشيفيتش يثير المشاعر القومية بين الصرب بعد 1978، كان له دور فعال –بمساعدة بعض المفكرين الصربيين وغيرهم من الكنيسة الصربية– في بناء معلم كبير على تل يطل على ساحة معركة كوسوفو. وقد وقعت معركة كوسوفو في 1389 بين الصرب والعثمانيين. وعلى مر القرون، أضحى التمثيل الذهني لتلك المعركة –وللقائد الصربي الأمير لازار الذي قُتل في تلك المعركة– الصدمة الصربية المختارة البارزة. وكان بناء معلم في الذكرى الست مئوية لهذا الحدث مصممًا لكشف جروح الصرب التي بلغ عمرها قرونًا وخلق أعداء جدد. وفي تلك الحالة، اُستبدل العثمانيون بالبوسنيين والألبانيين في العقل الصربي.

ومعلم كوسوفو، الذي يقف بارتفاع مائة قدم فوق ساحة المعركة، مصنوع من الحجر الأحمر، ما يمثل الدم.[123] وأطلق الصرب على الزهور التي نمت في ساحة المعركة «الزهور الحزينة»، نظرًا إلى أن وزن زهراتها تجعلها تبدو كما لو أن رأسها منحنية. ويحاط بالمعلم

أعمدة إسمنتية على شكل القذائف المدفعية، وعلى كل عمود تجد سيفًا منحوتًا بداخلها إلى جانب التواريخ 1389–1989. وينبغي أن نتذكر أن نصب قدامى حرب فيتنام التذكاري يحمل الأعوام من 1959 إلى 1975، مشيرًا إلى الإطار الزمني للحرب الفعلية. ولكن، على النقيض من ذلك، توحي التواريخ المحفورة في معلم كوسوفو أن الحرب لا تزال قائمة، وأنه لم يُبنى لإنهاء عملية حداد الصرب البالغة من العمر ستمائة عامًا، بل لإعادة فتحها. ولم تكن النية منه السماح بأفكار المغفرة، بل الحث على الانتقام من الأعداء الحاليين الذين يمثلون الأعداء الأصليين نفسيًا.

ولا أريد أن أرمي إلى أن بناء معلم كوسوفو أدى إلى المآسي التي وقعت في يوغوسلافيا السابقة بطريقة ما. ولكني أعتقد أن هذا الهيكل يعبر رمزيًا عن مشاعر انتقلت عبر الأجيال. وقد أُوقظت مشاعر الاضطهاد من «سباتها» على يد القادة الإثنيين القوميين من خلال هذا المعلم ومجموعة متنوعة من الوسائل الأخرى. وسأقدم معلومات تفصيلية عن ذلك لاحقًا، ولكني من خلال التركيز في هذا الفصل على الكيفية التي تتفاعل بها جماعة مع نصب تذكارية تكرم الموتى وتذكرهم بصدمتهم، حاولت أن أسلط بعض الضوء على السيكولوجيا المعقدة القائمة بين الجماعات الكبيرة المتنازعة. ومن شأن تلك العوامل بدورها أن تؤثر على السياسات السياسية. ولذا، في العلاقات الدولية، ينبغي ألا ينصب التركيز على فعل اعتذار واحد (سحري ظاهريًا)، أو طلب المغفرة، أو زيارة مكان العدو الساخن. بل ينبغي أن يكون على تطوير استراتيجيات تساعد عملية حداد الجماعة المضطهدة، وعلى تعديل مثل تلك العمليات من أجل ترويض مشاعر الانتقام، وعلى تعزيز الإحساس بالتعايش السلمي، وعلى خلق مناخ سياسي يجد فيه المضطهد والضحية مبررًا لنوع جديد من القرابة.

9 مسيرة موت باتان ورحلات قتل الحيوانات

إن الاستجابات المجتمعية المتنوعة للصدمات الجسيمة على أيدي «الآخرين»، بما فيها بناء النصب التذكارية التي قدمت أمثلةً عليها في الفصلين السابقين، ترتبط بمحاولات إقامة الحداد على الخسائر وإصلاح الهوية المجروحة للمجموعة الكبيرة. يمكننا الآن تحويل انتباهنا إلى نوع مختلف من الاستجابات المجتمعية، وهو النقل العابر للأجيال لمهمات نفسية محددة، تسلم إلى نسل المجموعة المتضررة، كما لو كانت هذه المهمات ستعنى بإكمال حداد الآباء غير المكتمل ونشاطات الإصلاح غير المنتهية. لشرح مفهوم النقل العابر للأجيال، سأصف في هذا الفصل بشيء من التفصيل كيف يمكننا ملاحظته في الفرد. وبمجرد أن نرى أن هناك شيئًا يدعى نقلاً عابرًا للأجيال، سأركز في الفصل التالي على إمكانية أن تصبح عمليات النقل المشتركة العابرة للأجيال في المجموعات الكبيرة عوامل بارزة في الحركات المجتمعية، و/أو السياسية، و/أو التاريخية.

هناك اختلافات في عمليات النقل العابرة للأجيال، وكما سنرى، فإن بعض الأنواع أكثر ملاءمةً للمشاركة ولبدء عملية مجتمعية، و/أو سياسية، و/أو تاريخية. ولكن كل أنواع النقل العابر للأجيال لديها شيء مشترك: فهي تعتمد على النفاذية في الحد النفسي بين الأطفال وأمهاتهم أو الأشخاص المهمين الآخرين ممن يقدمون الرعاية لهم. يمكن أن تمر

مشاعر القلق والمشاعر الأخرى، والخيالات غير الواعية، والأماني، وسبل الدفاع ضد هذه الأماني إلى الوعي النامي لدى الطفل بنفسه. يلاحظ المحللون النفسيون مثل هذه الظواهر منذ عقود.

أظهرت دراسة من أوائل أربعينيات القرن العشرين أجرتها المحللتان النفسيتان المعروفتان آنا فرويد ودوروثي برلنغهام كيف أنه، في أثناء الهجمات الألمانية على لندن في الحرب العالمية الثانية لاحظ بعض الأطفال بقلق القائمين على رعايتهم، وبدورهم، أصبحوا قلقين هم أيضًا. إذا بقي الأمهات ومقدمو الرعاية هادئين، لن يشعر الأطفال بالقلق.[124] لاحقًا، في منتصف ستينيات القرن العشرين، كان هاري ستاك سوليفان شخصًا بارزًا في مجال التحليل النفسي، وكان يدرس بشكل خاص الأشخاص الذين يعانون من مرض انفصام الشخصية. ركزت نظريته الخاصة بانفصام الشخصية في المقام الأول على إمكانية انتقال قلق الأم بطريقة سامة إلى الطفل.[125] في أواخر ستينيات القرن العشرين، وضحت ملاحظات مارغريت مالر عما يدعى الطور التكافلي لنمو الطفل (في الفترة نحو ما بين أربعة أسابيع وخمسة أشهر من العمر) كيف يمكن في مناطق معينة، أن يدمج الطفل وأمه صورهما العقلية ووظائفهما العقلية ويتصرفا كما لو كانا وحدةً واحدة. يمر الطفل ما بين خمسة أشهر إلى ستة وثلاثين شهرًا من عمره فيما يدعى بأطوار الانفصال – التفرد ليصبح،

من ناحية نفسية، فردًا في حد ذاته أو ذاتها.[126] أشار باحثون أكثر حداثةً في ثمانينيات وأوائل تسعينيات القرن العشرين أيضًا إلى كيفية مرور المشاعر و«الرسائل» النفسية عبر الحد النفوذ بين الأم والطفل.[127] أخيرًا، بدأ مشروع بحث مخبري ما يزال قائمًا في كلية كوبيو للطب في فنلندا بتقديم أدلة وافرة على عمليات النقل عبر الأجيال وأسسها النفسية.[128]

تظهر بعض تقارير الحالة السريرية أيضًا بوضوح إمكانية تفسير الأعراض التي يعاني منها الفرد بالشكل الأفضل، أو على الأقل بشكل جزئي، بدراسة ما مر عبر «الحد» النافذ بين الأم والابن. مثلًا، وصفنا أنا والطبيب النفسي أسعد المصري اعتقاد عابرة مؤنثة للجنس بأنها رجل وأن جلدها لو فتح سحابه كما تفتح الثياب لظهر قضيب من بين ساقيها. عملنا أيضًا مع أم هذه العابرة جنسيًا وتمكنا من إظهار أن هذه العابرة جنسيًا كانت تعكس بشكل أساسي خيال أمها اللاواعي بأن ابنتها كانت قضيبًا ذكريًا، وقد نقلت الأم هذا الخيال اللاواعي إلى ابنتها. عندما أنجبت طفلتها، التي أصبحت عابرةً جنسيًا في المستقبل، كانت تعيش في بلد أجنبي مع زوجها الذي كان يشارك في نشاط عسكري شبه سري وكثيرًا ما كان بعيدًا عن المنزل. شعرت الأم الشابة بالإحباط، والقلق، والانتكاس، وكانت تريد بعض المتعة. لذا، كانت تضع ابنتها الرضيعة بين ساقيها وتمارس العادة السرية كما لو كانت ابنتها

الرضيعة بديلاً عن القضيب. بعد فترة كان خيالها عن كون رضيعتها الأنثى قضيبًا قد تعمم إلى درجة أنها كانت تغطيها بالبطانيات عند الخروج إلى الأماكن العامة كما يغطي البالغون القضيب ويخبئونه في الأماكن العامة. لم تكن ابنتها تعلم قصة أمها من قبل، ولكن خيال الأم نقل، واقعًا، إليها لأن الابنة كبرت وهي تعتقد أنها تمتلك قضيبًا.[129] في حالة أخرى، سجلت أنا وعالم النفس روبرت زوكرمان كيف مررت أم بعمود فقري مشوه الصورة الذهنية لمشكلتها الجسدية إلى ابنها الذي، بدوره، تصرف كما لو كان عموده الفقري مشوهًا.[130] هناك أمثلة وفيرة على حالات سريرية كهذه.[131]

بأخذ نفاذية الحد النفسي بين الطفل والأم أو مقدم رعاية آخر في عين الاعتبار، فإن تركيزي في هذا الفصل سينصب على ما أسميه إيداع الصورة الذاتية للبالغين أو الصور الداخلية للأشخاص الآخرين في الذات النامية للطفل.[132] الإيداع نوع محدد من النقل العابر للأجيال يرتبط بشكل وثيق بمفهوم التعريف المعروف جيدًا. لكن يختلف اختلافًا كبيرًا من بعض النواحي عن تحديد الهوية. في تحديد الهوية يكون الأطفال الشركاء الفاعلين الأساسيين؛ فهم يأخذون (بشكل غير واعٍ غالبًا) جوانب من شركائهم البالغين وبعض وظائف الشركاء البالغين، ويستوعبون ما يأخذونه، ويجعلونه خاصًا بهم. هناك تحديد صحي وغير صحي للهوية. في عملية الإيداع، يدفع الشخص البالغ بشكر فاعل أكثر الصور

الذاتية المحددة والصور المعكوسة داخليًا للآخرين لتنمية ذات الطفل. بكلمات أخرى، يستغل البالغ الطفل، بشكل غير واعٍ غالبًا، كمستودع لصور ذهنية معينة تنتمي إلى ذلك الشخص البالغ. على الرغم من أن الطفل، الذي يصير مستودعًا، ليس شريكًا متلقيًا سلبيًا بالكامل، فإن الطفل ليس من يشرع بنقل الصور مع الوظائف المرتبطة بها؛ بل البالغ هو من يبدأ هذه العملية.[133]

من المجالات التي يمكن فيها شرح مفهوم الإيداع بشكل واضح ما يرتبط بما يسمى ظاهرة «الطفل البديل».[134] تخيل أن أمًا لديها صورة داخلية مكونة عن طفلها الذي يموت فجأة، مثلًا، بعمر ثلاث سنوات. هي تودع هذه الصورة في الذات النامية لطفلها الثاني، الذي يولد عادةً بعد موت الطفل الأول. ليس لدى الطفل الثاني، الطفل البديل، خبرة فعلية مع أخيه المتوفي، ولا صورة لهذا الطفل المفقود. الأم، التي لديها صورة للطفل الميت، تعامل الثاني كمستودع يمكن فيه أن يبقى الطفل الميت «حيًا». وفقًا لذلك، تعطي الأم الطفل الثاني مهمات أنانية معينة لحماية ما أودعته في هذا الطفل الثاني والحفاظ عليه. وضوحًا، ينمي الأطفال البديلون أيضًا وظائفهم الأنانية الخاصة للتعامل مع ما دفع إلى داخلهم. مثلًا، يشغل الأطفال البديلون أنفسهم بمهمة مكامَلة الصورة المودعة مع ما تبقى من تمثيلهم للذات. وقد ينجحون في فعل ذلك أو لا ينجحون.[135]

قد يدفع بعض البالغين أيضًا بشكل فاعل، ولكن غير واعٍ في معظمه، صورهم الذاتية المتأذية بالصدمات النفسية، ترافقها أحيانًا صور داخلية للآخرين الذين لعبوا دورًا في الصدمات، إلى الذات النامية للأطفال الخاضعين لرعايتهم. تنتمي الذكريات الفعلية الخاصة بالصدمات إلى البالغين؛ أما الأطفال المستودعون فلا تكون لديهم تجربة مع الصدمة. لا يمكن نقل الذكريات الفعلية الخاصة بشخص ما إلى آخر، ولكن يمكن للشخص البالغ أن يودع الصور المتأذية بالصدمات في ذات الطفل. بتأدية فعل الإيداع، فإن المودع يصدر الصور المضطربة خارجيًا إلى شخص آخر. وبشكل موافق، يهدف المودع إلى أن يتحرر من حمل الصور المضطربة داخليًا و، لحد ما أو لآخر، يتعامل مع الصراعات الذهنية والقلق المصاحب لهذه الصور. من جانب آخر، يعطى الطفل المستودع «مورثةً» نفسية تؤثر على تمثيل الذات، وبالتالي على حس الطفل بالهوية. بعد إيداع الصور المضطربة في الطفل يوجه المودع أيضًا، بشكل غير واعٍ في معظمه كذلك، ليشارك في مهمات معينة للمحافظة على ما أودع فيه. يوجه المودع الطفل أحيانًا لفعل شيء أو آخر، أو أن يطور خصلة شخصية أو أخرى لأجل أن يعدل ما يحمله الطفل الآن أو يشفيه. «ي/تتحكم» البالغ/ة بمعنى ما بما ينتمي في الأصل له أو لها وهو الآن «ظاهر هناك» في الطفل.

عندما يأتي الأفراد الذين كانوا يحتفظون بالصور المودعة خلال طفولتهم إلى التحليل، سترتكز مقاومتهم للعملية التحليلية وللتحسن في وقت ما حول مواجهة احتمالية التوقف عن لعب دور المستودع، أو على الأقل تعديل هذا الوضع، ما يغير حسهم بهويتهم الموجودة. إن تجاهل أو تعديل ما أودع في الذات يؤدي إلى القلق تجاه تغير هوية المرء الشخصية، وفقدان الصلة بتمثيل الأم أو غيرها ممن لعب دور المودع من مقدمي الرعاية، ويؤدي حتى إلى «قتل» المودع. لذلك، تطفو مقاومة ضد التحسن. عندما يحدث هذا في أثناء عملية التحليل النفسي، يصلح مفهوم النقل عبر الأجيال واضحًا. الانتقالات مشتركة بين كل الأطفال أو معظمهم في مجموعة كبيرة تعرضت للصدمة النفسية على أيدي أعدائها، وسأعود في الفصل القادم إلى مفهوم الصدمة المختارة التي وصفت مسبقًا في الفصل السابق. ولكنني أريد أولًا أن أشرح مفهوم النقل العابر للأجيال بدراسة حالة.

قبل حرب الخليج التي أعقبت غزو العراق للكويت، أتى عالم نفس/محلل نفسي خبير يدعى د. بول (ليس اسمه الحقيقي) من مدينة أخرى ليراني في تشارلوتسفيل، فيرجينيا، حيث أعيش. كنت قد التقيت به قبلها، ولكنني لم أكن أعرفه جيدًا. وقد وصف لي كيف تعرض لفقد مروع وغير متوقع جعله مكتئبًا بما يكفي ليتوقف عن العمل لنحو عامين. قال إنه أعاد فتح مكتبه مؤخرًا ومن الناس الذين أتوا إليه طلبًا لمساعدته رجل سندعوه بيتر. على ما يبدو،

فإن بيتر كان قد اختار اسم المحلل النفسي من دليل هاتفي. من خلال استماعه لبيتر، شعر الدكتور بول أن طفولة المريض المضطربة تذكره بجوانب من طفولته الخاصة به نفسه. اعتقد أنه في الماضي، قبل الفقد العظيم غير المتوقع، كان ليتمكن من التعامل مع التشابه بين قصص طفولته وقصص طفولة مرضاه. ولكن بعد الاكتئاب الحديث الخاص به نفسه، لم يكن واثقًا تجاه العمل مع بيتر دون استشارة. كان قد قرأ بعض كتبي التي تتناول اضطرابات الشخصية، لذا سألني د. بول إن كان بإمكانه أن يستشيرني بينما يعالج بيتر. ورغم أن قصة د. بول ليست محط تركيزي هنا، فإنني ذكرت ما سبق بشكل رئيسي لأذكر كيف أصبحت منغمسًا في العملية وعلاقتي بالدكتور بول. انتهى الأمر بي وبالدكتور بول بأن صرنا نلتقي مرةً في الأسبوع في خلال تحليل بيتر الذي استمر خمس سنوات، رغم أنه كان على د. بول أن يسافر لمسافة معتبرة ليأتي لزيارتي.

أشرت إلى حالة بيتر في مكان آخر،[136] ولكنني هنا سأقدم تفاصيل لم تكن متاحةً قبل. باختصار، كان تمثيل بيتر الذاتي مستودعًا لصورة زوج أمه الذاتية المضطربة، كما سأظهر قريبًا. كان زوج أم بيتر، غريغوري، بحارًا أمريكيًا في الحرب العالمية الثانية عمل في غواصة وكان مسؤولًا عن طوربيداتها. أمسك به اليابانيون وهو متمركز في الفيليبين وأجبر على المشاركة في مسيرة الموت المرعبة في باتان في ربيع عام 1942، حين أجبر

76,000 أمريكي وفيليبيني بالأسواط والأسلحة على المشي خمسين أو ستين ميلًا في الشمس الحارقة. مات نحو 20,000 سجينًا، 11,600 منهم أمريكيون. بعد ذلك، كان غريغوري في معسكر اعتقال ياباني حتى نهاية الحرب، حيث تعرض لقسوة لا تصدق. شاهد قطع رؤوس زملائه السجناء بالسيوف؛ ودفن أصدقاءه الموتى في قبور ضحلة وأعاد دفنهم عندما أعادت الفيضانات جثثهم إلى السطح. خضع لفقدان الحيلة وإهانة الكرامة وعانى أيضًا من العديد من الأمراض الجسدية.

بعد عودته إلى الولايات المتحدة بقليل، نحيلًا، متعبًا (كان قد فقد خمسةً وستين رطلًا خلال اعتقاله)، شعر غريغوري بالود تجاه امرأة كان زوجها قد تركها عندما كان ولدهما الوحيد، بيتر، يبلغ من العمر ثلاثة أسابيع فقط. انتقل غريغوري في النهاية للسكن معها، ومع بيتر، ومع أمها بعد عيد ميلاد بيتر الثالث بقليل. في طفولة بيتر المبكرة، بقي غريغوري في المنزل بينما ذهبت المرأتان للعمل، ما جعله يأخذ الدور الأبوي الرئيسي بالنسبة لبيتر. وبعد فترة قليلة، تزوج غريغوري أم بيتر وتبنى بيتر كابن له. انتقل هو، وزوجته، وبيتر إلى منزل جديد، تاركين وراءهم جدة الطفل، التي توفيت عندما كان بيتر في سنين ما قبل المراهقة. وفقًا لبيتر، نادرًا ما تحدث زوج والدته عن تجاربه المريعة في الحرب عندما كان

بيتر طفلًا. كان جيدًا مع بيتر واستمر في كونه مقدم الرعاية الأساسي لبيتر. كان بيتر الصغير يعتبر غريغوري بطلًا.

قبل ظهور غريغوري على الساحة، كانت أم بيتر وجدته غاضبتين بشكل عام تجاه الرجال. عندما تركها زوجها الأول، تحول غضب والدة بيتر الفظيع بشكل لا واعي في معظمه إلى ابنها وتدخل في استقلالية الطفل النامية. في تشكيل انفعالاتها، أطعمته أكثر مما يجب، بل أجبرته على تناول الطعم حتى، ما جعل الصبي الصغير مفرطًا في السمنة. في السنة الخامسة –خلال طور الإنهاء– من تحليله عند د. بول، بدأ بيتر بمراجعة ما تعلمه خلال تحليله. في حلم، رمز لحياته مع والدته وجدته بالعيش تحت قبة مع مرأتين بدتا مخلوقتين فضائيتين عدوانيتين/جنسيتين من كوكب آخر. في حلم مراجعة آخر، يدخل زوج والدته حياته ويرى بيتر غزالًا مشوهًا بسيقان سميكة، عاثرة وبلا قرون (مبالغًا في إطعامه ومخصيًا من المرأتين) ويحاول أن ينقذ الصبي.

قبل أن أشرح ظاهرة النقل عبر الأجيال كما ظهرت في العلاقة بين غريغوري وبيتر، من المفيد إلقاء نظرة عين النسر على التحليل الإجمالي لبيتر. سيوفر هذا الخلفية الضرورية لملاحظة مفهوم كيفية «إيداع» البالغين للصور في ذوات الأطفال بوضوح، يرافقه أيضًا إمرارهم الوظائف لأطفالهم لتوجيههم في كيفية التعامل مع ما «أودع» في داخلهم.

عندما سعى بيتر للحصول على علاج بالتحليل النفسي كان متزوجًا وفي منتصف الأربعينيات من عمره، وذا ابنة تدرس في الجامعة. كان بيتر شريكًا في شركة تعمل في مجال إنتاج الأسلحة. وكان لديه تاريخ طويل من الإفراط في الشرب. كانت لديه مشكلة أخرى أيضًا: الشره المرضي. بدأ يفرط في تناول الطعام ويستفرغ منذ كان عمره عشرين عامًا، وفي بعض الأحيان، كان يتخم نفسه ويستفرغ أكثر من مرة في اليوم. في المنزل شعر بانعدام القرب من عائلته. بدا له هذا خاطئًا، ولكنه لم يكن ليتخذ خطوات لتغيير الوضع. ترك زوجته تدير حياتهما الاجتماعية دون إبداء حماسة لذلك وأعلن، «لا أحب ابنتي حقًا». كانت دوافعه الجنسية مثبطة، يعوض عنها شغفه لقتل الحيوانات. غالبًا ما كان يسافر لأماكن بعيدة ليصطاد حيوانات الغريبة. كان صيادًا، ولكنه لم يكن رياضيًا. على سبيل المثال، كان يطير فوق قطيع من الغزلان بطائرة مروحية في أماكن كألاسكا ويرتكب مجزرةً بالحيوانات باستخدام رشاش آلي. كانت هوايته التحنيط.

في أحد الأيام، برفقة زوجته، كان في غداء عمل في لوس أنجلوس. شرب كثيرًا على الطاولة ثم بدأ يستفرغ أمام الضيوف، ملوثًا ثياب كل قائد سياسي بارز، يرمز إلى صورة الأب. أصبحت زوجته محرجةً جدًا وأخبرته أن عليه أن يخضع للعلاج. أضافت أنه إن لم يتعالج، فستطلقه. هذا ما دفع بيتر للذهاب إلى د. بول.

بدأ بيتر العلاج بشيء من الغرور، متشوقًا ليظهر أنه مسيطر ولا يحتاج إلى أحد. كان يذهب لزيارة د. بول فقط ليرضي زوجته. رفض الجلوس على الأريكة، ووافق الدكتور بول على العمل معه وجهًا لوجه حتى شعر بيتر أنه مستعد للأريكة، التي كان يعتبرها بيتر دليلًا على التبعية. خلال الأسبوع الأول من العلاج، توقف عن الشرب. وذكر أن لديه أفضل عضلات بطن يمكن لأحد أن يحصل عليها وأن بإمكانه يتقيأ حينما يشاء. وأعلن أن ممارساته الشرهة ليست مشكلةً.

قبل بدء زياراته للدكتور بول، كانت شركة بيتر منخرطة في صفقة بقيمة نصف بليون دولار. قال بتعالٍ: «أظن أن بإمكاني إخبارك باسم الصاروخ الذي نطوره»، مضيفًا «هذه ليست معلومات سرية». وذكر كيف أنه قتل «لضرورات الحرب» أطفالًا ونساء أثناء خدمته في فيتنام. بعد التباهي بأشياء مختلفة لمدة ثلاثة أشهر، قال للدكتور بول، «أنت رجل لطيف، لكنك لست شخصًا مهمًا. عندما كنت في فيتنام كان لدي خمسون طبيبًا تحت إمرتي؛ كان اثنان منهم طبيبين نفسيين. آمل ألا تشعر بالإهانة إذا توقفت عن المجيء». لم يكن بيتر في هذا الوقت شخصًا محبوبًا. أظن أن هذا ساعد د. بول على البقاء في وضع علاجي مع بيتر. أخبر بيتر أنه لم يكن وكيلًا عن زوجة بيتر، بل كان هناك ببساطة ليعمل معه، وأن القرار بيد بيتر إن أراد الاستمرار في العلاج أم لا.

اختار بيتر الاستمرار في العلاج وبدأ يستلقي على أريكة الدكتور بول أربع مرات في الأسبوع. مطورًا ما أسميه نقلة «الفقاعة الزجاجية».[137] كان لبيتر، كما اعتقدنا، نظام شخصية نرجسية ملوث بالسادية. لاحظنا أيضًا أنه يخفي تحت تبجحه إحساسًا جائعًا بالذات. يتخيل أمثال بيتر من الخاضعين للتحليل النفسي وجود شيء مثل الفقاعة الزجاجية التي تشكل مملكة يكون فيها الفرد هو الرقم واحد والشخص الوحيد، شخص يسيطر على عالم خاص به. وبعبارة أخرى، يضع هؤلاء الناس عظمتهم تحت حاجز وقائي (نفسي). يراقبون باستمرار ما يقع خارج فقاعتهم الزجاجية المجازية. الناس الذين يعتبرون أنهم موجودون بغاية الهيام بهم، يقرون بوجودهم؛ ويستهينون بقيمة أولئك الذين يعتبرونهم أشخاصًا لا يقبلون كونهم هدية الله للأرض. (يرمز الأشخاص المستهان بهم إلى الجزء «الجائع» من الفرد النرجسي). تحدث بيتر حقيقةً عن «إمبراطورية على جزيرة» كان يود العيش فيها وحيدًا. توقع بيتر من محلله أن يبقى خارج جزيرته الخيالية، لأنه حقًا لم يتوقع الاعتراف بها. كان يظهر سلوكًا مشابهًا في المنزل. فقد بنى غرفةً خاصة ضخمة يعرض فيها صيوده المحنطة. كان يجلس هناك وحيدًا ويتأمل كم هو شخص رائع.

على الأريكة تصرف بيتر كما لو كان في فقاعة زجاجية. أبقى د. بول خارج مملكته الخاصة وأنقص من قيمته. كثيرًا ما كان بيتر يباهي بمعرفته بأشخاص بارزين ويتبجح.

دعمت د. بول في جهوده للتسامح مع هذا، لأنه يظهر قبولًا للتكيف الدفاعي الشخصي لبيتر قبل استكشاف ذاته المتطلبة والمضطربة التي كانت تختبئ خلف عظمته السطحية. كان بيتر يظهر هذا الجانب المتطلب والمخفي من ذاته بين حين وآخر. فمثلًا، كان يبدو ظاهريًا أنه لا يكترث بزوجته أو محلله النفسي، ولكن إذا غابت زوجته أو غاب محلله لفترة قصيرة، كان المراق المرضي يظهر على بيتر.

حدث تغيير جذري في نهاية السنة الأولى من علاج بيتر. بعد أن سمع أن والدته، التي كانت في السبعينيات من عمرها، كانت مريضة، شعر بيتر بالنعاس على الأريكة ولاحظ أن شعر أمه ما يزال أسودًا. ومضى يقول إنه على الرغم من أن سلوك الدببة يمكن التنبؤ به إلى حد كبير كقاعدة، فإن الدب الأسود (الذي يرمز لوالدته) «مصاب بالفصام» ويهجم دون أن يستفزه أحد. بعد ذلك بوقت قصير، سافر إلى المدينة التي تعيش فيها والدته وزوجها وتوجهوا إلى المستشفى التي كانت تتعالج فيها والدته. حالما دخل ردهة المستشفى شعر بالإغماء ونقل إلى غرفة الطوارئ. علمنا لاحقًا أن بيتر كان بإغمائه يحمي نفسه من إدراك رغبته بأن تموت والدة طفولته المبكرة.

كان بيتر محتارًا. فبعد العودة إلى العلاج، قال للدكتور بول، «لم يغم علي في فيتنام حتى عندما أسقطت مروحيتي بالرصاص!» بعد هذا الحدث، أبدى بيتر استعدادًا للسماح

لنفسه بأن يتحدث عن طفولته المتأذية ويستكشف آثار هجران والده البيولوجي عندما أصبح بيتر هدفًا لعنف أمه وجدته. عادت أعراضه، التي كان يسيطر عليها منذ الأسبوع الأول من العلاج، وسمح لمحلله النفسي أن يستفسر عن أسباب تطويره لها. بدأ يذكر أحلامه في الجلسات واستخدمها لاستكشاف عالمه الداخلي. نشأ لديه شعور بأنه يشبه الشخصية التي أدى دورها داستن هوفمان في فيلم *رين مان*، والتي كان يعتني بها أخوها (المحلل). كان الشخص المتطلب. ولكن هذا تناوب مع عودة بيتر إلى الإحساس بالعظمة. كان بطرس يحلم بأنه كلي القدرة، كفرعون مصري، وأن محلله النفسي نكرة، مثل متسول. ببطء، بدأ بيتر يكامل بين جانب **الرقم واحد** والجانب «الجائع» ويتمكن من الاستمتاع بالحياة والتصالح مع كونه عاديًا من نواحٍ عديدة.

عندما اقتربت حرب الخليج، حفزت الحرب الخارجية بيتر لمعرفة الحرب الداخلية لطفولته المبكرة، بالتجارب والخبرات وبالعواطف المصاحبة على الأريكة. حلم بالقتال باستخدام القوس والنشاب في الكهوف (التي ترمز إلى بطن أمه). ثم حرر الكثير من ذكريات الطفولة التي كانت مقموعة. ومن بينهم إهانته أمام والده البيولوجي. عندما كان في الخامسة من عمره، ودون أي تحضيرات، أخذ ليزور والده البيولوجي الذي كان قد تزوج مرةً أخرى. أخذه والده إلى معرض و، مثل أمه، أفرط في إطعامه. شعر بالغثيان وتقيأ على

أبيه. لم ير الرجل ابنه بعدها. فهم بيتر أن شرهه المرضي كان بسبب واحد: كان معتمدًا على اهتمام أمه وجدته. ففي النهاية، كانتا هما البالغتين الوحيدتين اللتين اعتنيتا به حتى أتى غريغوري إلى حياته. ولكن إطعامهما المفرط العنيف له كان كإعطائه «سمًا عاطفيًا»، لذا ركز بيتر الصغير على حل أصبح من أعراضه عند البلوغ. كان يملأ جوفه بالطعام ليتلقى «حب» أمه وجدته ويشبع جوعه العاطفي. ثم كان يتقيأ ويحرر نفسه من هذا الطعام عندما يتضح أنه «سام». كان محتومًا عليه تكرار هذا النمط. كان السبب الآخر لشرهه المرضي يتعلق كثيرًا بشعوره بالإهانة ثم الرفض النهائي من قبل والده البيولوجي. كان غاضبًا بشدة من والده البيولوجي إلى درجة أنه، كشخص بالغ، تقيأ على شخص سياسي شديد الأهمية (صورة للأب) في غداء عمل. كما ذكرت مسبقًا، هذا الحدث جلبه لزيارة د. بول.

قبل إنهاء تحليله النفسي بنجاح، أبدى بيتر كثيرًا من الندم على نشاطاته السادية في الحرب. بما أن قتل النساء والأطفال كان قد حدث في ظروف حرب، كان د. بول حريصًا على عدم تحريض الندم في بيتر. توقف بيتر أيضًا عن كونه قاتلًا متسلسلًا للحيوانات التي مثلت ذاته الجائعة، وأمه وجدته العدوانيتين، ووالده البيولوجي. كان نادمًا على قتل الحيوانات، أيضًا. قبل إنهاء علاجه ببضعة شهور راوده حلم: «كنت أحلم بالصيد، ورؤية الكثير من

الغزلان دون قتل أي منها». ثم أضاف فجأة، والحزن يظهر عليه، «يسألنا الإله عن الحيوانات التي نقتلها. أنا أحاول تحمل مسؤولية الأشياء». أتم بيتر تحليله بنجاح.

ليس هدفي هنا أن أقدم حالة سريرية كما أفعل لو كنت في لقاء مهني مع محللين نفسيين آخرين، لذا فأنا لا أذكر تفاصيل عالم بيتر الداخلي ولا علاجه التحليلي النفسي هنا. وأنا لا أشير إلى عصابه الانتقالي وحله واستجابات د. بول المضادة للانتقال عنده. ولكن، أردت أن أعطي الخلفية السابقة للتحضير لدراسة الدور الذي أداه غريغوري، زوج والدته، في حياة بيتر، وخصوصًا بتسليح بيتر بالعظمة الظاهرية والسادية. سأركز على ما تعلمناه من بيتر عن غريغوري وعلاقة غريغوري الخاصة مع ابن زوجته.

بينما لم يكن لدى محلل بيتر النفسي ولا لدي أنا أي اتصال مباشر مع غريغوري، فقد تعلمنا من خلال عملنا مع بيتر أن التخريج (إسقاط صوره الشخصية و/أو الصور المستدخلة للآخرين على العالم الخارجي) كان آلية غريغوري النفسية الأساسية التي ساعدته على أن يعيش حياة «عادية» في الولايات المتحدة بعد الصدمات النفسية التي لا توصف التي شهدها في الفيليبين. بعد أن انتقل هو وعائلته إلى منزلهم الجديد في مدينة صغيرة في الغرب الأوسط، بنى غريغوري بيت طيور متعدد الطوابق للسنونو البنفسجي في حديقته. كان للعمود الذي أقيم عليه بيت الطيور قاعدة إسمنتية. تباهى غريغوري لاحقًا بأنه استخدم

مئة باوند من الإسمنت لإقامة بيت الطيور. لعقود ظل بيت الطيور هذا ثابتًا في الحديقة. بذل غريغوري جهودًا مضنية لا منتهية لطلاء (وإعادة طلاء عندما كان الطلاء القديم يبهت) الأرقام على كل من «الشقق» العديدة التي تحتلها عوائل الطيور. كان يمتلئ بطيور السنونو البنفسجي كل عام. عندما تفقس البيوض، تطعم الطيور صيصانها وتساعدها على الطيران عندما تصبح جاهزة. كان غريغوري يضع عصابةً على ساق كل طائر صغير بعد أن يفقس. وكل عصابة كانت مرقمة برقم يوافق «شقة» عائلته في منزل الطيور. إذا سقط طائر صغير فجأة من بيت الطيور، يعرف غريغوري لأي «شقة» كان ينتمي ويعيده إلى عشه الصحيح. كان هذا مهمًا جدًا، لأن الطير الصغير الذي ينقذه إنسان ويعيده إلى العش الخاطئ ترفضه الطيور البالغة في تلك «الشقة» ويموت حتمًا.

بينما كان بيتر الصغير ينمو، وكاد يكون ظل غريغوري، راقب مرارًا وتكرارًا اهتمام زوج والدته بمنزل الطيور ونشاطاته الخاصة بالطيور. في منتصف تحليله النفسي، استوعب بالكامل أن منزل طيور السنونو البنفسجي كان يرمز إلى مخيم اعتقال غريغوري الياباني حيث عانى الأمرين وكان معرضًا لموت رفاقه بشكل شبه يومي. حرص غريغوري ألا يموت صغار الطيور أثناء سكنهم في منزل الطيور الخاص به. غير «وظيفة» صورة مخيم اعتقاله؛ أنشأ «مخيمًا» لا يسمح فيه للساكنين، هو ورفاقه، بالموت!

تطور فهم بيتر بأن غريغوري عامله كما عامل طيوره الصغيرة ببطء خلال التحليل، وخصوصًا بعد أن أغمي على بيتر في أثناء زيارته لوالدته في المستشفى. أولًا، قيل لنا كيف كان غريغوري منشغلًا بجعل بيتر الصغير قويًا. فعندما كان زوج والدته في المنزل مع بيتر، كان يضع مهمات معينة للصبي ويعلمه كيف يتمرن، وينقص وزنه، وينمي جسدًا رياضيًا. علم غريغوري بيتر اليافع على الأسلحة وعلمه كيف يصطاد عندما كان الصبي في أوائل سنين مراهقته. وبعد ذلك بقليل، باستخدام معارفه، حرص على التحاق بيتر بمدرسة عسكرية. بعد التخرج، كرجل عسكري انضم بيتر إلى حرب فيتنام حيث، كما رأينا، قتل أشخاصًا، من بينهم نساء وأطفال، بعد تلقي أوامر بفعل ذلك.

بعد فيتنام، كمدني، كان بيتر البالغ يشغل منصبًا رفيع المستوى في صناعة الأسلحة العسكرية، على الرغم من أنه كان يحب أن يعرف نفسه بأنه «صياد». حتى بعد أن تزوج بيتر وانتقل مع زوجته وابنته إلى مدينة أخرى، بقي على اتصال دائم بغريغوري الذي استمر بانشغاله بمنزل الطيور وصغار الطيور. كان بيتر يسافر جوًا إلى الغرب الأوسط كل عام ويذهب الرجلان في رحلات صيد بطقوس خاصة. ولكن بيتر كان يذهب أيضًا للصيد دون زوج والدته الذي يشيخ ببطء. لاحظ بيتر أنه كلما كان يشعر بالقلق كشخص بالغ،

كان يذهب في رحلات لقتل الحيوانات. لقد كان «قاتلًا متسلسلًا» للحيوانات. بما أنه كان يمتلك الكثير من الأموال فقد كان بإمكانه المشاركة في نشاطات كهذه لكي «يشفي» قلقه.

في أثناء تحليله، بدأ الدكتور بول وبيتر يستوعبان ببطء أن غريغوري كان قد وضع (أودع) صورته الذاتية «كصيد»، (جريح، مهان، ومنزوع الحيلة في الفيليبين) في تمثيل الصبي الصغير المفرط في السمنة النامي لنفسه. إحقاقًا للحق، كان هناك تلاؤم جيد بين صورة غريغوري الجريح المودعة وصورة بيتر الشخصية العاجزة كما بدت في حلمه المذكور مسبقًا، عن قبة تحكمها نساء مقتحمات من كوكب آخر. عندما كان غريغوري يعطي مهام لابن زوجته –فعليًا، متصرفًا كمدرب له– جعله (في الحقيقة صورته المودعة الخاصة، أيضًا) صيادًا يمكنه القتل. لا يمكنه قتل الغزلان عديمة القرون والمشوهة التي كانت تمثل بيتر في حلمه وحسب، بل أي نوع من الغزلان؛ وليس فقط الدببة السوداء، بل أي نوع من الدببة. عكس هذا عجزه، وإذلاله، وسلبيته التي أجبر عليها، وجعلت الصبي قويًا بلا حدود وفاعلًا من خلال التخلص من الآخرين الخطيرين. عامل غريغوري بيتر كما كان يعامل صغار الطيور الخاصة به. حرص على أن يبقى بيتر «حيًا» ويحقق «حريته»، ولكن لفعل ذلك كان عليه أن يكون قديرًا بشكل سادي. بعد خدمته العسكرية وتعليمه، أصبح بيتر على صلة مهنية بتصميم وصناعة أكثر الأسلحة فتكًا.

أصبح فهم بيتر بأنه تماثل مع غريغوري – وأكثر من ذلك، أنه كان مستودعًا للصورة الجريحة لزوج والدته – واضحًا جدًا عندما فحص د. بول المعاني العديدة لواحد من أهم هواجس بيتر كشخص بالغ. كان غريغوري منشغلًا بمنزل الطيور وسكانه وأصبح بيتر عند بلوغه منشغلًا بغرفة تذكارات الصيد الخاصة به. ما سأركز عليه هنا كيفية تكرار بيتر اللاواعي للذكريات غريغوري المعتقل المحاط برفاقه الموتى. شملت هوايته أيضًا إحدى المهمات التي أوكلها إليه غريغوري: إعادة إحياء الموتى وتغيير وظيفة مخيم الاعتقال، كما كان يفعل غريغوري عندما كان يحمي حيوات صغار الطيور. لذا، بذل بيتر جهودًا مضنية ليجعل صيوده تبدو حيةً من خلال التحنيط البارع، وبذل وقتًا ومالًا كثيرًا على المحنطين لتحقيق هذا الوهم.

كان الحصول على أبٍ قد ساعد في التعامل مع الإهانة التي عانى منها بيتر الصغير بسبب الرفض من قبل والده الحقيقي. استذكر أنه مع قدوم زوج والدته أشار بفخر إلى غريغوري، قائلًا، «انظروا! أنا أيضًا لدي أب!» كانت والدته وجدته قد قللتا من قيمة والده البيولوجي، ولفتتا انتباه الصبي مرارًا وتكرارًا إلى عجزه الأبوي، لذا فقد وازن الأمر جعل زوج الأم قدوةً له وجعل الرجل الأكبر يشعر بالراحة بأخذ ذات غريغوري المضطربة.

بعد أن حصل بيتر على نظرة معمقة في هذا، تذكر أنه عندما ذهبت أمه مع غريغوري في نوع من شهر العسل، ظهرا لسبب ما على برنامج إذاعي كان يستمع إليه بيتر مع جدته. في اليوم التالي كسر بيتر لعبة على شكل مسدس كان صاحب والدته الجديد قد أعطاه إياها، وأدرك أنه كان غاضبًا من الرجل الذي أخذ أمه بعيدًا عنه. كان خائفًا من أن يعاقب عند عودة الزوجين، ويتذكر الآن بوضوح أن غريغوري سأل أمه عما الذي ينبغي فعله لبيتر لكسره المسدس، وأن أمه قالت، «هو ابنك الآن. افعل ما تشاء!» تذكر بيتر أنه أعجب باختيار غريغوري عدم معاقبته. ولكنه كان أيضًا معجبًا بالشعور بأن غريغوري لن يتوقف عن تقديم بيتر الصغير للمزيد من لعب الأسلحة وثم الأسلحة الحقيقية. أدرك بيتر أن الرجل المسن لم يكن في الواقع صيادًا ماهرًا يومًا من الأيام، ولكنه ذهب للصيد مع الصبي لأن مشاهدة بيتر وهو يصير صيادًا أكثر مهارةً وعنفًا كانت تسعد غريغوري وتحسن شعوره. فهم بيتر الآن أن غريغوري أراد لبيتر أن يصبح صيادًا بدل أن يظل شخصًا يمكن أن «يصاد» (من قبل اليابانيين). إذا كبر بيتر ليصبح صيادًا شرهًا، فلن تواجه نفس غريغوري المضطربة التي تعيش في بيتر صدمةً مشابهةً من جديد.

طوال تحليله، كان لدى بيتر حلم متكرر. وفي الحلم كان يمشي على الماء. يعكس المضمون الواضح لهذا الحلم شعوره المبالغ فيه بالعظمة. كان يتصرف في حياته اليومية

كما لو كان إلهًا. بما أنه كان يشارك في تصميم وتطوير أسلحة جديدة وأكثر فتكًا، فقد كان على صلة بسياسيين من المستوى الرفيع وكبار الرجال العسكريين. آمن أن أمن أمريكا كان في يديه – كان متفوقًا على غيره بوضوح.

في بداية عامه الخامس من التحليل، تغير حلم بيتر المتكرر بالمشي على الماء. في حلم جديد كانت غواصة تبدو تحت الماء الذي يمشي عليه بيتر. (يجب أن نذكر أن غريغوري كان قد أدى الخدمة على غواصة حربية وكان مسؤولًا عن الطوربيدات قبل أن يمسك به اليابانيون. لذلك ففي الحلم، كانت الغواصة ترمز لغريغوري قبل أن يصبح عاجزًا). كان يبدو فقط ظاهريًا أنه يمشي على الماء؛ المشي على الماء كان وهمًا. سمح تحليل هذا الحلم المعدل لبيتر أن يرى المزيد ويقر بعلاقته الخاصة في طفولته بغريغوري، وصورة الرجل المسن المضطربة المودعة، وجعل غريغوري له «قديرًا» كدفاع ضد عجزه الخاص (وعجز الصبي الصغير السمين). بعد فترة وجيزة، في حلم لا ينسى – آخر سلسلة أحلامه بالسير على الماء – غطست الغواصة وسقط بيتر في الماء. كانت قدرته المطلقة قد اختفت. سبح إلى الشاطئ كرجل «عادي»، ولكن حرًا من صورة غريغوري المودعة (الغواصة). بعد هذا، في الحياة الواقعية، تخلص من حيواناته الميتة المحنطة، وحول هذه الغرفة الخاصة إلى دفيئة لزوجته، وبدأ يستمتع بصحبتها، وتحسنت حياتهما الجنسية. لم يتمكن من التخلي لسهولة

عن تجارته المربحة ولكنه غير موقفه السياسي. وتمنى أن ينبي الأمريكيون صوامع حبوب بدلًا من صوامع الأسلحة النووية. فكر في أن يصبح من دعاة حماية البيئة. ولم تعد أعراض إدمان الكحول والشره المرضي موجودة لديه.

تمامًا عندما كانت جميع الدلائل تشير إلى أن بيتر سيدخل في طور إنهاء ناجح لتحليله، أظهر مقاومةً شديدةً جدًا للتحسن، وعادت أعراضه المرضية القديمة التي تعكس الذات الجائعة: الإفراط في الأكل، والشرب، والاكتئاب. كانت حرب الخليج جاريةً في ذلك الوقت، وقد أظهر أيضًا خيالات مطلقة القدرة موافقة عن تفجير العراق ومسحها عن الوجود وإلقاء القبض على صدام حسين. كان محلل بيتر في حيرة. بصفتي مستشاره، لم أستطع في البداية فهم سبب حدوث مثل هذا التحول الجذري في الأحداث. لقد أدركت أنا والدكتور بول ببطء أن مقاومة بيتر كانت بسبب تصوره الصحيح بأنه إذا تعافى وتوقف عن كونه مستودعًا للصورة الذاتية المضطربة لزوج والدته، فإن غريغوري سيضطر لاستعادة ما كان قد أودعه في بيتر. قد تقتل هذه العملية حرفيًا غريغوري، والذي كان حينها في السبعينيات من عمره. وجد بيتر نفسه أمام معضلة كبرى: إما أن يتحسن ويقتل غريغوري أو أن يمتنع عن استكمال تحليله وينقذ حياة غريغوري. فهمه، وفهمنا، لهذه المعضلة حدث بعد الأحداث التالية.

وجد بيتر بعدها حلًا: ساعد زوج والدته على شراء المنزل المجاور لمنزله الأصلي وإعادة إقامة منزل طيور السنونو البنفسجي في حديقة هذا البيت الثاني، ليس بعيدًا جدًا عن موقعه الأصلي. اختار بيتر ألا يفسر معنى بيت الطيور لغريغوري. «أنا لا أريد سوى مساعدته؛ هو لا يحتاج «تفسيرات» في السبعينيات من عمره»، كما قال بيتر. بمجرد إعادة بناء بيت الطيور، تحسنت الصحة الجسدية للرجل المسن بشكل كبير. ومع ذلك، فقد عرف بيتر أن بيت الطيور الذي شيد حديثًا لم يكن مستودعًا لصور زوج والدته المستخرجة الجريحة بنفس قوة سابقه الأصلي. مع ذلك، لم يمت الرجل المسن واختفى عجزه وحيرته لدرجة كبيرة. وصل بيتر بعدها إلى إنهاء ناجح لتحليله.[138] في اليوم السابق لآخر جلسات بيتر التحليلية النفسية حدث شيء غير معتاد. كان بيتر وحيدًا في الدفيئة الزجاجية، التي كانت سابقًا غرفة الصيد الخاصة به، عندما أدرك أن بعض صغار الطيور كانت محبوسةً في مدخنته. بعد وضع شبكة على الموقد، صعد إلى سطح الدفيئة ووضع مكنسة طويلة في المدخنة من الأعلى، وجعل الطيور الصغيرة تطير إلى الشبكة في الأسفل. بعد النزول من السطح، أطلق الطيور الحبيسة من الشبكة وتركها تطير بحرية.

في خلال جلسته الأخيرة، بعد حديثه عن هذا الحدث غير العادي، قال بيتر إن ذلك ساعده على ترميز حريته الخاصة أكثر. لم يكن مجرد مستودع لصورة غريغوري المضطربة

عن ذاته، بل أيضًا للصور المدخلة لدى غريغوري عن رفاقه الجرحى والموتى. كان بيتر طوال حياته مهتمًا بطيور الرجل المسن ومشاركًا إذ كانت تمثل أيضًا غريغوري العاجز ورفاقه في مخيم الاعتقال. من خلال الحادثة أعلاه، شعر بيتر أنه طور استقلاليته الخاصة بالتخلي عن الصور المضطربة. كانت لديه طريقته الخاصة لتحرير الطيور كلها دفعةً واحدة، بدلًا من السنين الطويل من الانشغال المستمر بها، وهو عرض من أعراض زوج والدته.

في تلك الأثناء، كانت ابنته قد أصبحت عالمة أحياء. علم بيتر أن النقل العابر للأجيال لذات غريغوري المضطربة والصور المدخلة للآخرين وصل إلى الجيل الثالث. كانت حفيدة غريغوري، كعالمة أحياء، تعمل على مشاريع لإنقاذ الحيوانات البرية، تمامًا كما كان أبوها يقتل تلك الحيوانات. قال بيتر، الآن بعد أن اختفت مقاومته للتعافي، إنه صار رجلًا جديدًا، شخصًا معالجًا بالكامل بالتحليل النفسي خاليًا من النرجسية السادية.

إن تفحص قصة ذات غريغوري المضطربة نتيجة الصدمات النفسية والصور المدخلة لرفاقه الموتى أو الضحايا، وتخريجهم إلى الطيور وبيتر الصغير، يدل على وجود النقل العابر للأجيال. ليس لدي معلومات مباشرة عن العالم الداخلي لأي ناجٍ آخر من مسيرة الموت في باتان ومخيمات الاعتقال اليابانية في شبه جزيرة باتان. ولكن، من الشهادات المكتوبة،[139] نعلم أن عشرات آلاف الأمريكيين تعرضت نفوسهم للصدمات ولديهم صور

مدخلة مضطربة عن الآخرين، كلها ترتبط بتجاربهم في الفيليبين. حتى قبل بدء مسيرة الموت، كان الأمريكيون والفيليبينيون قد شعروا بالعجز منذ محاصرة شبه جزيرة باتان من قبل القوات اليابانية وعدم إرسال واشنطن للتعزيزات. يعكس غناء الكلمات التالية بشكل مباشر انتكاسهم الجمعي وفقدانهم لما أسماه إريك إريكسون «الثقة الأساسية».[140]

نحن نحارب أوغاد باتان،
لا ماما، لا بابا، لا عم سام،
لا عمات، لا أعمام، لا أبناء عم، لا أبناء إخوة
لا بندقيات، لا طائرات ولا عدة مدفعية،
ولا أحد يأبه البتة[141]

يمكننا أن نخمن من ذلك أن عشرات الآلاف من الأمريكيين كانوا مرتبطين بشبكة غير مرئية: جميعهم لديهم صور مؤلمة مرتبطة بهذا الحدث التاريخي نفسه. يمكننا أن نفترض أنه على الرغم من تمسك هؤلاء الأشخاص بمنظوماتهم الشخصية الخاصة، فمن المرجح أن عددًا كبيرًا منهم نقلوا ذواتهم المصابة بالصدمة وصور الأشياء الخاصة بهم إلى الأجيال الشابة، معطين إياهم مهام مشابهة للتعامل مع الصور المودعة. لذلك، يمكننا أن نفترض أيضًا أن الجيل التالي (المكون من الأشخاص الذين كانت تمثيلاتهم لذواتهم «مستودعات») أصبحت أيضًا مرتبطة بشكل خفي من خلال استقبال الصور المضطربة التي نشأت من الحدث التاريخي نفسه ومن خلال وجود مهام مماثلة ينبغي التعامل معها.

بينما ما وصفته أعلاه حالة فردية من النقل العابر للأجيال للصدمة النفسية، فمن خلال انخراطي في الدبلوماسية الدولية غير الرسمية لنحو ثلاثة عقود، جمعت أدلة كافية

تشير إلى أن حوادث نقل عابرة للأجيال كهذه تحدث بانتظام على مستوى اجتماعي وأحيانًا –عندما تكون الحوادث التاريخية الخارجية سببًا– تحدث على نطاق واسع.

10 الأيديولوجية السياسية للاستحقاق
وصدمات «مختارة»، و«حادة»، و«ساخنة»

تشرح قصة غريغوري وبيتر المذكورة في الفصل السابق أن ظاهرة النقل العابر للأجيال ليست مجرد نظرية، بل يمكن مشاهدتها حقيقةً في الطبيعة البشرية عند دراستها تحت عدسة التحليل النفسي المكبرة. وكما ذكرت في ذلك الفصل ذاته، فإن ظواهر مشابهة تتجلى أيضًا على مستوى المجموعات الكبيرة من خلال ما أصطلح على تسميته صدمةً مختارةً. الصدمة المختارة هي التمثيل الذهني لدى مجموعة كبيرة لحدث تاريخي سبب مشاعر جمعية بالعجز، والشعور كضحية، والعار، والإذلال على أيدي «الآخرين»، وتشمل عادةً خسائر فادحة في الأشخاص والأرض، والهيبة، والكرامة. كما فعل غريغوري لبيتر، فإن أعضاء المجموعة المصابة بالصدمة يودعون ذواتهم المجروحة، وصورهم المدخلة عن الآخرين الذين أوذوا خلال الحدث المسبب للصدمة، في الذوات النامية للأطفال في الجيل التالي. يعطى هؤلاء الأطفال أيضًا مهمات معينة، كعكس العجز، والعار، والإذلال، وتحويل السلبية إلى مبادرة فعلية ودافع. من المهام الأخرى التي تمرر إلى الأجيال مهمة تتعلق بإكمال عملية الحداد المشتركة.

عندما تودع كل هذه الصور للحدث التاريخي والمهام المرتبطة به في الجيل التالي، فإنها تشكل رابطًا غير مرئي بين أفراده. وإذا لم يكن لدى هذا الجيل التالي القوة السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية للقيام بمهامه الموروثة، فقد ينتهي به المطاف بنقل الصور غير المنضبطة والمهام غير المكتملة إلى أبناء الجيل الذي يليه. ومع مرور العقود والقرون، «تختار» المجموعة الكبيرة دون وعي أن تعتبر التمثيل الذهني للحدث الصادم للسلف عنصرًا مهمًا في هوية المجموعة الكبيرة المعاصرة. إن صدمتهم المختارة تمثل إحساسهم بالنحن-وية.

لا تتطور كل صدمة عانى منها الأسلاف لتصبح صدمةً مختارة. فقد تحل أحيانًا استهدافات جديدة للضحايا محل القديمة، أو قد يختار قائد أو قائدة بشكل واعٍ أو غير واعٍ صدمة محددة من الماضي ليجمع أتباعه أو أتباعها بطرق دراماتيكية. بالإضافة إلى ذلك، فإن كيفية حياكة المجتمع للأساطير حول حدث معين من خلال الأغاني والقصائد واللوحات والأشكال الأخرى للفن، والنصب التذكارية التي تبنى، تلعب دورًا هامًا أيضًا في خلق صدمة مختارة.

عندما يكون هناك خطر راهن من «الآخرين»، فإن الجيل الحالي يعيد تنشيط الصدمة المختارة للمجموعة بهدف تعزيز هوية المجموعة وتقويتها لمواجهة التهديد. إن إعادة التنشيط هذه، بدورها، تعيد إشعال المهمات التي يجب تنفيذها. يظهر هذا أحيانًا كمقاومة عنيدة لحل النزاعات العرقية أو غيرها من النزاعات الجماعية بالطرق السلمية. هنا نرى صدى ما لاحظناه أنا ود. بول في حالة بيتر. لقد طور بيتر مقاومةً للتعافي لأنه إذا توقف عن كونه مستودعًا لصور غريغوري الجريحة، فإن ذلك سيغير إحساسه الداخلي بمن يكون، أي بهويته. وبالمثل، فقد تقاوم مجموعة كبيرة التخلي عن المهام المجتمعية المشتركة المرتبطة بصدمتها المختارة لأنها لا تستطيع تحمل التعديل الناتج عن هوية المجموعة الكبيرة.

أو، كما هو موضح في حالة بيتر، قد تتغير وظيفة المهمة الجماعية التي تنتقل عبر الصدمة المختارة. بمعنى آخر، لا تختفي المهمات الأساسية في التعامل مع تأثير الصدمات السابقة، ولكن يبدو أنها تنفذ لأهداف أخرى. أولًا حاول غريغوري أن يتعامل مع صدمته النفسية في باتان ببناء بيت طيور السنونو البنفسجية والتأكد من ألا يلحق بصغار الطيور التي تقع أي أذى – طور نظامًا لكي تعود دائمًا إلى عش عائلتها. بيتر، بسبب علاقته بغريغوري بشكل رئيسي، أصبح قاتلًا متوحشًا للحيوانات. ولكننا أيضًا تعلمنا أن رد فعل ابنة بيتر كان بسلوك سبيل مختلف تمامًا عن والدها: فقد أصبحت عالمة أحياء وناشطة للحفاظ على الأنواع – حامية للحيوانات.

عندما يغير تعرض مجموعة كبيرة للصدمة وظيفته، قد تكون إحدى النتائج تحوله إلى أيديولوجية استحقاق مفرط يمكن، عندما تهدد هوية المجموعة، أن يتلاعب بها القادة السياسيون لإطلاق برامج سياسية جديدة و/أو اتخاذ إجراءات جديدة مدعومة بهذه الأيديولوجية. يوفر الاستحقاق المفرط نظام اعتقاد يؤكد على أن المجموعة لها حق امتلاك ما تشاء امتلاكه، ويمكن لهذا بوضوح أن يؤدي إلى نزاعات مع الآخرين. فمثلًا، التحريرية الوحدوية أيديولوجية استحقاق سياسي. وقد أصبحت مصطلحًا سياسيًا بعد أن سعت حركة قومية إيطالية إلى ضم أراضٍ عرفت باسم *إيتاليا إريدينتا* (إيطاليا غير المستردة)، وهي مناطق تسكنها أغلبية إثنية إيطالية ولكنها تحت ولاية النمسا من بعد 1866.

هناك الكثير مما يمكن قوله عن هذا المثال، ولكن لأزيد في شرح الصدمة المختارة وكيف تغير وظيفتها لتصبح أيديولوجية استحقاق، سأستعير مثالًا من تركيا. درسنا أنا ونورمان إتزكوفيتز بتعمق كيف كانت ردة فعل بعض المجموعات المسيحية الكبيرة على مر القرون لسقوط القسطنطينية (إسطنبول في وقتنا الحالي) على أيدي الأتراك في عام 1453، وكيف تمخض عن الصورة الذهنية لهذا الحدث في النهاية بعد نحو أربعة قرون فكرة ميغالي («الفكرة العظمى»)، وهي أيديولوجية سياسية محددة طالبت بإعادة توحيد كل المنتمين للإثنية الإغريقية من الإمبراطورية البيزنطية السالفة.[142]

بدأ الضغط على البيزنطيين قبل نحو ألف عام حينما بدأت قبال الترك تهاجر غربًا من آسيا الوسطى، جالبةً معها التواصل بالإضافة إلى النزاعات مع كل من العرب والأوروبيين. في أثناء تلك الفترة تبنت القبائل التركية الإسلام دينًا لها وانتهت إلى حكم أجزاء مما يسمى اليوم إيران، وأفغانستان، وسوريا. في آسيا الصغرى واجهوا أيضًا البيزنطيين، وهم الورثة المسيحيون للإمبراطورية الإغريقية الرومانية الذين حكموا من القسطنطينية. في عام 1071 م.، هزم قائد السلاجقة الأتراك ألب أرسلان القوات البيزنطية تحت إمرة الإمبراطور رومانوس الرابع ديوغينس قرب مانزيكرت في شرق الأناضول. رغم أن معركة مانزيكرت ذاتها لم تكن حاسمةً أو بارزةً بشكل خاص، فإن آسيا الصغرى، أو

الأناضول، كقلب تركيا المعروفة اليوم، تتركت تدريجيًا وكان الانحسار التدريجي للإمبراطورية البيزنطية قادمًا. بعد مانزيكرت بقليل، استولت مجموعة من السلاجقة الأتراك على القدس، ما أدى إلى الحملات الصليبية. بحلول الوقت الذي دخل فيه الصليبيون القدس، لم تعد المدينة تحت الاحتلال التركي، ولكن تصورهم للأتراك كمحتلين للأراضي المسيحية المقدسة وكعدو للمسيحيين استمر.

ومع ذلك، فقد كان سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك، والذي حدث بعد ثلاثمئة عام من معركة مانزيكرت، والتي أصبحت صدمة مختارة أوضح للعالم المسيحي. احتلت القسطنطينية من قبل خلف السلاجقة الترك، العثمانيين، في 29 مايو 1453. تاريخيًا، كان هذا بمثابة نهاية لعصر وبداية عصر آخر إذ حلت الإمبراطورية العثمانية التي يهيمن عليها المسلمون محل الإمبراطورية البيزنطية المسيحية. ورغم حقيقة رفض روما توفير الدعم للقسطنطينية ضد الترك، فقد تلقت المدينة خبر سقوط بيزنطة بالصدمة وعدم التصديق. اعتبر الانتصار التركي سكينًا في قلب المسيحية. كتب آيناس سيلفيوس بيكولوميني، الذي أصبح بابا فيما بعد، للبابا نيكولاس الخامس في 12 يوليو، 1453، إن الترك قتلوا هوميروس وأفلاطون للمرة الثانية.[143]

عمت الصدمة واستمرت بطرق عديدة. وبما أن القسطنطينية أخذت في يوم ثلاثاء، فقد اعتبر المسيحيون كل ثلاثاء بعدها يومًا مشؤومًا. حتى أن الخسارة اعتبرت انعكاسًا لحكم الإله على «خطايا المسيحيين في كل مكان».[144] كانت عقابًا أعاد فتح جراح خسارة القدس، ولم يمكن حل الحداد الأوروبي-المسيحي على هذه الخسارة ولا غض النظر عنها. قاتلت الجيوش المسيحية لاستعادة القدس، مع أنها خسرتها لاحقًا من جديد، ولكن كل ما جلبه سقوط القسطنطينية كان مشاعر العجز، والعار، والإذلال. عبرت الرغبة بتصحيح هذه الصدمة عن نفسها من خلال بعبعة عن تنظيم حملة صليبية أخرى. لم تتمخض هذه الأحاديث عن شيء، ولكن الفكرة استمرت. ردد المسيحيون في الأراضي العثمانية معًا العبارة التالية: «مرةً أخرى، مع مرور السنين، ستكون لنا مرةً أخرى»، في محاولة لإنكار التغييرات

التي حدثت واستعادة الخسائر التي فقدوها. سيكون هذا بذرة أيديولوجية الاستحقاق المفرط التي ستثمر لاحقًا.[145]

ظهر الإنكار بطرق أخرى أيضًا. إذا أمكن إيجاد رابط مستمر بين الترك والبيزنطيين، فستقل الحاجة لدى البيزنطيين والمسيحيين للشعور بألم الفقدان. شغل الكثير من الغربيين أنفسهم، أحيانًا بطرق صوفية، بالأصول القديمة للترك. فمثلًا، أعلن جيوفاني ماريا فيليلفو، وهو إنسانوي، أن السلطان التركي الشاب محمد الثاني، الذي استولى على القسطنطينية، كان طرواديًا. ودرس فيلكس فابري، وهو ألماني، فكرة انحدار الترك من تيوكروس، ابن الصديق الإغريقي لهرقل، تيليمون، والأميرة الطروادية هيسيون. ربط فابري تيوكروس بواحد من سلالته يدعى توركوس، قائد عصبة الطرواديين التي هربت إلى داخل آسيا بعد سقوط طروادة. بعد أن عاشوا متخفين لآلاف السنين، عاود نسل توركوس الظهور للمطالبة بقدرهم وإحياء «مجد إليوم».[146]

بينما استمرت هذه الجهود التاريخية الزائفة لإيجاد استمرارية بين الجانبين سبيلًا لتقبل الخسارة والإذلال، فقد حاولت محاولة مضادة فك الارتباط بينهما، وتجريد الترك من إنسانيتهم وشيطنتهم جميعًا. في أوروبا، كان هذا يعني تنميطًا سلبيًا عنيدًا وممنهجًا انتشر في جميع أرجاء العالم المسيحي. وفقًا لنيازي بيركس، فإن الأقدار تلاعبت بالترك بسبب استيلائهم على القسطنطينية والقدس.[147] مهما كانت إنجازاتهم، كان العالم ينظر إليهم بعداء. يدعي بيركس أن المؤرخين الأوروبيين في ذلك الوقت لم يكونوا أبدًا ينمطون «الغرباء» الآخرين كالصينيين والعرب واليابانيين إلى ذلك الحد.

إن الانشغال بالترك كفاتحين للقدس والقسطنطينية امتد حتى إلى العالم الجديد الذي كان الأوروبيون قد اكتشفوه وكانوا يستعمرونه بشدة. في 1539، مثلًا، شارك الهنود المكسيكيون في موكب دراماتيكي مثل تحرير القدس من الترك، وهو نصر أتيح بالاجتماع المصور للجيوش الكاثوليكية في أوروبا والأمريكتين.[148] حتى الآن، ما تزال تمثل نسخة من هذا الموكب في المكسيك، التي بينها وبين تركيا مسافة نصف العالم.[149] كان هذا التنميط

المعولم يدمج حتى في النسخ القديمة من قاموس ويبستر تحت تعريف «الترك»، والذي كان يقول، «شخص يظهر أي صفة تعزى إلى الترك، كالشهوانية والوحشية». الإشارة إلى الوحشية مفهومة بأخذ المعارك العديدة ضد الترك خلال توسع مملكتهم. حاولنا أنا وإتكوفيتز أيضًا أن نفهم الإشارة إلى الشهوانية. استنتجنا أنها ارتبطت بشدة بالصورة الشابة والفحولية لمحمد الثاني (محمد الفاتح)، الذي كان ينظر إلى فتحه على أنه «اغتصاب». ما تزال القسطنطينية لدى الشعراء المعاصرين رمزًا للمرأة المنهارة و/أو المكلومة.[150]

ولكن سقوط بيزنطة كان إشكاليًا بشكل خاص للإغريق لأنه مثل آخر أثر لما كانت إمبراطوريتهم العظيمة. ظلوا في حداد دائم، غير قادرين على التصالح مع الخسارة.ومع مرور الأجيال، تطور سقوط القسطنطينية ليصبح الصدمة المختارة الكبرى لديهم وأثر على تطور فكرة ميغالي، التي تبلورت في القرن التاسع عشر، عندما استعادت اليونان استقلالها عن الإمبراطورية العثمانية بعد حرب الاستقلال اليونانية (1821–1833)، وقد سألوا أنفسهم أيضًا «من نحن الآن؟» كانت الهوية الجديدة التي ظهرت مركبةً من عناصر هيلينية (اليونان القديمة ما قبل المسيحية) وعناصر بيزنطية (اليونان المسيحية).[151] عبر عن الرغبة في الاحتفاظ بالعناصر الثقافية والدينية لبيزنطة، والتي سقطت قبل نحو أربعمئة عام، واستعادتها من قبل العديد من القادة اليونانيين، ومن بينهم أشخاص مؤثرات كسبيريدون زامبليوس ونيكولاوس ج. بوليتيس.[152]

تطور عن هذه الحركة برنامج بعيد المدى للدعاية التعليمية والثقافية يهدف إلى غرس الإحساس بالهوية الهيلينية ليس ضمن حدود اليونان الحديثة نفسها وحسب، بل أيضًا بين السكان اليونانيين الكثر الذين ظلوا تحت الحكم العثماني. جذبت جامعة أثينا (أسست عام 1837) ناسًا من كل أنحاء العالم اليوناني لتدريبهم كطلاب ودعاة للهيلينية.

هذا النهج ذو الحدين، وفقًا لباسكاليس كيتروميليدس، لن يوحد اليونانيين ضمن حدودهم الحالية في اليونان وحسب، بل سيوحدهم أيضًا بأولئك الذين يعيشون في

الإمبراطورية العثمانية في أماكن «تعتبر جزءًا لا يتجزأ من الإرث التاريخي للهيلينية».[153] وهكذا ولدت فكرة ميغالي. يصف عالم الاجتماع كيرياكوس ماركيدس، وهو في الأصل يوناني قبرصي هاجر، مثلي، إلى الولايات المتحدة منذ عقود، فكرة ميغالي بأنها «حلم يتقاسمه اليونانيون بأن الإمبراطورية البيزنطية ستستعاد يومًا ما وكل الأراضي اليونانية سيعاد توحيدها من جديد في اليونان العظمى»[154] سرعان ما أصبح حلم إعادة جمع كل شخص من أصل يوناني مرةً أخرى أكثر من مجرد رغبة في اليونان – فد أصبح أيديولوجية سياسية مدعومة من قبل الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والسياسيين، ومدعومةً بنظريات أكاديمية، ويروج لها الدبلوماسيون، ويقاتل لأجلها على العديد من ساحات المعارك في سعي اليونانيين إلى تحصيل ما هو «حق» لهم.

ولجعل فكرة ميغالي واقعًا، قاتلت اليونان في حروب البلقان (1912–1913) والحرب اليونانية التركية (1919–1922)، ودخلت في النزاعات الطويلة القومية الإثنية مع المقدونيين، والبلغاريين، والترك، والألبانيين، والإيطاليين، ومجموعات أخرى على امتداد حدودهم. بالفعل، استمرت فكرة ميغالي فترةً طويلةً بعد انتهاء الإمبراطورية العثمانية وولادة تركيا بوصفها أمةً علمانيةً ديمقراطيةً. لقد ظلت قائمةً في السياسات السياسية والعسكرية وكذلك في عقيدة الجماعات الإرهابية اليونانية. يمكنك سماع أصدائها في الخطب، وأعمدة الصحف، والبرامج التلفزيونية، وخطب الكنائس، والأحاديث الصغيرة في صالونات الحلاقة. هل يمكننا اختزال كل العلاقات اليونانية التركية في سقوط القسطنطينية وتحولها إلى صدمة مختارة وثم إلى فكرة ميغالي؟ بالطبع لا. ولكن عندما يتطور حريق إلى سعير، لا يمكن تفسير وقوده ببساطة ضمن نظريات المرتكب العقلاني في العلاقات الدولية. وقد استمرت نيران فكرة ميغالي بحرق قبرص في أواخر خمسينيات القرن العشرين وبداية ستينياته. وقد كتب ماركيدس:

> يمكن للمرء أن يجادل بأن «الفكرة العظمى» كان لها منطق داخلي، وهو يضغط لتحقيقها كل أجزاء العالم اليوناني التي ظلت تحت حكم أجنبي. ولأن يونانيي قبرص اعتبروا أنفسهم إغريقيين تاريخيًا وثقافيًا، فقد كان لدى «الفكرة العظمى» جاذب شديد. لذلك، فعندما دعا آباء الكنيسة القبارصة [والقصد القبارصة اليونانيون] للقتال لأجل الوحدة مع اليونان، لم يتطلب تحفيز المشاعر جهدًا كبيرًا . . . . لم ينشأ الإينوسيس [توحيد قبرص مع اليونان] في الكنيسة ولكن في عقول المثقفين في محاولة منهم لإعادة أحياء الحضارة الإغريقية–البيزنطية. ولكن، كونها الأكثر مركزيةً والأقوى بين المؤسسات، فقد ساهمت الكنيسة بشكل كبير في تطويره. تبنت الكنيسة الحركة وأصبحت لكل الأسباب العملية نواته الموجهة.[155]

بعد تدخل الجيش التركي في قبرص عام 1974، قسمت الجزيرة فعليًا إلى قطاعات للإثنية الإغريقية وأخرى للإثنية التركية. استمر التوتر، ولكن منذ أصبحت اليونان عضوًا في الاتحاد الأوروبي، فقد تأثير فكرة ميغالي على السياسة الخارجية اليونانية عنصر الجذب القوي فيه. ولكن، ربما ما يزال أثر الصدمة اليونانية المختارة يؤثر على السلوك السياسي للبلد. في أبريل 2004، صوت الجانبان التركي واليوناني في قبرص بشكل منفصل على اقتراح للأمم المتحدة يعرف باسم خطة عنان رسمت الخطوط العريضة لنوع من إعادة التوحيد الفضفاضة لتسمح لقبرص كلها أن تدخل ضمن الاتحاد الأوروبي. صوت الجانب اليوناني بشكل كاسح ضد هذا التوحيد، بينما صوت الجانب التركي بشكل كاسح معه. كان هناك الكثير من الأسباب السياسية الواقعية لتصويت القبارصة اليونانيين «لا»، كالشروط الخاصة بالاتفاقيات فيما يخص التعديلات الإقليمية، وعودة الملكيات والأشخاص النازحين، ونزع

السلاح، ولكن ما يزال من الممكن سماع صدى فكرة ميغالي فيه. فقبل الاستفتاء، خطب بعض قادة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية في الجزيرة بأن أي قبرصي يوناني سيصوت «نعم» سيذهب إلى الجحيم. يبدو أن الإحساس العاطفي لدى القبارصة اليونانيين بالاستحقاق انتصر على خطة تشريعية كانت ستؤسس لنوع من التعاون مع القبارصة الأتراك.

كما ذكرت، فأنا لا أريد بأي شكل أن أختصر العلاقات التركية-اليونانية في أثر فكرة ميغالي وحدها. لا أريد أن أعطي انطباعًا بأن مشاكل طرف واحد هي التي تسبب المشاكل والعنف في العلاقات الدولية – إذ تأتي أسباب العنف عادةً من كلا الجانبين. ولا أنكر أيضًا معاناة اليونانيين لا قبل الاستقلال ولا بعده. كان تركيز هذا الفصل أكثر تحديدًا: العلاقة بين المجموعة الكبيرة المعاصرة، والصدمات الهائلة لأسلافها، وتغيير الوظيفة إلى أيديولوجية استحقاق مفرطة وواسعة الانتشار.

بينما ساهمت فكرة ميغالي في التوترات وإراقة الدماء، فإن الإمكانات المدمرة الحقيقية لصدمة مختارة تبينها أكثر الأحداث في يوغوسلافيا السابقة بعد انهيار الشيوعية. ففي ذلك الوقت، نشرت القيادة الصربية عن عمد دعاية سياسية أعادت تنشيط مشاعر الخسارة، والإذلال، والعار، والاضطهاد العميقة والمقلقة والتي دفعت الشعب الصربي إلى تنفيذ المهمات المروعة التي مررت إليهم، بطريقة مروعة، من خلال الصدمة المختارة الخاصة بهم.

يحيط التعريف البسيط بالدعاية السياسية، بمعناها الأوسع، أي تواصل وتلاعب من مصدر سلطة سياسية يوجه نحو أتباعها ومعارضيها في الديار و/أو في الخارج، بالإضافة إلى أولئك الذين قد يوصفون بالمحايدين. هدفها هو تعزيز رغبات أصحاب الدعاية وأفكارهم وفي بعض الحالات، أيديولوجيتهم السياسية. في العالم الحديث، توجد الدعاية السياسية في كل من المجتمعات المفتوحة والمغلقة، وخاصةً خلال فترات التوتر الوطني والدولي

والحرب والظروف الشبيهة بالحرب مثل الإرهاب. بعد 11 سبتمبر، ازدادت الدعاية السياسية بشكل ملحوظ، سواءً ضمن الولايات المتحدة أو خارجها. يبدو أنها في كل مكان.

ولكن الدعاية المستخدمة في صربيا بعد صعود سلوبودان ميلوسيفيتش للسلطة كانت فريدةً جدًا، ومحددةً، وفعالةً، وقاتلة. استهدفت هذه الدعاية بشكل مباشر معركة كوسوفو في 1389، وهي حادثة مبالغ في جعلها أسطورية أصبحت ترمز لهزيمة الصرب المسيحيين ومعاناتهم التي تلتها على أيدي العثمانيين المسلمين. ربما تكون هذه هي الصدمة المختارة المثالية – فقد أدت إعادة تنشيطها إلى انهيار ستمئة سنة وعشرات الأجيال مجتمعةً في الحاضر؛ وقد بلغت المهام الموروثة من القوة ما جعل الزمن يبدو كأنه لا يمضي. كان الصرب سينتقمون من هزيمتهم، ويستعيدون الأراضي التي كانت من «حقهم»، وينقلبون أخيرًا على الاعتداء عليهم كضحايا.

هناك روايات تاريخية متعددة ومتناقضة عن معركة كوسوفو، ومن المستحيل نقل ما حدث بدقة. نحن نعلم حقًا أن معركة كبرى حدثت وتكبد فيها الطرفان خسائر كثيرة؛ قتل كل من القائد الصربي الأمير لازار والسلطان العثماني مراد الأول. بعد المعركة، نقلت جثة لازار إلى دير رافانيكا الصربي المركزي وطوب هناك، وخلفه في النهاية ابنه ستيفان لازاريفيتش. بينما دفن قلب مراد وأعضاء أخرى منه في كوسوفو، ولكن بقية جثته أعيدت إلى مدينة بورصة في الأناضول ودفن إلى جوار أسلافه، وخلفه ابنه بايزيد سلطانًا. نعلم أيضًا أنه سواء كانت هذه المعركة الواحدة حاسمةً بشكل واضح أم لا، فقد نما نفوذ العثمانيين في صربيا. إذ تزوج بايزيد، مثلًا، إحدى بنات لازار، وقاتل ابن لازار ستيفان لازاريفيتش مع الجيش العثماني في معركته ضد تيمورلنك، زعيم إمبراطورية المغول. وفي الوقت نفسه، ظلت صربيا مستقلةً بشكل أساسي وتتمتع بعقود من السلام والازدهار النسبيين لوقت لا بأس به بعد معركة كوسوفو. ولكن في النهاية، غزا العثمانيون صربيا كلها بحلول عام 1459، بعد ست سنوات من سقوط بيزنطة.

مع مرور الزمن، ارتبط كل من كوسوفو ولازار بشكل مباشر بسقوط صربيا، وحيكت الكثير من الأساطير حول كل منهما. تطور تمثيل ذهني مشترك للمعركة على مدى العقود والقرون، لينقل ويتحول من خلال الروايات الشفوية والدينية القوية في صربيا. جعلت هذه الحكايات لازار شهيدًا ومقدسًا، وشخصًا شبيهًا بالمسيح للصربيين، وأصبحت خسارة كوسوفو بالنسبة لهم بمثل أهمية سقوط القدس تمامًا. مع ترسيخ السيطرة العثمانية، تحرك العديد من الصرب شمالًا، بما فيهم الرهبان الذين ظلوا يحرسون جثمان لازار في رافانيكا. سافرت أساطير البطل الصربي ومعركة كوسوفو مع رفاته، غالبًا من خلال حكايا شعراء التروبادور الجوالين الصربيين الذين يدعون *الغوسلار*.

وفقًا لإحدى الأساطير، ظهر القديس إيليا، على شكل صقر رمادي، أمام الأمير لازار في ليلة معركة كوسوفو لإيصال رسالة من مريم العذراء. أعطي لازار خيارين: يمكنه أن يكسب المعركة ويجد ملكوتًا على الأرض، أو يخسر المعركة ويجد ملكوتًا في السماء. اختار الأمير لازار الذهاب إلى السماء ورافقه يسوع المصلوب.[156] صورت المنحوتات واللوحات الصربية لازار بطريقة مشابهة، ومنها لوحة معدلة عن *العشاء الأخير* يجلس فيها لازار في المنتصف. كانت كوسوفو تصعد لتكون الصدمة المختارة الصربية الرئيسية.

لم يمكن لا لمرور القرون ولا للسيطرة الشيوعية أن يطفئا قوة كوسوفو كعلامة على هوية المجموعة الصربية. في الواقع، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، أعيد إحياؤها بسرعة تحت قيادة سلوبودان ميلوسيفيتش. مع اقتراب ذكرى مرور ستمئة عام على معركة كوسوفو، نبش شعب ميلوسيفيتش حرفيًا جثة لازار ومعه المهمات التي نقلت على مدى ستمئة عام. وبدعم من سلطات الكنيسة الصربية وبعض الأكاديميين، اتخذت الترتيبات اللازمة لإخراج جثة لازار من «المنفى» وإعادته إلى مكان دفنه الصحيح. ولكن رحلة عودة لازار إلى كوسوفو لم تكن قصيرة: فقد وضع رفاته في نعش وأخذ في جولة لمدة عام ليجوب كل قرية وبلدة صربية حيث كانت حشود المكلومين المتشحين بالسواد تجتمع لاستقباله. دفن جثمان لازار رمزيًا وأعيد تجسيده في العديد، العديد، من المناسبات. أجريت المراسم

الدينية، وألقى بعض السياسيين خطابات كراهية مباشرة أو غير مباشرة. بدأ الناس يشعرون، دون أن يعوا ذلك فكريًا، أن الهزيمة في معركة كوسوفو لم تحدث إلا مؤخرًا، وهو تطور أصبح ممكنًا بفضل حقيقة أن الصدمة المختارة ظلت حيةً فعليًا –حتى لو كانت نائمة في بعض الأحيان– لقرون. ومن ثم فإن الصدمة الصربية المختارة ستساعد في ترسيخ هوية صربية جديدة بعد زوال يوغوسلافيا.

في 28 يونيو، 1989، في ذكرى مرور ستمئة عام على معركة كوسوفو، أتى ميلوسيفيتش بنفسه إلى أرض المراسم، وهي تلة مطلة على ساحة معركة كوسوفو، حيث تجمع آلاف الصربيين لإحياء ذكرى هذا الحدث. كان نصب تذكاري ضخم مصنوع من حجر أحمر يرمز للدم قد أقيم، في وقت سابق، كما ذكرت في الفصل 8، في الموقع. الآن، كان ميلوسيفيتش، الآتي إلى هذا المكان بالطائرة المروحية، تجسيدًا للازار العائد إلى الأرض من السماء. ولكن شعور الصربيين بكونهم ضحايا والذي كان يربطهم معًا قد تغير الآن: فبدلًا من متابعة اختيار لازار لملكوت السماء، يختار الصرب الآن «مملكةً على الأرض».

سينقلبون الآن على خساراتهم وينتمون لإذلالهم ويستعيدون الأراضي التقليدية لصربيا الواقعة الآن بأيدي «الآخرين». في صورة فوتوغرافية لهذا التجمع، يمكن رؤية نداء لازار ذي الستمئة عام لكل الصربيين ليحاربوا ضد الترك مطبوعةً على قمصان العديد من المتفرجين. ساعدت قيامة لازار وإعادة تنشيط صدمة كوسوفو المختارة على خلق مناخ ملائم للعنف الهائل في المستقبل ضد البوشناق المسلمين ولاحقًا ضد الألبانيين في يوغوسلافيا السابقة، والذين كان يعتبرهم الصربيون امتدادًا للأتراك. في الواقع، لعب البوشناق والألبان دورًا مهمًا في التاريخ العثماني وكثيرًا ما أطلق عليهم الصربيون، في المواقف العصيبة، «أتراكًا».

وأعتقد أيضًا أن إعادة تنشيط الصدمة المختارة لدى الصرب ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالاغتصاب المنهجي للنساء البوسنيات. خلال الحروب أو المواقف المشابهة للحرب، ينتكس الأفراد والجماعات على حد سواء ويندمج العنف الجنسي والعدوان في أذهان وأفعال العديد

من الأفراد. قد يؤدي هذا إلى الاغتصاب. الصور الرقمية لما فعله الجنود الأمريكيون في سجن أبو غريب في العراق توضيح مصور لدمج العدوان بالجنس. أثناء كتابتي لهذه الكلمات، من الصعب تحديد إذا ما كانت ستحدث في المستقبل تحقيقات أكثر فيما يخص أبو غريب، باستثناء تلك التي جلبت بعض الجنود الذين كانوا متورطين بشكل مباشر إلى المحاكم العسكرية. تعكس هذه الأحداث انتكاس بعض الأفراد وجمعهم الجنس والعنف من خلال الإذلال «الآخر» وتجريده من إنسانيته. ولكن، كانت عمليات الاغتصاب في صربيا ممنهجة ومشرعة بأيديولوجية استحقاق.

لفهم طبيعة حوادث الاغتصاب التي حدثت في يوغوسلافيا السابقة، لننظر أولًا إلى مثال عن الدعاية الصربية من أواخر ثمانينيات القرن العشرين وأوائل تسعينياته:

> بأوامر من أصوليين إسلاميين من سراييفو، يجري فصل نساء صحيحات أعمارهن من 17 حتى 40 عامًا عن بعضهن وإخضاعهن لمعاملة خاصة. وفقًا لخططهم المريضة التي تعود إلى عدة سنوات مضت يجب أن تحبل هذه النساء من نطاف مسلمين ملتزمين لتربية جيل من الإنكشاريين في الأراضي التي يعتبرونها لهم قطعًا، الجمهورية الإسلامية. بكلمات أخرى، ترتكب جريمة رباعية الأوجه ضد المرأة الصربية: أخذها من عائلتها، جعلها تحبل من نطاف غير مرغوبة، إرغامها على ولادة غريب وثم أخذه بعيدًا عنها.[157]

يبدو أن هذه الرسالة كانت تحذر من إعادة إحياء نظام الدوشيرمة العثماني، والخطط العلنية للمسلمين في يوغوسلافيا السابقة لبدء جيش إنكشاري جديد. باختصار، الدوشيرمة، وهي

ممارسة بدأت في ظل حكم مراد الأول واستمرت لأربعة قرون تلت، انضوت على التجنيد الإجباري للشباب من سكان الإمبراطورية المسيحيين الأرثوذكسيين ليؤدوا دور عاملي الدولة. كان الشباب المسيحيون الأرثوذكس، كاليافعين الصربيين، يجمعون كأنهم ضريبة استثنائية يفرضها السلطان، ويؤخذون من عوائلهم، ويحولون إلى الإسلام، ويعلمون ليخدموا السلطان. كان أحد أعظم كبار وزراء الإمبراطورية العثمانية، سوكولو (سوكولوفيتش) محمد باشا، على سبيل المثال، صربيًا في الأصل تصعد في نظام الدوشيرمة. ولكن، معظم شباب الصربيين (والمسيحيين السابقين الآخرين) كانوا يجندون في رتب الجيش كأعضاء لقوة الإنكشاريين المرعبة.

في أواخر ثمانينيات القرن العشرين وأوائل تسعينياته، سعت الدعاية الصربية لبث الرعب بين أمهات الصربيين خشية فقد أبنائهن، الذين سيعودون لهم إنكشاريين لإخضاع وقتل شعبهم. لم تخلُ هذه الفكرة من بذرة للحقيقة، إذ أشارت إحدى كتابات الزعيم البوسني المسلم آنذاك علي عزت بيغوفيتش إلى إمكانية قيام مشروع إسلامي في البوسنة. ومع ذلك، فلأي غاية عملية ممكنة، كانت إمكانية إعادة إحياء نظام الدوشيرمة محض خيال صربي يستخدم للدعاية.

كان الرائد ميلوفان ميلوتينوفيتش من الشخصيات الرئيسية في إدارة آلة الدعاية الصربية في ظل نظام ميلوسيفيتش. في عام 1991، قابله الصحفي الأمريكي روي غاتمان، الذي بلغ من الصدمة عند الإشارة إلى الإنكشاريين درجةً سأل عندها ميلوتينوفيتش، «عن أي بلد تتحدث؟»[158] أجاب ميلوتينوفيتش أنها كانت ظاهرةً حديثة، مضيفًا، «هم يحاولون فعل ما فعلوه قبل قرون مضت».[159] في بيان ميلوتينوفيتش، نسمع إشارات إلى عواقب إعادة تنشيط الصدمة الصربية المختارة – انهيار للزمن – ومثالًا على معادلة مباشرة وإن كان متعذرًا الدفاع عنها تربط الخصم الحالي بعدو قديم. لا سبيل لي لمعرفة إذا ما كان ميلوتينوفيتش حقًا يؤمن بما كان يقوله. المسألة المهمة أن ملاحظاته كانت جانبًا من ظاهرة جماعة–كبيرة تحكمها سيكولوجية انهيار الزمن في مجتمع منتكس.

قبل الاغتصاب المنظم للنساء البوسنيات المسلمات مباشرةً وفي أثنائه، حلت الدعاية الصربية الجديدة محل الحملة القديمة التي حذرت النساء الصربيات من الاغتصاب المنهجي من قبل رجال مسلمين بوسنيين (كامتداد للعثمانيين). أضافت هذه الدعاية الجديدة لفتةً: إذا اغتصب رجل صربي امرأةً بوسنية مسلمة، فإن الطفل المولود نتيجة هذا الاغتصاب سيكون دمه صربيًا بالكامل ولا يحمل أي بقايا من الأم (أي هوية المجموعة-الكبيرة غير الصربية للأم). بدت عالمة الاجتماع الأمريكية بيفرلي آلن، التي درس هذا الجانب من الدعاية الصربية، محتارةً. في كتابها، *حرب الاغتصاب: الإبادة الجماعية المخفية في البوسنة والهرسك وكرواتيا*، تساءلت عما إذا كان الصرب لديهم أي فكرة عن علم الوراثة.[160] بالتأكيد لم يكن لهذا الخيط من الدعاية الصربية أي صلة بالعلم: إن اغتصاب امرأة مسلمة لإنجاب طفل صربي ولد رغبة للانقلاب على استهداف أسلافهم كضحايا وكان أيضًا تعبيرًا عن التعرف على العثمانيين أعداء أسلافهم.

عندما أعاد ميلوسيفيتش تنشيط صدمة كوسوفو المختارة لأول مرة، هل كان ينوي تطبيق الاغتصاب الممنهج للنساء البوسنيات المسلمات والتطهير الإثني لصربيا؟ أم كان، على الأقل في البداية، مجرد متحمس فائق للقومية استغل حاجة صربيا إلى «النحن-وية» كوسيلة لصعوده إلى السلطة؟ قد لا يجاب على هذا السؤال بشكل كامل أبدًا، ولكن التاريخ أظهر مرة تلو الأخرى أن صندوق باندورا للشعور بالاستهداف كضحايا ما أن يفتح، سرعان ما تتبعه الإبادة. عندما تنتكس مجموعة كبيرة ويتساءل الناس عن هوية مجموعتهم الكبيرة، تصبح شخصية القائد السياسي عاملاً مهمًا في السيناريو، عاملاً له تأثير ملحوظ على العمليات السياسية والاجتماعية. قد يشعل القائد العواطف الإثنية أو عواطف المجموعة-الكبيرة الأخرى أو يشكمها، وقد يقود المجموعة نحو تعايش سلمي مع «الآخرين»، أو يوقد مناخًا حربيًا، مؤديًا دورًا فعالاً حتى في إشعال الحرب. في كتابي *الثقة العمياء: المجموعات الكبيرة وقادتها في أوقات الأزمة والرعب*، كتبت عن القادة «الإصلاحيين» و«التدميريين» في المجموعات الكبيرة المنتكسة.[161] يساعد الأولون في تعزيز هوية المجموعة المهددة أو

المتغيرة دون الاستنقاص من مجموعة أخرى أو تدميرها. بينما يهدف الأخيرون إلى تطوير و/أو تعديل الهوية الجديدة للمجموعة من خلال تدمير مجموعة مقابلة، بطريقة أو بأخرى. في عملية من خمس خطوات، يفعل القادة التدميريون وآلاتهم الدعائية ما يلي: (1) تعزيز حس مشترك بالاستهداف ضمن المجموعة الكبيرة بعد هجوم من مجموعة معادية أو كارثة أخرى، كارثة اقتصادية مثلًا، أو حتى في حالات لا يوجد فيها أي استهداف حديث مرئي؛ (2) إعادة تنشيط صدمة مختارة؛ (3) زيادة إحساس النحن-وية (هوية المجموعة-الكبيرة)، ولكن في حالة منتكسة؛ (4) الاستنقاص من العدو إلى درجة نزع الإنسانية عنه؛ (5) خلق ميل مفرط للشعور بالاستحقاق للانتقام أو إعادة تنشيط أيديولوجية استحقاق نائمة.

من خلال الخطوات الخمس، يخلق مناخ تشعر المجموعات الكبيرة في ظله بالاستحقاق لتدمير العدو الحالي وحتى الاشتراك في التطهير الثقافي والإثني، وبهذا تطهير أنفسهم من أي تلوث من قبل «آخرين» ناقصين وغير مرغوبين. قد تؤله المجموعة الكبيرة، في ظل ظروف معينة، بدون وسائل واقعية لتمارس السادية ضد العدو الحالي، استهدافها كضحية وتصبح «مازوشية». للصدمات المختارة المعاد تنشيطها وأيديولوجيات الاستحقاق المبالغ فيها المصاحبة لها، وخاصةً عند تبنيها من قبل قائد سياسي، آثار عميقة على المجموعات الكبيرة والمجموعات «الأخرى» التي تعتبرها أعداءها، ما يلعب دورًا بارزًا في تطور الرعب والإرهاب.

في وقتنا الحاضر، قد نتساءل عن جوانب متعددة من سيكولوجية المجموعة-الكبيرة التي لعبت دورًا في جعل مئات آلاف أو ربما حتى ملايين المسلمين عاشقين لأسامة بن لادن. كان بن لادن يشير باستمرار إلى ثلاث صدمات تاريخية حديثة إلى حد ما لتحفيز المشاعر لدى أتباعه وتشجيعهم على الانتقام من الأمريكيين وحلفائهم: «اقتحام» الولايات المتحدة للأماكن المقدسة في المملكة العربية السعودية؛ وعقوبات الأمم المتحدة بقيادة الولايات المتحدة ضد العراق وما صاحبها من معاناة للمدنيين العراقيين وخاصةً أطفال العراق؛ ودعم الولايات المتحدة لإسرائيل ضد الفلسطينيين العرب. هل حاول أسامة بن لادن

أيضًا إعادة تنشيط صدمة مختارة؟ في بعض خطاباته، تحدث عن تجرع المسلمين الإذلال والاحتقار لأكثر من ثمانين عامًا وصرح بأن أمريكا بعد 11 سبتمبر تذوق من الكأس نفسه. في إحدى الخطب، قال إن «العالم الإسلامي [وقع] تحت راية الصليب» قبل أكثر من ثمانين عامًا.[162]

على الأرجح، فقد كان يشير إلى انهيار الإمبراطورية العثمانية وإنهاء الخلافة من قبل الجمهورية التركية الحديثة تحت حكم كمال أتاتورك. رغم أن إنهاء الخلافة لا يبدو أنه يعم في المخاوف اليومية للأتباع المسلمين الأصوليين لبن لادن، ربما جعل بن لادن هذا الحدث صدمته المختارة الشخصية. ربما تكون أيديولوجيته التحريرية الوحدوية لاستعادة الخلافة جزءًا مما أعطاه «الإذن» لإيذاء أو قتل «الآخرين»، لأنه فقط بتدميرهم سيصبح انتشار علامته الإسلامية (التحريرية الوحدوية) أمرًا ممكنًا.

بأي حال، أظهر مثال صربيا أنه بإعادة تنشيط صدمة مختارة، حولت القيادة السياسية، باستخدام الدعاية، «ذكرى» إلى حدث حاد. هناك أيضًا أحداث جارية حادة وهائلة مولدة للصدمات تؤثر، دون أن تكثف في صورة صدمة مختارة ودون أن تلوث بتجربة انهيار الزمن، بشكل هائل على عمليات المجموعة-الكبيرة وقد تلد أيديولوجيات سياسية جديدة. وأنا أعني بمصطلح صدمة حادة صدمةً تسبب حالةً مستمرة من الارتباك، وحدادًا لا يطاق، وفوضى، وازديادًا في الإجرام ضمن المجموعة. في ظل هذه الظروف، تبحث المجموعة عن قائد (أو قادة) ليؤدي دور المصلح أو المنقذ، ويحاول إعادة تأسيس إحساس جديد بهوية المجموعة-الكبيرة. قد يؤدي هذا بذاته إلى أحداث عنف، ورعب، وإرهاب موجهة نحو الآخرين، أو حتى داخليًا ضد أعضاء آخرين من المجموعة المتعرضة للصدمة. فمثلًا، أثناء كتابتي لهذا الكتاب، يشهد الشعب العراقي، المقسم تقسيمات طائفية (سنة، شيعة) وإثنية (عرب، أكراد، تركمان)، والذي لا يمتلك قائدًا موحدًا خاصًا به لشكم العواطف، صدمةً حادةً.

شهدت الأمم المتحدة صدمتها الحادة الخاصة بها في 11 سبتمبر، 2001. ولكن، على عكس الوضع في العراق، للولايات المتحدة قائد سياسي معرف ومؤسسات معرفة، ولم

تنحدر البلد إلى الفوضى. بدل ذلك، الموجود هو انقسامات سياسية وشعور مشترك لا يمكن تعريفه بسهولة، بأن أشياء معينة لم تعد روتينية – هناك شعور مزعج بأن شيئًا ما خاطئ. أدت أحداث 11 سبتمبر في النهاية إلى سياسة أيديولوجية تعرف باسم تعاليم بوش، تهدد باستخدام القوة الاستباقية أحادية الجانب في الساحة الدولية. وسيبقى كون هذه التعاليم الجدلية ستبقى لما بعد رئاسة بوش محط جدل.

بالفعل، لا تصير الأيديولوجية السياسية التي تنبثق من صدمة اجتماعية حادة أو تصاحبها بالضرورة مدرجةً في المؤسسات السياسية أو علامةً على هوية المجموعة-الكبيرة. وبالمثل، لا تنتهي كل صدمة حادة هائلة بالضرورة صدمةً مختارةً بعد عقود أو قرون. من الأرجح للصدمات الحادة التي تبقى «ساخنةً» لفترة طويلة، بأي حال، أن تتطور إلى صدمات مختارة. تكون الصدمة «ساخنة» إذا بقي الأفراد المتعرضون للصدمة ونسلهم مشتركين عاطفيًا في إقامة الحداد عليها واستحضار ذكراها. تبقى محرقة الهولوكوست، مثلًا، «صدمةً ساخنةً».

أيًا كان مصدر الصدمة، فإن النتيجة النهائية هي المعاناة الإنسانية. دفعت الرغبة في تخفيف شيء من هذه المعاناة على الأقل إلى إنشاء أول منظمة غير حكومية دولية. ومع تطور هذه المنظمات غير الحكومية وبدئها في توسيع نطاق عملها، أضاف العديد منها حل النزاعات الدولية إلى مجال صلاحيتها. ولكن العديد من النزاعات التي حاولت هذه المنظمات حلها كان ملوثًا بعمليات المجموعات-الكبيرة الموصوفة أعلاه، وأصبح واضحًا في النهاية أن بعض حلول النزاعات كان يقاوم بشكل واعٍ أو غير واعٍ. لذا سيناقش الفصل التالي الاستراتيجيات التي يمكنها نزع «السموم» السيكولوجية في النزاعات والسماح بحلها سلميًا.

الجزء الثالث

الهويات جنبًا إلى جنب: هل التعايش أمر ممكن؟

11 من الدبلوماسية الرسمية إلى غير الرسمية: نظرة عامة

كان لمجموعة متنوعة من العوامل في القرن العشرين دور في ظهور المنظمات غير الحكومية، التي اتخذت فيما بعد أدوارًا دائمة التوسع، وتحولت ذات يوم إلى مجال مقتصر على الإدارات الفيدرالية. حشدت جموع من الخبراء المتنوعين من مهندسين وعلماء أنثروبولوجيا لفهم المشكلات الدولية والمساعدة في حلها، لينضم إليها في نهاية المطاف علماء السلوك وغيرهم من المتخصصين في مجال الصحة العقلية، وبذلك نشط العمل متعدد التخصصات. حين شاركت شخصيًا شعرت وكأنني في عالم جديد وغريب. وعلى الرغم من شعوري بأنني رائد في مجالي، لم أكن بالطبع أول المحللين النفسيين الذين طبقوا معرفتهم بالعمليات النفسية الفردية على التجمعات الجمعية البشرية.

أشرت في المقدمة إلى مفهوم إريك إريكسون عن الانتواع الزائف وفكرته المتمثلة في تطوير كل مجموعة بشرية لشعور مميز بالهوية في فجر التاريخ البشري. ولكي يتسنى لنا تصور مفهوم إريكسون، يمكننا أن نغلق أعيننا ونتخيل مجموعةً صغيرةً من البشر الأوائل مرتدين جلودًا بنية اللون تعود لأحد أنواع الحيوانات وريشًا حمراء تعود لنوع من أنواع الطيور، ومجموعةً مجاورةً من البشر المرتدين جلودًا صفراء اللون تعود لنوع آخر من الحيوانات وريشًا خضراء تعود لنوع مختلف من الطيور، فتنقسم هاتان المجموعتان إلى نوعين مختلفين. كتب إريكسون:

> يقتصر الأمر في البداية على كل حشد أو قبيلة وطبقة أو أمة، ولكن فيما بعد تصبح حتى كل جمعية دينية ممثلةً عن النوع البشري وتعتبر الآخرين جميعًا اختراعًا غريبًا وباطلًا لبعض الآلهة غير المهمة. ولكي يتعزز الوهم بأنها مختارة، تعترف كل قبيلة بخلق خاص بها، أي بأسطورة ولاحقًا بتاريخ: وبذلك أصبح الولاء لنظام بيئي أو

أخلاقي معين أمرًا مضمونًا. لم يعرف المرء أبدًا كيف خلقت جميع القبائل الأخرى، ولكن بما أنها موجودة على أي حال، أصبحت مفيدةً على الأقل باعتبارها شاشةً لإسقاط الهويات السلبية التي كانت نظيرًا ضروريًا، إن لم يكن مزعجًا، للهويات الإيجابية.[163]

لا بد من أن البشر الأوائل احتاجوا لخدمات دبلوماسي بدائي ما في بعض المناسبات، أي في الوقت الذي لم يشاركوا فيه في قتال من أجل مصدر غذاء واحد. ويمكننا أيضًا أن نتخيل أن مصدر الغذاء الواحد هذا توسع لاحقًا ليشمل أغذيةً لنوع آخر من الجوع العاطفي: الجوع للانتماء إلى هوية مجموعة كبيرة أكثر توسعًا.

يتشارك المحللون النفسيون والعلماء السياسيون إذًا اهتمامًا لفهم كيفية تصرف البشر ضمن المجموعات ودور الدبلوماسية في تنظيمهم. ولكن إيجاد أرضية مشتركة لم يكن بالأمر السهل. ينبغي علي، بصفتي محللاً نفسيًا، أن أقبل أن عقولنا تعمل غالبًا بطريقة «بدائية» ضمن المجموعات الكبيرة، وهو ما لا يرغب العديد بالاعتراف به. أما العلماء السياسيون، في المقابل، فيفترضون أننا نتصرف بطريقة أكثر «تحضرًا» تغلب عليها العقلانية حين يتعلق الأمر بالدبلوماسية الحديثة. اسمحوا لي أن أطرح منظورين مختلفين لتوضيح التناقض المحتمل لهذين المنطلقين.

يعتقد جيه. أندرسون تومسون بوجود سلوك يسمى «العنف التحالفي القائم على الترابط الذكوري» من بين سلوكياتنا البدائية والأولية المتأصلة، ويؤكد أننا إن ألقينا نظرةً على التاريخ التطوري والترابط الذكوري في المجموعات البشرية الأولى، سنجد دافعًا طبيعيًا للعنف العشوائي الذي كان مفيدًا في معظم الأوقات على مر تاريخنا التطوري. وبحسب ما يرى تومسون، هناك أربع قدرات أو آليات فطرية ذات صلة: (1) القدرة على تشكيل تحالفات ذكورية بسهولة؛ (2) القدرة على استخدام هذه التحالفات لشن غارات مميتة بغرض القتل؛ (3) القدرة على شن هذه الغارات المميتة ضد بشر لم يقابلوهم من قبل

ولم يستفزوهم بشكل مباشر؛ (4) القدرة على رؤية أعضاء المجموعات الأخرى بالاعتماد على الآليات المعرفية ذاتها التي يستخدمونها عند رؤية فريسة ما. وفي إشارة إلى أحداث العنف الجماعي كتلك التي حدثت في 11 سبتمبر مثلًا، كتب: «إذا أردنا حقًا أن نفهم أحداث 11 سبتمبر في مستواها الأساسي، علينا أن نواجه أشكال الرعب في تاريخنا التطوري والإرث المميت الذي ورثه جميع الرجال والعنف الكامن في جوهر الدين».[164] وبعبارة أخرى، وكما أخبرني تومسون مؤخرًا: «نحن نمتلك قدرات كامنةً قد تكون مفيدةً في مواقف معينة، ويمكن أن تنشطها عمليات مجموعة ما وتستخدمها بطرق تختلف عن تصميمها الأصلي، أي طرق مميتة».

ومن الناحية الأخرى، هناك المهام الدبلوماسية التقليدية التي تطورت جنبًا إلى جنب مع «حضارتنا» ودفعتها إلى الأمام. إن الدوافع العدوانية الإنسانية، بحسب ما يؤكده العديد من العلماء السياسيين، روضتها القوانين والعادات والحكومات – ولا سيما على المستوى الدولي. قدمت الدبلوماسية تمثيلًا رسميًا لدولة ما ضمن حدود دولة أخرى، وشرحت سياساتها ودافعت عنها وفسرتها وفاوضت بشأنها، ووضعت وصاغت وعدلت العديد من القواعد الدولية ذات النوعين المعياري والتنظيمي التي من شأنها أن تشكل هيكل النظام الدولي.[165] قد يعتبر المحللون النفسيون العديد من هذه الأنشطة ممارسات طقسيةً، أي «الأساليب الصحيحة» التي يتبعها ممثلو دولة ما عند تواصلهم مع ممثلي دولة أخرى، وهي التي أصبحت جزءًا من البرتوكول السائد بين المجموعات الذي وضع حدودًا لمنع العواطف من الانفجار.

وبمرور الوقت، أضيف المزيد من القوانين والاتفاقيات لإدارة العلاقات بين الدول. تعود بعض ممارساتنا الدبلوماسية إلى مؤتمر فيينا (1814–1815)، الذي وضع الأساس للدرجات المحددة في الوضع الدبلوماسي، وحدد بوضوح ماهية الموضوعات التي يمكن للمحلق أو القنصل أو السفير أو الوزير أن يتفاعل معها وكيفية ذلك. طرح المؤتمر أيضًا مفهوم الحصانة الدبلوماسية القائم على أساس ثلاث مطالبات بالامتياز: (1) *droit de*

وهي تعني الحق في *chapelle*؛ (2) *droit de quartier*؛ (3) *droit de l'hôtel*؛ الاستمرار في ممارسة الشعائر الدينية لوطنه الأم والحصانة من الاعتقال على يد الشرطة المحلية والإعفاء من الولاية القضائية والضرائب المحلية على التوالي. وتعود بعض أشكال التزمت الأخرى المتعلقة بالدبلوماسية الرسمية إلى أبعد من ذلك، أي إلى الأفكار السياسية لبعض الرجال مثل نيكولو مكيافيلي (1469–1527) وتوماس هوبز (1588–1676) وجون لوك (1632–1704) وكارل ماركس (1818–1883) وفريدريك إنغلز (1820–1895)، في حين تعود بعض النظريات، مثل الحاجة إلى تشكيل تحالفات دولية للحفاظ على «توازن القوى»، إلى المؤرخ اليوناني ثوقيديدس.

أما دبليو. ناثانيال هاول، السفير الأمريكي السابق في الكويت خلال فترة الغزو العراقي عام 1990 والدبلوماسي المقيم منذ فترة طويلة في مركز دراسة العقل والتفاعل البشري، فتحدث عن الحاجة إلى الدبلوماسية بطريقة أخرى: نظرًا لأنه لعب كرة السلة حين كان طالبًا جامعيًا، استخدمها هاول باعتبارها تشبيهًا لشرح أنه كان من الطبيعي والضروري وضع قواعد للعب في السياسة الدولية كما هو الحال عند التخطيط لمباراة في كرة السلة. إن كلًا من السياسة الخارجية ذات الإدارة الجيدة ومباراة كرة السلة ذات التنفيذ الدقيق مثالان على التناسق والفعالية واقتصاد الجهد حين تناسبان الظروف وتنفذان على النحو المنشود. وعلى أي حال، يؤكد هاول أن الدبلوماسية –مثل كرة السلة– فن بقدر ما هي علم، لأن الشخص الدبلوماسي يعتمد بالضرورة على أسلوبه الشخصي وشخصيته وذكائه وقدرته على النجاح ضمن نطاق «قواعد اللعبة».

وعلاوةً على ذلك، ترتبط الدبلوماسية الرسمية بالضرورة بمفاهيم العدالة والأخلاق. إنها قائمة على مفهوم *Fiat Justitia, pereat mundus* (فليقم العدل ولو فني العالم). إن مفاهيم الأخلاق والعدالة والشرف تمثل الجهود المبذولة لكبح الأنانية الوحشية التي يبدو أنها حق مكتسب للجنس البشري. ولكن هذه التعريفات التي تبدو دقيقةً ظاهريًا قد تغدو غامضةً، بل ويمكن أن تنحرف أيضًا حين يصبح كل من فقدان هوية المجموعة الكبرى،

والسلطة، واحترام الذات، وتقرير المصير مهددين.[166] إن أردنا التوسع أكثر في تشبيه كرة السلة، دعونا نتخيل مباراةً على أرضية مصقولة أكثر من اللازم. سيسقط اللاعبون وينزلقون فوق بعضهم البعض، وهو ما سيحبطهم ومدربيهم والمتفرجين أيضًا. إن أردنا المشاركة في مباراة منظمة، ينبغي التخفيف من كمية الطلاء على أرضية ملعب كرة السلة. وبالمثل، تسود المشاعر بعض العلاقات بين الأعداء – كثير من التعقيدات النفسية. وإن لم يكن هناك محاولات للتعامل مع هذه المشاعر، لن تكون الجهود الدبلوماسية متناسقةً أو منهجيةً. في العديد من المناسبات المختلفة، أتيحت لي الفرصة لمراقبة بعض الدبلوماسيين «الرسميين» أثناء عملهم، وغالبًا ما شعرت بعدم الارتياح حين يشير مفاوض دبلوماسي إلى نظيره بقوله «زميلي الموقر». هذه هي قواعد اللعبة، ولكنني شعرت أنه لم يعجب بما قاله الدبلوماسي أبدًا، ولم ترق له الدولة التي جاء منها أيضًا. تخللت المشاعر المسمومة كلا الطرفين، وحاولا بذل قصارى جهدهما لإنكارها أو تمويهها – ولكن من الواضح أنهما لم ينجحا في ذلك.

إذن، كيف يمكننا إيجاد أرضية مشتركة بين التوجهات المختلفة لعلماء السياسة والسلوك؟ وهل يمكن لمفاهيم فرويد أو إريكسون[167] أن تجد مكانةً مهمةً في عالم الدبلوماسية؟ كما يتساءل هارولد سوندرز، مساعد سابق لوزير الخارجية الأمريكي، هل يمكننا خلق منظور جديد وإدخال لغة حديثة عندما يفشل المنظور القديم واللغة التقليدية في جذب الانتباه إلى العالم؟[168] كنت أنوي أن أعرف الإجابة بالاعتماد على الحقيقة المتمثلة في أن الجوانب الأساسية للدبلوماسية قد تغيرت تدريجيًا منذ مؤتمر فيينا على يد العديد ممن سبقوني.

أسفر إنشاء الأمم المتحدة في 24 أكتوبر عام 1945 إلى تغيير كثير من نواحي العلاقات بين الدول ذات السيادة، وسرعان ما جاءت الحرب الباردة التي غيرت المزيد من الجوانب الأخرى. كان سباق التسلح النووي من ناحية استراتيجيةً عسكريةً وسياسيةً منطقيةً تقوم على ردع هجمات العدو من خلال التعبير الدبلوماسي الدقيق؛ أي التهديدات

«الموثوقة» و«الدمار المؤكد المتبادل». ومن ناحية أخرى، كانت الاحتمالية الواقعية لحدوث تدمير مروع على مستوى العالم أمرًا بعيدًا عن المنطق، إذ تسبب أيضًا في إثارة كثير من القلق غير المعلن عنه ولكن المعبر عنه في عدد لا يحصى من الكتب والمسرحيات والأفلام واللوحات. بدأ الناس، بخلاف رجال الدولة، بالمطالبة بمعرفة المزيد عن سلوك القادة السياسيين. خلقت أسلحة الدمار الشامل شعورًا بالحاجة الملحة إلى إجراء مفاوضات على أعلى المستويات، وهو ما حدث خلال أزمة صواريخ كوبا في أكتوبر عام 1962. ولد «عصر مؤتمرات القمة»، على حد تعبير وزير الخارجية الإسرائيلي الراحل أبا إيبان، وولدت معه الرغبة في عقد اجتماعات مباشرة منتظمة ومنظمة بين قادة الدول المتعارضة أو المتنافسة. غير هذا الشكل الثنائي المباشر من المفاوضات الدبلوماسية وظيفة الأجهزة السياسية الخارجية، بما في ذلك وزارة الخارجية.[169]

أدى التطور الهائل لوسائل الاتصالات السريعة والتغطية الإعلامية الفورية أيضًا إلى تغيير في آلية ممارسة الدبلوماسية الرسمية. أصبح بمقدور قادة المجموعات الكبيرة، سواءً كانوا منتخبين ديموقراطيًا أو ديكتاتوريين، إرسال رسائل إلى أصدقائهم وأعدائهم والمشاركة في البروباغندا السياسية من خلال الظهور على شاشات التلفزيون، وهو ما ألغى ضرورة إرسال السفراء أو غيرهم من الرسل لإيصال أقوالهم. وبعد ذلك، أشار السير هارولد نيكلسون في منتصف الحرب الباردة إلى سبب آخر للتغيير: ظهور المفاهيم «الديموقراطية» للعلاقات الدولية، إذ قال إنها أدت إلى منع مجموعات النخبة الصغيرة من أن تكون الفاعل الوحيد في الدبلوماسية، وسيضطر بذلك القادة السياسيون ورجال الدولة وغيرهم من البيروقراطيين إلى شرح مواقفهم للجماهير في دولهم أو أقاليمهم.[170]

أما ظهور قضايا حقوق الإنسان حين بدأت المطالب بتحدث السلطات الأجنبية علنًا عن قضايا الأقليات أو الانتهاكات في البلدان ذات السيادة، بل وحتى التدخل فيها، فأسفر عن حدوث تغييرات أيضًا. وكذلك هو الحال بالنسبة «للعولمة». أدى ظهور العولمة في البيئة الدولية إلى المزيد من الاجتماعات الدولية، واللوائح، والمعاهدات، وما يصاحبها من اتفاقيات

اقتصادية وقانونية يجريها أشخاص خارج الدوائر الدبلوماسية الرسمية، كرجال الأعمال مثلًا. حظيت هذه الأنشطة تدريجيًا بالمزيد والمزيد من التغطية الإعلامية التي عادةً ما تكون ملوثةً بالبروباغندا السياسية والاقتصادية.

ساهم التزايد المستمر في عدد المنظمات غير الحكومية حول العالم في التأثير على الممارسة الدبلوماسية الرسمية بدرجة أو بأخرى. وفي واقع الأمر، أخبرني دبلوماسي رفيع المستوى في مقر الأمم المتحدة في أوروبا ذات مرة بعيدًا عن الرسميات أن الدبلوماسيين الاحترافيين الرسميين مثله، على الرغم من أنهم مضطرون للابتسام والاستماع إلى العديد من مطالبها، يعتقدون أن كثيرًا من المنظمات غير الحكومية مصدر إزعاج لهم.

وأخيرًا، كان لتطور ما يطلق عليه اسم «الدبلوماسية غير الرسمية» وظهور منظمات حل النزاعات وإدارة الصراعات تأثيرًا على الدبلوماسية الرسمية إيجابًا وسلبًا. وهنا سأشرح بالتفصيل آلية عمل هذه المنظمات وتاريخها، وسأتحدث في الفصلين 12 و13 عن أسلوب من أساليب «الدبلوماسية غير الرسمية» الذي طورته بمساعدة زملائي في مركز دراسة العقل والتفاعل البشري، وأطلقنا عليه اسم «نموذج الشجرة».

تحدث إيبان في ثمانينات القرن العشرين عن دور الأفراد والمنظمات الذي تعدى على المجال الدبلوماسي الذي كان محرمًا عليهم ذات يوم: «كل من الكويكرز، وقادة الكنيسة، ورؤساء مؤسسات أبحاث السلام، والأساتذة، وأعضاء البرلمانات، والصحفيين، جميعهم حاول حل النزاعات التي استعصت على الجهود التي بذلها المبعوثون المعتمدون رسميًا».[171]
وفي تتبعه للجذور التي ساعدت في تفشي الدبلوماسية غير الرسمية في الولايات المتحدة، يذكرنا إيبان بالتعليقات التي أدلى بها الرئيس دوايت دي. أيزنهاور، إذ قال ذات مرة إن المواطنين العاديين الذين يتمتعون بثقة حكوماتهم قد يساعدون في تمهيد الطريق للمفاوضات الرسمية. لم يكن موقف أيزنهاور اعتياديًا: اعتقد معظم القادة السياسيين في عصره أن الدبلوماسيين غير الرسميين ليسوا سوى متدخلين مزعجين بصرف النظر عن نواياهم الحسنة. وبطبيعة الحال، كان هؤلاء القادة محقين في اعتقادهم: طغى الطابع

التجاري اليوم على الدبلوماسية غير الرسمية في الولايات المتحدة بسبب العدد الهائل من الخبراء المزعومين في حل النزاعات.

حين كنت في زيارة لقبرص الشمالية قبل اثني عشر عامًا تقريبًا، ذهبت للقاء زميل لي منذ أيام المدرسة الثانوية في منزله. كان يشغل في تلك الفترة منصبًا جيدًا في المكتب الرئاسي للرئيس رؤوف دنكطاش، إذا كان يظهر على شاشات التلفزيون بشكل منتظم لكي يقدم تحليلاته السياسية. وخلاصة القول إنه كان شخصًا معروفًا في المجتمع التركي القبرصي. وعلمت أيضًا أنه حضر بعض اجتماعات «حل النزاعات» مع القبارصة الأتراك النافذين الآخرين، إذ التقوا فيها بنظرائهم القبارصة اليونانيين، وأدار فريق وساطة أمريكي، بعد تلقيه كثيرًا من الأموال من مصادر أمريكية معينة، اجتماعات «حل النزاعات» هذه. أراد صديقي حين ذهبت للقائه أن يريني بعض الصور لأطفاله، ولكن حين فتح أحد ألبومات الصور، سقطت صورة كبيرة على الأرض. التقطتها ورأيت فيها صديقي وهو يلعب بقطع الليغو كما لو أنه طفل صغير يحاول بناء منزل. اعتقدت في البداية أنه ربما كان يلعب برفقة أحد أطفال أصدقائه لأنه لم يكن له أحفاد في تلك الفترة. ولكن حين لاحظ صديقي أنني رأيت الصورة، بدا محرجًا للغاية. أخبرني أن هذه الصورة قد التقطت خلال آخر اجتماع «حل نزاعات» حضره. يبدو أن فريق الوساطة الأمريكي طلب من القبارصة اليونانيين والأتراك، بالإضافة إلى الرجال والنساء المؤثرين في مجتمعاتهم، أن يلعبوا بقطع الليغو سويةً. كان الهدف من هذا النشاط أن يساعد في حل النزاع القبرصي. بدأ صديقي يتذكر الذل الذي أحس به خلال مشاركته في هذا النشاط، إذ شعر بالإهانة وأنهم تعاملوا معه وكأنه طفل. وأخبرني أيضًا أنه قرر ألا يحضر الاجتماعات المقبلة. إنني واثق بأن فريق الوساطة الأمريكي لديه تفسير منطقي لأسلوبه هذا، ولكنني أعتقد أن هذا المثال وغيره من الأمثلة التي لفتت انتباهي يعكس التبسيط والتسويق التجاري اللذين سيطرا على «قطاع» حل النزاعات، إذ يتدرب الأشخاص على ممارسة «حيل» سريعة واستخدام «التفكير السحري»، مثل إحلال السلام بين ممثلين عن طرفين متعادين من خلال اللعب.

وبطبيعة الحال، لا بد من وجود جهود دبلوماسية غير رسمية حقيقية، وثمة أشخاص ساهموا في فتح باب الحوار بين الأطراف المتعادية وساعدوا في تحقيق التعافي المجتمعي بأساليب مهمة، مثل نودار شارفيلادزي الذي تحدثت عنه في الفصول السابقة. أنا شخصيًا قادر على كتابة قائمة طويلة بالمساهمين الإيجابيين. ولكن ما هي التطورات المهمة التي مهدت الطريق لانخراطي في المجال الدبلوماسي غير الرسمي؟ سأتحدث عن بعض منها.

بعد فشل قمة أيزنهاور- خروتشوف عام 1959، دعم أيزنهاور مفاوضات مؤتمر دارتموث – سلسلة من الاجتماعات غير الرسمية بين المؤثرين في المجتمع الأمريكي والسوفييتي نظمها في بادئ الأمر نورمان كوينز ومن بعده محرر صحيفة *ساتردي ريفيو*. اقتصرت الاجتماعات الأولى على توفير منتدى غير رسمي للتواصل وتبادل المعلومات، ولكن قرر المشاركون في أوائل ثمانينات القرن العشرين إنشاء فرق عمل صغيرة وأكثر تركيزًا، واتفقوا أيضًا على الاجتماع بين الجلسات العامة. وبالإضافة إلى ذلك، أنشئ فريق عمل خاص بالعلاقات السياسية في عام 1986، إذ كان له تأثير على عمليتي *غلاسنوست* و*بيريسترويكا*.[172]

بدأ رواد الأعمال الاقتصاديين بالانخراط في العلاقات الدولية والدبلوماسية غير الرسمية خلال الحرب الباردة.[173] وعلى سبيل المثال، كان لأرماند هامر من شركة أوكسيدنتال بتروليوم علاقات مع السوفييت منذ عشرينيات القرن العشرين، إذ كان أشبه بحلقة وصل بين القوتين العظيمتين. وعلاوةً على ذلك، جرت مفاوضات خاصة، كتلك التي شارك فيها وولفغانغ فوغل مثلًا، وهو ألماني شارك في عملية تبادل الجواسيس بين الشرق والغرب التي تضمنت إطلاق سراح أناتولي شارانسكي. استقطبت هذه المفاوضات الخاصة جمهورًا أكبر بعد تدخل وسائل الإعلام الإخبارية. وفي واقع الأمر، وجد بعض المراسلين أنفسهم يعملون بصفتهم دبلوماسيين غير رسميين، مثل جون سكالي المراسل الأمريكي الذي شارك في وساطة «ما وراء الكواليس» خلال أزمة صواريخ كوبا.[174]

لم تكن العلاقة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي أو العلاقات بين الشرق والغرب وحدها سببًا في تطوير الجهود الدبلوماسية غير الرسمية، إذ شارك بعض الأفراد من خارج القلة النخبوية من الدبلوماسيين الرسميين في الصراع العربي الإسرائيلي. وعلى سبيل المثال، يعود الفضل إلى والتر كرونكايت في الجمع بين مناحم بيجن الإسرائيلي وأنور السادات المصري عبر الأقمار الصناعية. وبحلول أواخر سبعينيات القرن العشرين، غدت الدبلوماسية غير الرسمية أكثر تنظيمًا، إذ اكتسب ممثلو مؤسسات السلام الجديدة والناشئة و«الأساتذة» –كما سمى إيبان هؤلاء الأكاديميين– خبرةً فعليةً في مجال المساهمة في تشكيل السياسات.

بدأ عالم النفس الاجتماعي في جامعة هارفرد هربرت كيلمان بالجمع بين العرب والإسرائيليين رفيعي المستوى بحذر لإجراء حوارات سرية، وأطلق عليها «ورش عمل تفاعلية لحل المشكلات».[175] بعد زيارة السادات للكنيست، كما ذكرنا سابقًا في هذا الكتاب، أجرى فريق من الجمعية الأمريكية للطب النفسي مجموعةً من الاجتماعات غير الرسمية بين العرب من جهة (ومعظمهم من المصريين والفلسطينيين) والإسرائيليين من جهة أخرى بين عامي 1979 و1986، وشاركت فيها برفقة الأطباء النفسيين ويليام ديفيدسون وديميتريوس جوليوس وريتا روجرز وجون ماك وألفريد فريدمان والدبلوماسيين هارولد سوندرز وجوزيف مونتفيل. وصف مونتفيل هذه العملية بأنها «دبلوماسية المسار الثاني» على عكس «الدبلوماسية غير الرسمية» وقال إنها تفاعل غير رسمي بين الأعضاء المؤثرين في المجموعات الكبيرة المتعارضة بهدف تطوير استراتيجيات من أجل التأثير على الرأي العام وتنظيم الموارد البشرية والمادية بطرق مناسبة لحل النزاعات.[176] وفي وقت لاحق، كتب سوندرز كتابًا علميًا نفسيًا واستخدم ما قاله السادات في الكنسيت عنوانًا له: «الجدران الأخرى»، إذ كان يشير إلى الحاجز النفسي بين العرب والإسرائيليين.[177] بفضل تجربتي مع اجتماعات الجمعية الأمريكية للطب النفسي هذه –وغيرها أيضًا– والدعم المالي من مؤسسة ماسي في ريتشموند في فرجينيا، استطعت تأسيس مركز دراسة العقل والتفاعل البشري

في عام 1987. وفي تلك الأوقات، لم تكن الدبلوماسية غير الرسمية –أو حل النزاعات– قد أخذت طابعها التجاري في الولايات المتحدة كما هي في يومنا هذا.

ساهم تأسيس معهد الولايات المتحدة للسلام (USIP) في عام 1984 في تقديم المزيد من الدعم الرسمي للدبلوماسية غير الرسمية بصفته مؤسسةً فيدراليةً مستقلةً غير حزبية أنشأها الكونغرس الأمريكي للتشجيع على منع النزاعات الدولية وإدارتها وحلها سلميًا،[178] إذ لعب معهد الولايات المتحدة للسلام دورًا جوهريًا بالنسبة للعديد من الباحثين وغيرهم فيما يتعلق بالتفكير في طرق لخلق عالم أكثر سلامًا.

هناك الآن مئات من الأشخاص ذوي الخلفيات المهنية والدرجات التعليمية والخبرات والمعارف المختلفة بالشؤون العالمية الذين يطلقون على أنفسهم اسم «الخبراء» أو المتخصصين في «حل النزاعات». إنه أمر شبيه جدًا «بالمساواة الديموقراطية» في النهج العلاجية النفسية في الولايات المتحدة؛ إذ يقع كل شيء تقريبًا ضمن إطار «الديموقراطية الفائقة» و«الصواب السياسي». أعتقد أن الناس مشوشون فيما يتعلق بالفرق بين الجهود العلاجية النفسية والخدع. وعلى نحو مماثل، إن التفريق بين برنامج حل نزاع خطير قائم على أساس نظري وتجريبي وآخر تجاري ليس بالأمر السهل.

والآن دعونا نعود إلى زمن الحوارات العربية الإسرائيلية برعاية الجمعية الأمريكية للطب النفسي وانهيار الاتحاد السوفييتي، شعرنا نحن الذين وجدنا أنفسنا في خضم الشؤون العالمية وكأننا رواد. أتذكر كم كنت متحمسًا بخصوص دراسة شيء لا أعرف عنه سوى القليل –من منظور تحليلي نفسي من شأنه أن يوضح أيضًا العمليات المجتمعية الواعية– ولكنني قادر على تعلمه من خلال التجارب القاسية في هذا المجال. سألت نفسي: «ما هو التعريف الدقيق للدبلوماسية غير الرسمية؟»، وفي عام 1987 نظمت مؤتمرًا في جامعة فيرجينيا بغرض التفكير في هذا السؤال، ودعوت عددًا قليلًا من الخبراء المعروفين في تلك الفترة لطرح وجهات نظرهم وتعريفاتهم لتقنيات العمل خاصتهم.[179] وفي سياق مناقشاتنا المكثفة، خلصت إلى أنه لا وجود لتعريف محدد للدبلوماسية غير الرسمية، أو

لدبلوماسية المسار الثاني كما يسميها مونتفيل. ضمت بعض التقنيات التي طرحت مفاهيم نفسية؛ ولكن ليس جميعها، على الرغم من أن كلها كان مهمًا بسبب نهجها غير التقليدية وإنسانية المنحى في العلاقات الدولية.[180]

ومع مرور الوقت، طرح العديد من الأشخاص مفاهيم نظريةً وعمليةً مختلفةً حول حل النزاعات. أكد بعض الخبراء الجدد على «البعد الإنساني» للنزاعات الدولية، إلا أن ما يقصدونه عادةً هو السيكولوجية السطحية والمرئية للمساومة أو الفوز أو الخسارة، إذ لم يأخذوا في الحسبان سيكولوجية المجموعة الكبيرة، ولا سيما قضايا الهوية والانحدار. أدركت أنه لطالما اضطر الدبلوماسيون على التعامل مع العديد من القضايا العاطفية للغاية، وأن التقدم في مسيرة تحقيق الحلول السلمية للنزاعات والتعايش السلمي بين المجموعات الكبيرة المتعارضة قد يعتمد إلى حد كبير على دراسة المكونات العاطفية لأي أزمة قيد البحث. إن الاعتقاد بأن الدبلوماسية الرسمية لا مكان لها سوى في البيئات المحمية (العقلانية والمحايدة عاطفيًا) بحاجة إلى إعادة نظر.[181] بدأت أدرك كلما تعلمت أكثر أن هذا هو المجال الذي قد يكون لخلفيتي التحليلية النفسية دورًا في تطويره. يستحضرني مقطعًا من أحد كتب دونالد هورويتز. لاحظ هورويتز، المحامي والعالم السياسي، أن حجم العاطفة التي يعبر عنها في النزاعات الإثنية «يستدعي تفسيرنا الذي ينصف عالم المشاعر»،[182] وأن «الظواهر الدموية لا يمكن تفسيرها بواسطة نظرية لادموية».[183]

12 من النظرية إلى التطبيق: نموذج الشجرة

بعد مرور سنوات من دراستي للقضايا الدولية والمتعلقة بالعلاقات بين الإثنيات، ووساطتي في الحوارات بين المجموعات المتعادية، أتيحت لي فرصة فريدة من نوعها لكي أطبق خبرتي وخبرة زملائي في مركز دراسة العقل والتفاعل البشري بصورة شاملة. حصل مركز دراسة العقل والتفاعل البشري على منحة كبيرة مقدمة من صناديق بيو الخيرية في منتصف تسعينات القرن العشرين من أجل دعم أحد المشاريع لدينا، والذي يهدف إلى مساعدة إستونيا في الانفصال سلميًا عن الاتحاد الروسي وتطوير المؤسسات الديموقراطية فيها.[184] وبعد أن أعلنت صناديق بيو الخيرية عن اهتمامها بمشروعنا الإستوني-الروسي، أتذكر أنني كنت واقفًا في يوم من الأيام إلى جانب السبورة في غرفة الاجتماعات الصغيرة في مقر مركز دراسة العقل والتفاعل البشري، الموجود ضمن مستشفى بلو ريدج في جامعة فيرجينيا (مغلق الآن). وبينما كنت أشرح مراحل المشروع الإستوني-الروسي لستيف ديل روسو، مدير برنامج بيو آنذاك، بدأت في رسم شجرة على السبورة السوداء، وسرعان ما أصبح مصطلح «نموذج الشجرة» مستخدمًا لوصف نهج مركز دراسة العقل والتفاعل البشري في جمع المجموعات الكبيرة المتعادية معًا من أجل إيجاد سبل للتعايش السلبي بينها. ومختصر القول إن جذور الشجرة تمثل تقييمًا نفسيًا سياسيًا للصراع، في حين يمثل الجذع سلسلةً طويلةً من الحوارات النفسية-السياسية بين ممثلين رفيعي المستوى لتلك المجموعات المتعارضة، أما الفروع فتشير إلى نقل نتائج هذه الحوارات النفسية السياسية إلى المستوى الشعبي والرسمي بهدف ترسيخ التعايش السلمي.

تعلمت حين كنت طالبًا في كلية الطب أنه ينبغي إجراء تشخيص لمشاكل المريض قبل البدء بالعلاج.[185] وكذلك من المهم أن يشارك الوسطاء –أي فريق مركز دراسة العقل والتفاعل البشري متعدد التخصصات في حالتي هذه– في تقييم المشاكل التي ينبغي أن تعالج ضمن

المجموعة الكبيرة وبين المجموعة الكبيرة وعدوتها. وبطبيعة الحال، ينبغي أيضًا تشخيص حالة المجموعة المعادية وكيفية تصورها للمجموعة الأولى.

يجب أن يسافر الوسطاء إلى موقع النزاع المعني من أجل إجراء تقييم كامل للموقف. وعليهم أيضًا أن يستعدوا جيدًا ويدرسوا تاريخ وثقافة المجموعات الكبيرة المعنية، بالإضافة إلى جمع المعلومات حول الوضع الحالي قبل السفر إلى منطقة كهذه. إن الحاجة إلى وجود تعاون بين عدة تخصصات هو أمر واضح منذ البداية، وكما أشرت سابقًا، ضم فريق الوساطة لدينا حين كنت مسؤولًا عن مركز دراسة العقل والتفاعل البشري محللين نفسيين وأطباء نفسيين وعلماء نفس ودبلوماسيين سابقين وعلماء سياسيين ومؤرخين، بل وحتى أفراد ذوي تخصصات أخرى حين تطلب الأمر. على الرغم من أن المؤرخ في فريقنا قد لا يكون خبيرًا في بلد أو مجموعة أو هوية معينين، إنه يشارك منهجيةً وطريقة تفكير تساهم في فهم المعلومات المجموعة. ويقدم الأطباء مفهومًا للصور الذهنية المتعلقة بالأحداث التاريخية، ولكيفية مشاركة هذه الصور بين أعضاء المجموعات الكبيرة. أما الدبلوماسيون فيقيمون مشاكل العالم الحقيقي، كالقضايا القانونية والاقتصادية مثلًا، كما تنعكس في العمليات السياسية.

إن أداة التقييم الغريبة، ولكن الأساسية، المستخدمة في نموذج الشجرة هي إجراء المحللين النفسيين والأطباء النفسيين وعلماء النفس لمقابلات متعمقة مع مجموعة كبيرة من الأشخاص من كلا طرفي النزاع، بما في ذلك المسؤولون الحكوميون والمواطنون البالغون «العاديون» والأطفال. لا تقوم منهجية إجراء المقابلات هذه على أسئلة وأجوبة بسيطة، إذ لن تقدم لنا البيانات المجموعة وفقًا لهذه الطريقة سوى فهم سطحي للأمر. نحن نسعى إلى البحث في المشاعر والأفكار والتصورات الخفية المشتركة والمرتبطة بقضايا وصراعات هوية المجموعة الكبيرة. تنفذ هذه المقابلات على يد أطباء ذوي خبرة كبيرة. يمكن للقراء أن يلقوا نظرةً خاطفةً على مثل هذه المقابلات من خلال العودة إلى محادثتي مع دالي على بحر تبليسي.

إذا كان إجراء المقابلات المتعمقة والبحث في الموضوعات المشتركة في تلك المقابلات هما الأداة الأولى في مرحلة التقييم، فزيارة «المناطق الساخنة» هو الأداة الثانية، كما هو موضح سابقًا في هذا الكتاب. سبق وتحدثت عن نصب الأب الباكي في تسخينفالي باعتباره إحدى المناطق الساخنة. إن آيا صوفيا (القديسة صوفيا) في إسطنبول هو منطقة ساخنة في ظل ظروف معينة، إلى جانب كونه منطقة جذب سياحي. كانت هذه الأعجوبة المعمارية كنيسةً بيزنطيةً شهيرةً أساسًا، ولكن حولها الأتراك إلى مسجد بعد غزوهم للقسطنطينية (إسطنبول) عام 1453. ساهمت زيارة ممثلي تركيا واليونان لآيا صوفيا عند اجتماعهم في إسطنبول لإجراء حوارات غير رسمية عام 2000 في زيادة وعي الوسطاء حول حنين اليونانيين إلى هذا المكان. يحفز منعكس الحنين خلال أوقات التوتر بين البلدين إحياء إحدى الصدمات اليونانية المختارة بالإضافة إلى التعلق اليوناني بفكرة ميغالي (انظروا الفصل 10).

تستغرق مرحلة التقييم في نموذج الشجرة وقتًا طويلًا، ولكنها جوهرية لفهم سيكولوجية المجموعة الكبيرة قيد الدراسة. بعد الانتهاء من جمع البيانات المعنية ومراجعتها، تبدأ صياغة «تشخيص» نفسي سياسي شامل، وتجمع قائمة تضم قضايا العالم الحقيقي التي ينبغي معالجتها، فضلًا عن المشاعر والأفكار والتصورات المشتركة العميقة. عادةً ما تغذي المشاعر والأفكار والتصورات الخفية المشتركة نوعًا من المقاومة الواعية وغير الواعية للحوارات، بالإضافة إلى أنها تتداخل مع المناقشات الفعالة لقضايا العالم الحقيقي وتساعد على خلط الخيال بالواقع، فضلًا عن أنه يمكن استخدامها ببساطة في البروباغندا المدمرة. وبناءً على ذلك، ينبغي أن نكشف عنها ونعترف بها في الوقت المناسب لكي نمهد الطريق أمام خلق حل عملي لقضايا معينة.

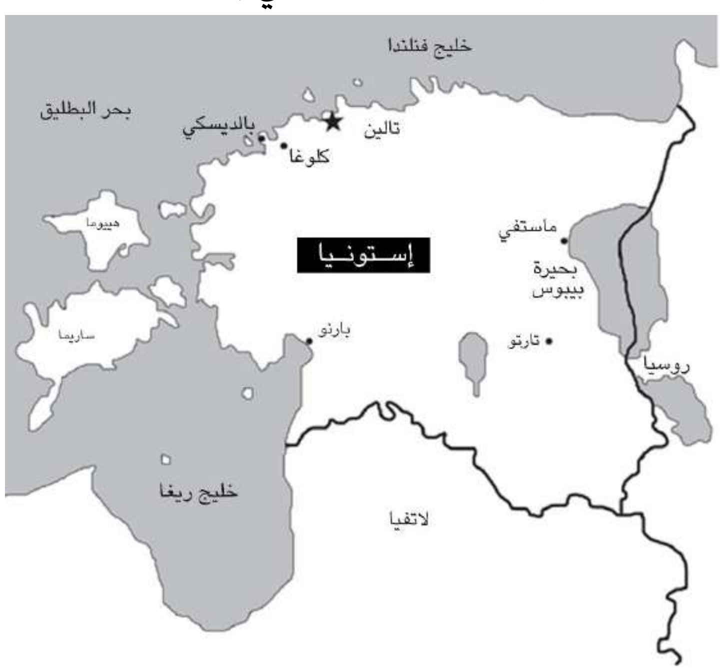
شعر الإستونيون بالابتهاج طبعًا بعد استعادة استقلالهم من الاتحاد السوفييتي في عام 1991 على سبيل المثال، ولكن استطاع مركز دراسة العقل والتفاعل البشري الكشف عن جوانب أخرى أقل وضوحًا من التوقعات الإستونية من خلال مقابلات مكثفة مع

مجموعات مختلفة من الإستونيين، بالإضافة إلى زيارات إلى «المناطق الساخنة»، مثل قاعدة الغواصات السوفييتية السابقة في بالديسكي. ما وجدناه هو أن الإستونيين عانوا من قلق كامن مشترك إزاء احتمالية أن «يختفوا» كمجموعة إثنية، إلى جانب اختفاء ثقافتهم الفريدة ولغتهم وهويتهم. عاش الإستونيون تحت سيطرة الآخرين على مر تاريخهم البالغ 5000 عام، باستثناء فترة وجيزة استقلوا فيها بين عامي 1918 و1940. ولذلك، جمعهم تصور لاواع بعد استعادتهم لاستقلالهم أخيرًا بأن مجموعةً كبيرةً مجاورةً ستبلعهم مرةً أخرى (الروس في هذه الحالة)، وهو ما يتنافى مع الواقع السطحي المتمثل بسعادتهم بسبب استقلالهم.

في حقيقة الأمر، هناك سبب منطقي لقلقهم: نحو 40 في المائة من سكان إستونيا ليسوا من أصل إستوني، و30 في المائة منهم روسيون أو يتحدثون الروسية. وبالإضافة إلى ذلك، يبدو أن احتمالية اختفائهم ليست بعيدةً بالنظر إلى أن تعدادهم السكاني لا يتجاوز 1.5 مليون شخص. علاوةً على ذلك، حين كان الإستونيون يحاولون الإجابة عن سؤال «من نحن الآن؟» خلال السنوات الأولى من استعادتهم لاستقلالهم، شهدوا غزوًا اقتصاديًا من قبل الشركات الغربية والأمريكية، وهو أمر جلي في العدد المتزايد من السيارات الأوروبية ومطاعم الوجبات السريعة الأمريكية. وعلى الرغم من ترحيبهم بهذه التطورات لاحقًا، اعتقدوا في البداية أنها تهديد لبقاء الهوية الإستونية. أسفر وقوع حادث مأساوي في عام 1994 عن زيادة المخاوف الإستونية. غرقت عبارة ضخمة تسمى *إستونيا* في بحر البلطيق مما أدى إلى مقتل نحو 900 راكب واستثارة مشاعر الحزن والعار بين الإستونيين. كان شعورهم بالعار نتيجةً لحقيقة أن هذه المأساة حدثت بسبب خطأ بشري، وأن طاقم السفينة كان يضم إستونيين حلوا محل الروس أو المتحدثين بالروسية الذين يعيشون في إستونيا (السوفيتيين السابقين من غير الإستونيين). علمنا فور إجرائنا لبعض المقابلات مع مواطنين إستونيين أنهم تأثروا بهذه المأساة أكثر لأنها تعكس خوفهم من «الاختفاء». بعد أن حاولت

إستونيا أن تبحر عبر عالم ما بعد الاتحاد السوفييتي العاصف، فهل سترتكب خطأً وتغرق أمتها المكافحة أيضًا؟ هل سيغرق الإستونيون في بحر النفوذ الأجنبي؟

على الرغم من وجود كثير من قضايا العالم الحقيقي التي ينبغي معالجتها في إستونيا التي استعادت استقلالها حديثًا، تسبب التصور الكامن بأن إستونيا ستختفي في مقاومة الإستونيين الأصليين للسياسات التي شجعت التعايش مع غير الإستونيين من السكان. إذا اختلط الدم الإستوني والروسي فمن المحتمل أن يختفي الطابع الفريد للشعب الإستوني، مع أن إحساسهم بهوية المجموعة الكبيرة قد استمر، بل وازدهر في واقع الأمر، على الرغم من أو بسبب أعدادهم الصغيرة والظروف التي قاسوها على مر القرون. أشار تقييم مركز دراسة العقل والتفاعل البشري إلى ضرورة مساعدة الإستونيين على التمييز بين القضايا الحقيقية والمخاوف المتخيلة في الوقت الذي
يرسخون فيه أنفسهم باعتبارهم دولةً ديموقراطيةً جديدةً، لكي يتعايشوا بشكل أفضل مع الروس والمتحدثين باللغة الروسية الذين يعيشون في إستونيا.[186]



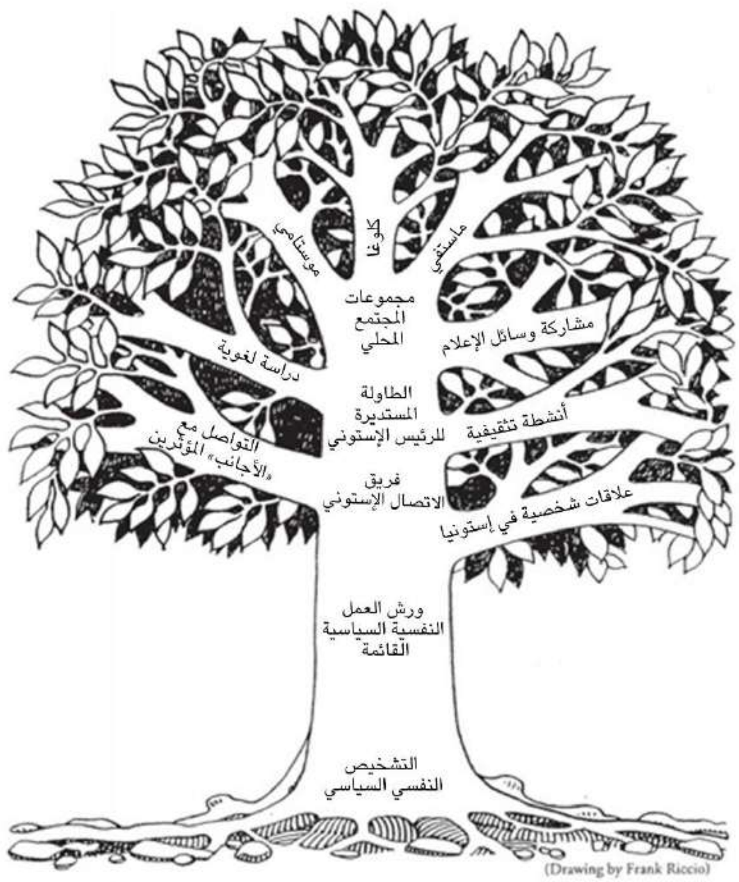
دعوني أوضح لكم أن استخدامي لمصطلح «التعايش» هنا جاء بدواعي وصفية لاستكشاف الديناميكا النفسية وراء العلاقات المختلفة بين المجموعات الكبيرة. وهناك مصطلحات أخرى

مماثلة أيضًا، مثل «الاندماج» و«الامتصاص». هذه ليست مصطلحات دبلوماسية رسمية، على الرغم من أنها عادةً ما تذكر في سياق اللغة الدبلوماسية وأدبيات العلوم السياسية البحثية. تحمل هذه المصطلحات، من الناحية السياسية والدبلوماسية، معان مختلفة للأطراف المختلفة في المفاوضات حين تستخدم «رسميًا». وثمة مصطلحات أخرى مشابهة يستخدمها الدبلوماسيون والسياسيون والباحثون، مثل «الاتحاد» و«التوحيد» و«المصالحة» و«الاستيعاب». هناك أيضًا مصطلحات تشير إلى تقسيم المجموعات الكبيرة إلى كيانات سياسية، كما هو الحال في جمهورية التشيك وسلوفاكيا. وبالنظر إلى هذا الفصل، إنني استخدم مصطلح «التعايش» فيما يتعلق بإستونيا للإشارة إلى الديناميكيات النفسية للتفاعل بين مجموعتين كبيرتين، أي الإستونيين والروس والمتحدثين باللغة الروسية الذين يعيشون ضمن الحدود القانونية لدولة واحدة. رأينا في زيارتنا إلى إستونيا أن بعض الروس والناطقين بالروسية مواطنون قانونيون في إستونيا، ولكن معظمهم ليسوا كذلك.

انقلبت الأوضاع بالنسبة لسكان إستونيا بين ليلة وضحاها. أصبح مليون إستوني «زعيمًا» في بلاده بعد استعادتهم لاستقلالهم، وفي مواجهتهم نصف مليون «عدو» سابق، أي الروس والناطقين بالروسية الذين يعيشون بينهم. وجد الروس في إستونيا أنفسهم فجأةً مواطنين من «الدرجة الثانية» في هذه الدولة. مايزال كثير منهم يحمل جوازات سفر سوفييتية على الرغم من انهيار الاتحاد السوفييتي، حتى أن معظمهم لا يستطيع التحدث باللغة الإستونية. عاش بعضهم في إستونيا على مر عقود من الزمن، في حين قضى البعض الآخر قرونًا فيها، ولكن حتى أولئك الذين لم يعيشوا فيها لفترة طويلة لم يشعروا بالحماس للعودة إلى روسيا، حيث تفشت الجريمة والفساد والفوضى. وبالإضافة إلى ذلك، ظلت المشاكل «الساخنة» قائمةً بين إستونيا وروسيا حتى بعد استعادة إستونيا لاستقلالها، بما في ذلك النزاعات بشأن الحدود الإستونية، وحالة المنشآت العسكرية السوفييتية (الروسية الآن) التي ماتزال موجودةً في إستونيا، مثل المحطة النووية في بالديسكي. على مر السنوات القليلة الأولى بعد استعادتهم للاستقلال، خلقت المشاعر المتأججة والخوف المشترك من

«الاختفاء» حالةً من القلق أثرت على عمليات اتخاذ القرار فيما يتعلق ببعض القضايا السياسية التي سأتحدث عنها قريبًا.

أما بالنسبة للمرحلة الثانية من المشروع الإستوني الروسي، أي مرحلة جذع الشجرة، جمعنا ممثلين عن المجموعات الثلاث –الإستونيين الأصليين والروس والناطقين بالروسية الذين يعيشون في إستونيا والروس من موسكو– في سلسلة من الحوارات النفسية السياسية التي استغرقت سنوات.



نموذج الشجرة في إستونيا

وعلى أي حال، أعتقد أنه من الأفضل أن أصف شكل هذه الحوارات النفسية السياسية التي أجريناها وهيكلها قبل الخوض في هدفها ومنهجيتها.

ينبغي توخي الحذر في اختيار موقع (أو مواقع) جلسات الحوار، فمن المهم أن تكون اللقاءات في مكان تعتبره المجموعات المتعارضة المشاركة محايدًا. قد يكون اختيار موقع منعزل إلى حد ما من أجل الاجتماعات أمرًا جيدًا، إذ لن يحاول المشاركون تخطي أجزاءً من الحوار من أجل قضاء أعمال أخرى. بالإضافة إلى ذلك، قد يكون لعقد الاجتماعات في مكان بعيد عن مناطق إقامة المشاركين فائدة نفسية أيضًا، حتى ولو تطلب الأمر السفر إلى بلد ليس طرفًا في النزاع. في جميع الحالات، ينبغي أن ينتبه الوسطاء إلى الإهانات أو المعوقات التي قد يشعر بها المشاركون –حتى ولو بشكل غير واع– عند اختيار مكان الاجتماع وبيئته. مازلت أذكر أحد اللقاءات في مصر خلال سلسلة الحوار العربي الإسرائيلي، إذ أدركنا فجأةً أن الفندق الذي سيبيت فيه الإسرائيليون والوسطاء اسمه «الفندق الفلسطيني». أما فيما يتعلق بحواراتنا ثلاثية الأطراف في إستونيا، كان مكان لقائنا الدائم في إستونيا لأسباب اقتصادية عملية، ولكن في مواقع مختلفة فيها.

في الحالة المثالية، ينبغي أن تستمر الاجتماعات الحوارية أربعة أيام وأن تعقد ثلاث مرات سنويًا على الأقل على مدار عامين أو ثلاثة أعوام. قد تكون الاجتماعات المتكررة على مدار فترة زمنية طويلة مفيدة أيضًا، ولكن غالبًا ما يكون التمويل عاملاً مقيدًا. يجب أن يدعى المشاركون ذاتهم في كل مرة، بالإضافة إلى دعوة مشاركين جدد ليحلوا محل أي شخص لا يستطيع الحضور أو لإضافة منظور مفيد غاب عن الحوارات السابقة. من الأفضل أن يكون عدد الأشخاص الحاضرين بين 30 و40 شخصًا، وأن تتضمن المجموعة الأولى والمعارضة عدد الأشخاص ذاته. يبدأ كل اجتماع بجلسة عامة يلخص خلالها ممثل كل فريق (من وجهة نظرهم) الأحداث التي وقعت منذ الاجتماع الأخير، بالإضافة إلى ردود أفعال مجموعته على هذه الأحداث. أما في الوقت المتبقي فيقسم الأشخاص في مجموعات صغيرة (ثمانية عشر شخصًا)، ويقود كل منها اثنان أو ثلاثة من أعضاء فريق الوسطاء المحايد. وفي حالتنا هذه، وضعنا طبيبًا برفقة دبلوماسي أو عالم سياسي أو مؤرخ لكي يكونا قائدين لكل مجموعة صغيرة كلما سمحت الظروف بذلك. يعتمد عدد المجموعات الصغيرة على العدد

الإجمالي للمشاركين، ولكن ينبغي أن تشكل نفس المجموعات الصغيرة في كل اجتماع، بحيث يلتقي نفس المشاركين عدة مرات مع بعضهم البعض على مدار فترات طويلة.

خلال أول اجتماعين من سلسلة الحوارات الدبلوماسية غير الرسمية، يعقد الوسطاء جلسةً عامةً في بداية ونهاية كل يوم، في حين تجتمع المجموعات الصغيرة بين هاتين الجلستين. تصبح الجلسات العامة هذه أقل أهميةً وتكرارًا كلما مر وقت أطول على بداية سلسلة الحوار. يجتمع المشاركون معًا في بداية اليوم الأول وفي نهاية اليوم الأخير كحد أدنى. يشارك أعضاء مختارون من كل مجموعة صغيرة في هذه الجلسة العامة الأخيرة ما حدث في جلساتهم مع الآخرين – أي النتائج التي توصلوا إليها ومقترحاتهم وخطط العمل المعروضة. لقد أدركت أن أربعة أيام هي المدة المثالية لكل اجتماع حواري نفسي سياسي. قد لا تكفي ثلاثة أيام للوصول إلى نتيجة حقيقية فيما يتعلق بالتقمص الوجداني والتواصل والتفاهم أو لتخطي المقاومة النفسية وترويض المشاعر المتأججة، ولكنني أرى أن تمديد الاجتماعات لأكثر من أربعة أيام لا يضيف فائدةً حقيقيةً. ينبغي أن نتذكر أن المشاركين في هذه التجمعات غير الرسمية هم أشخاص مشغولون للغاية في حياتهم اليومية، إذ ما من فائدة في جعلهم يحضرون أكثر من ثلاثة حوارات نفسية سياسية على مدار أربعة أيام سنويًا.

يغلب ميل المشاركين في المعسكرات المتعارضة إلى التركيز على حماية هوية المجموعة الكبيرة خاصتهم على معظم النقاشات خلال اليومين الأولين من الاجتماعات، ولكنهم عادةً لا يشعرون بمدى تركيزهم على هذا المنحى، بل وتختلف درجة قيامهم بذلك بناءً على مدى طول سلسلة الحوارات ومدى معرفة المشاركين ببعضهم البعض. أما في اليوم الثالث فتبدأ المفاوضات الأكثر واقعيةً بعد أن يساعد الوسطاء المشاركين في تخطي مقاومتهم ودفعهم لسماع بعضهم بعضًا. عادةً ما يخصص اليوم الرابع لتقديم الاقتراحات العملية التي تهدف إلى تخفيف حدة التوترات بين هذه المجموعات الكبيرة، وفي تلك المرحلة يبدأ دور الدبلوماسيين والعلماء السياسيين باعتبارهم قادة فرق الوساطة.

وإلى جانب الجلسات العامة وجلسات المجموعات الصغيرة، يتناول المشاركون والوسطاء وجبات الطعام معًا ويحظون بفرصة أخرى للتفاعل الاجتماعي غير الرسمي. وهكذا يعرف كل المشاركين ما يجري في كل مجموعة صغيرة حتى ولو لم يشاركوا سوى في مجموعتهم الخاصة. غالبًا ما يحدث التواصل الإنساني الجوهري في سياق المحادثات الارتجالية. أما خارج نطاق الجلسات الرسمية، يبقى الوسطاء في حالة بحث عن مشتقات للعمليات الواعية واللاواعية التي من شأنها أن تؤثر على الحوارات. ومن الجدير بالذكر أن العلاقات بين أعضاء فريق الوسطاء مهمة جدًا لنجاح الحوارات. حين كنت رئيسًا لمركز دراسة العقل والتفاعل البشري، كان الأعضاء الرئيسيون قد عملوا جنبًا إلى جنب منذ الحوارات العربية الإسرائيلية بين عامي 1979 و1986، وبذلك تمكنوا من إزالة التنافس الطبيعي بين التخصصات. كانوا قادرين على التحدث «بلغة» بعضهم البعض وعلى استدعاء ذوي الخبرات المطلوبة بشكل فعال في أي وقت.

هناك في واقع الأمر عمليتان متوازيتان تحدثان خلال سلسلة الاجتماعات الحوارية. أولهما عملية التطور التي تحدث خلال كل اجتماع في اليوم الرابع، وثانيهما العملية الكبرى التي تتبلور على مدار سنتين إلى ثلاث أو أربع سنوات.[187] من المهم أن نفهم أنه من المحتمل أن تكرر أنماط معينة من التفاعلات والسلوكيات نفسها على مدى مراحل مختلفة من الاجتماع الواحد وعلى مدار سلسلة الاجتماعات كلها. إن العملية ليست خطيةً – وبعبارة أخرى، قد يبدو التقدم المحرز في يوم معين أو خلال اجتماع محدد في تلك الأيام الأربعة من السلسلة مكبوتًا حين يلجأ المشاركون إلى سلوكيات أقل إيجابية في اجتماعات لاحقة. دائمًا ما يتساءل الوسطاء عن أسباب هذا الكبت، وفي معظم الأحيان يكون سببه أن ممثلي مجموعة معارضة يرون فيه تهديدًا لهوية مجموعتهم الكبيرة.

من هم المشاركون الذي ينبغي على فريق الوسطاء اختيارهم للمشاركة في عملية نموذج الشجرة؟ لقد شعرنا بأننا محظوظون بالطبع حين قابلنا نودار شارفيلادزي في جورجيا خلال فترة تقييمنا لنموذجنا. ولكن على أي حال، لا يتمتع فريق الوسطاء في كثير

من الأحيان عند ذهابه إلى أرض أجنبية برفاهية المعرفة الكاملة لمن سيكون الأكثر ملاءمةً لهذا النوع المحدد من الدبلوماسية غير الرسمية في المنطقة المتنازع عليها. ولكن في العموم، ينبغي أن يبحث الوسطاء عن الأفراد المؤثرين في دوائرهم (الحكومة، أو الأوساط الأكاديمية، أو وسائل الإعلام) ممن يرغبون في المشاركة بصفة غير رسمية وعلى أساس طوعي.[188]

يجب على الوسطاء أن يسعوا إلى تحقيق توازن وتناسب بين أعضاء المجموعات المتعارضة وممثلي القطاعات المختلفة. على الرغم من دور قدرة المشاركين على التأثير في الآخرين خارج نطاق مجموعة الحوار في تأثير العملية على المجتمع ككل في نهاية المطاف، توصل فريق مركز دراسة العقل والتفاعل البشري إلى أن إشراك كبار القادة السياسيين في العملية غالبًا ما يكون له نتائج عكسية.[189] إن أعضاء المستوى الثاني في الحكومات عادةً ما يكونوا أكثر المشاركين ملاءمةً، إذ من المحتمل أن يكونوا أكثر تحررًا من الضغوط السياسية وأكثر قدرةً على تغيير مواقفهم دون أن يغير ذلك من حقيقة أنهم مؤثرون.

وبطبيعة الحال، يمتلك كل مشارك في سلسلة الحوارات منظمته الخاصة ومكانةً مهنيةً واجتماعيةً وتوجهًا سياسيًا. يتأثر كل مشارك أيضًا، ولكن بدرجات متفاوتة، بنزاع المجموعات الكبيرة والبروباغندا السياسية الموجودة ومشاعره الشخصية. قد يشعر الأفراد خلال المناقشات كما لو أنهم يتعرضون لهجوم، ومن المحتمل أن يحسوا بدافع للدفاع عن هويتهم الشخصية بالإضافة إلى هويتهم الجماعية بشكل مباشر أو غير مباشر. ومن المؤكد أن الأطباء في فريق الوسطاء سيلاحظون في بعض الحالات إشارات على وجود مشاكل شخصية شائكة. وحين يحدث أمر كهذا، يجب أن يحاول الوسطاء إعادة توجيه الانتباه إلى صراع المجموعة الكبيرة بأسرع ما يمكن. إن هدف الوسطاء لا يكمن في تشكيل مجموعات علاجية صغيرة للمشاركين الفرديين، بل في تشجيع المشاركين على التحدث باسم مجموعاتهم الكبيرة. ونظرًا لأن التركيز الأساسي منصب على صراع المجموعات الكبيرة كما هو واضح في الحوارات، لا ينبغي اللجوء إلى ديناميكيات المجموعة الصغيرة، أي التعامل مع المشاركين بصفتهم أفرادًا، إلا حين يعترضون الطريق.[190]

لعل خلق بيئة آمنة من الناحية النفسية قبل البدء بالحوارات واحد من الأمور الجوهرية في سلسلة الحوارات. يمكن تحقيق ذلك من خلال حيادية الوسطاء في الدرجة الأولى. وما تعنيه الحيادية أحيانًا هو الإثبات للمشاركين أن الطرف الثالث مهتم فعلًا بالعملية ولا يرغب في اقتراح أو فرض حلول معينة وحسب. ويستلزم حياد الوسطاء أيضًا تجنب إهانة أي من الطرفين، بالإضافة إلى استكشاف القلق المتعلق بهويات المجموعة الكبيرة للمشاركين بأساليب لبقة. عادةً ما تفتقر حالة المجموعات الكبيرة المتنازعة إلى التناسق، مثل روسيا التي تعتبر أكبر وأقوى بكثير من إستونيا. من المؤكد أن وسطاء مركز دراسة العقل والتفاعل البشري يدركون هذا الأمر، ولكنهم تعاملوا مع ممثلي الجماعات المتعارضة خلال سلسلة الحوارات على قدم المساواة.

لا يواجه فريق الوسطاء عدوًا، على عكس المشاركين في الحوار من المجموعات المتعارضة، وبالتالي فهو أقل عرضةً للاستجابة باندفاع أمام المشاعر الإثنية القومية أو الدينية أو الأيديولوجية. يعتمد نضج فريق الوسطاء ونجاحه على تحديد مهمته بوضوح، بالإضافة إلى تشكيل تحالف قائم بين أعضائه وعلاقة غير راجعة مع قائده. يعتبر قائد فريق الوسطاء قائدًا للاجتماعات بأكملها، لذلك من المهم أن يكون قادرًا على الاضطلاع بدور قيادي والحفاظ عليه ومساعدة قادة الأطراف المتنازعة على تحديد مهام كل منهما. ومن الأمور الضرورية أيضًا خلال الحوارات النفسية السياسية هو تقديم موجز للمعلومات بين أعضاء فريق الوسطاء. على سبيل المثال، يجتمع أعضاء فريق مركز دراسة العقل والتفاعل البشري في نهاية كل يوم لتبادل ملاحظاتهم وإيجاد حلول للصعوبات المحتملة التي قد يواجهونها. من المحتمل أن يفضل بعض الوسطاء مجموعةً على الأخرى سواءً كان ذلك مقصودًا أو غير مقصود. ومن الممكن أن يشكل الوسطاء كما المشاركين مواقف إيجابيةً أو سلبيةً تجاه مشاركين معينين أو قادة سياسيين خارج غرفة الحوار. حين تصبح مثل هذه الأمور إشكاليةً، ينبغي التعامل معها خلال الأوقات التي يجتمع فيها الوسطاء فيما بينهم.

ومن الناحية الأخرى، من الممكن أن يرسم المشاركون في مخيلاتهم توقعات غير واقعية للوسطاء.

كان من الواضح خلال الحوارات الإستونية الروسية، على سبيل المثال، أن أحد المشاركين المنتظمين من روسيا، والذي يدعى يوري فوييفودا، لديه شكوك إزاء دوافع فريق الوسطاء في مركز دراسة العقل والتفاعل البشري لإجراء هذه الحوارات. اعتقد فوييفودا، الذي كان حينها عضوًا في مجلس الدوما الروسي، أن مركز دراسة العقل والتفاعل البشري مرتبط بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية (سي. آي. إيه.). وبطبيعة الحال، دفع هذا الأمر فريق مركز دراسة العقل والتفاعل البشري إلى الإحساس بعدم الراحة. وفي إحدى الليالي التي أقيمت فيها الاجتماعات الحوارية، دعاني فوييفودا برفقة يوري أوربانوفيتش للانضمام إليه في الساونا وأمطرني بأسئلته لأكثر من ساعة. وفي نهاية هذا «الاستجواب»، لخص فوييفودا أفكاره باقتباس لكونفوشيوس: «لا يهم لون القطة – ما يهم هو إذا كانت هذه القطة تصطاد الفئران!»، ملمحًا إلى أنه مايزال محتارًا بشأن دوافعنا ولكنه على استعداد للمضي قدمًا بسبب فعالية النتائج. تعتبر هذه المحادثات الارتجالية مع المشاركين ضروريةً في بعض الأحيان، بل ومن الممكن أن تكون محوريةً في أغلب الأحيان، لذا يجب أن يكون أعضاء فريق الوسطاء مستعدين وقادرين على إشراك المشاركين من خلال طرق عديدة من أجل تعزيز العملية.

إن الحوارات النفسية السياسية ليست كالتعامل مع شخص خاضع للتحليل النفسي في بيئة سريرية، إلا أنه من الممكن استعارة بعض المفاهيم. يمكن القول إن الخاضع للتحليل النفسي في تلك البيئة يعزف «الموسيقى» التي ألفها بينما يجلس على الأريكة، ولكن المحلل في هذه الحالة هو قائد الأوركسترا. وبالمثل بالنسبة لممثلي المجموعات الكبيرة المتعارضة في نموذج الشجرة، الذين يعزفون الموسيقى التي ألفها كل منهم، في حين يعتبر فريق الوسطاء بمثابة المايسترو، بحيث تستطيع الفرق المتعارضة سماع المقطوعات الموسيقية خاصتها وتعديلها عند الحاجة. ولكن الأهم من ذلك هو أن أمامهم فرصة لسماع النغمات الموسيقية

«للعدو» والرد عليها. مرةً أخرى، أود أن أذكر القراء بأن فريق الوسطاء يشمل أطباء على درجة عالية من المعرفة التحليلية النفسية ولديهم خبرة في عقد الاجتماعات بين المجموعات الصغيرة. وبناءً على ذلك، لا يمكن محاكاة نموذج الشجرة إلا إن درس بعض الأعضاء الأساسيين في مجموعة الوسطاء الطبيعة البشرية وعلم نفس المجموعة الكبيرة بتعمق ومن الناحيتين النظرية والتطبيقية.

ومن بين المبادئ التي استعرتها من التحليل السريري وطبقتها على نموذج الشجرة هو عدم وضع جدول أعمال محدد مسبقًا لأي من الاجتماعات. وبعبارة أخرى، يطلب من المدعوين «تداعيات حرة» كما يطلب من الخاضع للتحليل النفسي خلال جلسته. وبطبيعة الحال، تمتلك هذه الاجتماعات مهمةً واضحةً: يجتمع ممثلو الجماعات المتعارضة بشكل غير رسمي لمناقشة النزاعات القائمة بينهم، والتفاوض على الحلول، والتوصل إلى استراتيجيات وإجراءات معينة. لا ينصح الوسطاء ممثلي الجماعات المتعارضة أو السلطات الممثلة لمجموعاتهم الكبيرة بفعل شيء معين، بل يتواجد الوسطاء من أجل المساعدة في التخفيف من المقاومة النفسية للمفاوضات الأكثر واقعية، وذلك من خلال إلقاء الضوء على المخاوف المتخيلة، أي فصل ما هو حقيقي عما هو متخيل وعكس عملية الانكفاء الزمني –الخلط بين المشاعر والأفكار والتصورات المتعلقة بصدمة مختارة والأحداث الجارية– والبدء بعملية الابتعاد الزمني. سنتحدث عن الأمثلة المتعلقة بهذا النهج لاحقًا.

وأخيرًا، أعتقد أن سلسلة الحوارات هذه عبارة عن عملية مشابهة لتلك التي يمر بها شخص ما يرقد على أريكة المحلل النفسي. وبالتالي، إن وسطاء نموذج الشجرة لا يسعون إلى إنهاء كل اجتماع في السلسلة والمشاعر الطيبة تسود الأجواء بين ممثلي المجموعات الكبيرة المتعارضة، ولكنهم على الرغم من ذلك مهتمون بسير العملية نحو مفاوضات أكثر واقعيةً وغير ملوثة بتوقعات خيالية حول المستقبل.

هناك أيضًا بعض المفاهيم التي يمكن أن تعطي بعض الأحداث التي تتخلل سلسلة الحوار معنى معينًا، غالبًا في سياق الاجتماعات بين المجموعات الصغيرة، ولكن أحيانًا في

الجلسات العامة أيضًا.[191] تبدو هذه الأحداث غير مترابطة ظاهريًا، ولكن المعاني الحقيقية المرتبطة بقضايا هوية المجموعة الكبيرة هي ما تربطها ببعضها البعض. دعونا نبدأ بمفهوم الصراع المصغر.

قد يتطور موقف مزعج معين أحيانًا في بداية اجتماع حواري، ولا سيما في الاجتماعات الأولى في سلسلة الحوارات، فيمتص انتباه وطاقة جميع المشاركين. عادةً ما يرتبط موقف كهذا بشعور بحاجة ملحة، ولكن جوهر «الأزمة» ليس مهمًا حقًا بالمقارنة بالجوانب البارزة للصراع الإثني أو القومي أو الديني أو الأيديولوجي الذي نظم الاجتماع من أجله. إنه أشبه بتلك النقاشات المطولة حول كيفية جلوس الأشخاص على طاولة المؤتمر، التي تحدث أحيانًا قبل المفاوضات الرسمية المهمة بين الدول. قد تبدو هذه الصراعات المصغرة بلا معنى أو غير متناسقة، ولكنها تشبه إلى حد كبير تمثيليات الأقنعة التي تسبق التراجيديا الإليزابيثية، التي تعالج ما سنراه لاحقًا في المسرحية بطريقة موجزة ورمزية. تتحول العديد من الاهتمامات الملحة المرتبطة بقضايا ومشاكل هوية المجموعة الكبيرة، بفضل الصراعات المصغرة، إلى أمور أصغر نطاقًا وأقرب منالًا.

كانت المرة الأولى التي لاحظت فيها حدوث مثل هذه الصراعات المصغرة خلال الحوارات العربية الإسرائيلية قبل سنوات من تبلور نهج نموذج الشجرة. ففي أحد اجتماعات سلسلة الحوارات الدبلوماسية غير الرسمية العربية الإسرائيلية، التقينا في سويسرا بعد أيام قليلة من اغتيال عصام السرطاوي في البرتغال، الذي كان حينها مبعوثًا متجولًا لمنظمة التحرير الفلسطينية. نشب جدال حول ما إذا كان ينبغي الوقوف دقيقة صمت تكريمًا لذكرى عصام السرطاوي. بطبيعة الحال، رغب الفلسطينيون بذلك، ولكن لم يوافق الإسرائيليون على تكريم أحد مساعدي الرئيس عرفات. هدد الطرفان بمغادرة الاجتماع، وكان لا بد من إيجاد حل لهذه الأزمة قبل بدء المفاوضات غير الرسمية.

ومن الأمثلة الأخرى على الصراعات المصغرة صراع حدث في اجتماع عربي إسرائيلي آخر وكان ذا صلة بالأزواج، إذ منع الأزواج الذين رافقوا المشاركين من المشاركة في الحوار

نفسه. طالب أحد المشاركين بالسماح لزوجته بحضور الاجتماع بصفة رسمية، وسرعان ما أصبح هذا الأمر في غاية الأهمية. لم تعد قضايا هوية المجموعة الكبيرة مهمةً أو حاضرةً في تلك الأثناء.

على الرغم من أن الشخصيات الفردية قادرة على التسبب بمثل هذه الاضطرابات، أعتقد أن الصراعات المصغرة مرتبطة إلى حد كبير بجمع «الأعداء» معًا وجهًا لوجه. يزداد إحساس الفرد والمجموعة الكبيرة بالذات (الهوية) في الظروف التي تنطوي على تقارب جسدي، وهو ما يهدد التوازن المتناقض بين الأعداء – إنهم «يحتاجون» إلى بعضهم البعض من أجل إجراء الحوارات، ومع ذلك ينبغي عليهم تجنب إدراك الحقيقة المتمثلة بأنهم «قريبون» جدًا أو متشابهون مع بعضهم البعض، وبالتالي يحاولون الحفاظ على مسافة معينة. ومن خلال خلق الصراعات المصغرة، تنزاح أشكال العدوانية وتتركز في حدث غير مهم مقارنةً بحجم الصراع القومي أو العرقي أو الديني أو الأيديولوجي المطروح. يعكس الصراع المصغر آلية الدفاع العقلية (الإزاحة) للتستر على القلق الكامن في قلب الصراع الحقيقي.

والمفارقة تكمن في أن الصراعات المصغرة، التي تظهر عادةً في بداية الاجتماعات، تسعى إلى إبعاد الحوار عن مساره، ولكنها في واقع الأمر تؤدي وظيفةً مفيدةً في سير هذه العملية: من المحتمل أن تساعد قائد فريق الوسطاء في ترسيخ أو إعادة ترسيخ دوره القيادي. ثمة العديد من القادة الفطريين في هذه الاجتماعات، أولئك الذين يمثلون ويتحدثون باسم مجموعات كبيرة أو مجموعات مهنية مختلفة، وحتى القادة السياسيين للمجموعات المتعادية – الذين تبقى صورهم العقلية موجودة على الرغم من عدم حضورهم. إذا كان قائد فريق الوسطاء قادرًا على «حل» النزاع المصغر، فهو بذلك يرسخ سلطته وقدرته على إعادة توجيه المشاركين للعمل سويةً، وبالتالي تحويل الانتباه إلى نزاعات المجموعات الكبيرة القائمة. حين يرسخ قائد فريق الوسطاء دوره بصفته «قائدًا للأوركسترا»، يستطيع حينها المشاركون البدء بالعزف.

انتهى الصراع المصغر المتعلق بوفاة عصام السرطاوي بعد إعلاني عن السماح للمشاركين بتكريم ذكرى أي شخص يختارونه خلال دقيقة الصمت. وافق الإسرائيليون على هذه البادرة ولكنهم أعلنوا صراحةً أنهم لن يكرموا السرطاوي، إذ اختاروا بدلًا من ذلك تكريم إيميل غرونزويك، الإسرائيلي الذي قتل مؤخرًا وكان نشطًا في حركة السلام الآن الإسرائيلية. أما الصراع المصغر المتعلق بطلب أحد المشاركين بأن تحضر زوجته الاجتماع، فانتهى بإعلاني بصفتي قائدًا لفريق الوسطاء أنه مرحب بجميع الأزواج. (لم يحضر أي أحد منهم بعد هذه الدعوة). لا ينبغي السماح للصراعات المصغرة بالاستمرار كما لو أنها محور التركيز الأساسي للاجتماع، فهذا من شأنه أن يبعد الاجتماع بأكمله عن مساره.

قد تتدخل أحداث خارجية أخرى أيضًا في الحوار. حين يبدأ ممثلو الأطراف المتعارضة مناقشةً ما مثلًا، يصبح «صدى» الأحداث الأخيرة التي شاركت فيها مجموعاتهم الكبيرة مسموعًا في نقاشاتهم، وبالتالي تشتعل المشاعر أكثر وتصبح مقاومة المناقشات التكيفية أكثر صلابةً. أطلقت على هذه الظاهرة اسم ظاهرة الصدى. وفي الحوارات النفسية السياسية، رأيت شبح بعض التطورات العسكرية والسياسية الأخيرة وهو يسيطر على مجموعة العمل. ولذلك من الضروري أن نعترف ونستوعب هذا الشبح وما يعنيه بالنسبة للمجموعة المعارضة قبل أن يستمر التفاوض الواقعي.

انتشرت كثير من التصريحات العدوانية بعد دقيقة الصمت تكريمًا لذكرى السرطاوي وغرونزويك في الجلسة الافتتاحية للورشة العربية الإسرائيلية، ولكن كان تأثير هذه التصريحات تافهًا. فكرت في شبح الاغتيالات الذي يبدو أنه كبت التعبير عن المشاعر، ولا سيما المشاعر العدوانية كالثأر أو الرغبة في «تحقيق المساواة». تساءلت عما إذا كان قلق المشاركين في الجماعات المتعارضة من شعورهم بالعدوانية تجاه الصراع العربي الإسرائيلي قد تسبب في تعاطفهم اللاواعي مع القتلة أو في قلقهم الخفي من احتمال تعرضهم للاغتيال. في حالة الاجتماع الذي تحدثنا عنه أعلاه، يبدو أن صدى اغتيال كل من السرطاوي

وغرونزويك قد أثار مشاعر متنوعةً بين المشاركين: الانتقام، والتعاطف مع المعتدين، والخوف من كونهم هدفًا للعدوان، بالإضافة إلى زيادة شعورهم بالعار.

عندما ذهبنا إلى مطعم لتناول العشاء في مدينة فيفي في سويسرا، حيث عقد هذا الاجتماع، كنا نعلم بشأن الإجراءات الأمنية الاحترازية المتخذة. جابت الشرطة السويسرية الشارع خارج المطعم، وكان أحد المشاركين الفلسطينيين، الراحل إلياس فريج الذي كان حينها رئيسًا لبلدية لحم، حريصًا على عدم الجلوس أمام نافذة مفتوحة لحماية نفسه من إطلاق النار عليه بحسب ما اعتقدت. جلست بين محلل نفسي إسرائيلي ومحام فلسطيني. أعرب الأخير عن رغبته في تعلم القليل حول اضطراب الفصام، فأجبت أنا والمحلل النفسي الإسرائيلي، الراحل رافائيل موسى، من منظورنا المهني. عادت المحادثة بعد ذلك إلى موضوعي العنف والعدوان: أراد المحامي أن يعرف ما إذا كان جون هينكلي، قاتل الرئيس السابق رونالد ريغان، مصابًا بالفصام، وتحسر على استحالة حماية المجتمع من «القتلة المجانين». لاحظت أن المحامي يحاول لربما أن يخلص نفسه من الدوافع والمشاعر العدوانية مستخدمًا أسلوب الإزاحة من خلال تحدثه عن هينكلي. من المؤسف أن هذا الفلسطيني قتل بوحشية في غزة على يد جماعة فلسطينية متطرفة بعد فترة قصيرة من هذه المحادثة.[192] صدمني هذا الخبر وذكرني بمقتل شريكي في السكن أيام المدرسة الطبية على يد إرهابيين قبرصيين يونانيين. أدركت حينها حقًا أن الناس لا يقتلون باسم الهوية وحسب، بل لمجرد اعتقادهم أن شخصًا ينتمي إليهم، أي الضحايا، لا يحمي هذه الهوية. لاحظت على مر السنين أن الأشخاص الذين يشاركون طواعيةً في الحوارات غير الرسمية مع العدو يعتبرون «خونةً» بشكل أو بآخر بالنسبة لأفراد مجتمعهم ممن يعارضون أي تواصل مع العدو. قد يشعر هؤلاء المشاركون بالعار من حوارهم مع العدو، وتزداد حدة شعورهم في حال نفذ العدو عمليةً عنيفةً خلال المحادثات. وبعد وفاة المحامي الفلسطيني، تأكد الوسطاء من أن المشاركين يشعرون وكأنهم «خونةً»، وأصبحنا أكثر وعيًا بالواقع الذي يواجهه المشاركون بعد «عودتهم» إلى مجتمعاتهم بعد المشاركة في حواراتنا.

تحدث إلياس فريج ممازحًا بعد ذلك العشاء في مدينة فيفي عن الإجراءات الأمنية في أحد فنادق لندن، حيث أقام مؤخرًا برفقة زوجته. كان الحديث على طاولته على ما يبدو، كما طاولتي، متمحورًا حول الأمن والحماية والخوف غير المباشر من الاغتيال. شعرت كما لو أن شبح مقتل السرطاوي وغرونزويك، وما يرتبط به من قضايا تخص هوية المجموعات الكبرى، قد سيطر على المجموعة، ولذلك تحدثت عن الموضوع في الجلسة العامة التي أقيمت في اليوم التالي. ساعدت ملاحظاتي في تحسين الحالة المزاجية للمشاركين في الاجتماع، لنتمكن بذلك من إكمال حوارنا دون كثير من التشتت.

إن تأثير الأحداث الخارجية على المشاركين في الحوارات النفسية السياسية مباشر في بعض الأحيان. حين تزعج خطوة عسكرية أو سياسية طرفًا ما، ينبغي أن يعبر عن مشاعره حيالها قبل البدء بالمفاوضات أو استئنافها. في أحد الاجتماعات في إستونيا مثلًا، تسبب صدى الشعبية المتزايدة للقومي الروسي فلاديمير جيرينوفسكي حينها في زيادة القلق بين المشاركين الإستونيين، إذ أعرب جيرينوفسكي في آخر زياراته إلى فنلندا عن شكوكه حول استقلال إستونيا مجددًا، وروج للسياسات القومية المتعلقة «بالخارج القريب» لروسيا، التي يعتبرها الإستونيون خطيرةً. سيطرت مخاوف الإستونيين من تصاعد العدوانية الروسية والمناقشات الساخنة حول هذا الموضوع على الاجتماع، ولكن ساعد فريق الوسطاء المشاركين الروس في طمأنتهم للمشاركين الإستونيين بأن الروس الحاضرين لا يتبنون وجهات نظر جيرينوفسكي هذه.

يحاول الدبلوماسيون الرسميون جاهدين أن يخططوا استراتيجيًا لتوقيت الاجتماعات الرسمية، ولكن قد تقع أحداث غير متوقعة أحيانًا بعد الاتفاق على موعد الاجتماع ووضع جدول الأعمال. تدفعنا ظاهرة الصدى إلى الاهتمام بمثل هذه الحوادث حتى حين لا تبدو أنها مترابطةً بأجندة الاجتماع الرسمي بشكل مباشر. هناك أيضًا استجابات للأحداث ذات الطابع الشخصي، والتي ترتبط بشكل واضح بظاهرة الصدى. قد يفكر الدبلوماسيون جيدًا في التأثير المحتمل لأي حدث عسكري أو دبلوماسي جديد، ولكنهم غالبًا ما يغضون النظر

عن الأحداث ذات الطابع الشخصي. ومن الأمثلة على ذلك هو ما تحدث عنه ديفيد روثشتاين، الطبيب النفسي الذي خدم في لجنة وارن التي بحثت في اغتيال جون إف. كينيدي. كتب روثشتاين حول اجتماع في نيوجرسي بين الرئيس حينها ليندون جونسون ورئيس الوزراء الروسي آنذاك أليكسي كوسيغين. توفيت زوجة كوسيغن قبل الاجتماع بفترة قصيرة، وكتب روثشتاين حول آثار هذه الوفاة على نتيجة الاجتماع: «هل فكر رئيس الوزراء كوسيغين أو شعر بأي شيء يخص وفاة زوجته أثناء لقائه مع الرئيس جونسون؟ أم أنه تمكن من إبقاء هذه المشاعر معزولةً تمامًا عن مشاركته في الحوارات؟».[193]

وهناك مفهوم آخر، أسميه ظاهرة الأكورديون، يظهر في الحوارات أيضًا. قد يختبر المشاركون في المجموعات الكبيرة المتعارضة تقاربًا بشكل مفاجئ، ثم يبتعدون عن بعضهم البعض فجأةً قبل أن يتقاربوا مرةً أخرى. يتكرر هذا النمط بين المجموعات الصغيرة أو التجمعات الاجتماعية، وهو أمر يمكن ملاحظته عدة مرات في الجلسات العامة. وأنا أشبه هذه الظاهرة بعزف الأكورديون –التقارب ثم التباعد. إن كلًا من أشكال العدوانية التي يحملها المشاركون تجاه مجموعات «العدو» –حتى ولو كانت خفية– ومحاولات حماية هويات المجموعة الكبيرة هما الأساس الكامن لهذا السلوك. يحضر كل طرف إلى هذه الاجتماعات صوره المشتركة للإصابات والنزاعات التاريخية، ويختبر كل طرف مشاعر واعيةً وغير واعية من العدوانية تجاه «العدو». ولذلك، يعتبر التباعد الأولي بمثابة مناورة دفاعية لإبقاء المواقف والمشاعر العدوانية تحت السيطرة، إذ من المحتمل أن يؤذي الخصوم بعضهم بعضًا –على الأقل في خيالهم– حين يقتربون من بعضهم البعض، أو قد يصبحون هم أهدافًا للانتقام. ويعكس التباعد الأولي أيضًا رغبة المشاركين في عدم تلويث هوية مجموعتهم الكبيرة بمشاعر مجموعة العدو الكبيرة. يجب على المشاركين في الفرق المتعارضة، المحصورة مع بعضها في غرفة واحدة وتتقاسم الجهود الواعية من أجل تحقيق «السلام» أو على الأقل من أجل إجراء مفاوضات حضارية، إنكار مشاعرهم العدوانية والتقارب من

بعضهم بعضًا في نوع من الاتحاد الوهمي. يشعر المشاركون بالخطر حين يصبح هذا التقارب غير طوعي، وبذلك يحدث التباعد مرةً أخرى.

تعرفت على هذه الظاهرة للمرة الأولى حين كنا نعمل مع العرب والإسرائيليين، إذ شهدنا بشكل متكرر خلال سلسلة الحوار هذه انسجامًا مفاجئًا بين المشاركين المتعارضين، حتى أنهم لاحظوا في كثير من الأحيان وبنوع من الحماس أوجه التشابه بينهم. كنا نسمع عبارات مثل «كلنا أخوة وأخوات، جميعنا أحفاد جدنا المشترك إبراهيم!» خلال فترات التقارب هذه. ولكن بعد مرور فترة قصيرة، يعود المشاركون في كل مجموعة إلى التركيز على اختلافاتهم، ثم يبتعدون عن بعضهم البعض، وبذلك تستمر سلسلة المواقف المتناقضة. وبالمثل، ألقى ممثلون من إستونيا وروسيا في أحد اجتماعات سلسلة الحوارات في إستونيا باللوم على المتطرفين من كل معسكر بخصوص المشاكل بين البلدين. وبذلك، تقارب المشاركون من كل جانب من بعضهم البعض وتصرفوا بطريقة ودية مع بعضهم البعض وأكدوا على أن المتطرفين سبب المشكلة. كانت مشاعر التآزر هذه قصيرة المدى عمومًا، فتصور المشاركون بعد أن تسود حالة الود في المجموعتين بأنهم متشابهون أكثر بكثير مما كانوا يعتقدون سابقًا يسبب القلق، لأن هذا يعني تهديد هويات المجموعات الكبيرة. يشعر الأعداء بأنهم ملزمون بالحفاظ على ما أسميه «مبدأ عدم التماثل»، الذي سأتحدث عنه لاحقًا في هذا الفصل.

أعتقد أنه ما من مجال لإجراء مناقشة أكثر فعاليةً لقضايا العالم الحقيقي ما لم يسمح المرء «لعزف الأكورديون» بالاستمرار لفترة معينة من الوقت، بحيث تحل المفاهيم الأكثر واقعيةً واستقرارًا والمشاعر الأكثر تماسكًا المتعلقة بهويات المجموعات الكبيرة للمشاركين محل التأرجح المستمر في الأحاسيس. إذا توصل المشاركون إلى اتفاق خلال فترة التقارب المبكرة، من المحتمل أن يخل به أو ينبذ حين تعود المجموعات إلى حالة التباعد مجددًا.

ومن المفاهيم المفيدة الأخرى لمساعدتنا في فهم ما يحدث خلال مرحلة الحوار في نموذج الشجرة هو ما يعرف في مجال التحليل النفسي باسم التماهي الإسقاطي.[194]

يستخدم البشر بدءًا بمرحلة الطفولة وما بعدها آليات عقليةً معينةً للتخلص من الجوانب المزعجة في أنفسهم ويسقطونها على الآخرين. قد يحاول أعضاء إحدى المجموعات المتعارضة تعريف هويتهم من خلال إخراج جوانب غير مرغوبة فيها وإسقاطها على العدو. على سبيل المثال، نحن لا نفتعل المشاكل، ولكن هم من يفعلون ذلك. غالبًا ما تسفر هذه العمليات عن خلق تقسيم واضح وجذري بين «نحن وهم»: نحن «جيدون» وهم «سيئون».[195] يمكن أن تتطور عمليات الإخراج والإسقاط هذه خلال سلسلة الحوار إلى علاقة أكثر تعقيدًا بين ممثلي المجموعتين المتعارضتين، وهو نمط مشابه لآلية التماهي الإسقاطي التي يلاحظها المحللون النفسيون في المرضى. أما على مستوى المجموعة، فمن المحتمل أن يسقط فريق على الآخر رغباته الخاصة فيما يتعلق بآلية التفكير أو الشعور أو التصرف التي ينبغي على الطرف الآخر اتباعها، ثم يتماهى الفريق الأول مع الآخر الذي أصبح يحمل جميع الإخراجات والإسقاطات – ينظر إلى الفريق الآخر على أنه يتصرف وفقًا لتوقعات الفريق الأول. وفي واقع الأمر، يصبح أحد الفريقين «متحدثًا باسم الفريق الآخر»، إذ يصدق الفريق الأول ملاحظاتهم بخصوص العدو نظرًا لأن هذه العملية تحدث دون وعي. وعلى أي حال، العلاقة الناتجة ليست حقيقيةً لأنها تستند إلى عملية تضم طرفًا واحدًا وحسب. لربما يكون مثالاً على ذلك مفيدًا هنا، لأن التماهي الإسقاطي من شأنه أن يتسبب في مقاومة عنيدة للحوار، وينبغي معالجته من أجل إحراز أي تقدم.

تحدث المشاركون الروس في أحد اجتماعاتنا في إستونيا مطولاً حول شعور الإستونيين، وتفكيرهم، وردود أفعالهم، وما يؤمنون به، وما يرغبون به والسبب في ذلك، وما إلى ذلك. استجاب الإستونيون بدورهم بسرد ما يفكر به الروس وما يشعرون به وما يريدون. على الرغم من أنهم يخاطبون بعضهم البعض ظاهريًا، كان كل طرف يتحدث إلى نفسه في واقع الأمر، إذ كانا يجريان حوارًا بين موقعهما وما يعتقدانه (أو يتوقعانه أو يتخيلانه) حول موقف الآخر. تدخل الوسطاء وأوضحوا للمجموعة أن ما يقوله الروس حول الإستونيين قد يعكس ما يتمنونه أو يخشونه بشأن أفكار الإستونيين وأفعالهم، وبالمثل

بالنسبة للإستونيين فيما يتعلق بالروس. لم يكن السلوك الإسقاطي الأولي لكلا الجانبين بعيدًا جدًا عن الواقع، ولربما استند إلى مخاوف حقيقية، ولكنه في الوقت ذاته غير دقيق ومبالغ فيه، بل وأحيانًا خاطئ تمامًا. إذا سمح للطرفين بالتحدث عن نفسيهما، يمكنهما حينها البدء في تصحيح أي تصورات خاطئة و«ترويض» الإخراجات والإسقاطات. ولذلك طلبنا من الروس أن يسمحوا للإستونيين بالتحدث عن مشاعرهم وأفكارهم وأفعالهم، لكي يتمكن الروس من إدراك «حقيقة» لم تمسها التوقعات المتخيلة والمسقطة، وثم طلبنا الأمر ذاته من الإستونيين أيضًا.

تتناول جميع المفاهيم المذكورة أعلاه التهديدات التي تتعرض لها هويات المجموعات الكبيرة حين تلتقي بأعدائها. تتداخل جميعها حين يدخل أعضاء الفرق المتعارضة حوارًا ما، إذ عادةً ما يتطور هذا الحوار إلى منافسة لسرد المظالم التاريخية (الصدمات المختارة) والانتصارات الماضية (الأمجاد المختارة). وبالإضافة إلى الصدمات والأمجاد الماضية ذاتها، عادةً ما يتحدثون عن الاشتقاقات الأخرى للأحداث الأخيرة. ونظرًا لأن الصدمات المختارة أكثر فعاليةً من الأمجاد المختارة فيما يتعلق بتعزيز التماسك الاجتماعي والهوية الجمعية، عادةً ما يكون سرد الصدمات الجماعية السابقة خلال الحوار أكثر وضوحًا مقارنةً بالإشارات إلى النجاحات السابقة. علاوةً على ذلك، تعيد الصدمات المختارة العجز السابق إلى الذهن، وبالتالي تضخم من التصور للخطر الحالي، ولا سيما في حال وقفت مجموعة الفرد لا تحرك ساكنًا. يلعب هذا الأمر أيضًا دورًا في انشغال المجموعة بالجراح المشتركة السابقة. يبدو التنافس على سرد المظالم لا إراديًا في الاجتماعات الحوارية غير الرسمية، ولا سيما في بداياتها، إذ يحدث وفقًا لمبدأ أنوية الضحية:[196] لا تعاطف مع خسائر وإصابات الطرف الآخر.

أثار الإستونيون خلال سلسلة الحوار الإستوني الروسي مرارًا وتكرارًا شكاوى ضد الروس فيما يتعلق بعدة جوانب من تاريخهم. روى الإستونيون قصة القصف السوفييتي عام 1944 لتالين (عاصمة إستونيا)؛ وتحدثوا عن عدد الإستونيين الذين رحلوا أو سجنوا

أو قتلوا أو أبعدوا عن منازلهم خلال الفترة السوفييتية؛ واشتكوا من الذل الذي شعروا به حين أجبروا على تعلم اللغة الروسية والتخلي عن تقاليدهم الإثنية في ظل السوفييت. لا يبدو أن الصدمة التي اختاروها تشير إلى حدث ماض معين، بل عكست حقيقة أنهم عاشوا قرونًا عديدةً تحت حكم «الآخرين». ومن الناحية الأخرى، تحدث الروس عن صدمة معينة مختارة، ولا سيما حين شعروا بالإهانة. عاد الروس بالزمن قرونًا إلى الفترة التي تعرضوا فيها لهجوم واحتلال على يد المغول، أو إلى الفترة النازية التي عانوا خلالها من خسائر وتضحيات هائلة «لحماية العالم المتحضر». وتحدث الروس أيضًا عن العديد من التطورات والمزايا التي شهدها الإستونيون في ظل الوصاية السوفييتية، مثل التحول الصناعي والتحديث. أشار المشاركون الروس، بشكل مباشر وغير مباشر، إلى إرثهم بوصفهم أبناء وبنات إمبراطورية قوية قدمت العديد من الإنجازات المهمة، وبالتالي عززوا احترام الذات المشترك وتمسكوا بذكريات أمجادهم المختارة.

تفتقر هذه التبادلات إلى التكامل الواقعي بين ما فعلوه «هم» بنا، أو ما فعلناه «نحن» بهم. وإذا ترك كلا الطرفين دون ردع، سيستمران في التحدث عن الصدمات والأمجاد المختارة والمزيد من المظالم التي حدثت في الآونة الأخيرة مرارًا وتكرارًا في منافسة أبدية عقيمة. على الرغم من الإحباط الذي تسببه هذه التبادلات للوسطاء، أعتقد أنها ضرورية للعملية نفسها، لأن الصدمات والأمجاد المختارة المنشطة تعتبر بمثابة علامات لهوية المجموعات الكبيرة، ومن شأنها أن تقوي من تمسك المشاركين بهويات المجموعة الكبيرة خاصتهم. إذا لم يشعر المشاركون بالأمان تجاه هويات مجموعاتهم الكبيرة، سيواجهون صعوبةً كبيرةً في التفاوض الواقعي مع «الآخر» حين يحين الوقت لذلك. تتمثل مهمة فريق الوسطاء أثناء تحدث المشاركين عن المظالم السابقة والحالية في استيعاب مشاعر الأطراف المتدفقة من خلال الاستماع النشط وتجنب الانحياز إلى طرف من الطرفين، أي أن يصبح الفريق مثالًا على الاستماع التعاطفي. حين تبدأ الفرق المتعارضة في نهاية المطاف «بسماع» بعضها البعض، حينها تحدث المناقشات الأكثر واقعيةً. إن الاعتراف المتبادل بمعاناة بعضنا البعض

يخلق بيئةً ملائمةً لإحراز تقدم في المفاوضات، لأنه ينطوي على تحقق متبادل من هوية المجموعة الكبيرة للطرف الآخر.

عند العودة إلى الصدمات المختارة وأشكالها المختلفة، يبدو الأمر كما لو أن هذه المشاعر والتصورات المتعلقة بها حديثة – تندمج مع المشاعر والتصورات المتعلقة بالحاضر وحتى بالتي يمكن توقعها في المستقبل. يجتمع ما نتذكره من الماضي وما نشعر به الآن وما نتوقعه في المستقبل فيما يسمى بالانكفاء الزمني. وبطبيعة الحال، يعقد هذا الانكفاء الزمني محاولات حل النزاعات المطروحة. ومن أجل مواجهة هذه الظاهرة وبدء عملية الابتعاد الزمني، يجب أن يسمح الوسطاء بإجراء مناقشات حول الصدمة المختارة نفسها، بالإضافة إلى الصدمات الشخصية للمشاركين والمتعلقة بالنزاع على مستوى المجموعات الكبيرة. لاحظت أن هذه المناقشات «محرمة» في إطار الدبلوماسية الرسمية في كثير من الأحيان، إذ عادةً ما يطلب من المشاركين خلال الحوارات الرسمية «عدم التحدث عن الماضي، والالتزام بالوقت الحاضر». ما أحاول قوله هو أنه من المهم في بعض الأحيان أن نتحدث عن صدمات الماضي ونعبر عن مشاعرنا. حين يصبح إبعاد المشاعر والقضايا الماضية وفصلهما عن المشكلات الحالية أمرًا ممكنًا، نتمكن من مناقشة المشكلات الحالية بصورة أكثر واقعية. لا تتجلى هذه الظاهرة في صورة انكفاء زمني وحسب حين يتعلق الأمر بالصدمات الخاصة بأسلاف الفرد، بل يحدث الانكفاء الزمني أيضًا حين يتعلق الأمر بحدث سابق في حياة الأفراد نفسهم. ينبغي أن ينتبه الوسطاء إلى الانكفاءات الزمنية الفردية التي تؤثر على مهمة التعامل مع المشكلات المتعلقة بهوية المجموعات الكبيرة.

خلال أحد الاجتماعات في إستونيا، شارك أرنولد روتيل الذي كان نائب رئيس مجلس النواب الإستوني (Riigikogu) حينها وأحد رؤساء إستونيا السابقين الذي قاد إستونيا منذ نهاية الفترة السوفييتية وحتى الاستقلال روايةً عن اجتماع له مع ميخائيل غورباتشوف في موسكو. سافر روتيل إلى هناك من أجل مناقشة رغبة إستونيا في الاستقلال عن الاتحاد السوفييتي مع غورباتشوف، إذ بقي منتظرًا بمفرده في غرفة الانتظار لمدة ساعتين بعد

الموعد المحدد للاجتماع. بدا أن هذا الحدث، الذي حصل قبل أكثر من خمس سنوات من هذا الاجتماع والذي كان مذلًا بالنسبة لروتيل، يؤثر على وجهة نظره تجاه الروس خلال الحوار، لأنه بدا متمسكًا بالآراء القومية الراسخة إلى حد كبير وحاول أن ينأى بنفسه عن المشاركين الروس، سواءً كانوا من روسيا أو إستونيا. ولكن بعد أن اعترف الوسطاء بالطبيعة المهينة لهذه التجربة مع الاتحاد السوفييتي وتعاطفوا معها، بدأ السياسي الإستوني في التخفيف من حدة خطابه المعادي لروسيا، وأصبح تفاعله أقل تصلبًا وأكثر انسجامًا مع المشاركين الروس. كان الأمر كما لو أنه تخلص من عبء الجمع بين مشاعره السابقة والحالية تجاه الروس، وبذلك تمكن من التعامل بأريحية أكبر مع العلاقة الحالية بين البلدين، لأن استطاع أن يخلق «تباعدًا» زمنيًا. وفي المقابل، أثر التحول الذي طرأ على موقف روتيل على المشاركين الإستونيين الآخرين، الذين بدا وكأنهم أيضًا خلقوا تباعدًا زمنيًا.

إنه مفهوم آخر يتعلق بالاختلافات البسيطة التي تستخدم لحماية الهويات الفردية وخاصة بهوية المجموعة الكبيرة.[197] حين تتحول غرفة الاجتماعات الحوارية السياسية النفسية إلى مختبر لصراعات المجموعات الكبيرة، يغدو العديد من جوانب طقوس المجموعات الكبيرة حاضرًا في مناقشات المجموعات الصغيرة. وحين تصبح الأطراف أكثر تعاطفًا مع بعضها البعض، من المحتمل أن يشعروا بالقلق إن بدأوا بإدراك حقيقة أنهم ومجموعتهم متشابهون مع العدو. وحين تصبح عمليات إخراج وإسقاط الجوانب غير المرغوب فيها غير مستقرةً بسبب تصور أحد الأطراف أن المجموعة الأخرى تشبه مجموعته، من المحتمل أن يبالغ المشاركون في التأكيد على الاختلافات البسيطة بينهم من أجل الحفاظ على خصوصية مجموعاتهم الكبيرة. وبذلك يتفعل «مبدأ عدم التماثل»، إذ تعمل الاختلافات البسيطة باعتبارها حواجز عنيدةً تفصل بين الطرفين المتعارضين بحيث تبقى هوية الطرفين على ما هي عليه. قد يكون هذا التفاوت السخيف ظاهريًا ذا أهميةً كبيرةً، ومن الممكن أن يخرب المناقشات الإيجابية.

لاحظت أنه يصعب التعامل على الصعيد النفسي مع الاختلافات البسيطة بين المجموعات المتعارضة مقارنةً بالاختلافات الجوهرية، مثل اللغة أو الدين. في أحد الاجتماعات التي بدا فيها المشاركون الإستونيون والروس وكأنهم يعبرون عن وجهات نظر متشابهة جدًا، نهض إستوني فجأةً وأعلن أنه عيد ميلاد أحد المشاركين المتحدثين بالروسية. طلب من الجميع أن يغنوا أغنية: «عيد ميلاد سعيد». على الرغم من أن بدا وكأنه يقوم ببادرة صادقة ظاهريًا، كان هذا التصرف عملًا دفاعيًا في جوهره. شعر هذا المشارك بالقلق بسبب الاقتراب من التوصل إلى اتفاق، ولكنه في واقع الأمر استجاب لقلق المشاركين من كلا الطرفين. حاول أن يشتت انتباه المشاركين من خلال ذكره لعيد الميلاد، لمنعهم من الوصول إلى اتفاق، وبالتالي يظلون مختلفين عن بعضهم البعض. من المهم في مواقف كهذه أن يفسر فريق الوسطاء معنى الاختلاف البسيط وأهميته في الحوار، وأن يطمئن جميع المشاركين بأن التوصل إلى اتفاق لا يعني أن تفقد المجموعة الكبيرة هويتها.

13 حفل الرابع من تموز مع نيران مدفعية ثقيلة

تعزز عملية الحوارات النفسية السياسية تطوير «جذع» سليم للتواصل بين الإثنيات والعلاقات مع دول الجوار. ويمكن أن تؤدي دورًا حاسمًا في استقرار منطقة ما أو تهدئة الصراعات والتوترات الإثنية أو القومية أو الدينية أو الأيديولوجية المشتعلة بصورة منتظمة فيها. كما هو الحال مع شجرة تحتاج إلى التقليم، يمكن عرقلة النمو الصحي داخل المجموعات الكبيرة وفيما بينها بسبب العداوات المتأججة القائمة على هوية المجموعة الكبيرة، والتي تؤدي إلى إنفاق غير مبرر في الطاقة على قضايا ذات نتائج عكسية. تذكرنا هذه الظاهرة بالطريقة التي تعيق «الجذيرات الماصة» فيها نمو الشجرة، وهي البراعم الضارة التي تتشكل عند قاعدة جذعها. لمواجهة هذه المخاطر، من المهم إشراك الجماعات المتصارعة في الحوارات السياسية النفسية التي قد تحول دون التصعيد الخطير وعواقب العداوات المتأججة. مع وجود جذع سليم، تستطيع «الفروع» الجديدة بدء النمو. لقد أشرت بالفعل إلى بعض الفروع التي تبين نقلنا الدروس المستفادة من الحوارات النفسية السياسية إلى المستويات الرسمية. تمثل الفروع الأخرى نقلنا المعرفة نفسها إلى المستوى الشعبي بهدف بناء مؤسسات مجتمعية تدعم التعايش. يوفر الأساس النفسي السياسي الذي تحقق خلال الحوارات الركيزة الضرورية لدعم الإجراءات والمؤسسات الجديدة؛ دون تشكيل تحالفات

وإزالة المقاومة النفسية للتغيير في المقام الأول، تخاطر مثل هذه المؤسسات بأن تغدو قصيرة الأمد وغير فعالة.

قبل تمكن الفرد من تطبيق البرامج أو الإجراءات المقترحة من أطراف الاجتماع، لا بد من تشكيل مجموعة اتصال محلية. يتمثل دور مجموعة الاتصال هذه، التي يختار أعضاءها فريق التيسير بالتشاور مع الأطراف المعارضة المشاركة في سلسلة الحوار، في تنسيق عملية تحويل سيناريوهات العمل المقترحة إلى مشاريع حقيقية. يشجع الميسرون أعضاء مجموعة الاتصال على التفاعل كوحدة واحدة والتطور إلى «مجموعة عمل» حتى لا يعودوا إلى تسويغ مخاوفهم وتوقعاتهم وإسقاطها على أعضاء الجانب الآخر. عند اكتمال تشكيلها، يجب أن تتطور مجموعة الاتصال لتصبح امتدادًا لفريق التيسير، وأن تضم أفرادًا محليين مدربين في علم النفس، أشخاص يمكن تحسين تدريبهم عبر التشاور مع الأطباء الموجودين بين الميسرين.

وفي النهاية، لا بدّ أن تتطور مجموعة الاتصال إلى منظمة غير حكومية ملتزمة بتعزيز التفاهم بين المجموعات والحد من التوتر الإثني من طريق تنمية الدعم المجتمعي. بعد استيعابها تقنيات الميسرين واكتسابها فهمًا أعمق لجذور النزاع الواعية وغير الواعية، تتقدم مجموعة الاتصال لتؤدي دورًا قياديًا جديدًا، حيث يبدأ الفريق الميسر بالانسحاب ويصبح نموذجًا للطرائق غير الرجعية في التعامل مع المشكلات المجتمعية.[206]

متى غدت متماسكةً، تختار مجموعة الاتصال، بالتشاور الوثيق مع فريق التيسير، «الفروع» المحتملة، والمشاريع العملية التي سيجري تنظيمها وتنفيذها، بمعنى تكرار جزء من «الجذع» في موقع مختلف. يمثل هذا الاختبار الحقيقي لمجموعة الاتصال، فلا بد أن تقدر على التعامل مع نفس الديناميكيات الإشكالية للحوارات النفسية السياسية الأصلية، فضلًا عن التحديات الجديدة الخاصة ببيئة المشروع. وعليه يكون مفيدًا وجود الميسرين بضع سنوات، أولًا على الأرض وثم من بعيد، لتقديم التوجيه التقني المستمر والتشجيع على طول الطريق. يمكن أيضًا توفير التوجيه عبر الحوارات النفسية السياسية الأصلية إذا استمرت، وعبر الشبكات المتنامية للأفراد والمنظمات التي جرى ربطها من خلال الحوارات.[207]

بعد الحوارات السياسية النفسية 1994–1996 في إستونيا، طور مركز (CMHI) سي إم إتش آي مشاريع محلية على مدى السنوات الثلاث التالية مدعومةً بمنحة كبيرة من صندوق بيو الخيري. اختِيرت ثلاثة مواقع لإحداث منظمات غير حكومية ومشاريع تعزز بناء المجتمع الديمقراطي بين الإثنيات: موستامي، إحدى ضواحي تالين؛ وموستفي، بلدة قريبة من بحيرة بيبوس الواقعة على الحدود بين إستونيا وروسيا؛ وكلوغا، قرية صغيرة تبعد 25 ميلًا عن تالين. تساوت تقريبًا نسب السكان الإستونيين والروس في كل موقع، لكنهم كانوا أيضًا مختلفين تمامًا عن بعضهم وجسدوا تنوع القضايا المتعلقة بالعلاقات بين الإستونيين والروس والمتحدثين باللغة الروسية الذين يعيشون في إستونيا.

اخترنا عشرة استونيين وعشرة روس (أو ناطقين بالروسية) بمساعدة مجموعة الاتصال في كل موقع. كانت طريقتنا في بدء العملية بسيطة: التقينا بالعشرين مشاركًا في كل منطقة وأخبرناهم أننا نريدهم أن يجتمعوا مرةً واحدةً على الأقل شهريًا لمدة عام أو نحو ذلك، والتوصل إلى مشروع (أو مشاريع) يقبله جميع المقيمين في مجتمعهم، على أن يساعدهم على المباحثة (جنبًا إلى جنب مع مساعديه الإستونيين والروس) رئيس مجموعة الاتصال، في هذه الحالة، عالم النفس الإستوني إندل تالفيك، المخضرم في سلسلة الحوار السياسي النفسي الأصلي ورئيس الجمعية الإستونية للتحليل النفسي الناشئة حينها. إلى جانب زيارة أعضاء هيئة التدريس في CMHI أيضًا كل أربعة أشهر أو نحو ذلك وتقديم الاستشارات. عندما قرروا المشروع، منحت CMHI المجموعة المحلية (التي ستتطور لتصبح منظمة غير حكومية) 50,000 دولار مقدمةً من صندوق بيو الخيري لتنفيذ مشروعهم.

سأصف الآن بإيجاز ما فعلناه في موستامي وموستفي، ثم سأقدم وصفًا أكثر تفصيلًا لعملنا في كلوغا.[208] تملك موستامي، إحدى ضواحي تالين، نسبةً عاليةً من الأطفال الصغار ومدارس عديدة. كانت المدارس الإستونية والروسية في إستونيا منفصلةً، إذ تدرس كل منها بلغتها الخاصة. تألفت مجموعة موستامي من مدرسين وآباء إستونيين وروسيين سعوا إلى تطوير برامج لتعزيز التعايش بين طلاب رياض الأطفال الإستونيين والروس (3–6 أعوام). على مدار عام ونصف، أجرت مجموعة الاتصال جلسة واحدة شهريًا مع المعلمين

بناءً على مبادئ الحوارات النفسية السياسية الموضحة سابقًا. انضم فريق CMHI إلى هذه الاجتماعات ثلاث مرات في السنة للمراقبة والإشراف.

بعد مباحثات مطولة، اتفق المشاركون في موستامي على برنامج. ألفوا كتبًا مدرسيةً مبنيةً على معرفة بعلم النفس لتعليم الأطفال الروس اللغة والثقافة الإستونيتين ونشروها، ووظفوا سبعة معلمين لتدريس اللغة الإستونية في فصول طلاب رياض الأطفال الروس.[209] أتاح برنامجهم للأطفال الروس المشاركين في فصول اللغة فرصة اللعب مع الأطفال الإستونيين بمجرد اكتسابهم بعض المهارات اللغوية. أُقيمت أيضًا رحلات ميدانية إلى المتاحف ومسرح الدمى الإستوني، وزيارات إلى مدارس بعضهم، ومخيم صيفي للأطفال الروس والإستونيين.

في حين أن تقدم مجموعة موستامي بدا مثيرًا للإعجاب، بدت التدخلات النفسية واضحةً. آمن العديد من الإستونيين، حتى أكثرهم ثقافةً، أن دمج رياض الأطفال الروسية والإستونية سيفضي إلى تعلم الأطفال الإستونيين اللغة الروسية بدلًا من تعلم الأطفال الروس الإستونية – وهو تعبير رمزي عن الخيال «المتلاشي» الذي وصفته سابقًا. كان البالغون على يقين من هيمنة الروس حتى لو وُضع أربعة أطفال روس فقط في فصل مع ستة عشر طفلاً إستونيًا. عزى فريق CMHI أن هذا الاعتقاد، الذي ظهر لأول مرة خلال الحوارات النفسية السياسية الأصلية، إلى تقمص الإستونيين دور الضحية وإسقاط عدوانهم على الروس. رغم هذه المخاوف والشكوك، لم يُظهر الأطفال الروس في موستامي أي نزعات

عدوانية عند تنفيذ برنامج اللغة الإستونية، وكانوا فضوليين ومرحين ومتحمسين لتعلمها. تحققت فكرة «المشاهدة خير دليل» في موستامي. أظهر هذا البرنامج أن أربعة أطفال روس لن يهيمنوا على ستة عشر طفلاً إستونيًا. بعد العام الأول، زادت شعبية برنامج اللغة زيادةً كبيرة بين أولياء الأمور والمعلمين والمدارس حتى فاق الطلب عدد الشواغر المتاحة للطلاب. بعد أن غادر CMHI إستونيا، دعمت الحكومة الإستونية العمل في موستامي ووافقت عليه كنموذج تعليمي.

تقع مدينة موستفي الريفية خمس ساعات بالسيارة جنوب شرق تالين بالقرب من بحيرة بيبوس، وتُعد موطنًا لأشخاص من تراث إستوني وروسي، بما في ذلك الطائفة المعروفة باسم المؤمنين القدامى الذين فروا من الاضطهاد الديني في روسيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر. لذلك كان عدد «الوافدين الجدد» قليلاً بين السكان، وعاش معظمهم على امتداد قرون دون صراع، رغم وجود اختلافات إثنية ودينية بينهم. هدف CMHI هنا إلى مساعدة القرويين على البقاء ضمن شروط سلمية في أثناء سعيهم لتطوير صناعة جديدة تنعش اقتصادهم، الذي انهار مع الاتحاد السوفيتي. اختارت مجموعة موستفي الترويج للسياحة البيئية في بلدتهم ومنطقتهم.

بدا التطبع النفسي بالنظام السوفيتي[210] واضحًا في مواقع المشروع الثلاثة، لكنه تجلى بصورة أوضح في موستفي. عندما بدأ الإستونيون العشرة والعشرة الروس (بمن فيهم المؤمنون القدامى) بالاجتماع لمناقشة تطوير مشروع مجتمعي، مال المشاركون إلى

إلقاء الخطب بدلًا من الانخراط في حوار حقيقي مع بعضهم. بينما وقف أحد المشاركين ليخطب، تحدث المشاركون الآخرون فيما بينهم ولم يظهروا أي اهتمام بكلام المتحدث. يبدو أنهم لم يبذلوا أي جهد حقيقي للمشاركة في التجمع الديمقراطي، مع توقعهم أن يتخذ شخص ما في السلطة قرارات نيابةً عنهم. كانوا بحاجة إلى تعلم كيفية اتخاذ قرارات مستقلة، كأفراد أو كمجتمع.

اتضح جهلهم بعملية صنع القرار المستقل جليًا في موستفي حتى قبل بدء البرنامج المجتمعي بعقد اجتماعاته. في الفترة التي تقصى فيها ميسرو CMHI المنطقة كمرشح محتمل للحوارات المجتمعية، تحدث إلينا عمدة موستفي الجديد في إستونيا حول قراره المرتقب بشأن شراء أنابيب الصرف الصحي الجديدة. سابقًا، أُسندت هذه المهمة إلى مهندس سوفيتي يقوم بمسح المدينة، ويسترشد بدليل الإجراءات الخاص به، ثم يوفر الأنبوب وفق إرشادات صارمة. اليوم، تقع مسؤولية إنجاز المهمة على عاتق رئيس البلدية، ومن الواضح أنها سببت له قلقًا كبيرًا.

تبين أن تعلم كيفية اتخاذ القرارات كفريق وكيفية تحديد أولويات احتياجات المدينة المتعددة بهدف كتابة اقتراح للتمويل من CMHI قد شكّل تحديًا لمجموعة موستفي. ومع ذلك، أسسوا في نهاية المطاف منظمة غير حكومية محلية وقدموا مقترحات مشاريع. نظمت المجموعة المجتمعية مركزًا لتقديم المعلومات للسائحين بعدة لغات وأثثته. طبعوا أيضًا مواد إعلانية، ووضعوا لافتات لمساعدة السياح الذين كانوا حينها فنلنديين يأتون إلى بحيرة

بيبوس لصيد الأسماك، وحضروا اجتماعات مهنية وعروضًا تجارية حول السياحة. اشتروا أيضًا معدات لمركزهم الرياضي، بما فيها لوحة نتائج كهربائية من شأنها أن تسمح لهم باستضافة بطولات في الكرة الطائرة والرياضات الأخرى. في النهاية، تعلموا كيفية تطوير السياحة البيئية.

أعتقد أن الحوار الذي أجريته أنا وزملائي مع إندل تالفيك وجماعته في موستفي ليس الدافع الوحيد الذي شجع سكان هذه البلاد على الابتعاد عن طرقهم السوفييتية في تدبير الأمور، وأن يصبحوا نشيطين، وأن يتكيفوا مع أسلوب حياة جديد. لقد توصلت إلى الاعتقاد بأن الناس في أماكن مثل موستفي (أو في مخيمات اللجوء، مثل تلك الموجودة في جمهورية جورجيا) يحتاجون إلى تحرير نفسيتهم. لقد تعرضوا لصدمة وأعتقد أنهم مكتئبون. يعني تحرير النفس تعلم الفرد، عبر التفاعل مع شخص يهتم بالآخر، حب نفسه والمشاركة في أشياء جديدة بنشاط واستمتاع. أرى هذا النوع من العمليات، عند تحليل أشخاص عانوا الاكتئاب سابقًا على سبيل المثال. يصبح القائم بالرعاية نموذجًا «محبًا للحياة»، دون أن يقوض «استقلالية» أولئك الذين يحاولون الخروج من اكتئابهم. وعليه، فإن عملية بنائنا المؤسسات لا تشير فقط إلى التخطيط الفكري، بل أيضًا إلى «إضفاء الطابع الإنساني» على التفاعلات، إذ يكتسب أولئك الذين سيبنون المؤسسات احترامًا أكبر للذات. كان توجهنا قائمًا على فهم الطبيب المجتمع فهمًا تحليليًا نفسيًا. وبناءً على ذلك، قررنا إقامة حفل الرابع من يوليو في موستفي ودعونا أشخاصًا من سلسلة حواراتنا النفسية السياسية

إلى هناك. لم يسبق لبعض الحاضرين المؤثرين من تالين الذهاب أبدًا إلى مثل هذا المكان «البعيد». شعر سكان البلدة أن تالين كانت تلاحظهم الآن.

في مرحلة ما، أصبح أعضاء فريق CMHI «خنازير غينيا»؛ أول زبائن موقع السياحة البيئية المتطور هذا. نظرًا لعدم وجود فندق في موستفي، فتح مرشحو السياحة البيئية من سكان المدينة أبواب منازلهم –مقابل رسوم رمزية– لتوفير مسكن لنا. أتذكر الآن مع شيء من المتعة والحنين كيف جُمعنا أنا وستيف ديل روسو، مدير البرنامج في صندوق بيو الخيري، في أحد المنازل، حيث أخذنا أعضاء مجموعة الاتصال الخاصة بنا نحو منتصف الليل. رحبت بنا سيدة إستونية لم تعرف كلمة إنجليزية واحدة. كانت أسرّتنا أنا وديل روسو في غرفة معيشتها حيث علقت ملاءة سرير كستارة من السقف لفصل سريرها عن أسرتنا. بدأت على الفور بالشخير. للوصول إلى الحمام، وهو ثقب في الأرضية، تعين علينا إزالة الستارة والقفز فوق سرير مضيفتنا، أمر لم يرغب أي منا بالقيام به. أتساءل دائمًا عند التفكير في تلك الليلة إن تحسن مبيت السياح الجدد هذا على الإطلاق.

على أي حال، تظل زيارتي الأولى إلى موستفي في الشتاء أعز ذكرياتي عنها. سافرنا هناك، على الجليد، بسرعة سبعين ميلاً في الساعة في حافلة يقودها سائق دبابة سابق في الجيش السوفيتي. فور وصولنا إلى موستفي، وضعنا سكان المدينة في مبنى ذي «تدفئة جيدة». كانت الغرف نظيفة وممرات القاعة مضاءةً بمصابيح حمراء. في اليوم التالي علمنا أننا بتنا في بيت دعارة في المدينة، إذ إن السيدات اللاتي عملن هناك أخذن إجازة الليل حتى

يتمكن سكان البلدة من توفير سكن دافئ لنا. أحبنا سكان المدينة وأحببناهم. هذا ما أسميه تحرير مجتمع مكتئب ومتراجع.

في مايو 1998، أحضر فريق CMHI ممثلين من المحليات الثلاثة، موستامي وموستفي وكلوغا، إلى تالين حيث عرضوا برامجهم وتقدمهم في اجتماع ضم مشاركين من الحوارات السياسة النفسية، والمسؤولين الحكوميين ووسائل الإعلام. أظهرت العروض التقديمية ما يمكن تحقيقه في إستونيا عبر العمل الجاد الذي يؤديه أعضاء المجتمع الإستوني والروسي بدعم من الميسرين المحليين وCMHI. ووصفت العروض نماذج للتعايش وبناء المجتمع يمكن تطبيقها في أجزاء أخرى من إستونيا وكذلك في أجزاء أخرى من العالم. في مايو 1999، عقد CMHI مؤتمرًا نهائيًا في شارلوتسفيل، فيرجينيا، ليمثل تتويجًا لمبادرة السنوات الخمس الكاملة في إستونيا. حضر المؤتمر ستون مشاركًا، من بينهم متخصصون في حل النزاعات وعلماء اجتماع ومحللون نفسيون وصحفيون ودبلوماسيون ومؤرخون. كما حضر خمسة من شركائنا ومؤيدينا الإستونيين، بمن فيهم البرلماني الإستوني الروسي سيرجي إيفانوف؛ كبير مستشاري السياسة لرئيس الوزراء الإستوني المنتهية ولايته بول ليتينز؛ ونائب رئيس جامعة اليورو وأستاذ معهد الدراسات الدولية والاجتماعية، بيتر فاريس؛ والمنسق المحلي في موستامي لي كريك؛ وقائد مجموعة الاتصال إندل تالفيك.

توجد صعوبات متأصلة في التقييم العلمي لفعالية النموذج الشجري، تمامًا كما هو الحال في تقييم تقدم التحليل النفسي الفردي. فالحوارات النفسية السياسية في إستونيا

مثلًا قد تأثرت بمتغيرات عديدة وأثرت فيها على مستويات عديدة. أولها سلوكيات المشاركين الخاصة ومشاعرهم، وشخصياتهم، ومكانتهم ومستوى تأثيرهم في الحكومة أو المجتمع، واستثمارهم الشخصي في الحوار بين الإثنيات. أثرت أيضًا الأحداث السياسية الخارجية التي وقعت خلال فترة الحوار داخل الطرفين المعنيين أو بينهما على الاجتماعات. حددت مدة سلسلة الحوار ومقدار التمويل المتاح لدعمها، بطريقة ما، نطاق ما تم إنجازه. لعل بعض أهم العناصر، ولكنها الأصعب قياسًا أيضًا، هي التصورات اللاواعية المشتركة والمقاومة التي يتبناها المشاركون وتغيرها المحتمل في سياق الحوارات. هل غير المشاركون الإستونيون والروس والناطقون بالروسية أي من التصورات غير المعلنة التي يشاركونها مع أعضاء آخرين من مجموعتهم الإثنية؟

لا يمكن اختزال العديد من التغييرات الناجمة عن عملية الحوار إلى مصطلحات إحصائية؛ قد يكون البحث التجريبي الذي يركز على جانب من جوانب الحكومة أو المجتمع مضللًا في الواقع، لأنه عاجز كليًا عن رواية القصة كاملةً، وقد لا يقدم أي بيانات حول ما هو مهم حقًا. تتمثل تجربة CMHI في أن أفضل طريقة (وربما الطريقة الوحيدة بالفعل) لتقييم هذا النوع من العمل تنطوي على التسجيل المفصل وإعداد التقارير، وعند الإمكان، تصوير العملية نفسها بالفيديو. رغم أن مثل هذه الأدلة «القصصية» يُرفض باعتباره تافهًا أو غير علمي، لكنها تبقى الطريقة الوحيدة لإظهار ما يحدث في النفس البشرية (في الأفراد وكذلك في المجموعات الكبيرة)، والطريقة الوحيدة لدمج جميع المتغيرات والمستويات المعقدة

المعنية دون تشويهها. إن توثيق العملية توثيقًا منهجيًا ودقيقًا، يمكنه أن يعطي أدلةً على ما طرأ «داخل» المشاركين، وأن يشير إلى قدرتهم على التصرف بناءً على ما تعلموه في تفاعلهم المستمر مع أعضاء المجموعة المعارضة. وهذا، بعد كل شيء، هو الهدف: تعزيز التعايش السلمي في بيئة ديمقراطية ومنع أنواع التفاعلات التي تؤدي إلى العنف والصراع.[211]

إن أوضح الأدلة على نجاح النموذج الشجري في إستونيا يتمثل في درجة استمرار المشاريع المجتمعية والمؤسسات التي تأسست خلال العملية بمفردها بعد انتهاء مشاركة CMHI. تلقى البعض دعمًا مباشرًا من الحكومة الإستونية وسعى آخرون للحصول على تمويل من مصادر أخرى. يعرض التعليق الختامي[212] بعض الأمثلة على النتائج الملموسة لتطبيق النموذج الشجري في إستونيا وإشارات إلى استدامته وملاءمته لإعادته تكراره. لا تتضمن هذه القائمة إشارات إلى عملنا في كلوغا، الذي سألخصه هنا.

كيف يمكنني أن أصف كلوغا كما كانت موجودة في أوائل عام 1996، حيث كانت أول مرة أُخذنا فيها أنا وزملائي في CMHI إلى هناك؟ فكر في مكب نفايات طوله ثلاثة أميال وعرضه ميل واحد، في حالة خراب تقريبًا. تقع كلوغا على بعد سبعة أميال فقط من بالديسكي، موقع المحطة النووية السوفيتية السابقة. تمركزت البحرية النووية السوفيتية خلال الحقبة السوفيتية في بالديسكي، وضمت كلوغا منشأة عسكرية سوفيتية. كانت معظم مناطق كلوغا –مثل بالديسكي– محظورة على الإستونيين، ولكن بعد انسحاب الجيش السوفيتي من إستونيا، أصبحت الثكنات والمنازل والشقق ونادي الضباط

والمستشفى والمكتبات وملاعب الأطفال متاحةً للإستونيين الذين أرادوا إيجاد مساكن غير مكلفة والاستقرار في هذه المنطقة. كان معظم الإستونيين الواصلين حديثًا قادمين من العاصمة القريبة، تالين، في ظل معاناتهم اقتصاديًا. لم تتضمن المجمعات السكنية القديمة ذات الطراز السوفيتي، حيث يمكن أن تعيش مئات العائلات، إلا عددًا قليلًا من الشقق الآمنة بدرجة معقولة لإيواء القادمين الجدد. إلى جانب غياب البنية التحتية وأنظمة التدفئة الموثوقة، لم تتوفر خدمات جمع القمامة أو إنفاذ للقانون. سمعت أن شرطيين قد يتمركزان في بالديسكي المجاورة.

أتذكر أنني أُخذت إلى كلوغا لأول مرة في سيارة إندل ذات يوم بارد. توقفنا بجانب شلال صغير ربما كان مكانًا جميلًا خلال الحقبة السوفيتية. كان هناك مقهى صغير بالجوار مغلق الأبواب. تخيلت في رأسي الضباط السوفييت وعائلاتهم يستجمون خارج المقهى، ويستمعون إلى ضجيج الماء. الآن، ونحن ننظر حولنا بسرعة، حرصنا على تجنب ترك السيارة دون مراقبة لفترة طويلة منذ أن أخبرني إندل أنها قد تتعرض للتخريب. سافرنا بعدها إلى وسط كلوغا والتقينا ببعض الأشخاص الذين كانوا ينتظروننا. تألف السكان في كلوغا –نحو 2000 فرد في ذلك الوقت– من نصف إستوني وصل حديثًا ونصف روسي (بما في ذلك عدد قليل من المتحدثين بالروسية، مثل الأرمن). كان معظم الروس في كلوغا من غير المواطنين، ومعظمهم نساء تُركوا مع أطفالهن عقب إغلاق القاعدة. كان مصير العديد من الأزواج مجهولًا. وهكذا، عندما وصل ممثلو CMHI، كانت كلوغا بمعنى ما «مكبًا» مليئًا

بالأشخاص الذين يبحثون عن حياة أفضل: الإستونيون ذوو الموارد المحدودة والزوجات والأطفال المهملون من العسكريين السوفييت. وقد تفاقمت الطبيعة المضطهدة للسكان بسبب الخراب المادي في كلوغا.

اعتقدت في البداية أن الجيش السوفيتي السابق قد دمر المكان عندما انسحب من كلوغا تعبيرًا عن إذلالهم وغضبهم من طردهم من مكان اعتبروه لهم. لكن تصوري كان خاطئًا. علمت لاحقًا أن الجيش السوفيتي السابق ترك ثكناته وشققه ومنازل ضباطه بطريقة منظمة. أخبرني أحدهم أن العسكريين تركوا وراءهم أزهارًا في المزهريات في منطقة تناول الطعام بالمستشفى. وقف الوافدون الجدد غالبًا خلف تخريب هذا المكان؛ مثلت حالة كلوغا المتداعية تعبيرًا عن غضب الإستونيين. بالطبع، بحث الإستونيون الفقراء عن أي شيء يمكنهم استخدامه. على أي حال، لم ينطبق هذا على الكتب الروسية، رغم أنهم جميعًا يعرفون اللغة الروسية. وهكذا، امتلأ الجزء الداخلي من المكتبة السوفيتية السابقة في كلوغا بمئات ومئات من الكتب المتراكمة على الأرض، بعد أن أُخذت رفوفها بعيدًا.

سرعان ما تعلمت حقائق جديدة. نظرًا إلى عدم وجود أنظمة تدفئة موثوقة، واجه الروس الذين بقوا في كلوغا والإستونيون «الوافدون الجدد» أوقاتًا عصيبة في أشهر الشتاء. كانت الأمهات خائفات من تجمد أطفالهن حتى الموت، لذلك سعى الناس وراء أي شيء يمكن حرقه لتدفئة شققهم ومنازلهم. وهكذا، استُعملت أبواب الشقق والمنازل الفارغة ونوافذها ورفوف الكتب من المكتبة وما إلى ذلك. انتشر التخريب والجريمة ليصبحا من حقائق الحياة

المعممة حتى في فترات الطقس الحار. غاب الشعور الحقيقي بالمجتمع في كلوغا التي حوت مجتمعًا متراجعًا. ومع جهل الروس والإستونيين ببعضهم، وانقلاب الوضع السياسي في إستونيا رأسًا على عقب قبل سنوات قليلة فقط، كان الانقسام الإثني شديدًا.

سعى CMHI في كلوغا إلى تطوير درجة معينة من التماسك المجتمعي دون التسبب بمزيد من الصراعات الإثنية. لم يملك الروس (وبعض المتحدثين بالروسية) الذين تُركوا في إستونيا، سواء كانوا مواطنين أو غير مواطنين في الدولة الجديدة، أي مكان يذهبون إليه. وروسيا الجديدة، التي عانت مشاكلها الاقتصادية والسياسية الخاصة، لن تجلب الروس الذين يعيشون في إستونيا إلى روسيا. وعليه، كان من الضروري انبثاق شكل من أشكال التعايش داخل حدود إستونيا بين الإستونيين والروس (والمتحدثين بالروسية). اعتقدنا أن تمكننا من المساعدة على تطوير التعايش السلمي بين المجموعات الإثنية في كلوغا، يعني قدرتنا على تقديم نموذج للتعايش السلمي في جميع أنحاء البلاد.

شعرت أن اختيارنا كلوغا مكانًا للعمل كان أشبه بتنفيذ مهمة مستحيلة. لأقول الحقيقة، لم أملك أدنى فكرة عن كيفية إجراء هذه التجربة، باستثناء البدء بها؛ لجأنا إلى مجموعة الاتصال الخاصة بنا وقائدها إندل، للعثور على عشرة إستونيين وعشرة روس، وتشكيل مجموعة حوار، والالتقاء بهم مرة واحدة في الشهر. قيل لهم إنهم إن توصلوا، بعد نحو عام من المناقشات فيما بينهم، إلى مشروع من شأنه أن يفيد المجتمع، فإننا (CMHI) سنمنحهم 50,000 دولار؛ مبلغ كبير من المال حينها في إستونيا في مكان مثل كلوغا. أما

الآن فلا أعتقد الآن أنه كافٍ لشراء صاروخ جيد. في سبيل هوية المجموعة الكبيرة، ننفق الأموال لقتل الناس أو تشويههم، أكثر من إنفاقها لتوفير مكان يمكنهم العمل واللعب والضحك فيه.

كان إندل، في إدارته للنقاش مع العشرين فردًا، «ينسخ» ما فعلناه مع مجموعات الحوار النفسي السياسي الأصلية، كما وصفت في الفصل السابق. عاش إندل وعائلته الجميلة بالقرب من كلوغا، في مجمع سكني بين كلوغا وتالين. ذات مرة مررت بمنزلهم بالسيارة والتقيت بأطفال إندل يلعبون في حقل أمام المجمع السكني. خلال خمس سنوات من العمل المكثف هناك، لا أستطيع تذكر أكثر من مناسبة واحدة دُعي فيها أعضاء CMHI إلى منزل مواطن إستوني أو روسي يعيش في إستونيا. بمرور الوقت، شعرت أن هذا كان بسبب مساحات المعيشة الضيقة وافتقارهم إلى الموارد المالية ليكونوا مضيفين جيدين. قدّم عيش إندل بالقرب من كلوغا مكافأةً رائعةً لأنه استطاع الذهاب إليها متى دعت الحاجة. مثل معظم الإستونيين، فإن إندل صامت إلى حد ما ولا يعبر عن مشاعره. لكنه تبين أنه أفضل «محلل نفسي» يمكن أن نجده لمشكلات كلوغا حيث بدأ بإجراء الحوارات.

لاحقًا، عندما اقترب مشروعنا في كلوغا من نهايته، أجريت مقابلة مع إندل حول تجاربه الخاصة. أخبرني كم كان من الصعب عليه بدء حوار هادف بين العشرين شخصًا. أمكنهم الحديث عن أي شيء آخر؛ في البداية، طالبوا باستخدام الخمسين ألف دولار للحصول على نظام تدفئة جديد. كانوا فعلًا بحاجة إلى نظام تدفئة، لكن منحهم المال على

الفور سيعارض هدف المشروع. أراد إندل وCMHI من هؤلاء الأشخاص، مجموعة كلوغا، «تعلم» كيفية التحدث مع بعضهم وتطوير نواة ديمقراطية للقرية. لم يكن للقرية رئيس بلدية ولا زعيم رسمي، ولم تهتم السلطات في المقاطعة التي تقع فيها كلوغا بهذا المكان البائس. أخبرني إندل عن يأس الناس وكيف ستنتقل مشاعرهم إليه. يتذكر قائلاً: «كنت بحاجة إلى مشروب قوي بعد كل اجتماع هناك». إن التزام إندل ومساعديه تجاه هذا المشروع هو ما غيّر العشرين شخصًا، الذين عملوا مع الإستونيين والروس الآخرين في المجتمع، وتطوروا في النهاية إلى منظمة غير حكومية واختاروا قائدهم، مع إندل بصفة مستشار لهم.

عند ظهور صراعات بين أفراد معينين في مجموعة كلوغا، قام بزيارتهم بشكل منفصل، واستمع إليهم، و «فسر» المقاومة، إلى جانب محاولته تجنب التدخلات السلبية في العملية التي بدأتها المجموعة. خلال زيارة أعضاء CMHI من الولايات المتحدة المكان كل ثلاثة أو أربعة أشهر، أخذنا أساسًا وضع المراقبين، إذ «أشرفنا» فقط على إندل، رغم أنه في الواقع لم يكن بحاجة إلى إشراف. لقد تعلمت الكثير من هذا الرجل الذي يصغرني بكثير. في نهاية المطاف، ومن خلال جهود مجموعة كلوغا ومن ثم المنظمة غير الحكومية، بُني مجتمع متماسك في كلوغا، وتعلم الإستونيون والروس التعايش السلمي.

عندما بدأنا العمل في كلوغا، لم تكن آمالنا في النجاح كبيرةً جدًا – إذ بدت تحديات الحياة اليومية هناك أعقد مما يمكننا حله. لكن ما حدث فيها فاجأنا جميعًا وأثبت لنا بسعادة

أننا على خطأ. نظرًا لأن سكان كلوغا لم يملكوا أملًا كبيرًا في المستقبل ولا مكانًا آخر يذهبون إليه، نظرت مجموعة كلوغا في نهاية المطاف إلى فريقنا، إضافةً إلى وجود إندل، كمصدر دعم حقيقي. أصبحنا لهم مصدرًا للتحرر. أمكنهم استيعاب وظائف التسوية والاستفادة منها ببطء لتطوير مجتمعهم. في البيئات السريرية، نرى عملية مماثلة عندما يستمد طفل أو مريض بالغ متراجع وظائف الأنا الخاصة من محلله ببطء ويستخدمها. انضم الناس في كلوغا إلى المجموعة في تنظيف قريتهم. لم تكن هذه مهمة سهلة، لكن العمل الجاد كمجموعة أصبح مصدرًا آخر للتحرر.

على مدى السنوات الثلاث التالية، اجتمع الروس والإستونيون في كلوغا وأسسوا منظمة غير حكومية ديمقراطية وواعية سياسيًا، وانتخبوا أولغا كاميشان، امرأة روسية من مجموعة كلوغا الأصلية، كأول مديرة لها. بفضل مبلغ الخمسين ألف دولار أمريكي المقدم من CMHI، استأجروا المكتبة السوفيتية القديمة في البلدة وجددوها وحولوها إلى مركز مجتمعي. بذل الرجال والنساء، الإستونيون والروس، الكبار والصغار، طاقتهم لبناء «منزل». من المؤكد أن هذه القرية احتاجت إلى مركز مجتمعي حيث يستطيع سكان القرية التجمع في المناسبات الاجتماعية أو التعليمية، لكن الحنين إلى كلوغا في العهد السوفيتي لعب أيضًا دورًا في بناء هذا المركز. لم يخف الروس في المنظمة غير الحكومية حنينهم إلى راحة كلوغا وجمالها كما كانت مع وجود جيش سوفيتي منظم فيها. يتذكرون أيضًا كم كان نادي الضباط لطيفًا. اعترت مشاعر الحنين للنادي العسكري السوفيتي أيضًا مايت براس،

وهو أول إستوني ينتقل إلى كلوغا (من تالين). في أيام السوفييت الأخيرة في إستونيا، سُمح للإستونيين بالقدوم إلى كلوغا، وتذكر مايت جمال القرية قبل خرابها. كان المركز المجتمعي، إلى حد ما، يجسد جمالها القديم ونظامها. شيئًا فشيء، أصبح المركز مكانًا يستطيع الجميع القدوم إليه للتعلم (مثل دروس الكمبيوتر واللغة الإنجليزية والإستونية) واللعب. أصبح للأطفال مكان آمن يذهبون إليه بعد المدرسة. تجمع المراهقون هناك أيضًا، وأقام المركز احتفالات الأعياد للمجتمع بأكمله.

لم تكن عملية التوصل إلى اتفاق حول ما يجب التركيز عليه، وتعلم العمل معًا، وإيجاد مبنى، وتجاوز العقبات البيروقراطية المطلوبة لتجديده وتحويله إلى مركز مجتمعي، سلسةً دائمًا. إذ اعترضت طريقنا أحيانًا صراعات الهوية الشخصية أو الإثنية وغيرها من المشاعر والأفكار «الخفية» واحتاجت إلى تسليط الضوء عليها. كان المشاركون في مجموعة كلوغا في البداية قلقين جدًا حيال الجريمة في كلوغا. إذا فتحوا مركزًا اجتماعيًا وأثثوه ووضعوا فيه أجهزة كمبيوتر، وعليه كانوا يخشون أن يسرقهم المجرمون. لذلك اقترحوا طلب الحماية من بعض أعضاء كايتسيليت.

بما أنني لم أسمع عن كايتسيليت من قبل، جمعت بسرعة معلومات عنها؛ كايتسيليت هو الاسم الذي يُطلق على نوع من الميليشيات الإستونية، مثل الحرس الوطني. مع انهيار الحكومة السوفيتية، لم يتخل بعض الإستونيين من الجيش السوفيتي عن أسلحتهم. وبدلاً من ذلك، نظموا، بمباركة الحكومة الإستونية، نوعًا من التنظيم الميليشياوي. بدا أن هدفهم

الأصلي هو العمل كخط دفاع إذا حاولت روسيا غزو إستونيا. في تلك الأيام، تجلى شعور «الاختفاء» المشترك في الأنشطة الاجتماعية / العسكرية. وهكذا بات أعضاء كايتسيليت في كل مكان. لقد تدربوا على الرماية، وأمكن توظيفهم لتوفير الحماية من منظمات المافيا التي ظهرت خلال الفترة المتقلبة التي تلت عودة إستونيا إلى الاستقلال.

أراد بعض المشاركين الإستونيين في مجموعة كلوغا اللجوء إلى كايتسيليت للحماية من «العناصر الإجرامية»، لكن الأعضاء الروس المحليين رأوا هذه الخطوة بمثابة تهديد. إذ إن كايتسيليت كانت أساسًا معاديةً لروسيا. لكن المجتمع، بمن فيه الروس، احتاج إلى مساعدتها. شعرت أن الروس في كلوغا يجدون أنفسهم مضطرين للاختيار بين شيطانين –المافيا وكايتسليت– في موقف ذي تداعيات عاطفية.

خلال زيارة في يناير 1997، اقترحت مجموعة تيسير CMHI على الأعضاء الروس في مجموعة كلوغا أن يتحدثوا بصراحة عن معضلتهم خلال اجتماعات المجموعة. عندما حدث هذا، ظهر نوع من الارتياح بين الأعضاء الروس والإستونيين الذين التقوا بانتظام. لم يكن الروس مجبرين على الإعجاب بكايتسيليت، لكن قد يعتمدون عليها في ظل هذه الظروف، لأن المافيا كانت أسوأ من كايتسيليت بنظرهم. وبطبيعة الحال، لم يعارض الإستونيون استخدام كايتسيليت للمساعدة على الحماية من العنصر الإجرامي.

عرض أحد الناطقين بالروسية في مجموعة كلوغا أن يصبح منظمًا للمركز المجتمعي المستقبلي ومسؤولاً عن الأنشطة المجتمعية المخطط لها. عندما كنت هناك، لاحظت أن

مجموعة كلوغا قد ناقشت بالفعل ترشيحه لهذا المنصب وقبلته كنوع من مديري البرامج. شعرت أيضًا أن هذا كان بمثابة حل وسط. لن يكون مدير البرنامج المستقبلي من أصل إستوني أو روسي، بل أرمينيًا وناطقًا بالروسية. عرض البقاء في بناء المجتمع المستقبلي فقط خلال النهار، لأنه بقاءه ليلاً هناك عنى قتله على يد المافيا حسب تعبيره. عندما ظهرت هذه المشكلة، لم يتوقع أحد في مجموعة كلوغا أن يكون العضو الأرميني بطلاً أو يواجه خطر الموت. واعتقدوا في البداية أن بعض أعضاء كايتسيليت سيبقون في المبنى بعد حلول الظلام لحمايته. خلال هذه المناقشات، لاحظت أن مجموعة كلوغا أصبحت أكثر فأكثر مجموعة عمل، ويرجع ذلك في الغالب إلى زيارات إندل ومساعديه المنتظمة هناك. كان هذا تطورا هاما للغاية. كما أشرت في الفصل السابق، فإن استيعاب النظام السوفييتي جعل الأشخاص العاديين الذين يعيشون في ظل هذا النظام غير قادرين على التفاوض بشأن القضايا فيما بينهم بطريقة ديمقراطية والتوصل إلى تشكيلات توافق دون خسارة وحدتهم.

لم تطلب مجموعة كلوغا نصيحة CMHI لحل مسألة الأمن. على أي حال، كانوا أكثر خبرة بالعناصر الإجرامية المحلية مما نستطيع معرفته. لاحقًا، كما علمت من إندل، الذي أبقاني أنا وزملائي في CMHI في شارلوتسفيل على اطلاع من خلال المكالمات الهاتفية والبريد، أدى فتح باب النقاش حول كايتسيليت وقضايا الهوية إلى تعزيز التقارب بين أعضاء مجموعة كلوغا. في النهاية، وافقت المجموعة على العمل «يدًا بيد» دون طلب المساعدة

من كايتسيليت. في الواقع، هذا هو الاسم الذي أطلقوه على منظمتهم غير الحكومية الجديدة، «يدًا بيد».

عندما أجريت مقابلة مع إندل بعد انتهاء مشروع كلوغا، أخبرني عن «اختبار» غير مألوف للنجاح المستقبلي تم إجراؤه قبل أسابيع قليلة فقط من رحلتنا في يناير 1997 إلى كلوغا، في وقت كانت مجموعة كلوغا ما تزال تتساءل عن ضرورة طلب مساعدة كايتسيليت. لتجسيد «التعايش» المكتشف حديثًا في قريتهم، قررت مجموعة كلوغا الحصول على شجرة عيد الميلاد المشتركة ووضعها في الهواء الطلق. اجتمع بعض سكان القرية وزينوا شجرة عيد الميلاد بخمسين مصباحًا. وفقًا لإندل، كان الجميع في كلوغا، بمن فيهم هو، قلقين. لقد رأوا في تزيين شجرة عيد الميلاد في الهواء الطلق اختبارًا: إذا لم تُسرق المصابيح الموجودة على الشجرة في اليوم التالي أو طوال موسم عيد الميلاد، فهذا يعني أن سكان القرية الذين يعملون معًا سينتصرون على العناصر الإجرامية المهددة. في اليوم التالي هرع سكان القرية إلى شجرة عيد الميلاد المزينة. عدوا المصابيح، ووجدوا تسعة وأربعين مصباحًا. كانوا مرتاحين للغاية، إذ سُرق مصباح واحد فقط ولم تشكل هذه السرقة «الرمزية» تهديدًا. لقد اجتازوا الاختبار، الذي شجعهم بدوره على مواصلة العمل معًا.

يجب أن أذكر أن كلوغا كانت موقعًا «ساخنًا» لسبب تاريخي. لم يقتصر الأمر على إيوائها «المحتلين» (الجيش السوفيتي) فحسب، بل كانت أيضًا موقعًا لمعسكر الاعتقال النازي. في فترة تواجدنا هناك، كانت العلامات المادية الوحيدة المتبقية للمخيم مجرد بضع

حجارة هنا وهناك حُددت بوصفها جزءًا منه. في الواقع، علمنا بوجود إستونيين اثنين من هذه المنطقة أمكنهم تذكر وجود معسكر الاعتقال، مع أنني لم أقابلهم أبدًا. خلال الحرب العالمية الثانية، انقسم ولاء الإستونيون: قاتل البعض مع النازيين، والبعض مع السوفييت، وآخرون ظلوا قوميين إستونيين. عندما أصبحت إستونيا مستقلةً مرة أخرى، كانت هذه الانقسامات السابقة قضايا حساسة مخفية استحال التحدث عنها تقريبًا. عندما تستعيد دولة صغيرة مثل إستونيا استقلالها، فإن السكان يعتبرون أنفسهم «أمةً واحدةً». وبينما يقللون الاختلافات فيما بينهم لتعزيز هويتهم الوطنية، فإنهم عادةً ما يزيدون إسقاطاتهم على الآخرين. في هذه الحالة، انضم الإستونيون الذين قاتلوا مع النازيين وأحفادهم إلى الإستونيين الذين قاتلوا مع السوفييت وأبنائهم لخلق هوية إستونية «جديدة»، وهذا على الأرجح زاد من إسقاطاتهم على الأقلية، والروس والأقليات الناطقة بالروسية.

خلال حوارات CMHI النفسية السياسية في إستونيا، ظهرت القضايا المتعلقة بانقسام ولاءات الإستونيين خلال الحرب العالمية الثانية وتمت مناقشتها في بعض المجموعات الصغيرة. ومع ذلك، لم يقدر فريق CMHI ولا إندل على خلق جو في كلوغا يمكن من خلاله مناقشة الانقسامات والأحداث المتعلقة بالحرب العالمية الثانية بعمق. غالبًا نُوقشت القضايا الإثنية خارج نطاق العمل الرسمي لمجموعة كلوغا، لكنها في النهاية لفتت انتباه إندل ثم تعامل معها. وجه جميع أفراد المجتمع تركيزهم بصورة أكبر على احتياجات البقاء الأساسية، مثل الأمن والمأوى الدافئ، أكثر من تركيزهم على التاريخ. لكن تداعيات

الماضي كانت حاضرةً بنفس الوتيرة. بدأ أحد أعضاء فريق CMHI، المحلل النفسي موريس أبري، بالبحث في اشتقاقات ماضي كلوغا -«السم» المتجسد بكونها مكانًا ضم معسكر اعتقال نازي -وشاركها مع إندل، حتى يكون، بدوره، مراعيًا لرد فعل القرويين المحتمل تجاه العيش في مثل هذا المكان.

كان الجيش الإستوني الوليد يستخدم حقلاً مجاورًا لكلوغا للتدريب على الرماية على أهداف حية؛ وضع أثار قلق سكان كلوغا، سواء الإستونيين أو الروس، لأنه مثل خطرًا حقيقًا عليهم وعلى أطفالهم. استوقفت هذه المشكلة إندل في وقت مبكر جدًا من مشاركته مع كلوغا. سارت خطة عمل مخفية على هذا النحو: «يمكننا نحن الإستونيين الآن أن نتحد مع المعتدين. من الناحية الفكرية، نعلم أن كلوغا اليوم موطن للمواطنين الإستونيين والأطفال الإستونيين أيضًا، لكننا ما زلنا نرى في أذهاننا هذا المكان كقاعدة عسكرية سوفيتية. وعليه، فإننا نقصفها مرارًا وتكرارًا».

لم توجد منشآت -منازل أو نوادي- في الحقل المجاور لكلوغا حيث تجمعت القوات العسكرية مع معداتها و«قصفت». لذلك، أمكنهم اختيار أي مكان آخر في إستونيا للتدرب على إصابة الأهداف. لكنهم أصروا على «قصف» كلوغا، «القرية الروسية»، رغم أنها لم تعد روسيةً في الواقع. كانت نيران المدفعية الثقيلة شبه اليومية على الميدان المجاور لكلوغا خطيرة حقًا، حيث فُصل الحقل الذي سقطت فيه الذخيرة الحية عن القرية بطريق ترابي يبلغ عرضه عشرين قدمًا. كنا خائفين من إصابة الأطفال الذين يلعبون في الجوار أو مقتلهم.

وقعت حادثة واحدة عندما حاول قروي إستوني أن يسلك طريقًا مختصرًا وذهب عبر الحقل بجرارته القديمة، وأصيب جرّاره. لكنه نجا بأعجوبة. في البداية، أبلغ الجيش سكان القرية بموعد رمي «القنابل»، لكنهم باتوا في نهاية المطاف يؤدون تدريباتهم دون إشعار مسبق، ما جعل الوضع أسوأ.

لذلك، تعين علينا وضع خطة لإيضاح الخطر الموجود للسلطات الإستونية بطريقة مباشرة. في 4 يوليو 1997، أقام CMHI حفلًا كبيرًا على مستوى المجتمع في كلوغا. (كما أشرنا سابقًا في هذا الفصل، عقدنا في وقت سابق حفل الرابع من يوليو في موستفي.) لم نقم بأي ضجة حول الولايات المتحدة واستقلالها، ولكن أُخبر الجميع عن فحوى الرابع من يوليو. دعونا العديد من المشاركين الناطقين باللغة الإستونية والروسية من سلسلة الحوار السياسي النفسي الأصلي، بمن فيهم بعض البرلمانيين، للحضور مع عائلاتهم. عاش معظمهم في تالين، وكنا ندرك أنهم لم يزروا كلوغا من قبل. حتى أن السفارة الروسية أرسلت دبلوماسيًا من الصف الثاني. على أي حال، تم تجهيز المسرح.

وبعد الحفلة، دعونا ضيوفنا إلى نزهة حول القرية، ووجهتهم إلى السير في الطريق الترابي الذي يفصل القرية عن الميدان الذي سقطت فيه المدفعية الحية. أملت أن يُستأنف «القصف» حتى يتمكن ضيوفنا من تجربة طبيعة العيش في كلوغا – قرية «ساخنة» قابعة تحت «الحصار». لقد كان حقًا مكانًا للعدوان المكثف والمشاعر المختلطة. كما كان متوقعًا، سرعان ما بدأت الانفجارات التي تصم الآذان. كان مستحيلًا تجاهل تدريبات الرماية، التي

قدمت أدلة لا لبس فيها على ما عاشه سكان كلوغا كل يوم. ومع ذلك، ورغم رؤية خطر هذه الممارسة على أرواحهم، إلا أن ضيوفنا البرلمانيين ما زالوا عاجزين عن حمل أنفسهم على فعل أي شيء حيال ذلك. فهذا على ما يبدو كان صعبًا من الناحية السياسية وسيتعارض مع صورتهم عن كلوغا كمكان «عدو»، رغم أنهم شاهدوا بالفعل بعض الأطفال الإستونيين يلعبون هناك.

كان أرفو هوغ من بين البرلمانيين الذين جاؤوا إلى حفلتنا في ذلك اليوم. مارس هوغ الطب النفسي قبل أن يصبح سياسيًا وكان عضوًا فائق الأهمية في سلسلة الحوار السياسي النفسي الأصلي. وشخصًا محببًا للغاية حسبما وجدته. تعرفنا أيضًا على زوجته، السيدة الجميلة والمغنية الرئيسية في قسم جوقة الأوبرا الإستونية. أتذكر باعتزاز دعوتي إلى غرفة تبديل الملابس في مبنى الأوبرا في تالين والاختلاط بالفنانين. عندما تعرفنا عليها، علمنا أن السيدة هوغ مرهفة المشاعر للغاية عندما يتعلق الأمر برفاهية الأطفال. وبينما كنا نتجول في الميدان الذي تعرض «للقصف»، استطعت أن أرى انزعاجها من ذلك، بينما كان على زوجها، وهو رجل كبير، حماية كبريائه القومي. اعتمدنا على السيدة هوغ للتحدث أكثر عن كلوغا على انفراد مع زوجها. لكننا علمنا خلال رحلتنا التالية إلى إستونيا أن «قصف» كلوغا ما زال مستمرًا.

في مارس 1998، قمت برحلة أخرى إلى إستونيا بمفردي دون أعضاء فريقي، بهدف تعزيز حضورنا لإجراء حوارات إضافية وجهًا لوجه مع إندل ومساعديه. علمت أن «القنابل»

ما زالت تتساقط على كلوغا. في 24 مارس، قمت أنا وإندل بزيارة تيت ماي، المسؤول الرئيسي حينها عن مقاطعة كيلا التي تضم كلوغا. وبسبب قلقي الكبير من تعرض شخص ما، خاصةً الأطفال، للأذى أو القتل، خالفت مبدأنا العام المتمثل في عدم تقديم المشورة للمنظمات المحلية التي نعمل معها ونصحت ماي بمساعدتنا على وقف قصف كلوغا. ووافق على أن إجراء تدريبات عسكرية قد تؤذي الناس أمر غير منطقي وأنه لا يوجد سبب لإطلاق النار دون سابق إنذار أو تعريض الناس لضوضاء المدافع الثقيلة. لكن على المدى الطويل، لم يكن ماي أيضًا قادرًا على مساعدتنا. حاولت بعدها التحدث إلى بعض البرلمانيين من تالين (بعضهم مشارك في سلسلة الحوار الأصلية، بمن فيهم أرفو هوغ)، لكنني وجدت مقاومةً كبيرةً لوقف «قصف» كلوغا. كما عبّر أحد أعضاء البرلمان: «هذا المكان ملكنا الآن. يمكننا أن نفعل ما نريده هناك. الجيش الإستوني مصدر فخرنا وسعادتنا». لقد تأثرت كثيرًا بكيفية تمسك الإستونيين بصورة كلوغا كمكان روسي. تظهر هذه الظاهرة قوة اللاوعي في الشؤون المجتمعية والسياسية والعسكرية.

تحدثت مع إندل عن سيكولوجية الإذلال والرغبة بعكسها حتى لو تم هذا بطرق غريبة وخطيرة في بعض الأحيان. ناقشنا أيضًا مفهوم التوافق مع المعتدي.[213] كنت آمل أن ينقل إندل هذا الفهم بطريقة ما إلى منظمة كلوغا غير الحكومية ويساعدهم على عكس سلبيتهم. عمل إندل بصورة أكبر على تعميق الوعي السياسي للمنظمات غير الحكومية ومهارات التنظيم. سُررنا أنا وزملائي للغاية عندما علمنا لاحقًا أن مايت براس قد أطلق عمليةً سياسيةً:

كتب مئة من سكان كلوغا رسالةً إلى الرئيس الإستوني آنذاك لينارت ميري طالبين وقف إطلاق النار. بالنسبة إلى المقيمين في الولايات المتحدة، قد نُعد هذا شيئًا طبيعيًا، وسهل التنفيذ في الواقع. لكن العيش في ظل الشيوعية واستيعاب قواعد ذلك النظام السياسي وأنظمته جعل جهود هؤلاء القرويين جبارة. في الفترة نفسها، أصدر تيت ماي قانونًا محليًا يحظر الأنشطة العسكرية ضمن ممتلكات المقاطعة. لكن الجيش رد بالقول إن الممتلكات تخصهم. اتهموا مايت بأنه جاسوس روسي وأمروا وزارة المالية بمراجعة الشؤون المالية له ولزوجته (مزيد من التوافق مع المعتدي أو الظالم). بحلول ذلك الوقت، بدأت كلوغا تحظى بالاهتمام على الصعيد الوطني. سمعت فيما بعد أن محطة تلفزيونية أرسلت مراسليها وكاميراتها إلى القرية، مع ظهور ضجة كبيرة حول «قصف» كلوغا. لاحظنا أن مجتمعنا الصغير تعلم الحزم واستخدام الضغط السياسي والإعلامي لمصلحته. في النهاية، نجح القرويون في وقف «القصف». وهكذا بدأت تتغير الصورة الأصلية لكلوغا كمكان للعدوان.

كان صنع فيلم وثائقي عن مشروعنا عاملًا آخر غير متوقع ولكنه رئيسي لنجاحنا في تحرير مجتمع كلوغا المتراجع. أصبح صانع الأفلام الكندي الحائز على جوائز، آلان كينغ، والمعروف لدى الكثيرين بأنه «أب الفيلم الواقعي» مهتمًا بأعمال CMHI في دول البلطيق وحضر إحدى ورش الحوار النفسي السياسي في عام 1994. بعد عدة سنوات من البحث والتطوير، وجمع التبرعات للفيلم، سافر آلان إلى دول البلطيق وقضى سبعة أسابيع في التصوير في كلوغا في صيف عام 1997. والنتيجة هي فيلم *دا دراغون إغ: ميكنغ بيس أون*

ذا ريكج أوف ذا توينتث سينشري، الذي يقدم صورة حية عن عملية بناء المجتمع في كلوغا ومنهجية CMHI.[214]

لا يملك الفيلم راويًا أو نصًا ويتألف فقط من كلمات مجموعة كلوغا وأنشطتها واجتماعاتها، حيث عمل أعضاؤها معًا، وجادلوا، ونظفوا قريتهم، وعانوا، وانتصروا في عملية تشكيل منظمة غير حكومية، وانتخاب قائد محلي، وتجديد مركز المجتمع، والسعي إلى حياة أفضل لأنفسهم ولأطفالهم. يوضح الفيلم بطريقة مؤثرة صراعات أولغا كاميشان الداخلية مع هويتها الإثنية (كان والدها من أصل إستوني خدم في الجيش السوفيتي وتم «تروسيه»، وتوليها دور القيادة، ومعالجة إندل الحذقة للنزاعات المحلية والصراعات الإثنية. بينما يظهر أعضاء CMHI في جزء قصير منه، يدور الفيلم حول الأشخاص، بمن فيهم الأطفال، الذين عاشوا في كلوغا حينها. بالنسبة لي، فإنه يخبر قصصًا تثلج الصدر عن الكرامة الإنسانية، وتظهر أيضًا الجانب القبيح من الطبيعة البشرية.

أضافت صناعة الأفلام بعدًا مفيدًا للغاية إلى العملية في كلوغا، إذ أعطت تجربة المتابعة والتصوير مدة سبعة أسابيع أعضاء مجموعة كلوغا إحساسًا بأن هناك من يهتم بكلوغا، وأن ما فعلوه ذو أهمية ويمكن أن يحدث فرقًا. آلان رجل طيب بشعر أبيض ولحية بيضاء. إنه مثل بابا نويل النحيف والرشيق. استجاب القرويون له بطريقة واثقة، ولم يشعروا أنه كان يتطفل على خصوصيتهم.

في 8 مارس 1999، انضم بعض زملائي من CMHI إلى آلان لحضور العرض العالمي الأول للفيلم في مبنى مركز كلوغا المجتمعي المرمم بطريقة جميلة. كان المركز أشبه بجوهرة مصقولة وجاهزة لإظهار فخر القرية. تطوع الكثير من الناس في كلوغا بوقتهم لجعله جميلاً؛ قام القرويون بطلاء الجدار الداخلي بألوان الباستيل الهادئة، وأضيفت على جدران أماكن تجمع الأطفال لوحات للنمور والأشجار. خُصصت أيضًا غرف لدروس الكمبيوتر في المستقبل، وغرفة كبيرة للرقصات المجتمعية. في وقت سابق، جمعت احتفالات مشتركة في الهواء الطلق الإستونيين والروس من كلوغا في العديد من المناسبات، لكنهم حصلوا الآن، بفضل المركز المجتمعي، على فرصة للالتقاء في الداخل أثناء الطقس البارد.

تقرر عرض الفيلم الأول في غرفة المجتمع الكبيرة. وصلنا أنا وآلان وآخرون من CMHI وإندل وبعض أعضاء مجموعة كلوغا الأصلية إلى المركز المجتمعي قبل ساعة أو نحو ذلك من عرض الفيلم. لم تسنح لي فرصة رؤية المبنى بعد تجديده كاملاً حتى تلك اللحظة. انتقلنا من غرفة إلى أخرى، نعرب عن تقديرنا لكمية الحب المستثمرة في هذا المبنى. كان آلان متوترًا مثل طفل صغير يظهر لأول مرة على مسرح في مسرحية رياض أطفال. والليلة كانت باردة ومثلجة؛ ماذا لو لم يحضر أحد العرض الأول؟ ماذا لو حضر عدد قليل من الأشخاص؟ كيف سيكون رد فعل الجمهور عندما يرون أنفسهم على الشاشة؟ ظل آلان ينظر إلى الخارج في الظلام، منتظرًا قدوم الناس. فجأة، وقبل خمسة عشر دقيقة فقط من عرض الفيلم، بدأ سكان كلوغا بالخروج من الظلام إلى مركزهم المجتمعي الجديد، وملء جميع الكراسي

المتاحة. وأكدت سعادتهم برؤية أنفسهم ومنزلهم في كلوغا في الفيلم أن ما أنجزوه كان حقيقيًا، وأن هذا المجتمع سيتغير إلى الأبد بسببه.[215]

إن ما حدث في كلوغا رمز لما حدث في إستونيا عمومًا. تطورت إستونيا كديمقراطية قوية وازدهرت اقتصاديًا. في أوائل صيف عام 2003، عدت إلى إستونيا للمشاركة في اجتماع معهد أوروبا الشرقية للتحليل النفسي، الذي تم إنشاؤه قبل بضع سنوات برعاية جمعية التحليل النفسي الدولية. ضم المعهد طلابًا من روسيا، ومن جمهوريات البلطيق، ومن دول أوروبا الشرقية التي كانت تخضع للحكم الشيوعي. حضر هؤلاء الطلاب، الذين أُطلق عليهم «مرشحو التحليل النفسي»، فصولًا مشتركة والتقوا مدرسيهم في بلدان مختلفة. وهذه المرة كان اللقاء في هابسالو، بلدة صغيرة في إستونيا. كنت عضوًا ضيفًا في هيئة التدريس، وكان إندل، الذي لعب دورًا رئيسيًا في تنظيم هذا الاجتماع، مرشحًا رسميًا للتحليل النفسي. قبل يوم من الاجتماع في هابسالو وبعده بيوم، مكثت في تالين، التي تغيرت تغيرًا كبيرًا منذ أول زيارة لي هناك عام 1996. جرى تجديد «المدينة القديمة» في وسط تالين بأسلوب جميل وبدت كأنها شيء من قصة خيالية. كان السياح في كل مكان.

رغم انشغاله الشديد في هابسالو، امتلك إندل ما يكفي من الوقت ليخبرني المزيد عن حدث مأساوي كنت على علم به بالفعل: وفاة ابن أولغا كاميشان المراهق في حادث مروري. تحولت أولغا، «نجمة» فيلم آلان كينغ، إلى قائدة مجتمعية نشطة للغاية في كلوغا. مع أنها لم تنجح بالحصول على مقعد في البرلمان الإستوني عند ترشحها في مارس عام 1999،

لكنها أصبحت جزءًا من عملية سياسية أكبر؛ خطوة هائلة لم يكن ممكنًا تخيلها قبل بضع سنوات. عندما سمعت هذا، اعتقدت أن مثالها كان دليلاً إضافيًا على فعالية النموذج الشجري في كلوغا. ثم جاءت المأساة. عندما أغمض عيني، أرى ابن أولغا في فيلم آلان يتحدث مع الأولاد الآخرين عن الشابات. أخبرني إندل عن انهيار أولغا بعد وفاة ابنها وضياع دورها القيادي؛ لم يعد المركز المجتمعي يعمل. تلاشى قلق ما بعد الاستقلال بشأن «التعايش» في كلوغا مع تكيف إستونيا أكثر فأكثر مع إعادة استقلالها. لقد فهمت أن المكان أصبح قرية إستونية نموذجية أخرى بجوانبها الجيدة والسيئة.

في اليوم التالي للاجتماع في هابسالو، خرجت في نزهة وحيدًا في مدينة تالين القديمة الجميلة. في ذلك اليوم، كان ذهني مشغولًا بالتفكير في أنشطتنا السابقة هناك في وقت كانت فيه المدينة –والبلد– تحاول العودة إلى الحياة بعد سنوات عديدة من الإهمال في الحقبة السوفيتية. مررت بمقهى وتذكرت كيف رأيت قبل بضع سنوات أرنولد روتل جالسًا هناك بمفرده. تذكرت سحب كرسي للجلوس بجانبه، رغم أنه لا يتحدث الإنجليزية ولا أتحدث الإستونية أو الروسية؛ تحدثنا بإيماءات اليد. اعتقدت أنه أصبح في القصر الرئاسي. فكرت في أنتس باجو وغيره. أردت أن أجد بيتر فاريس، الباحث اللطيف للغاية، الذي شغل منصب نائب مدير معهد الدراسات الدولية والاجتماعية في تالين أثناء مشاركته في سلسلة الحوار السياسي النفسي. تولى بيتر وجماعته مسؤولية تنظيم اجتماعاتنا وجميع الخطوات العملية التي يجب القيام بها. أدركت أنني أفتقدهم. شعرت أيضًا بالحنين إلى أوقاتي الخاصة مع

جان كابلينسكي، شاعر استثنائي وباحث عن الطفل داخله، يثمن كل شيء من حوله، من دمية الدب في طفولته إلى تربة مزرعته، وصولًا إلى أرواح الناس من خلفيات متنوعة. أردت أيضًا الذهاب إلى كلوغا والجلوس في صمت بجانب أولغا. لكنني علمت أن لا وقت لدي لرؤية أي شخص، وأنه يجب ألا أتصل بإندل وأزعجه بسبب انشغاله المستمر وبالتالي عدم قدرته على مساعدتي.

استمتعت وأنا أتذكر كيف اعتاد العديد من أصدقائنا الإستونيين إخبارنا أنهم سيضعون تماثيل لنا في مدينة تالين القديمة بسبب استثمارنا الهائل فيهم. ولكن ها أنا ذا بعد بضع سنوات، أسير وحدي في مدينة تالين القديمة، حالي حال العديد من الأشخاص في الشارع الذين لم يولهم أحد أي اهتمام خاص. وفجأة، سيطرت هويتي التحليلية النفسية. شعرت أنني أختبر شعورًا اعتدت أن يراودني في نهاية تحليلات المحللين. إذا كانت تحليلاتهم ناجحة، فإنهم سيتركونني مثل شبان صغار، ينفصلون نفسيًا عن والديهم لإيجاد استقلاليتهم وهوياتهم. ومع ذلك، علمت أن المحللين الذين أكملوا تحليلاتهم بنجاح، على عكس الشباب الذين يكبرون ويحافظون على علاقات مع والديهم، سيقمعون معظم جوانب علاقتهم الحميمة معي. من خلال التوافقات اللاواعية المختلفة معي، سيحملونني داخل أنفسهم لبقية حياتهم دون أن يكونوا على دراية بفعل ذلك. لن يكونوا على اتصال جسدي معي بعد الآن ولن يتصلوا بي حتى، كما ينبغي أن يكون الحال. هذا الإدراك جعلني أشعر أنني بحالة جيدة. بطريقة ما، اعتقدت، أنني كنت موجودًا في مكان ما في هذا البلد الجميل

تمامًا كما كنت موجودًا في من حللتهم سابقًا، وبطريقة ما ستبقى إستونيا في داخلي بقية حياتي.

ملاحظات

الفصل الأول

1. انظر فاميك دي. فولكان، The Need to Have Enemies and Allies: From Clinical Practice to International Relationships (نورث فيل، نيوجيرسي: جيسون أرونسون، 1988).

2. المصدر السابق. في عام 1988 طورت مفهومًا يربط حاجة المجتمعات الإنسانية إلى الأعداء والحلفاء بتطور الفرد في طفولته. في فترة النمو، يحاول كل طفل أن يطور شعورًا متماسكًا بالنفس (وشعورًا متماسكًا بالآخرين، كأمه). الطفل الصغير جدًّا لا يستطيع أن يشعر بأنه فرد واحد، بل يكون له نفس «جيدة» عندما يكون مرتاحًا وشبعان ومعتنًى به، ونفس «سيئة» عندما يكون غاضبًا أو مهملًا. في عمر ثلاث سنوات، يطور الطفل نفسًا «رمادية» من النفسين السوداء («السيئة»)، والبيضاء («الجيدة»): يطور الطفل عندها نفسًا متماسكة متكاملة. لمزيد من التفاصيل راجع: إديث جاكوبسون، *The Self and the Object World* (New York: International Universities Press, 1964)، ومارغرت إس. مالر، *On Human Symbiosis and the Vicissitudes of Individuation* (New York: International Universities Press,1968)، وإريك إتش إريكسون، *Identity and the Life Cycle* (New York: International Universities Press, 1959)، وأوتو إف. كيرنبرغ، *Borderline Conditions and Pathological Narcissism* (New York: Jason Aronson, 1975)، و *Internal World and External Reality* (New York: Jason Aronson, 1980).

كانت أطروحتي أن هذا الإدماج ليس كاملًا. تبقى بعض الصور «الجيدة» و«السيئة» غير مدمجة في النفس الرمادية. إن الشعور بهذه الصور في النفس يؤدي إلى الشعور بالكرب.

يضطر الأطفال إلى أن يفعلوا شيئًا بأجزائهم غير المدمجة. من الطرق التي يتعاملون فيها مع المشكلة أنهم يبحثون عن «خزانات» دائمة لجوانبهم غير المدمجة. توجد هذه «الخزانات» الدائمة عادة في «المعززات الثقافية» للجماعة الكبيرة التي ينتمي إليها الطفل. (للمزيد عن المعززات الثقافية راجع جون ماك، " Cultural Amplifiers of Ethnic-Nationalistic Affiliation and Differentiation"، وهي ورقة قرئت على لجنة العلاقات الدولية في الاجتماع الخريفي لمجموعة التقدم بالطب النفسي، تشيري هيل، نيوجيرسي، 10 نوفمبر 1984). في فترة النمو، يتعلم الأطفال وضع الأجزاء غير المدمجة في هذه الخزانات. فعلى سبيل المثال، يعد الساونا «خزانًا» جيدًا للأطفال الفنلنديين، ويعتبر الخنزير خزانًا «سيئًا» للأطفال المسلمين. تحضّر الخزانات «الجيدة» المشتركة الدائمة أساسًا للشعور بالـ«نحنية»، أما الخزانات «السيئة» المشتركة الدائمة فتصبح نقطة الانطلاق للحاجة إلى أعداء مجتمعيين.

وضوحًا، تملك الجماعات الكبيرة أسبابًا كثيرة للحاجة إلى الأعداء والحلفاء، ولقد استطلعت بعضًا منها في أعمالي النفسية السياسية السابقة، مثل The Need to Have Enemies and Allies; Bloodlines: From Ethnic Pride to Ethnic Terrorism (New York: Farrar, Straus & Giroux, 1997)، و Blind Trust: Large Groups and Their Leaders in Times of Crises and Terror (Charlottesville, VA: Pitchstone Publishing, 2004). إن هدفي من الإشارة إلى هذه الدوافع الطفولية لهذه الحاجات هو تذكير القارئ بأن اهتمامنا بالأعداء والحلفاء المجتمعيين وبقضايا هويتنا الجماعية الكبيرة أمر حتمي نفسيًّا، في تقديري.

3. جورجيا بلد قديم يمتد تاريخه 3,000 عام. الجورجيون مختصون بمنطقة القوقاز أنثروبولوجيًّا. لغتهم، ذات الأبجدية المميزة (واحدة من 14 أبجدية في العالم)، موجودة بشكلها المكتوب منذ عام 400 للميلاد، وهي بعيدة لغويًّا عن اللغات السلافية والتركية. كانت المسيحية، التي اعتنقتها جورجيا في القرن الرابع، نقلة نوعية في تطور الثقافة الروحية للجورجيين. بين القرن الرابع والسابع، كانت جورجيا محل خلاف بين الإمبراطوريتين

البيزنطية والساسانية، وبين البيزنطيين والعرب من القرن السابع إلى القرن العاشر. كانت الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر «العصر الذهبي» لجورجيا، الذي قاده حكم ديفيد الباني، ثم الملكة تامار، عندما أسست إمبراطورية جرجية امتدت من البحر الأسود إلى بحر قزوين وارتبطت بأوروبا والشرق بعلاقات تجارية.

كان غزو المغوليين للقوقاز من عام 1220 نهاية لنهضة جورجيا. عزل سقوط القسطنطينية (إسطنبول اليوم) في يد العثمانيين الأتراك عام 1453 جورجيا من الممالك المسيحية، وفي القرون الثلاثة التالية أصبحت بلدًا يتنازع عليه الفرس والعثمانيون. في عام 1783، وُضعت جورجيا، حسب اتفاقية جورجييفسك، تحت الحماية الروسية. في عام 1801، وضع قيصر روسيا بافل الأول شرق جورجيا تحت الحكم الروسي المباشر. نتيجة للحروب الروسية التركية والروسية الفارسية، ضمّت الإمبراطورية الروسية المناطق الجورجية الغربية في سبعينيات القرن التاسع عشر.

كانت طبقة النبلاء الروسية والجورجية متفقتين إلى درجة كبيرة في تلك الفترة، وكان لانضمام جورجيا إلى الإمبراطورية الروسية بعض الآثار الإيجابية، منها ارتفاع مستوى المعيشة والنمو المستقر للشعب الجورجي، وتوسيع البنى التحتية في البلد. لكن كان لهذا الانضمام آثار سلبية أيضًا، استمرت إلى فترة الاتحاد السوفييتي. خسرت الكنيسة الجورجية الأرثوذكسية استقلالها للكنيسة الأرثوذكسية الروسية، ولو أن اللغة الجورجية وأنظمة الاعتقاد الجورجية حافظت على نفسها رغم ضغوط «الترويس». بقي الجورجيون، المنقسمون إلى «قبائل» مختلفة فخورين بثقافتهم القديمة وأبجديتهم الفريدة.

بعيد الثورة البلشفية عام 1917 في روسيا، نالت جورجيا استقلالها عام 1918 لفترة وجيزة. أصبحت جورجيا جمهورية سوفييتية عام 1921 من خلال تعاون الجيش الأحمر ومنظمات بلشفية محلية. ارتبطت جورجيا وأرمينيا وأذربيجان بعد ذلك في اتحاد جنوب القوقاز، الذي انضم إلى الاتحاد السوفييتي في 30 ديسمبر 1922. حُل هذا الاتحاد عام 1936، وأصبحت كل جمهورية في جنوب القوقاز عضوًا مباشرا في الاتحاد السوفييتي.

على رغم لعب الجورجيين دورًا مهمًّا في السياسة السوفييتية –كان جوزيف ستالين من جورجيا– حُرم الجورجيين من أن يديروا شؤونهم الداخلية والدولية. ككل الجمهوريات السوفييتية تقريبًا، كان في جورجيا تشكلات إثنية متعددة: أبخازيا، وأجاريا، وأوسيتا الجنوبية. أثارت المشكلات المرتبطة بإعادة الاستقلال التوترات الإثنية السياسية من جديد بين الجورجيين الإثنيين ومجموعتين غير جورجيتين، هي الأبخازيون والأوسيتيون الجنوبيون. في عام 1990، أدت المآسي المتراكمة والمساعي السياسية القائمة على الهوية للأبخازيين والأوسيتيين الجنوبيين إلى إعلان كل من المجموعتين عن استقلالها بحكم الواقع من جورجيا. هذه المحاولات النفصالية حدثت في سياق صعود الوطنية الجورجية.

لم يهتم كثير من الناس بادعاءات الاستقلال هذه اهتمامًا جدّيًّا، لأن «استعراضًا من السيادات المدفوعة بالهوية» كان يحدث في ذلك الوقت، إذ نصبت عدة جمهوريات وأقاليم ومناطق رؤساء لها واحدة تلو الأخرى. لكن في جورجيا، أصبح الوضع مأساويًّا بسبب اندلاع نزاعين إثنيين شديدين، أولهما في أوسيتا الجنوبية والآخر في أبخازيا. نتيجة هذا، بدأ الناس يقتل بعضهم بعضًا باسم هوية الجماعة الكبيرة، وقُتل آلاف الناس، وهُجّر مئات وآلاف، وتعرض المجتمع الجورجي بكليته لصدمة عميقة.

4. لمزيد من التفاصيل انظر إس. نيل مكفرلان، ولاري مينيار، وستيفن دي. شانفيلد، Armed Conflict in Georgia: A Case Study of Humanitarian Action and Peacekeeping (Providence, RI: Thomas J. Watson, Jr. Institute for International Studies, 1996).

5. بعد أن حققت موسكو بهذا الحادث، لم تقدم أي اعتذار.

6. انظر فولكان، *Bloodlines*، *وجويس نيو وفاميك دي فولكان*، *Developing a Methodology for Conflict Prevention: The Case of Estonia (Atlanta, GA: Carter Center Special Report Series, Winter 1999).*

7. في جمعي للبيانات من مجتمعات مصدومة، طورت أسلوبًا أسميه «جمع البيانات العلاجي». أقول للناس إن سماعي لقصة حياتهم يساعدني على تحسين فهمي لما جرى لمجتمعهم. أقودهم كذلك وهم يذكرون الأحداث الهامة في حياتهم. هدفي ليس التشخيص الكامل لنظام شخصية الفرد، وأشكال أعراضه، ونقاط تعلقه النفسية الجنسية. بل أسعى إلى فهم تشابك العوالم الداخلية للأفراد وتمثيلاتهم الذهنية للأحداث الخارجية، لا سيما الأحداث التي كانت صادمة لهم ولجماعتهم. إن إدراك الصدمة وعيشها يترك أصداء في العوالم الداخلية للأفراد ويعكس عمليات نفسية. هذه العمليات النفسية تكون مشتركة عادة في المجموعة المصدومة. إن إظهار هذه العمليات قد يساعد المحلل على تطوير استراتيجيات تستجيب للحاجات النفسية والواقعية للذين ينتمون للجماعة. (انظر الملاحظة 9 مثلًا). عندما يكون مناسبًا، يمكن للمحاور أن يشارك مع الفرد المصدوم اكتشافاته بشأن العمليات النفسية التي أثارتها الصدمات وكانت «مخفية». يفعل المحاور هذا عندما يشعر أنه سيساعد زيادة آليات التأثلم في الفرد المصدوم. يجب أن أؤكد هنا أن «جمع البيانات العلاجي» يجب أن يجرى على أيدي مختصين من الذين أجروا تدريبًا نفسيًّا تحليليًّا أو نفسيًّا ديناميكيًّا.

8. لأسباب سياسية، أغلقت المدارس التي تدرس باللغة الأبخازية في أربعينيات القرن العشرين.

9. هذا الجانب من الحوار مع دالي جذب انتباهي إلى صعوبة نفسية بين النازحين داخليًّا لم يكن يمكن اكتشافها باستخدام جمع البيانات بالأسئلة والأجوبة على الأرجح. بعد هذا، ومن خلال مضيفينا الجورجيين، أطلقنا عملية تتيح للنازحين داخليًّا الذين خسروا هوياتهم الأصلية أن يحصلوا على هويات جديدة من سلطات تبليسي، مع التأكيد على ضرورة إصدارها بطريقة محترمة لا تثير مشاعر الإهانة. اقترحنا كذلك أن تذكر بطاقات الهوية الجديدة مكان الولادة أو السكن الأصلي للنازح.

10. فاميك دي. فولكان، Cyprus—War and Adaptation: A Psychoanalytic History of Two Ethnic Groups in Conflict (Charlottesville, VA: University of Virginia Press, 1979).

11. يشرح مايكل سابك ظاهرة مطابقة حدثت في نظام تشيكوسلوفاكيا الشمولي. انظر مايكل سابك، "Anality in the Totalitarian System and the Psychology of Post-Totalitarian Society," Mind and Human Interaction 4 (1992): 52–59.

الفصل الثالث

12. تشير الأدبيات النفسية إلى ظاهرة تسمى «الطفل البديل»، إذ لاحظ العديد من المؤلفين أنه بعد وفاة الطفل، قد تستبدل الأم، التي تعاني الشعور بالذنب أو المصابة بالاكتئاب أو الرهاب أو الوسواس القهري، بطفلها المفقود طفلاً آخر ما يزال على قيد الحياة. كتب إي. أو. بوزنانسكي، «إن استبدال طفل بآخر يتيح للوالدين إنكار وفاة الطفل الأول جزئيًا. فالطفل البديل يؤدي دور المانع أمام اعتراف الوالدين بالموت، بما أن الطفل الحقيقي موجود كبديل». إي. أو. بوزنانسكي، "The 'Replacement Child': A Saga of Unresolved Parental Grief" *Behavioral Pediatrics* 81 (1972): 1090–1193.

يصف فاميك دي. فولكان وغابرييل أست في *Siblings in the Unconscious and Psychopathology* (Madison, CT: International Universities Press, 1997) كيف يمكن للأم التي فقدت طفلها أن «تودع» التمثيل الذهني للطفل الميت في التمثيل الذاتي النامي للطفل الثاني. يمكن للأطفال البدلاء التعامل مع ما «أُودع» فيهم بطرق مختلفة، بعضها تكيفي وبعضها مرضي.

13. تشير باكورة نظريات سيغموند فرويد إلى الصدمة الخارجية كعامل رئيسي في علم نفس الأمراض. سيغموند فرويد، "Project for a Scientific Psychology," in *The Origins of Psycho-Analysis*, 347–351 (–1893 New York: Basic Books,

The in vol. 15 of "Introductory Lectures to Psychoanalysis" ;(1954 ,*Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud* ed. James Strachey, 5–239 (London: Hogarth Press, 1917–1964); and *The Standard Edition of the* in vol. 18 of "Beyond the Pleasure Principle" ed. James Strachey, 1– ,*Complete Psychological Works of Sigmund Freud* (London: Hogarth Press, 1920–1955) 65. بعد ذلك، ركز فرويد على الخيال الداخلي الذي يصبح مرتبطًا بالحدث الصادم. في " Inhibitions, Symptoms, and *The Standard Edition of the Complete Psychological* in vol. 20 of "Anxiety ed. by James Strachey, 75–175 (London: ,*Works of Sigmund Freud* Hogarth Press, 1926–1959)، وصف فرويد الصدمة بأنها حالة من العجز النفسي، يتم اختبارها فعليًا. وبالتالي، فقد ميز بين الأحداث الصادمة والمواقف الصادمة التي يتخللها ترقب للخطر.

ركز معظم المحللين النفسيين عقب فرويد على الخيال الداخلي الذي يصبح مرتبطًا بالصدمة وليس على الصدمة الخارجية نفسها. وهكذا، حتى العقد الفائت أو نحو ذلك، لم يولِ المحللون النفسيون اهتمامًا كافيًا للأحداث الخارجية. لكن هذا الوضع قد تغير الآن.

14. هوارد إف. شتاين، " Personal Thoughts on the Journey from Trauma to Resilience"، *Mind and Human Interaction* 13 (2003): 90–98.

15. في عام 2004، ضرب لنا المحلل النفسي للأطفال المعروف هنري بارينز في *Renewal of Life: Healing from the Holocaust* (Rockville, MD: Schreiber Publishing, 2004) مثالًا واضحًا على الاستجابة الإبداعية للصدمة. فقد عرّفنا بارينز في عقده السابع على طفل مميز – هو ذاته في الثانية عشرة من عمره لما هرب من ريفزالت، أحد معسكرات الاعتقال في فيشي بفرنسا. وجدنا أمه، كانت في ريفزالت أيضًا ثم قُتلت لاحقًا في أوشفيتس، التي تحلت بالشجاعة لتشجيع ابنها على الفرار. وأعتقد أن شجاعة هذه

الأم ظلت حية في ابنها، إذ حول وجوده المثقل بصدمة وخسارة مروعتين إلى حياة زاخرة بالرعاية والعلاج والإبداع. ففي عمله كمحلل نفسي مع الأطفال، قدم بارينز مساهمات جليلة في مسألة كيفية تطور العدوانية وكيفية تشكلها في كل واحد منا. اقرأ هنري بارينز، *The Development of Aggression in Early Childhood* (New York: Jason Aronson, 1979).

16. لدراسة مستفيضة للصدمة والانفصال، اقرأ إيرا برينر، *Psychic Trauma: Dynamics, Symptoms and Treatment* (New York: Jason Aronson, 2004).

17. فاميك دي. فولكان، "Traumatized Societies and Psychological Care: Expanding the Concept of Preventive Medicine," *Mind and Human Interaction* 11 (2000): 177–194.

18. لا أتعامل هنا مع ردود أفعال الأطفال على الخسارة. فالطفل لا يمكنه أن يحافظ على صور الآخرين المختلفة عندما ينفصل جسديًا عنهم حتى يرسخ بقوةٍ تمثيلات ذهنية عن الآخرين، فديناميات حداد الطفل تختلف عن ديناميات حداد الشخص البالغ. للاطلاع على مراجعة، اقرأ فاميك فولكان، *Linking Objects and Linking Phenomena: A Study of the Forms, Symptoms, Metapsychology and Therapy of Complicated Mourning* (New York: International Universities Press, 1981).

19. فيكو تاهكا، "Dealing with Object Loss," *Scandinavian Psychoanalytic Review* 1 (1984): 13–33.

20. عندما تكون التماهيات مع صور ووظائف ما فُقد انتقائية و«صحية»، فإن عملية الحداد تعتبر «طبيعية». والمفجوع، بعد أن يخوض آلام الفجيعة وبعد استنزاف قدر كبير من الطاقة في مراجعة التمثيل الذهني للشخص أو الشيء المفقود، «يكتسب» شيئًا من تجاربه. كما وتحدث معظم التماهيات دون وعي.

يمكن أن تحدث تماهيات غير صحية أيضًا. فإذا كان المفجوع مرتبطًا بالشخص أو الشيء المفقود مع تناقض مفرط حين كان الشخص ما يزال على قيد الحياة أو كان الشيء ما يزال موجودًا، وإذا كانت الخسارة مرتبطة بصدمة وغضب عاجز، فقد ينتهي المطاف بالمفجوع بالتماهي مع تمثيل العنصر المفقود بطريقة غير صحية. مثل هذا المفجوع غير قادر على خلق تماهٍ انتقائي وغني. بدلًا من ذلك، إنه يستوعب تمثيل العنصر المفقود «بالكامل» في تمثيله الذاتي. اقرأ جوزيف سميث، "On the Work of Mourning," in *Bereavement: Its Psychological Aspects*, ed. B. Scoenberg, I. Gerber, A. Weiner, et. al., (New York: Columbia University Press, 1975) 25–18. بناءً على ذلك، فإن الحب والكراهية (التناقض) اللذين كانا يربطان في الأصل المفجوع بالشخص أو الشيء المفقود يحولان الآن تمثيل المفجوع الذاتي إلى ساحة معركة. فقد أصبح الصراع بين الحب والكراهية محسوسًا الآن داخل تمثيل المفجوع الذاتي الذي استوعب التمثيل المرتبط بشكل متناقض للعنصر المفقود من خلال تماهٍ كامل معه. أطلق سيغموند فرويد على هذه الحالة اسم «السوداوية». سيغموند فرويد، "Mourning and Melancholia," vol. 14 of *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*, ed. by James Strachey, 243–258 (London: Hogarth Press, 1917–1957).

عندما تصبح الكراهية تجاه التمثيل المستوعَب للشخص أو الشيء المفقود هي المسيطرة، قد يحاول بعض المفجوعين قتل أنفسهم (الانتحار) من أجل «قتل» التمثيل الذهني المستوعَب. بعبارة أخرى، يريدون من الناحية النفسية تفجير أو خنق التمثيل الذهني للعنصر المفقود ضمن تمثيلهم الذاتي، وبالتالي يطلقون النار على أنفسهم أو يشنقون أنفسهم. فالسوداوية (الاكتئاب) بعد الفقد يمكن أن تكون قاتلة للمفجوع.

21. إلى حد كبير، لا يستطيع الشخص المقدَّر له أن يكون مفجوعًا دائمًا أن يتماهى مع الجوانب الغنية المختارة للتمثيل الذهني للشخص أو الشيء المفقود. من ناحية أخرى، لا ينتهي المطاف بالمفجوع بالتماهي بالكامل مع تمثيل العنصر المفقود. بعبارة أخرى، لا

يستطيع المفجوع أن يخوض عملية حداد «طبيعية» أو لا يمكنه أن يطور السوداوية (الاكتئاب). بدلاً من ذلك، يحتفظ المفجوع بالتمثيل الذهني للعنصر المفقود باعتباره «جسمًا غريبًا» محددًا وغير مستوعَب ويرتبط به باستمرار. يكون المفجوع الدائم ممزقًا بين توق عارم لاستعادة حضور الشخص أو الشيء المفقود وخوف مروع بنفس القدر من احتمال مواجهة العنصر المفقود. إن وجود هذا «الجسم الغريب» (يسميه المحللون النفسيون جسمًا مستدمَجًا) يتيح وهم الاختيار، وبهذه الطريقة يخفف القلق. لكن وجود مثل هذا «الجسم الغريب» داخل المرء يعني استمرار الصراع الداخلي معه.

22. وضعت مصطلح «الأجسام الرابطة» في عام 1972. اقرأ فاميك دي. فولكان، "Linking Objects of Pathological Mourners," *Archives of General Psychiatry* 27 (1972): 215–222.

23. لا ينبغي الخلط بين الأجسام الرابطة والأجسام الانتقالية في مرحلة الطفولة كدمية الدب. اقرأ دونالد وينيكوت، "Transitional Objects and Transitional Phenomena," *International Journal of Psycho-Analysis* 34 (1953): 89–97. يمثل الجسم الانتقالي، من الناحية النفسية، أول شيء ليس-أنا، لكنه ليس ليس-أنا بالكامل. فهو يربط ليس-أنا مع أمي-أنا وهو بنية مؤقتة نحو الإحساس بالواقع. اقرأ فيليس غريناكر، "The Fetish and the Transitional Object," in *Emotional Growth* 1, (New York: International Universities Press, 1969–1974) 315–334.

تنطوي الأجسام الرابطة على رمزية عالية المستوى. ويجب النظر إليها كرموز مرصوصة بإحكام ترتبط أهميتها بالفروق الدقيقة الواعية واللاواعية للعلاقة التي سبقت الخسارة. والجسم الرابط جسرٌ خارجي بين التمثيلات الذهنية للمفجوع والتمثيلات الذهنية للشخص أو الشيء المفقود، تمامًا كما يعمل الجسم المستدمَج كجسر داخلي.

ثمة أنواع مختلفة من العناصر التي يمكن أن تتطور إلى أجسام رابطة، كالمقتنيات الشخصية للمتوفى أو أحد الأجزاء الحقيقية من الشيء المفقود؛ الهدية أو الرسالة الوداعية

الرمزية؛ الشيء الذي استخدمه الشخص المفقود لتعزيز حواسه أو وظائف جسده كآلة التصوير؛ أو «جسم الدقيقة الأخيرة»، وهو شيء كان في متناول اليد حين علم المفجوع بموت شخص مهم أو اختفاء عنصر مهم. يبدع بعض المفجوعين أجسامهم الرابطة، كاللوحة (أو قصائد خوندادزه)، بينما يستخدم آخرون أجسامًا رابطة حية.

24. في بداية دراستي حول الفجيعة والحداد التي استمرت لعقود، ركزت على الجوانب المرضية للأجسام الرابطة. بعبارة أخرى، اعتبرت وجودها محض علامة على «تجميد» المفجوع لعملية حداده. كتبت لاحقًا عن الجسم الرابط كمصدر للإلهام يوجه نحو الإبداع لدى بعض الأفراد. ويمارس مثل هؤلاء الأفراد الحداد المعقد أيضًا، إلا أنهم يعبرون عنه في الأشكال الفنية. أعتقد أنه ليس مناسبًا الإشارة إلى شخص أبدع شيئًا مثل تاج محل على أنه «مَرَضي». اقرأ فاميك فولكان وإليزابيث زينتل، *Life After Loss: The Lessons of Grief* (New York: Charles Scribner's Sons, 1993).

25. يقول دونالد دبليو. وينيكوت أنه «في اللعب، وربما في اللعب فقط، يكون الطفل أو الشخص البالغ حرًّا في الإبداع». دونالد دبليو. وينيكوت، *Playing and Reality* (London: Tavistock Publications, 1971), 53. اقرأ أيضًا بيّ. بي. نويباور، "Playing: Technical Implications," in *The Many Meanings of Play*, ed. by Albert J. Solnit, D. J. Cohen, and P. B. Neubaurer, 100–122 (New Haven, CT: Yale University Press, 1993). عملت غابرييل أست، وهي محللة نفسية تمارس عملها في ميونيخ بألمانيا، مع شابة تُدعى «غيتا» وُلدت بتشوهات جسدية عديدة وخضعت لما يقرب من أربع وعشرين عملية جراحية منذ الطفولة حتى بلغت أوائل العشرينيات من عمرها. وقد أُصيبت غيتا بالصدمة من جراء العمليات الجراحية والاستشفاء الطويل والصعب. نتيجة لذلك، تشكلت لديها صورة معيبة لجسدها. في أثناء علاجها، «لعبتْ» لمدة تسعة أشهر عن طريق إصلاح شقتها. لقد جسد علاجها بوضوح كيف أن إصلاحها لبيئتها الخارجية مرتبط بجهودها لإصلاح عالمها الداخلي وصورة جسدها المعيبة. فاميك دي.

فولكان وغابرييل أست، "Gitta's Curing 'Leaking Body': Actualized Unconscious Fantasies and Therapeutic Play," *Journal of Clinical Psychoanalysis* 10 (2001): 557–596. إن الغاية من بناء عائلة كاتشافارا «لغرفة فاميكنا» تشبه الغاية من عمل غيتا على شقتها.

26. إن مفهوم «متلازمة الناجي»، الذي ينطوي على الشعور بالذنب، قد وصفه ويليام نيدرلاند لأول مرة بعد دراساته المكثفة على الناجين من الهولوكوست. اقرأ ويليام نيدرلاند، "The Problem of the Survivor," *Journal of Hillside Hospital* 10 (1961): 233–247.

27. أوزكز ياشن، *Oglum Savas'a Mektuplar (Letters to My Son Savas)* (Nicosia: Çevre Yayınları, 1965), 18).

28. أوزكز ياشن، *Kıbrıs Mektubu (The Cyprus Letter)* (Istanbul: Varlık Yayınları, 1958) and *Kanlı Kıbrıs (Bloody Cyprus)* (Istanbul: Varlık Yayınları, 1964). لمزيد من المعلومات حول الأحداث في قبرص، اقرأ فولكان، *Cyprus— War and Adaptation*.

29. تاهكا، "Dealing with Object Loss."

الفصل الرابع

30. اقرأ فولكان، *Blind Trust*، الذي أدرس فيه بالتفصيل تطور هوية المجموعة الكبيرة.

31. دونالد وينيكوت، "Transitional Objects and Phenomena." يشغل الجسم الانتقالي حيّزًا بين «ليس–أنا» و«أمي–أنا». اقرأ أيضًا فيليس غريناكر، " The Transitional

”,Object and the Fetish: With Special Reference to the Use of Illusion
.456–447 :(1970) 51 *International Journal of Psycho-Analysis*

32. ثمة الكثير من الإشارات إلى دراسات على هذه الشاكلة ولا يسعني تحديدها كلها هنا. يمكن العثور على مراجعة جيدة لمثل هذه الدراسات في فاميك دي. فولكان، وغابرييل أست، ووليام غرير، *The Third Reich in the Unconscious: Transgenerational Transmission and its Consequences* (New York: Brunner-Routledge, 2002).

33. جون ويلسون وبوريس دروزديك *Broken Spirits: The Treatment of Traumatized Asylum Seekers, Refugees, War and Torture Victims* (New York: Brunner-Routledge, 2004).

34. على سبيل المثال، في عام 1974، كتب إيه. سيزار غارزا غيريرو عن سيكولوجية الهجرة الطوعية، وفي عام 1979 درست النزوح القسري. إيه. سيزار غارزا غيريرو، “Culture Shock: Its Mourning and Vicissitudes of Identity”, *Journal of the American Psychoanalytic Association* 22 (1974): 408–429 وفولكان، *Cyprus—War and Adaptation*.

35. ليون غرينبيرغ وريبيكا غرينبيرغ، *Psychoanalytic Perspectives on Immigration and Exile*, trans. N. Festinger. (New Haven, CT: Yale University Press, 1989).

36. Ibid., 67.

37. فولكان، *The Need to Have Enemies and Allies*.

38. ديميتريوس إيه. يوليوس، “Biculturalism and International Interdependence”, *Mind and Human Interaction* 3 (1992): 53–56

39. مارتن وانغ، "Being a Refugee and Being an Immigrant," *International Psychoanalysis* (Winter 1992): 15–17.

40. ميلاني كلاين، "Mourning and Its Relation to Manic-Depressive States," in *Contributions to Psychoanalysis*, 1921–1945, 331–338 (London: Hogarth Press, 1940) and "Notes on Some Schizoid Mechanisms," in *Development in Psychoanalysis*, 292–320, ed. J. Riviere, (London: Hogarth Press, 1946).

41. ليون غرينبيرغ، *Guilt and Depression*, trans. C. Trollope (London: Karnac Books, 1992), 79.

42. سلمان أختر، *Immigration and Identity: Turmoil, Treatment and Transformation* (Northvale, NJ: Jason Aronson, 1999).

43. مارغريت إس. مالر، *On Human Symbiosis and the Vicissitudes of Individuation* (New York: International Universities Press, 1968).

44. بالنسبة للأرجنتين، اقرأ أنطونيوس سي. جي. روبن، "The Assault on Basic Trust: Disappearance, Protest, and Reburial in Argentina," in *Cultures Under Siege: Collective Violence and Trauma*, ed. by Antonius C. G. Robben and Marcello M. Suarez-Orozco, 70–101 (Cambridge: Cambridge University Press, 2000). اقرأ أيضًا مارسيلو إم. سواريز أوروزكو، "The Heritage of Enduring a 'Dirty War': Psychological Aspects of Terror in Argentina, 1976–1988," *Journal of Psychohistory* 18 (1991): 469–505.

بالنسبة لكرواتيا، اقرأ سلافيكا جورسيفيتش وإيفان أورليك، "Linking Objects in the Process of Mourning for Sons Disappeared in War," *Croatian Medical Journal* 43 (2001): 234–239.

45. في الوقت الراهن، أصبحت ملكية العقارات التي خلفها القبارصة اليونانيون في قبرص الشمالية بعد عام 1974، مسألة قانونية وسياسية معقدة جدًا، إذ ما زال الأتراك واليونانيون يناضلون لإيجاد حل لمشكلة قبرص.

46. فولكان، *Cyprus—War and Adaptation*, chap. 6.

47. يجب أن أذكر هنا أنني لم أجرِ أي دراسات في الفلوجة. وبالاعتماد على معرفتي المكتسبة في مكان آخر، أتوقع ما سيحدث من الناحية النفسية لسكان تلك المدينة.

48. وولف ويرديجير، *Hidden Images: Palestinians and Israelis—An Archeology of the Unconscious* (Vienna: Cultural Department, Austrian Federal Ministry of Education, 2003).

49. من الواضح أن هذا الاختلاف «الطفيف» مهم. سأستخدم «تسخينفالي» هنا لأنه الاسم الأشيع الذي يظهر في المنشورات الدولية.

50. فولكان، *The Need to Have Enemies and Allies*; *Bloodlines*; and *Blind Trust*.

51. سيغموند فرويد، "Group Psychology and the Analysis of the Ego" in vol. 18 of *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*, ed.James Strachey, 65–143 (London: Hogarth Press, 1921–1955).

الفصل الخامس

52. أصبح هذا النوع من «حل النزاع» من فرد إلى آخر شائعًا في السنوات الأخيرة. وبدعم من عدد من المنظمات الدولية في الولايات المتحدة وأوروبا، جمعت مبادرات مختلفة، مثلًا، شبابًا من مجموعات متعارضة من أجل «تعزيز التفاهم من خلال التفاعل»، على حد تعبير أحد هذه البرامج. ومع ذلك، قد تضر هذه اللقاءات، من دون تحضير دقيق

واستراتيجية مدروسة، أكثر مما تنفع. فمثلًا، تخيل إحضار مجموعة من المراهقين القبارصة الأتراك واليونانيين إلى معسكر في الولايات المتحدة قبل فتح الحدود بين الجانبين في عام 2004. سيلعب الأطفال معًا في المخيم تحت ضغط مقدمي الرعاية الأجانب –الذين يتمثل هدفهم المنطقي في جعل الأطفال «يحبون» بعضهم البعض– وينظرون إلى بعضهم البعض كبشر. ثم سيعودون بعد بضعة أسابيع إلى قبرص حيث لن يسمح لهم الواقع السياسي بأي نوع من التواصل، باستثناء البريد الإلكتروني ربما. سيرتبك الأطفال بسهولة: إذ سيعزز المعسكر الأمريكي حالة ذهنية لا يمكن الحفاظ عليها حرفيًا في الوطن. سيشعرون غالبًا بأنهم خونة إذا تحدثوا عن الاستمتاع أو إذا استمروا في التواصل عبر البريد الإلكتروني مع أطفال «العدو». وبالتالي، دون دراسة دقيقة للسياقات النفسية طويلة المدى للأطفال، قد تسفر هذه اللقاءات في الواقع عن نتائج سلبية وقد تربك حتى الشباب المعنيين وتكدرهم.

53. خلال زياراتي إلى جورجيا التي بدأت في مايو 1998، لاحظت من كثب كيف تطورت مؤسسة التنمية البشرية إلى أداة قوية لمعالجة القضايا المجتمعية اللاحقة للصدمة. طور نودار شارفيلادزه وزملاؤه برامجًا للنازحين الداخليين الجورجيين في تبليسي وغوري، بالإضافة إلى فتح حوارات مع نظرائهم الأوسيتيين الجنوبيين. وكلما اندلعت مناوشات جديدة على طول «الحدود» الجورجية–الأبخازية وظهرت موجة جديدة من الأفراد واللاجئين المصدومين، كان مؤسسة التنمية البشرية جاهزة للتعامل مع أوضاعهم الحادة. انضم نودار نفسه إلى الجورجيين الآخرين في المشاركة في التفاعلات المباشرة مع الأبخاز. وعندما اجتاح الروس الشيشان، فر نحو ثمانية آلاف لاجئ شيشاني إلى شمال جورجيا، منضمين إلى نحو سبعة آلاف شيشاني كانوا هناك مسبقًا. رغم أن السفر إلى شمال جورجيا كان خطيرًا للغاية، وجد نودار وزملاؤه طرقًا لتقديم المساعدة لهم. وهم يواصلون حتى يومنا هذا تكريس طاقاتهم الكبيرة لما يسمونه «إعادة التأهيل الاجتماعي» لمنطقتهم المصدومة بعمق.

54. غالبًا ما يحلم الأطفال المصابون بصدمة بالتبول على النار، وهو رمز آخر للغضب. تعكس هذه الأحلام رغبة هؤلاء الأطفال في التفريغ وبالتالي التخلص من غضبهم. كما أنه يعكس دفاعهم العقلي ضد الإحساس بغضبهم ومعرفته: الماء (البول) يطفئ النار (الغضب).

الفصل السادس

58. فولكان، *Blind Trust*؛ نورمان إيتزكويتز، "Enver Hoxha's Albania"، ورقة قرئت في حلقة نقاش حول الإرهاب والتراجع المجتمعي، الاجتماع الشتوي لجمعية التحليل النفسي الأمريكية، نيويورك، 23 يناير 2005.

59. نانسي هولاندر، *Love in Time of Hate: Liberation Psychology in Latin America* (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1997) and "Frozen Grief and the Transitional Transmission of Trauma"، ورقة قرئت في حلقة نقاش حول الإرهاب والتراجع المجتمعي، الاجتماع الشتوي لجمعية التحليل النفسي الأمريكية، نيويورك، 23 يناير 2005.

60. مايكل كيسي، "Aceh Hostilities on Hold; Sri Lanka Split," Associated Press, December 29, 2004.

61. تيم سوليفان، "A Civil War, a Tsunami, a Lost Opportunity: Sri Lanka Descends into 'Shadow War,'" Associated Press, September 18, 2005.

62. للحصول على دراسة مفصلة لحادث كارداك/إيميا وللمقارنة بين هويات الجماعات التركية واليونانية، انظر فولكان، *Bloodlines*.

63. ديفيد ل. فيليبس، "Track Two: Beyond Traditional Diplomacy," *State Magazine* (2000): 26–29.

64. في كتاب *ثقة عمياء* (ص 84)، كتبت: «تُظهر ملاحظات الأطفال الصغار أنهم مهتمون بما يخرج من أجسادهم –البراز والبول– لكنهم غير مهتمين بالضرورة بالدم. ومع ذلك، يدرك الأطفال تدريجيًا، من خلال الإصابات النازفة، أنه يوجد شيء «حي» تحت جلدهم، في وقت تتطور فيه هويتهم الأساسية. فيتشابك إحساس الطفل بذاته، «الحي» أيضًا بداخله، مثل الدم، مع فكرة الدم: يرتبط الدم والهوية».

65. كاي إريكسون، "Loss of Community at Buffalo Creek," *American Journal of Psychiatry* 133 (1975): 302–325؛ جاي. ل. تيتشنر وف. كاب، "Disaster at Buffalo Creek: Family and Character Change," *American Journal of Psychiatry* 133 (1976): 295–299؛ روبرت جاي. ليفتون وي. أولسون، "The Human Meaning of Total Disaster: The Buffalo Creek Experience," *Psychiatry* 39 (1976): 1–18؛ وليو رانجيل، "Discussion of the Buffalo Creek Disaster: The Course of Psychic Trauma," *American Journal of Psychiatry* 133 (1976): 313–316.

مُنح الناجون 13.5 مليون دولار، وزع منه 6 ملايين دولار على أساس نظام النقاط كتعويض عن الأضرار النفسية. ولأول مرة، سُمح للأفراد الذين لم يكونوا موجودين في مكان الكارثة بالتعافي من إصاباتهم العقلية. كان مصطلح «الإعاقة النفسية» هو المصطلح المصوغ لإصابات الناجين المدعين.

66. إريكسون، "Loss of Community at Buffalo Creek."

67. ر. م. ويليامز وك. موري باركس، "Psychosocial Effects of Disaster: Birth Rate in Aberfan," *British Medical Journal* 2 (1975): 303–304.

68. رافاييل موزس، "An Israeli Psychoanalyst Looks Back in 1983," in Psychoanalytic Reflections on the Holocaust: Selected Essays, ed. S. A. Luel and P. Marcus, 52–69 (New York: KTAV Publishing, 1984).

69. وليامز وباركس، "Psychosocial Effects of Disaster: Birth Rate in Aberfan."

70. المرجع نفسه.

71. فولكان، *Cyprus—War and Adaptation*.

72. روبرت جاي. ليفتون، *Death in Life: Survivors of Hiroshima* (New York: Random House, 1968).

73. موزس–هروشوفسكي، *Grief and Grievance*.

74. إيهود شبرينزاك، *Brother Against Brother: Violence and Extremism in Israeli Politics from Altena to the Rabin Assassination* (New York: Free Press, 1999), xi.

75. المرجع نفسه، 253–254.

76. المرجع نفسه، 277.

77. أفنير فيلك، "A Psychohistory of Political Assassination: The Cases of Lee Harvey Oswald and Yigal Amir"، ورقة مقدمة في الاجتماع العلمي السنوي الثاني والعشرين للجمعية الدولية لعلم النفس السياسي، أمستردام، 18–21 يوليو، 1999. للحصول على نسخة أقصر، انظر أفنير فيلك، "Political Assassination and Personality Disorder: The Cases of Lee Harvey Oswald and Yigal Amir," *Mind and Human Interaction* 12 (2001): 2–34.

78. يشير فيلك أن حغاي حسد إيغال لكونه الابن المفضل لأمهم، لكنه كبت هذا الحسد وأجلّ أخيه الأصغر. في وقت لاحق، بينما كان الشقيقان ينتظران محاكمة اغتيالهما، كتب حغاي لوالديه بغضب من السجن: «لقد فعل إيغال الكثير. وقد فعل ذلك لوجه الله فحسب. أراد أن ينجح، وقد فعل، فلم تسقط شعرة من رأسه. إن كان ذلك لهذه الغاية فحسب،

فسأحترمه لبقية حياتي.... ولن أقبل حتى أي ذرة إنكار لغالي من جانبكما. إنه أكبر مني ومنكما». من *يديعوت أحرونوت*، 21 ديسمبر 1995، ترجمه أفنير فيلك.

79. فيلك، "A Psychohistory of Political Assassination."

80. المرجع نفسه.

81- المرجع نفسه.

82. المرجع نفسه.

83. إيرين ميسيلفيتز، "German Reunification: A Quasi Ethnic Conflict," *Mind and Human Interaction* 13 (2003): 77–86. انظر أيضًا فولف فاغنر، الذي يوضح كيف يستمر كل جانب في اعتبار سلوكه صحيحًا بشكل طبيعي بينما يرفض سرًا سلوك الآخرين. توضح دراسات فاغنر المستفيضة أنه بعد عقد تقريبًا من إعادة التوحيد، ما تزال أساليب العديد من الألمان الشرقيين والألمان الغربيين السابقين في الروتين وأنماط السلوك اليومية مختلفة. فمثلًا، يصافح الألمان الغربيون السابقون بعضهم في التقديمات الرسمية فقط، بينما يصافح الألمان الشرقيون السابقون بعضهم عندما يجتمعون لأول مرة كل يوم. Wolf Wagner, *Kulturschock Deutschland 1 (Culture Shock Germany 1)* (Hamburg: Rotbuch-Verlag, 1996) *and Kulturschock Deutschland; Der zweite Blick (Culture Shock Germany: The Second View)* (Hamburg: Rotbuch-Verlag, 1998).

84. فيولا دبليو. برنارد، بيري أوتينبيرغ، وفريتز ريدل، "Dehumanization: A Composite Psychological Defense in Relation to Modern War," in *Sanctions for Evil: Sources of Social Destructiveness*, ed. N. Sanford and C. Comstock, 102–124 (San Francisco: Jossey-Bass, 1973). انظر أيضًا سلمان أختر، "Dehumanization: Origins, Manifestations, and Remedies," in *Violence or Dialogue: Psychoanalytic Insights on Terror and Terrorism*,

ed. Sverre Varvin and Vamık D. Volkan, 131–145 (London: International Psychoanalytic Association, 2003).

الفصل السابع

85. لا يتطور عقل الطفل أو إحساسه بالهوية في فراغ. إذ يعتمد تطور عقل الفرد وإحساسه المتسق بالتشابه (أو الهوية) ونضوج الوظائف العقلية بدرجة كبيرة على طبيعة تفاعلات الطفولة مع الوالدين، والإخوة، وغيرهم من الأشخاص المهمين في بيئة الطفل. ثمة أنواع محددة من التفاعلات مع الآباء ضرورية للنمو العقلي لأي طفل. وحتى يصل الطفل إلى مرحلة المراهقة، تختلف عمليات حداد الأطفال عن عملية حداد البالغين. انظر مارثا وولفنشتاين، «الفقدان، الغضب، والتكرار»، دراسة نفسية تحليلية للطفل 24 (1969): 432–460. تشير عملية حداد البالغين إلى ارتباطه بمجموعة من الصور (التمثيل الذهني) للمتوفى وترويض تلك العلاقة الداخلية بهذا التمثيل الذهني في مجرى الحداد «العادي». أما الأطفال، حتى عمر الثانية أو الثانية والنصف، لا يقدرون على المحافظة على التمثيل الذهني للآخرين. تخيل طفلاً صغيرًا يلعب في غرفته. ووالدته في الغرفة المجاورة، المطبخ، تطهو الطعام. بإمكان هذا الطفل أن يظل وحيدًا طالما ظل التمثيل الذهني –نوع من التوأم الذهني– لوالدته موجودًا في عقله. ولكن، بمجرد أن يبدأ توأم الأم الذهني في التلاشي، يصرخ الطفل «أمي!» وتجيبه أمه. أو قد يجري الطفل إلى المطبخ، يلمس الأم، ثم يعود إلى الغرفة الأولى ويستأنف اللعب. ونقول هنا أن الطفل «يعيد تزويد» نفسه بتوأم الأم الذهني من خلال المخالطة الحقيقية والمتكررة للأم الحقيقية. انظر مارغريت ماهلر، عن تعايش الإنسان وتقلبات التفرد. وفي عمر الثانية أو الثانية والنصف، يشرع الطفل في المحافظة على التمثيل الذهني للشخصية المهمة في حياته (يدعو علماء النفس التحليليين هذا تأسيس استمرارية الكائن)، ولكن هذا التوأم الذهني يظل «هشًا» لفترة من الزمن. ويُشكل هذا

التمثيل الذهني وفقًا لحاجات الطفل وأمانيه بالإضافة إلى تجاربه الحقيقية مع هذا الشخص. ولا بد من إشباع مثل تلك الحاجات والأماني بطريقة أو بأخرى حتى يستوعب الطفل المهام التي يقدمها البالغ. وجميعنا نظل باحثين عن مقدمي حاجاتنا وأمانينا، بدرجة أو بأخرى، لبقية حياتنا. والطفل الصغير في حاجة إلى استيعاب وظائف الأم المحبة حتى يتعلم كيفية حب نفسه. والطفل أيضًا في حاجة إلى أب يستجيب لحاجات وأماني محددة. فكر في المرحلة الأوديبية؛ إذ يعتمد حلها على المنافسة مع الأب والتماهي معه بالنسبة للأولاد، و«تأكيد» الأنوثة بالنسبة للبنات. وإذا لم يكن الأب موجودًا في الواقع، فسيظل الأطفال في حاجة ذهنية إلى التعامل مع المرحلة الأوديبية من خلال شخصية أب «خيالية».

86. Tähkä, “Dealing with Object Loss.”

87. Ann Bennett Mix’s remarks appear on the AWON website.

88. Hollander, Love in Time of Hate: Liberation Psychology in Latin America.

89. Ann Bennet Mix, Touchstones: A Guide to Records, Rights and Resources for Families of American World War II Causalities (Indianapolis, IN: James Publishers, 2003); Susan Johnson Hadler and Ann Bennett Mix, Lost in Victory: Reflections of American War Orphans of World War II (Denton, TX: University of North Texas Press, 1998).

90. Tom Brokaw, The Greatest Generation Speaks: Letters and Reflections (Norwalk, CT: Easton Press, 1999). Also see an enlarged second version, Tom Brokaw, The Greatest Generation (New York: Random House, 2004).

91. James E. Young, The Texture of Memory: Memorials and Meaning (New Haven: Yale University Press, 1993), 4

92. Jeffrey Karl Ochsner, “A Space of Loss: The Vietnam Veterans Memorial,” Journal of Architectural Education 10 (1997):156–171, 157
93. Ibid., 168.
94. Ibid., 171.

الفصل الثامن

95. Vamık D. Volkan, “The Tree Model: A Comprehensive Psychopolitical Approach to Unofficial Diplomacy and the Reduction of Ethnic Tension,” *Mind and Human Interaction* 10 (1999): 142–210.
96. For details of the Latvian National Cemetery story, see Volkan, *Bloodlines,* chap. 8.
97. From 1920 to 1940, Estonia had been an independent country. For CSMHI’s and the Carter Center’s work in Estonia, see Volkan, *Bloodlines,* chap. 13, and Neu and Volkan, *Developing a Methodology for Conflict Prevention*.
98. Volkan, “The Tree Model,” 156
99. عقب صدمة جسيمة على يد «الآخرين»، قد تعدل الجماعة المتأثر هويتها وقد تشرع في استيعاب إحساس مشترك بالاضطهاد. ومن هذا المنطلق، قد تقاوم تلك الجماعة تغيير هويتها «الجديدة» وقد لا «تسمح» للجماعة الأخرى بأن تبدي أي تعاطف معها. كلما حاولت الوفود الجورجية أن تبدي تعاطفًا مع سكان جنوب أوسيتيا، يشرع وفود جنوب أوسيتيا في القول بأنهم كانوا مسالمين تجاه جيرانهم على مر القرون. ويوقف سكان جنوب أوسيتيا جهود الجورجيين في إظهار التعاطف معهم باعتبار أنفسهم «أبرياء» و«طيبيين إلى أقصى

مدى» واعتبار الجورجيين «مذنبين». أي بعبارة أخرى، إذا كانت ثقافتهم تلزمهم بأن يكونوا ودودين تجاه «الآخرين»، فليس على الجورجيين إلا أن يلوموا أنفسهم على النزاع والعنف.

100. من شأن العنف الأسري أن يبرز نتيجة القوى المرضية النفسية القائمة داخل الأسرة نفسها، ولكنه يحدث أيضًا نتيجة ضغوطات الانهيار المجتمعي، وفي أغلب الأحوال يتداخل هذين السببين. فحين يصبح المجتمع غير مستقرًا بسبب الحرب، أو التوترات الإثنية، أو الاضطرابات الاجتماعية، أو تشريد السكان، أو التغير في التوازن الجنسي في القوى العاملة (على سبيل المثال، حصول النساء على تعليم أعلى أو عملهن خارج المنزل)، يتغير هيكل الأسرة الذي يقوي الهويات الفردية والجماعية في العادة، ما قد يؤدي إلى نشوب العنف الأسري. وهنا نجد مثالاً على ذلك: سالينا امرأة روسية متزوجة برجل من جنوب أوسيتيا كان ثريًا نسبيًا قبل الحرب بمعايير جنوب أوسيتيا. ولديهما طفلان. طبقًا للتقاليد الأسرية، تعيش الزوجة مع عائلة الزوج الممتدة. ولذا، بعد الحرب، حين رحل زوج سالينا إلى موسكو كي يجد عملاً، اضطرت سالينا إلى العيش مع عائلة زوجها. ولأنها لم تكن تمتلك مالاً، افتتحت كشكًا وشرعت في بيع الأشياء لكسب المال. ولكن، طبقًا للتقاليد، المرأة التي تعمل مع العامة هي امرأة «منحلة»، وقد نُظر إلى سالينا على هذا النحو رغم أنها كانت في الحقيقة وفية لزوجها. واتصلت عائلة زوجها بالزوج في موسكو الذي كان له عشيقة هناك، وأخبروه بتفاصيل عن زوجته «المنحلة». وفي النهاية أجبروا الزوجة على مغادرة المنزل ولكنهم احتفظوا بالأطفال. ومضت سالينا في العيش في الضواحي، ولكنها عادت في بعض الأحيان إلى تسخينفالي حتى تلقي نظرة على أطفالها من بعيد. ولاحقًا، حين عاد زوجها إلى موسكو وحاولوا العيش سويًا من جديد، ضربها زوجها بشدة، ما لم يترك لها خيارًا سوى أن تتقبل إساءة المعاملة تلك. هذا المقطع مقتبس من عمل فاميك د. فولكان، نينو ماكاشفيلي، نودار شارفيلادز، وإيسل فاهيب، « IREX Black and Caspian Sea Collaborative Research Program: Gender Issues and Family Violence»، وثيقة من مركز

دراسة العقل والتفاعل الإنساني (شارلوتسفيل، فيرجينيا: مركز دراسة العقل والتفاعل الإنساني، يوليو 2005)، 8.

101. Ochsner, "A Space of Loss," 159

102. Ibid.

103. Carol Vogel, "Maya Lin's World of Architecture, or Is It Art?" *New YorkTimes,* May 9, 1994.

104. Robert Campbell, "An Emotive Apart," *Art in America* (May 1983): 150–151.

105. Ibid.

106. Kurt Volkan, "The Vietnam War Memorial," *Mind and Human Interaction* 3 (1992): 73–77. For the controversy over black granite of the memorial, see Jan C. Scruggs and Joel L. Swerdlow, *To Heal a Nation: The Vietnam Veterans Memorial* (New York: Harper and Row, 1985).

107. كان جان سكراغس، رامي في حرب فيتنام، الشخص الذي فكر في بناء معلم تذكاري لأولئك الذين خدموا في حرب فيتنام يحمل أسماء جميع من قُتل في تلك الحرب بالنقش. وللمزيد عن تلك القصة، انظر سكراغس وسويردلو، *شفاء أمة*.

108. حين خُطط لبناء هذا النصب التذكاري، أفاد تقرير البناء بأن عدد المقتولين والمفقودين الوارد أسماءهم 57,692 فردًا. ولاحقًا، أُضيفت أسماء أخرى. والآن ثمة أكثر من 58,000 اسمًا معروضًا.

109. Ochsner, "A Space of Loss," 159.

110. K. Volkan, "The Vietnam War Memorial," 75.

111. Ibid.

112. Ibid.

113. There are a few exceptions. See Rafael Moses and Rena MosesHrushovski, “Two Powerful Tools in Human Interactions: To Accept One’s Fault and to Ask for Forgiveness,” in *Psikopatoloji ve Psikoanalitik Teknik (Psychopathology and Psychoanalytic Technique),* ed. Ayhan Egrilmez and Isıl Vahip (Izmir, Turkey: Meta, 2002); Volkan, *Bloodlines;* and Salman Akhtar, *New Clinical Realms: Pushing the Envelope of Theory and Technique* (Northvale, NJ: Jason Aronson, 2003). Joseph V. Montville, a career diplomat with great insights about political psychology, also wrote about “apology” and “forgiveness.” See Joseph V. Montville, “Justice and the Burdens of History,” in *Reconciliation, Coexistence, and Justice in Interethnic Conflict: Theory and Practice,* ed. Mohammed Abu Nimr, 129–144 (Lanham, MD: Lexington Books, 2001) and “Religion and Peacemaking,” in *Forgiveness and Reconciliation: Religion, Public Policy, and Conflict Transformation,* ed. Raymond G. Hemlick and Rodney L. Peterson, 97–116 (Philadelphia: Tempelton Foundation Press, 2001). Also see *Journal of the American Psychoanalytic Association* 53, no. 2 (2005), which is devoted to “love, shame, revenge, and forgiveness.”

114. Willy Brandt, *Erinnerungen: Mit den Notizen zum Fall G* (Berlin: Ullstein, 1994).

115. مفهوم «المغفرة» جزء من الدين المسيحي. فمثلاً، قد يلتمس شخص كاثوليكي في غرفة الاعتراف «المغفرة» على ذنوبه. ويمكن تفسير مفهومي *ميتا* و*كارونا* البوذيين (الحب والمودة والشفقة) بمعنى المغفرة. انظر س. ماهيندران «المغفرة بين الأمم: منظورات شرقية»، *عقول دولية* 5 (1994): 12–13. كنت حاضرًا في مجتمع دبلوماسي يحضره دبلوماسيون

مسلمون ومسيحيون. وقد أصر المشاركون المسلمون على أن مفهومي «الاعتذار» و«المغفرة» ليسا جزءًا من ثقافتهم الدينية.

116. For the Serbian sense of being victims, see Marko S. Markovic, “The Secret of Kosovo,” in *Landmarks in Serbian Culture and History,* trans. C. Kramer, ed. V. D. Mihailovich, 111–131 (Pittsburgh, PA: Serb National Foundation, 1983); Prince Lazarovich-Hrebelianovich and Eleanor Calhoun, *The Serbian People,* vol. 1 (New York: Scribner’s, 1910). For Armenians’ response to a collective sense of loss during the last years of the Ottoman Empire and massacres and displacements before World War I, see Gerard Jinair Libaridian, ed., *Armenia at the Crossroads: Democracy and Nationhood in the Post-Soviet Era* (Watertown, MA: Blue Cross Books, 1991).

117. Volkan, *Bloodlines.*

118. Nikos Kazantzakis, *Report on Greco,* trans. P.A. Bien (New York: Simon and Schuster, 1965).

119. أطلقت جماعة من الأكراد في تركيا بقيادة عبد الله أوكالان في 1978 على نفسها اسم حزب العمال الكردي، وفي 1984 شنت تلك الجماعة حملة إرهابية أدت في النهاية إلى عشرات الآلاف من حالات الوفاة. لدراسة نفسية عن السيرة الذاتية لعبد الله أوكالات، انظر فولكان، سلالات، الفصل الحادي عشر. وعقب حملة الإرهاب تلك، أضحت الفروقات الإثنية بين مواطني تركيا ظاهرة للعامة بصورة أوضح. وفي 2005 أبهج موسم تلفزيوني في تركيا الجماهير بعدد كبير من المسلسلات التي تعامل مع قضايا الهوية والسياسة القومية. وقد تعامل هذا البرنامج التلفزيوني مع مشاكل قومية خطيرة أُعتبرت في يوم ما حساسة للغاية على أن تُعرض في أوقات الذروة: العلاقات اليونانية التركية، والتوترات الطائفية،

وصعود الإسلام، والمسألة الكردية، وحروب اليمين واليسار في سبعينيات القرن العشرين. انظر إجينس فرانس بريس، 12 مارس 2005.

120. These numbers are taken from Justin McCarthy's research. Justin McCarthy, *Death and Exile* (Princeton: Darwin Press,1995).

121. For a review, see Judith Kestenberg and Ira Brenner, *The Last Witness* (Washington, D.C.: American Psychiatric Press, 1996); Ilany Kogan, *The Cry of Mute Children: A Psychoanalytic Perspective of the Second Generation of the Holocaust* (London: Free Association Books, 1995); Volkan, Ast, and Greer, *The Third Reich in the Unconscious.*

122. Vamık D. Volkan, "On Chosen Trauma," *Mind and Human Interaction* 4 (1991): 3–19; Volkan, *Bloodlines;* and Volkan, *Blind Trust.* 123. Robert D. Kaplan, *Balkan Ghosts: A Journey Through History* (New York: Vintage Books, 1993); Volkan, *Blind Trust.* See also, Vamık D. Volkan and Norman Itzkowitz, *Turks and Greeks: Neighbours in Conflict* (Cambridgeshire, England: Eothen Press, 1994).

الفصل التاسع

124. Anna Freud and Dorothy Burlingham, *War and Children* (New York: International Universities Press, 1942).

125. Harry S. Sullivan, *Schizophrenia as a Human Process* (New York: W. W. Norton, 1962).

126. Mahler, *On Human Symbiosis and the Vicissitudes of Individuation.*

127. Daniel N. Stern, *The Interpersonal World of the Infant* (New York: Basic Books, 1985); Stanley I. Greenspan, *The Development of the Ego: Implications for Personality Theory, Psychopathology and the Psychotherapeutic Process* (Madison, CT: International Universities Press, 1989); and Robert N. Emde, "Positive Emotions for Psychoanalytic Theory: Surprises from Infancy Research and New Directions," *Journal of the American Psychoanalytic Association* 39 (Supplement 1991): 5–44.

128. Johannes Lehtonen, "Research: The Dream Between Neuroscience and Psychoanalysis: Has Feeding an Impact on Brain Function and the Capacity to Create Dream Images in Infants?" *Psychoanalysis in Europe* 57 (2003): 175 –182; Johannes Lehtonen, M. Kononen, M. Purhonen, J. Partanen, S. Saarikoski, and K. Launiala,"The Effect of Nursing on the Brain Activity of the Newborn," *Journal of Pediatrics* 132 (1998): 646–651; Johannes Lehtonen, M. Kononen, M. Purhonen, J. Partanen, S. Saarikoski, and K. Launiala "The Effects of Feeding on the Electroencephalogram in 3- and 6-Month Old Infants," *Psychophysiology* 39 (2002): 73–9 and M. Purhonen, A. Pääkkönen, H. Yppärilä, Johannes Lehtonen, and J. Karhu, "Dynamic Behavior of the Auditory N100 Elicited by a Baby's Cry," *International Journal of Psychophysiology* 41(2001): 271–278.

129. Vamık D. Volkan and As'ad Masri, "The Development of Female Transsexualism," *American Journal of Psychotherapy* 43 (1989): 92–107.

130. Robert Zuckerman and Vamık D. Volkan, "Complicated Mourning over a Body Defect: The Making of a 'Living Linking Object,'" in *The Problem of Loss and Mourning: Psychoanalytic Perspectives,* ed. by D. Deitrich and P. Shabad, 257–274. (New York: International Universities Press. 1988).

131. يمكن أيضًا أن تكون الحدود النفسية نافذةً في العلاقة بين طفل نامٍ وأب أو وصي على رعايته، أو بين شخصين بالغين عندما ينتسبان إلى بعضهما في حالات متراجعة أو متراجعة جزئيًا. ونظرًا لأن الأشخاص المحلَلين ينتكسون علاجيًا وينتكس المحللون أيضًا «كلًا منهم خدمةً للآخر»، يمكن أن تلاحظ نفاذية لحدود بين شخصين بالغين أيضًا في خلال الجلسات التحليلية. انظر Stanley L.Olinick, *The Therapeutic Instrument* (New York: Jason Aronson, 1980), 7. بناءً على ملاحظات كهذه، كتب هارولد ف. سيرلس عن «اقتياد الآخر للجنون» ودرس شيلدون هيث كيف يمكن للأفراد المكتئبين أن يمرروا اكتئابهم إلى محلليهم النفسيين. Harold F. Searles, "The Effort to Drive the Other Person Crazy: An Element in the Aetiology and Psychotherapy of Schizophrenia," in *Collected Papers on Schizophrenia and Related Subjects,* 254–283 (New York: International Universities Press, 1959) and Sheldon Heath, *Dealing with the Therapist's Vulnerability to Depression* (Northvale, NJ: Jason Aronson, 1991).

132. «الإيداع» نوع مستمر وخاص جدًا من التعريف الإسقاطي للهوية الذاتية. انظر Vamık D. Volkan, *Six Steps in the Treatment of Borderline Organization* (Northvale, NJ: Jason Aronson, 1987) and *Personality* Volkan, Ast, and Greer, *The Third Reich in the Unconscious*.

133. ليست التجارب التي خلقت هذه الصور الذهنية لدى البالغ «متاحة الوصول» بالنسبة للطفل. ومع ذلك فإن هذه الصور الذهنية تودع في الطفل أو تدفع إلى داخله، ولكن دون «الإطار» التجربي/السياقي الذي أنتجها. فمثلًا، قد لا يعرف الطفل فعلًا الفرد الذي زرعت صورته الذهنية في تمثيل الطفل الذاتي لنفسه، ويشير مصطلح جوديث كستنبرغ «النقل العابر للأجيال» ،على ما أعتقد، إلى «إيداع الصور». Judith Kestenberg, "A Psychological Assessment Based on Analysis of a Survivor's Child," in *Generations of the Holocaust,* ed. by M. S. Bergmann and M. E. Jucovy, 158–177 (New York: Columbia University Press, 1982).

134. A. C. Cain and B. S. Cain, "On Replacing a Child," *Journal of the American Academy of Child Psychiatry* 3 (1964): 443–456; Poznanski, "The 'Replacement Child'"; and Volkan and Ast, *Siblings in the Unconscious and Psychopathology.*

135. إذا لم تنجح هذه المهمة، فقد ينشأ لدى الطفل البديل تمثيلًا غير متكامل للذات وبالنتيجة منظومة شخصية حدية أو نرجسية. انظر Volkan, *Six Steps in the Treatment of Borderline Personality Organization*.

136. نشر سجل كامل لتحليل بيتر سابقًا باللغة الألمانية. Vamık D. Volkan and Gabriele Ast, *Spektrum des Narzissmus* (Göttingen: Vanderhoeck & Ruprecht, 1994).

137. Volkan, *Six Steps in the Treatment of Borderline Personality Organization.*

138. في أثناء المرحلة النهائية من تحليل بيتر، اعتبر المحلل بوضوح «شخصًا جديدًا» (يسمى اصطلاحًا «موضوعًا جديدًا»)، بينما في المراحل السابقة لتحليله فقد اعتبر

المحلل ذاته «الجائعة» الخاصة وبأنه يمثل صور الآخرين المهمين في طفولته. للمزيد عن «الموضوعات الجديدة»، انظر Hans Loewald, "On the Therapeutic Action of Psychoanalysis," *International Journal of Psycho-Analysis* 41 (1960): 16–33.

139. A. A. Bocksel, *Rice, Men and Barbed Wire: A True Epic of Americans as Japanese POW's* (Hauppage, NY: Michael B. Glass & Associates, 1991) and S. Stewart, *Give Us This Day* (New York: Avon Books, 1990).

140. Erik H. Erikson, *Childhood and Society* (New York: W. W. Norton, 1950).

141. A. Hopkins, "Pearl Harbor, Day of Infamy," *Time Magazine,* December 2, 1991.

الفصل العاشر

142. Vamık D. Volkan and Norman Itzkowitz, "Istanbul, not Constantinople: The Western World's View of 'the Turk,'" *Mind and Human Interaction* 4 (1993): 129–134, and *Turks and Greeks: Neighbours in Conflict.*

143. Robert Schwoebel, *The Shadows of the Crescent: The Renaissance Image of the Turk, 1453–1517* (New York: St. Martin Press, 1967).

144. المرجع نفسه، 14.

145. Kenneth Young, *The Greek Passion: A Study in People and Politics* (London: J. M. Dent & Sons, 1969).

146. References to Giovanni Maria Filelfo can be found in *Monumenta Hungariae, XXIII,* part one, no. 9, 308, 309, 405, and 453 and to Felix Fabri in *Evagatorium III,* 236–239. See also Schwoebel, *The Shadows of the Crescent.*

147. Niyazi Berkes, *Türk Düsününde Batı Sorunu (The Western Question in Turkish Thought)* (Ankara: Bilgi Yayınevi, 1988).

148. T. de Motolinia, *History of Indians of New Spain,* trans. F. B. Steck (Washington, D.C.: Academy of American Franciscan History, 1951).

149. Max Harris, "Hidden Transcripts in Public Places," *Mind and Human Interaction* 3 (1992): 63–69.

150. Volkan and Itzkowitz, *Turks and Greeks: Neighbours in Conflict* and Talat Halman, "Istanbul," in *The Last Lullaby,* 8–9 (Merrick, NY: Cross Cultural Communications, 1992).

151. Michael Herzfeld, *Ours Once More: Ideology and the Making of Modern Greece* (New York: Pella, 1986).

152. Nikolaos G. Politis, "Khelidhonisma" (Swallow Song), *Neoelinika Analekta* 1 (1872): 354–368; *Introductory Lecture for the Class in Hellenic Mythology* (in Greek) (Athens, Greece: Aion, 1882); Spyridon Zamblios, "Some Philosophical Researches on the Modern Greek Language" (in Greek), *Pandora* 7 (1856): 369–380, 484–489 and *Whence the Vulgar Word Traghoudho? Thoughts Concerning Hellenic Poetry* (in Greek), (Athens, Greece: P. Soutsas and A. Ktenas, 1859).

153. Paschalis M. Kitromilides, "'Imagined communities' and the Origins of the National Question in the Balkans," in *Modern Greek Nationalism and Nationality,* ed. by M. Blickhorn and T. Veremis, 23–65 (Athens, Greece: SageEliamep, 1990), 35.

154. Kyriacos C. Markides, *The Rise and Fall of the Cyprus Republic* (New Haven, CT: Yale University Press, 1977), 10.

155. المرجع نفسه.

156. M. S. Markovic, "The Secret of Kosovo."

157. Roy Gutman, *Witness to Genocide: The 1993 Pulitzer Prize-Winning Dispatches on the "Ethnic Cleansing" of Bosnia* (New York: Maxwell Macmillan International, 1993), x.

158. المرجع نفسه.

159. المرجع نفسه.

160. Beverly Allen, *Rape Warfare: The Hidden Genocide in Bosnia-Herzegovina and Croatia* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1946).

161. Volkan, *Blind Trust.*

162. المرجع نفسه

الفصل الحادي عشر

163. إيريك إتش. إيركسون، *Identity: Youth and Crises* (New York: W.W. Norton، 1968)، 41.

164. جاي. أندرسون تومسون، "Killer Apes on American Airlines، or: How Religion Was the Main Hijacker on September 11،" في *Violence or Dialogue?*

Psychoanalytic Insights on Terror and Terrorism، مراجعة سيفيري فارفين وفاميك دي. فولكان، 73–84 (London: International Psychoanalysis Library، 2003). انظر أيضًا ريتشارد رانغهام، "Is Military Incompetence Adaptive? Apes and the Origins of Human Violence،" *Evolution and Human Behavior* 20 (1999): 3–17; ريتشارد رانغهام ودي. بيترسون، *Demonic Males* (Boston: Houghton Mifflin، 1996). كتب كل من دايفيد إم. بوس وجوشوا دي. دانتلي من جامعة تكساس–أوستن أيضًا حول هذا الموضوع: "Murder by Design: The Evolution of Homicide" (in press).

165. رونالد بيّ. بارستون، *Modern Diplomacy*، (New York: Longman، 1988).

166. يرتبط مفهوم الأخلاق في التحليل النفسي بمفهوم «الأنا العليا». لا تستند أخلاق الفرد على ما يصر عليه الآباء والمعلمون أو على التحذيرات الدينية وحسب. ينظر طلاب التنمية البشرية إلى الأنا العليا، التي تسمى بشكل غير دقيق «الضمير»، على أنها تنشأ من مزيج من صيغ التسوية التي تتعامل مع الصراعات العقلية، التي تتبلور غالبًا خلال المرحلة الأوديبية من حياة المرء. تخيلوا ولدًا في المرحلة الأوديبية. تتسبب صراعاته الأوديبية بمخاوف من فقدان أحبته و/أو من يحبه، بالإضافة إلى المعاقبة والإخصاء. وبعدها يصبح «أخلاقيًا» بالطريقة التي تمليها عليه تخيلاته، من أجل التخفيف من القلق وغيره من المشاعر المزعجة. من المحتمل أن يرى نفسه في تصوره عن أبيه أو أمه الذين يمنعونه أو قد يبتعد عن المنافسة في محاولة لتجنب العقوبة المتوقعة. نظرًا لأن بداية الأخلاق مرتبطة بالخوف اللاواعي (القلق) وغيره من المشاعر المزعجة الأخرى، تزيد صرامة الأنا العليا التي يطورها الطفل كلما زاد القلق أو التأثير السيئ عليه. تبين التحقيقات التحليلية النفسية أن الحس

الأخلاقي المقنع لدى المرء يساوي الحاجة الملحة لتجنب العقاب. وبناءً على ملاحظات تحليلية نفسية، لا يجب أن نتفاجأ حين نكتشف أن الحس الأخلاقي لا يعتمد عليه في المواقف التي تنطوي على نزعات رجعية. يمكن قول الشيء نفسه عن المجتمعات التي تكون فيها هوية المجموعة الكبيرة تحت خطر التهديد. لذلك قد يظهر الفساد الأخلاقي ضمن المجتمع من أجل حماية هوية المجموعة الكبيرة.

وبطبيعة الحال، لا يبقى الطفل في المرحلة الأوديبية إن كان نموه «طبيعيًا»، بل يطور أنا عليا أكثر تكاملاً وقانونًا أخلاقيًا أكثر اعتدالاً، فضلاً عن آليات عقلية أكثر تعقيدًا من أجل حماية الأنا العليا المتكاملة والقانون الأخلاقي المعتدل. ولكن لسوء الحظ، قد تحدث انتكاسات تطال الأفراد والمجتمعات في ظل ظروف معينة. لا يتفاجأ المحللون النفسيون حين يلاحظون فساد ما يسمى القيم الوطنية والمثل العليا الأخرى في ظل ظروف سياسية ودولية خطيرة معينة.

167. «تكهن» سيغموند فرويد أيضًا حول المجموعات البشرية الأولى. على سبيل المثال، كتب عن كيفية تحريم البشر الأوائل لسفاح القربى. سيغموند فرويد، “Totem and Taboo،” vol. 13 of *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*، مراجعة جيمس ستراتشي، 1–162. (London: Hogarth Press، 1913–1955).

168. هارولد إتش. سوندرز، “Official and Citizens in International Relationships: The Dartmouth Conference،” في *The Psychodynamics of International Relationships*، vol. 2، *Unofficial Diplomacy at Work*، مراجعة فاميك دي. فولكان وجوزيف في. مونتفيل وديمتريوس إيه. يوليوس، (Lexington MA: 41–69،

Lexington

1991).،Books

169. أبا إيبان، *The New Diplomacy: International Affairs in the Modern Age*

1983).،(New York: Random

170. هارولد نيكلسون، *Diplomacy* (London: Oxford University Press ،1963)

171. إيبان، *The New Diplomacy*،.386

172. أسست مركز دراسة العقل والتفاعل البشري في عام 1987 واستمريت في إدارته حتى عام 2002. كان مساعد وزير الخارجية السابق في ظل كارتر، هارولد سوندرز، عضوًا في المجلس الاستشاري لمركز دراسة العقل والتفاعل البشري في تلك الفترة الزمنية. شارك سوندرز في سلسلة مؤتمرات دارتموث وسمعت منه عن العمليات الداخلية لهذه الاجتماعات. (سميت السلسلة بهذا الاسم بسبب عقد الاجتماع الأول في كلية دارتموث في هانوفر بولاية نيو هامبشاير). تجسدت بعض المفاهيم التي تتناول الأبعاد الإنسانية للصراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، مثل حرمان بعضهم البعض من وجود عدو، في التصريحات والخطابات الرسمية، ولا سيما التي صرح بها ميخائيل جورباتشوف. حضرت ريتا روجرز، أحد الأعضاء في المجلس الاستشاري في مركز دراسة العقل والتفاعل البشري، مؤتمرات بوغواش بانتظام، التي كانت مهمةً حين بدأ السوفييت في إرسال الباحثين ذوي النفوذ السياسي. كان هذان المؤتمران بمثابة جسرين في المفاوضات الدبلوماسية، ولا سيما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. أشرت في المقدمة إلى الأنشطة في مؤسسة إيسالن، والتي تعتبر مهمة أيضًا في الحفاظ على روابط حقيقية بين الشرق والغرب خلال الأوقات العصيبة.

173. تشارلز ليفنسون، *Vodka Cola* (London: Gordon and Cremonesi ،1978);

مارشال آي. غولدمان، *Détente and Dollars: Doing Business with Soviets* (New

جونسون ومراجعون، York: Basic Books، 1975)؛ مورين آر. بيرمان وجوزيف إي.
(New York: Columbia University Press، *Unofficial Diplomats*، 1977)..

174. جون صقلي، "Backstage Mediation in the Cuban Missile Crises"، في *Conflict Resolution: Tract Two Diplomacy*، مراجعة جون دبليو. ماكدونالد وجونيور ودي. بي. بيندامابن، (Washington D.C.: Center for the Study of Foreign Affairs، 1987)..

175. هيربرت كيلمان، "Interactive Problem Solving: The Uses and Limits of a Therapeutic Model for the Resolution of International Conflict" في *The Psychodynamics of International Relationships*، vol. 2، مراجعة فولكان ومونتفيل ويوليوس، 145–160.

176. جوزيف في. مونتفيل، "The Arrow and the Olive branch. A Case for Tract Two Diplomacy،" in *Conflict Resolution: Tract Two Diplomacy*، مراجعة جون ماكدونالد ودي. بي. بيندامابن، (Washington D.C.: U.S. Government Printing Office، 5–20، 1987)..

177. هارولد إتش. سوندرز، *The Other Walls: The Politics of the Arab-Israeli Peace Process* (Washington D.C.: American Enterprise Institute، 1985)..

178. أنظر http://www.usip.org.

179. ضم المشاركون في هذا الاجتماع دبلوماسيين وعلماء سياسيين وعلماء نفس ومحللين نفسيين وعلماء اجتماع، وهم ريتشارد أرندت، وإدوارد عازار، وجون بورتون، وستيفن كوهين، وهارييت كروسبي، وديمتريوس يوليوس، وهربرت كيلمان، وجيمس لاو، وجوزيف مونتفيل، وهارولد سوندرز، وفاميك فولكان. وحضر أيضًا السفير المتقاعد صمويل لويس بصفة مراقب، الذي كان آنذاك رئيس معهد الولايات المتحدة للسلام.

180. نشر مجلدين من العروض التقديمية في ذلك الاجتماع. فاميك دي. فولكان وجوزيف في. مونتفيل وديمتريوس يوليوس ومراجعون، *The Psychodynamics of International Relations*، vol. 1، *Concepts and Theories*، (Lexington، MA: Lexington Books، 1990)، وفولكان ويوليوس ومونتفيل ومراجعون، *The Psychodynamics of International Relationships*،. vol. 2. استخدم العديد من «الطلاب» هذين المجلدين لتوضيح مفهوم «الدبلوماسية غير الرسمية».

تأثر جون دبليو. بورتون، الذي كان الرئيس الدائم لوزارة الخارجية الأسترالية في عام 1947 والمفوض السامي لسيلان في عام 1955، بنظريات «الاحتياجات الإنسانية». جون دبليو. بورتون، "Conflict Resolution as a Political System،" في *The Psychodynamics of International Relations*، vol. 2 ، مراجعة فولكان ومونتفيل ويوليوس، (Lexington، MA: Lexington Books، 71–92 ،.1991). اعتقد بورتون أن المشاركين البشريين في حالات الصراع «يكافحون لا إراديًا في بيئاتهم المؤسسية الخاصة على جميع المستويات الاجتماعية من أجل تلبية الاحتياجات الأساسية والشاملة – كالاحتياج إلى الأمن والاعتراف والتنمية» (المرجع نفسه، 88). ولذلك تناولت محاولاته في «حل النزاعات» مطالب إعادة التنظيم المؤسسي بشكل أساسي بدلًا من المواقف المتغيرة والتوافق القسري ضمن معايير سلوكية معينة. هناك نوعان من النزاعات وفقًا لرأي بورتون: «النزاعات القائمة على المصالح» و«النزاعات القائمة على القيمة أو الاحتياجات». إن النزاعات القائمة على المصالح ليست عميقة الجذور، «لأن لا أحد يرغب في الموت في صراع حول الأجور» (المرجع نفسه). زعم بورتون أن مجموعةً متنوعةً من الأساليب القانونية والتحكيمية وغيرها من تقنيات حل النزاعات يمكنها أن تتعامل مع هذا النوع من النزاعات. ومن ناحية أخرى، تعكس النزاعات القائمة على القيمة والاحتياجات مطالب غير قابلة للتفاوض. وبحسب بورتون، لا يوجد مقايضات حين يتعلق الأمر بالقيم والاحتياجات. كتب أن قليلًا من الإكراه أو القوة التفاوضية قد يؤدي في بعض الأحيان إلى القمع و«تسوية»

النزاعات القائمة على القيمة أو الاحتياجات. إن علاقة أفكار بورتون بالتحليل النفسي ضعيفة أو حتى معدومة. إن نهجه «غير الرسمي» في الدبلوماسية يوازي نماذج الفاعل العقلاني «الرسمية» في الدبلوماسية. كان نهجه محور اهتمام معهد تحليل النزاعات وحلها في جامعة جورج مايسون في شمال فيرجينيا، حيث عمل بورتون منذ منتصف خمسينيات وحتى أواخر ثمانينيات القرن العشرين. أضاف معهد تحليل النزاعات وحلها، بوصفه موقع تدريب معروف لمن يرغب في أن يصبح دبلوماسيًا غير رسمي، إلى أفكار بورتون.

اعتمد عالم النفس الاجتماعي هربرت سي. كيلمان، الذي كان أستاذًا للأخلاقيات الاجتماعية في جامعة هارفرد في الوقت الذي حضر فيه اجتماع عام 1987 في مركز دراسة العقل والتفاعل البشري، على الجهود الرائدة لجون بورتون إلى حد كبير، مع التركيز على الاحتياجات البشرية. أثر جيروم فرانك أيضًا على كيلمان، وهو طبيب نفسي درس العمليات الاجتماعية واستخدم بعضًا من مفاهيم التحليل النفسي. استعار فرانك فكرة «التجربة العاطفية الإصلاحية» من المحللين النفسيين فرانز ألكسندر وتوماس فرينش، اللذين كانا مؤثرين ومثيرين للجدل في تدريسهما للتحليل النفسي في الولايات المتحدة في أربعينيات القرن العشرين. للمزيد انظر فرانز ألكسندر وتوماس فرينش، *Psychoanalytic Theory* (New York: Ronald Press 1946).، استخدم مصطلح التجربة العاطفية الإصلاحية للمرة الأولى في بيئة سريرية لوصف تصرف المحلل النفسي بشكل مختلف عن قصد في موقف ينطوي على شخصيات مهمة من طفولة المريض. استخدم فرانك هذا المفهوم في جلسات العلاج الجماعي خاصته، وأثر أيضًا على طريقة عمل كيلمان. انظر أيضًا هربرت سي. كيلمان، "Interactive Problem Solving."

لفت هارولد سوندرز الانتباه إلى المخاطر والقيود، فضلًا عن قيمة المساهمات على مستوى الأفراد والمنظمات غير الرسمية، سواءً كانوا يعملون بالتعاون مع أعضاء مؤثرين في مجموعات كبيرة معارضة أم يركزون على الحركات الشعبية. اعتقد سوندرز أنه من

المحتمل أن يكون للتجمعات الدبلوماسية غير الرسمية دور كبير في طرح «أفكار تلفت انتباه الجميع». لقراءة المزيد انظر هارولد سوندرز، "Officials and Citizens in International Relationships"، 61. بمجرد وضع سياسة دبلوماسية رسمية، لن يرغب القادة السياسيون وغيرهم من صانعي القرار الرسميين في طلب المشورة من خارج دوائرهم عادةً. (هذا هو الحال مثلًا في ظل إدارة بوش). وعلى أي حال، إن لم تنجح السياسية بعد تنفيذها، حينها قد يتعين على القادة السياسيين الاستماع إلى الأفكار التي يتحدث عنها الجميع. اعتقد سوندرز أن خطاب جورباتشوف أمام الأمم المتحدة في ديسمبر عام 1988 يعكس الأفكار التي تحدث عنها الجميع خلال حوارات مؤتمر دارتموث.

181. طرحت هذه الأفكار منذ فترة طويلة وبقيت مؤثرةً لعقود عديدة. انظر مثلًا هينري مورغنثاو، *Politics Among Nations* (New York: Knopf، 1954).

182. دونالد إل. هورويتز، *Ethnic Groups in Conflict* (Berkeley: University of California Press، 1985)، 140.

183. هورويتز، *Ethnic Groups in Conflict.*

الفصل الثاني عشر

184. كان هناك مصادر أخرى للأموال أيضًا. على سبيل المثال، تلقى مركز دراسة العقل والتفاعل البشري أموالًا إضافيةً من معهد الولايات المتحدة للسلام خلال مرحلة تقييم هذا المشروع، ثم تلقى أموالًا من مركز كارتر في أتلانتا وتعاوننا معه خلال مرحلة الحوار السياسي النفسي للمشروع. (تلقى مركز كارتر أموالًا للمشروع الإستوني من مؤسسة تشارلز ستيوارت موت). قدمت مؤسسة بيو الخيرية منحةً لمركز دراسة العقل والتفاعل البشري من أجل رفع المشروع إلى مستوى القاعدة الشعبية.

185. حين يواجه الأطباء حالةً حرجةً ينزف فيها المريض بشدة، أول ما يفعلونه هو محاولة إيقاف النزيف، ثم يأتي التوصل إلى تقييم كامل حول سبب النزيف لاحقًا. وبالمثل، لا ينبغي أن نتوقع أن تكون الدبلوماسية غير الرسمية ذات التقدم البطيء، مثل نموذج الشجرة، فعالةً في نزاع حاد ودام على مستوى المجموعات الكبيرة. وعلى أي حال، تعتبر بعض المفاهيم التي طورها تطبيق نموذج الشجرة مفيدةً في تقييم المشاكل الدولية الحادة ووضع استراتيجيات محددة لها.

186. لمزيد من التفاصيل انظر فولكان، *Bloodlines.* انظر أيضًا نيو وفولكان، *Developing a Methodology for Conflict Prevention.*

187. انظر مثلًا ديمتريوس يوليوس، "The Practice of Tract Two Diplomacy in the Arab-Israeli Conferences" في *The Psychodynamics of International Relationships*، vol. 2 ، مراجعة فولكان ومونتفيل ويوليوس، 193–205.

188. خلال فترة عملي رئيسًا لمركز دراسة العقل والتفاعل البشري، لم نقدم أبدًا أي دعم مالي للأفراد الذين شاركوا في أنشطته الدبلوماسية غير الرسمية، باستثناء تغطية النفقات المتعلقة بالاجتماعات. وهذا ينطبق أيضًا على فريق عمل مركز دراسة العقل والتفاعل البشري. حين علم ممثلو المجموعات الكبيرة المتعارضة الذين جمعناهم معًا أن أعضاء فريق مركز دراسة العقل والتفاعل البشري لا يكسبون المال لقاء عملهم كوسطاء خلال الاجتماع، ترك الأمر انطباعًا إيجابيًا عليهم. تلقى أعضاء فريق مركز دراسة العقل والتفاعل البشري الذي عملوا بدوام كامل في التدريس بجامعة فيرجينيا رواتبهم الروتينية. إنني أقدر جدًا الدعم الذي تلقاه المركز من عميد كلية الطب آنذاك روبرت كايري؛ إذ اعتبر أنشطة مركز دراسة العقل والتفاعل البشري التي قام بها أعضاء المركز بدوام كامل أنشطةً روتينيةً كالتي تحدث في أي كلية طب.

189. كان هناك مناسبات عديدة، على أي حال، أصبح فيها الخبراء في سلسلة الحوارات النفسية السياسية سياسيين مؤثرين في بلدانهم أو مواقعهم، حتى أنهم وصلوا إلى مناصب عليا، مثل أرنولد روتيل، أحد الخبراء في سلسلة حواراتنا في إستونيا، إذ انتخب رئيسًا لإستونيا في 21 سبتمبر عام 2001.

190. لقراءة المزيد حول ديناميكيات المجموعة الصغيرة انظر إس. إتش. فولكس وإي. جايمس أنتوني، *Group Psychotherapy: The Psychoanalytic Approach* (London: Penguin، 1964؛ وويلفريد آر. بيون، *Experiences in Groups and Other Papers* (London: Tavistock Publications، 1961 ؛ ودي. ويلفريد إيبس، *Clinical Notes on Group-Analytic Psychotherapy*، (Charlottesville: University Press of Virginia، 1974 ؛ ومالكوم باينز ومراجعون، *The Evolution of Group Analysis* (London: Routledge & Kegan Paul، 1983). انظر أيضًا إيرل هوبر، *Traumatic Experience in the Unconscious Life of Groups: The Fourth Basic Assumption: Incohesion: Aggregation/Massification or (ba) I: A/M*، (London: Jessica Kingsley Publishers، 2003). بالإضافة إلى كتاباته حول المجموعات الصغيرة، طرح هوبر فهمًا جديدًا لديناميكيات الأنظمة المجتمعية الشبيهة بالمجموعات.

191. لقراءة مزيد من الشروحات المفصلة حول «تركيبة» هذه الاجتماعات، انظر فاميك دي. فولكان وماكس هاريس، "Negotiating a Peaceful Separation: APsychopolitical Analysis of Current Relationships Between Russia and Baltic

“The و ” *Mind and Human Interaction* 4 (1992): 20–29،Republics ” *International Journal of Group* ،Psychodynamics of Ethnic Terrorism *Rights* 3
(1995): 145–159.

192. *Palestinian Weekly*، December 6 ،.1985

193. دايفد روثشتاين، “The Assassin and the Assassinated: As Nonpatient Subject of Psychiatric Investigation” في *Dynamics of Violence*، مراجعة جاي. فاوسيت، (Chicago: American Medical Association 145–155 ،.(1972

194. ميلاني كلاين، “Notes on Some Schizoid Mechanisms ،” في *Development in Psychoanalysis*، مراجعة جاي. ريفيري، .London: Hogarth Press

195. يحتاج الوسطاء، بطبيعة الحال، إلى التعامل مع هذا الأمر حيث يحدث من خلال توضيح «المناطق الرمادية» بين «الأسود» و«الأبيض». وقد يكون الوسطاء في الحوارات أهدافًا لإخراجات المشاركين وإسقاطاتهم. وهذا يعني أن الوسطاء قد يتعرضون للوم أو ينتقدون بسبب أشياء ينزعج منها المشاركون. وحين يحدث هذا الأمر، لا يؤثر الأمر على الوسطاء ذوي الخبرة السريرية لأنهم معتادون على تلقي إخراجات مرضاهم وإسقاطاتهم (تحويلاتهم) والتعامل معها. قد يحدث تحويل مضاد – توقعات غير منطقية من جانب الوسطاء. إن التواصل مع الأشخاص المهمين سياسيًا مثلًا قد يمنح الوسطاء إحساسًا غير مستحق بالقدرة المطلقة. يدرك أخصائيو الصحة العقلية ذوو الخبرة هذه الظاهرة، لذا من غير المرجح أن يخضعوا لاستجابات التحويل المضاد المؤذية بعد عقود من العمل في هذا المجال.

196. جون ماك، “Foreword ،” في *Cyprus: War and Adaptation* لفاميك دي. فولكان، (Charlottesville، VA: University Press of Virginia ،(1979 ،.ix–xxi

197. وصف سيغموند فرويد مفهوم «الاختلافات البسيطة». انظر سيغموند فرويد، *The Standard Edition of the* من " vol. 11،"Taboo of Virginity *Complete Psychological Works of Sigmund Freud*، مراجعة جايمس ستراتشي، 191–208.

Group Psychology and the و 1917–1955)،(London: Hogarth Press *Analysis of*

the Ego. ولقراءة المزيد حول «الاختلافات البسيطة» في العلاقات العالمية، انظر فولكان، *The*

and *Blind Trust.*، *Bloodlines*،*Need to Have Enemies and Allies*

198. يصف موريس أبري أهمية الاختلافات بين أعضاء الفريق الواحد فيما يتعلق بقضايا هوية المجموعة الكبيرة. انظر موريس أبري، "Heuristic Steps for Negotiating Ethno-National Conflicts: Vignettes from

" *New Literary History* 27 (1996): 199–212.،Estonia

إن كان نموذج الشجرة يعمل كما هو متوقع، فستظهر القصص الشخصية تلقائيًا. قد «يحث» الوسطاء المشاركين من الفرق المتعارضة على رواية قصصهم المتعلقة بنزاع المجموعة الكبيرة في الحالات التي تعقد فيها الاجتماعات أقل من ثلاث مرات سنويًا بسبب قلة الدعم المادي. لا ينجح الأمر إلا في حالة وجود خلفية آمنة على المستوى الشخصي والعاطفي، وإلا يصبح واجبًا «قسريًا» لا يجدي نفعًا.

199. نيو وفولكان، *Developing a Methodology for Conflict Prevention.*

200. فولكان، *Blind Trust.*

201. شارك مركز دراسة العقل والتفاعل البشري في أنشطة دبلوماسية غير رسمية عام 1999 بين اليونانيين والأتراك المؤثرين. ومن المثير من للاهتمام هو ورود ذكر استعارة الفيل والأرنب في هذه السلسة أيضًا.

202. سيغموند فرويد، George Pollock *The،Mourning and Melancholia;* *Mourning and Liberation Process*،Madison) 2 vols. ، CT: International Universities Press،(1989 ؛ وفولكان، *Linking Objects and Linking Phenomena;* وفولكان وزينتل، *Life After Loss.*

203. خلال الحوارات الإستونية، حاول مركز دراسة العقل والتفاعل البشري النظر في وجهة نظر الأجيال المختلفة فيما يتعلق بالعلاقات الإستونية الروسية. ولهذا السبب اخترنا أربعة طلاب جامعيين إستونيين وأربعة طلاب جامعيين روسيين إستونيين، وأجرينا جلسات جماعية صغيرة معهم. دعونا الطلاب للانضمام إلى الأكبر سنًا في أحد الاجتماعات في الجزء الأخير من سلسلة الحوار السياسي النفسي الأصلية. جلس الطلاب في المرة الأولى في منتصف قاعة الجلسات العامة، في حين جلس المشاركون الأكبر سنًا على الكراسي المحيطة بالشباب بالإضافة إلى اثنين من فريق وسطاء مركز دراسة العقل والتفاعل البشري، المحلل النفسي موريس أبري وأنا. أشرك الوسطاء الطلاب في المناقشات واستمع المشاركون الأكبر سنًا لهم. كان هدفنا معرفة ما إذا كان هناك اختلاف بين الأجيال فيما يتعلق بالتصورات حول العدو ومقاربات السلام. أردنا أن نتحقق من صحة ما يقال –وما يعتقد عمومًا– أن أفراد الجيل الأصغر سنًا لا يفكرون مثل الأكبر سنًا، وأنهم أكثر اعتدالًا واستعدادًا لقبول التغيير. من خلال هذه المناقشات، اكتشفنا بعد أن تعمقنا قليلًا أن هناك أوجه تشابه مفاجئة بين الأجيال في الموضوعات المتعلقة بقضايا وصراعات الهوية الكبيرة «الساخنة».

أعلنت مشاركة إستونية بحزم، في الوقت الذي ناقش فيه المشاركون الشباب وجهات نظرهم، أن جيلها مختلف تمامًا عن جيل جدها الذي كان معاديًا بشراسة للروس. شعرت أنها وأقرانها أفضل في التعامل مع مشاكل اندماج المتحدثين بالروسية في إستونيا. ولكن في وقت لاحق من الحوار، وبعد أن طلب منها أن تتمعن النظر في تصوراتها ومشاعرها تجاه الروس الذين يعيشون في إستونيا، وجدت نفسها تتحدث عن بعض الصدمات

المجتمعية لجيل جدها. أدركت بعد ذلك أنها «تتحدث باسم» جدها دون وعي، وأنها ورثت الصور المشتركة للصدمات والمواقف المتعلقة بها على الرغم من الاختلافات الحقيقية بين الجيلين. شعرت بالصدمة بسبب ما حدث، ولكنه ساعدها في الوقت ذاته في البحث عن وجهات نظرها حول الروس بعيدًا عن التأثيرات.

على الرغم من اكتشافنا بأن أفراد الجيل الأصغر قد ورثوا فعلًا بعض الصور التاريخية نفسها من آبائهم، كان لهذا التنسيق بين الأجيال بعض النتائج الإيجابية. لقد لاحظنا تأثر الجيل الأكبر سنًا حين رأوا جيل الشباب يحمل أعباءهم التاريخية. شجع هذا الأمر الأشخاص ذوي المناصب العليا على البحث عن ذاتهم وحفزهم للعمل أكثر. لقد آلمهم أن يروا ما يتعرض له أطفالهم. على الرغم من أن الوسطاء لم يجربوا هذا الأمر سوى مرةً واحدةً، أعتقد أن نهج المناقشة بين الأجيال قد يكون أداةً مفيدةً في مواقف أخرى.

204. إيبان، *The New Diplomacy.*

205. على الرغم من أن هذا يذكرنا جزئيًا بأفكار جون بورتون حول بناء المؤسسات، كما شرحت في الفصل الحادي عشر، يبغي أن يسمح للحوارات السياسية النفسية بأخذ مسارها لكي يكون بناء المؤسسات ناجحًا، وذلك وفقًا لمنهجية مركز دراسة العقل والتفاعل البشري. توفر الحوارات النفسية السياسية الأساس اللازم والتغييرات في المواقف والفهم الذي يمهد الطريق أمام البرامج والتغييرات الهيكلية الأخرى ضمن المجتمع.

الفصل الثالث عشر

206. إن التوقيت مهم للغاية عند بناء مثل هذه المنظمات غير الحكومية الجديدة. قد تأتي الجهود السابقة لأوانها لإنشاء مؤسسات متعددة الإثنيات بنتائج عكسية على المدى الطويل إذا استسلم الأعضاء للسلوكيات الخبيثة الإثنية أو القومية أو الدينية أو الأيديولوجية. بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، احتاجت مفاهيم مثل الملكية الشخصية، والتفكير الفردي

والمسؤولية، وخدمة المجتمع، والقانون المدني، والتنظيم، إلى وقت للتطور في عالم ما بعد الشيوعية، إضافةً إلى الحاجة إلى اختبارها بما فيه الكفاية ليتم استيعابها.

207. في إستونيا، كان عالم النفس إندل تالفيك قائد فريق الاتصال لدينا. إلى جانب خبرته في الحوارات النفسية السياسية مع سي إس إم إتش آي بين عامي 1994 و1996، تلقى تالفيك تدريبًا من سي إس إم إتش آي في إستونيا والولايات المتحدة. بدعم من هارولد سوندرز، سافر (مع أليكسي سيميونوف، أحد قادة الروس في إستونيا) إلى دايتون، أوهايو، وشارك في ندوة لبناء المجتمع نظمتها مؤسسة كيترينغ. في وقت لاحق، تلقى تالفيك تدريبًا في التحليل النفسي في فنلندا ومن مدرسة التحليل النفسي لأوروبا الشرقية التابعة للجمعية الدولية للتحليل النفسي (آي بيّ إيه). وهو اليوم محلل نفسي معتمد من الجمعية.

208. سبق أن أوردت قصصًا عن هذه المواقع في كتابي *سلالات الدم*. لكن عملنا هناك استمر بعد الانتهاء منه، لذلك أنا هنا قادر على ذكر المزيد من القصص الكاملة.

209. تولت المعلمة الإستونية المتفانية، لي كريك، القيادة في إعداد هذه الكتب المدرسية. ساعدها طاقم عملها الخاص، وكذلك إندل تالفيك والمحلل النفسي موريس أبري، والمؤرخ نورمان إيتزكويتز، وممرضة الطب النفسي والوسيطة مارجي هاول من سي إس إم إتش آي.

210. وصف مايكل سيبك هذه العملية. انظر سيبيك، «الإستية في النظام الشمولي وعلم نفس مجتمع ما بعد الشمولية».

211. يوجد على أي حال تقييم إحصائي واحد لعملنا في موستفي. موريس أبري، بالتعاون مع لي كريك وفيكتور أبري وإنديل تالفيك، «من الاستدلالية إلى التجريبية: دمج رياض الأطفال بين الإثنيات». *العقل والتفاعل البشري* 11، رقم 3 (2000): 194–205.

212. فيما يلي قائمة مختصرة بالإنجازات:

1. أثناء استمرار سلسلة الحوار السياسي النفسي، دُعي فلاديمير هوميوكوف، كممثل للروس وللناطقين بالروسية في إستونيا، إلى البرلمان الإستوني. خاطب البرلمان حتى يتمكن النواب الإستونيون من فهم مخاوفهم بشكل أفضل.

2. خلال الحوار النفسي السياسي الخامس، دُعي ثلاثة من ممثلي الدوما الروسية الذين شاركوا في سلسلة الحوار إلى البرلمان الإستوني، حيث التقوا بنظرائهم الإستونيين، وخاضوا حديثًا مثمرًا.

3. جان كابلينسكي، المرشح لجائزة نوبل في الأدب عام 1995 وشخصية معروفة، كتب عدة مقالات للصحف الإستونية للتأثير في الجمهور وتعزيز التعايش السلمي بين الإثنيين الإستونيين وغيرهم ممن يعيشون في إستونيا.

4. قامت منظمة موستامي غير الحكومية، يدًا بيد، بتصميم وكتابة ونشر الكتب المدرسية ودليل المعلم والمرفقات لتعليم اللغة والثقافة الإستونية للأطفال الناطقين بالروسية. لم تكن هذه المواد التعليمية موجودةً قبل هذا المشروع. يُعد الكتاب المدرسي أداةً مهمةً للترويج الواقعي للتعايش بين المتحدثين باللغة الروسية

والإستونيين في إستونيا. من خلال تعريف الأطفال من كلتا المجموعتين ببعضهم ومنحهم اللغة والفرصة للتفاعل، بدأ المنظمون والمشاركون الإستونيون والروس في تغيير أنماط تفاعلهم وسلوكهم ورسم طريقة للتعايش السلمي.

5. حصلت منظمة موستامي غير الحكومية على تمويل لمدرسي اللغة ومديري البرامج لتدريب المعلمين في أجزاء أخرى من إستونيا على مناهج اللغة والثقافة الإستونية. كما طلبوا مشاركة إندل تالفيك لمعالجة القضايا النفسية المعنية.

6. أنشأت موستفي مركز معلومات لمساعدة السياح الذين يزورون المدينة وطبعت موادًا بعدة لغات تصف المواقع التي يجب زيارتها. اكتسب أعضاء المنظمات غير الحكومية ثقةً وخبرةً كافيين في تخطيط البرامج وتنفيذها للحصول على تمويل جديد بأنفسهم بهدف تحقيق تحسينات إضافية في مرافق المدينة للسياح والزوار. على سبيل المثال، تلقوا تمويلاً من مؤسسة سوروس.

7. منذ الانتهاء من مشروع سي إس إم إتش آي في إستونيا، جرى التعاقد مع إندل تالفيك كخبير في مشاريع «الإندماج» في منطقتي نارفا جيسو وأسيري في إستونيا، إذ طُلبت استشارته كنتيجة مباشرة لتجربته وإنجازاته في مشاريع سي إس إم إتش آي المجتمعية الثلاثة.

8. أنتجت لي كريك، منسقة مشروع موستامي، مقاطع فيديو من لقطات حقيقية لبرنامج تعليم اللغة الإستونية في المدارس الناطقة بالروسية وتجمعات

الأطفال الإستونيين والروس المشتركة. استُخدمت مقاطع الفيديو هذه للحد من المفاهيم الخاطئة والمخاوف المتعلقة بالتفاعل الروسي الإستوني، وهي تثبت أن تجسيد الاندماج بصورة مرئية هو بالفعل أداة قوية للحد من المقاومة تجاه مثل هذه البرامج.

9. عُيّن بول ليتينز، أحد المشاركين في سلسلة الحوار السياسي النفسي 1994–1996 في مجلس إدارة مؤسسة الاندماج الإستوني. أدى دورًا فعالًا في الترويج لمشروع موستامي اللغوي أمام أعضاء آخرين في مجلس مؤسسة الإندماج الإستوني. أسفرت جهوده عن حصول موستامي على منحة من المؤسسة.

10. نقل سيرجي إيفانوف، النائب البرلماني البارز الناطق بالروسية في إستونيا آنذاك، رؤى من أنشطة سي إس إم إتش آي إلى مجتمعه.

11. انتُخب أرنولد روتيل رئيسًا لإستونيا في 21 سبتمبر 2001. نفترض أنه نقل خبراته في أنشطة سي إس إم إتش آي معه إلى مكتبه.

بعد اكتمال عملنا في إستونيا، حاولنا تطبيق النموذج الشجري في جمهورية جورجيا (انظر الفصول 1–3). أصبح من الواضح أن تطبيق المنهجية في مواقع وظروف الأخرى يقتضي إجراء بعض التعديلات. على وجه الخصوص، تعتبر نقطة الدخول – النقطة التي يحصل الفريق المُيسر عبرها أولاً على إمكانية الوصول ويشترك مع أعضاء المجموعات المعارضة – أمرًا بالغ الأهمية وتختلف اختلافًا كبيرًا وفقًا للعوامل السياسية والاجتماعية

وعوامل أخرى. وكمثال على ذلك، لا يُعد مجديًا ولا مرغوبًا في حالات عديدة البدء بجمع صانعي القرار رفيعي المستوى من كلا الجانبين (كما فعل سي إس إم إتش آي في إستونيا).

خلال مرحلة التشخيص، يجب على الميسرين إجراء التقييم واتخاذ القرار بشأن أفضل سياق ينخرطون فيه في التوترات أو النزاعات بين المجموعات. وعليه، في بعض المواقف، قد يكون بدء الحوارات على المستوى المحلي أو على مستوى القاعدة الشعبية نقطة الدخول الأكثر فعالية. على أي حال، بغض النظر عن المكان الذي بدأوا فيه، سيسعى الميسرون في نهاية المطاف إلى إحداث تأثير مضاعف يخلق اتصالات ونقاط لقاء مهمة مع المسؤولين ويؤثر في السياسة والتفكير والسلوك على العديد من المستويات. إذا بدأ الفرد من القمة، فسيحتاج في النهاية إلى نشر الأفكار والأنشطة نزولًا إلى مستوى المجتمع. إذا بدأ المرء على المستوى المحلي، فسيحتاج إلى إيجاد طرائق لإيصال النتائج والأفكار إلى المستويات السياسية العليا. مهما كانت نقطة الدخول، تظل الفلسفة العامة لنموذج الشجرة كما هي.

213. وصفت آنا فرويد مفهوم «التوافق مع المعتدي» لأول مرة. انظر آنا فرويد، *الأنا وآليات الدفاع* (نيويورك: مطبعة الجامعات الدولية، 1936–1946).

214. راجع http://www.allankings.com للحصول على معلومات عن *نا دراغون إغ* لآلان كينغ.

215. تلقت كلوغا جزءًا من أموال البرنامج من منظمة الأمن والتعاون في أوروبا لإقامة أنشطة في مركزها المجتمعي. نظمت منظمة كلوغا غير الحكومية والمقيمون الآخرون

مجموعةً متنوعةً من الأحداث والأنشطة في المركز، والتي لم تكن ممكنة قبل إنشائه. شملت هذه الأنشطة أنشطة الأطفال بعد المدرسة، ودروس اللغة الإستونية (للروس)، ودروس اللغة الإنجليزية المشتركة للإستونيين والروس، ودروس الكمبيوتر للمراهقين وغيرهم، والتجمعات الاجتماعية على مستوى المجتمع واحتفالات الأعياد.

Bayt al-Hikma 2.0